سلسلة الإسلام الذي يجهلون (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

أبناء آدم من الجنّ والشياطين

محمد منير ادلبي

١٩٩٣م

الطبعة الأولى

دمشق - ١٩٩٣

التوزيع في جميع أنحاء العالم:

دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق: ص . ب = ٩٥٠٣ - هاتف = ٣٢٠٢٩٩ - تلكس = ٤١٢٤١٦

كلمة شكر:

الحمد لله وحده.

وأتوجه بالشكر الصادق من القلب، إلى جميع الأصدقاء الذين شاركوا في أي رأي أو نُصح أو عون. وإلى زوجتي الغالية «أم النور» التي في ظل أنسها وسداد رأيها أعانني الله عز وجل على إتمام هذا العمل.

وإلى أولادي الأحبة: محمد نور، علاء الدين وعُلا، الذين كانوا يدعون الله تعالى أن يوفقني ويعينني على إتمام هذا الكتاب، وإلى الطلّة البديعة لوجه طفلي الحبيب «مراد الله» الذي كان يصرّ على إكرامي بالجلوس في حضني والعبث بالآلة الكاتبة أثناء عملي.

منيـر

الإهـــــداء . .

إلى كل ذرة عقل سُفكت باسم الدين . .

أُهدي هذا البيـــان .

المؤلف

المقدمــة :

« أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها»

الفصل الأول

ضحايا الخرافة والخيال

قال ربنا عـز وجـل :

﴿وإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾

لو كنت تتنزه ماشياً في غابة، ولمحت عن بعد دخاناً يتصاعد من مكان ما فيها، حينئذ تعلم أن ثمة ناراً مشتعلة حيث يتصاعد الدخان.

هذه المرحلة من علمك بالنار المشتعلة تسمى: «علم اليقين». ثم إذا تابعت سيرك فوصلت مكان الدخان ورأيت النار بعينيك وشهدت الدخان المتصاعد منها، عندئذ تكون في مرحلة علم بالنار المشتعلة تختلف عن حالة علمك الأولى.

هذه المرحلة الجديدة التي تشهد فيها النار بعينيك تسمى: «عين اليقين».

ثم إذا اقتربتَ من النار واصطليتَ بها، تصير في مرحلة من العلم بالنار تسمى: «حق اليقين»، وتلك هي درجات العلم الثلاث التي بيّنها القرآن الكريم.

والآن..

ما هي حقيقة العلم لديك فيما يسمى بالجن والشياطين؟

هل علمك بهم هو:

علم اليقين..

عين اليقين..

أم «حق اليقين»؟

لو جاءك ابنك أو ابنتك تشكو أنها تخاف الظلام وأن تكون وحدها، وتخشى ظهور الجن والأرواح، فماذا عساك تقول لها؟

ولو قلت إنه لا وجود للجن والشياطين، فقال أولادك لك إنهم يسمعون عنهم من الناس ويتعلمون في المدرسة أن ذِكر هذه المخلوقات قد ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس، وأن الكثير الكثير من مشاهير الكتّابِ والمؤلفين قد كتبوا عن إيمانهم الراسخ بالجن والشياطين وتحضير الأرواح.

هل تجد عندئذ أنك تملك جواباً مقنعاً تنقذ به أولادك من شبح الخوف الجاثم لهم على عتبات الليل بسكونه وغموض حلكته، لو صدف أن وجد أحدهم نفسه وحيداً دون رفيق مؤنس يطرد خوف احتمال حضور الجن في أية لحظة ولأي سبب كان؟

الناس يقولون بوجود الجن وحضورهم، ويروون القصص الغامضة والمثيرة عنهم في البيت والشارع والمدارس وأمكنة العمل، وكذلك في كل مدينة أو قرية: حيث تسمع الحديث عن شيخ ما يكتب الحجب والتمائم للحماية من أذى الجن أو استجلاباً لعونهم.

ويجد المهتم مئات بل وآلافاً من كتب المشاهير من المؤلفين من أصحاب الاختصاصات الأدبية أو العلمية تتحدث بإسهاب عن إيمان أصحابها بالوجود الغيبي للجن والشياطين وإمكانية حضورهم أو تحضيرهم، وقدرتهم على إيذاء الناس أو تقديم العون لهم عن طريق المشايخ «المؤاخين». أو لهوهم وعبثهم وتخويفهم للمنفردين من الناس في البيوت والأماكن المهجورة والبساتين والدروب غير المطروقة.

وتجد حتى المدرسين في المدارس يتحدثون بنفس الإيمان عن هذه المخلوقات المزعومة الغامضة ويؤكدون وجودها وحضورها وينقلون الكثير من الروايات المثيرة عنها، ويدعمون إيمانهم بإمكان حضور وتحضير الجن والشياطين، بما فهموا هم من القرآن الكريم أو الحديث الشريف وما تعلموه من المشايخ الناشرين لقصص الجن والعفاريت.

ولو وجدتَ مِن هؤلاء مَن لا يؤمن إيمانهم، ولا يقول بقولهم ولا يعتقد بوجود مخلوقات شبحية تقفز وتتنطط وتخيف الناس، لألفيتَه عاجزاً عن البرهان على رأيه وغير قادر على تقديم أي دليل مقبول، وخاصة حين يواجهه المُناظِر أو المجادل بحجة أن ذِكر هذه المخلوقات ـ الجن والشياطين ـ قد ورد في القرآن الكريم والكتب المقدسة.

نعم، والحق يقال: إن ذِكر الجن والشياطين قد ورد في القرآن الكريم، قال ربنا عز وجل:

﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

(الذاريات: ٥٦)

وقال تعالى:

﴿إنّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾

(الإسراء: ٥٣)

ولكن السؤال الذي يطرحه العقل المتفكر هو: هل مجرد ورود ذكر الجن والشياطين في القرآن الكريم، يجب أن يعني بالضرورة وبشكل حتمي موافقة كتاب الله على المفهوم الخرافي الشائع بين الناس بأن الجن والشياطين إنما هي مخلوقات شبحية غامضة، تقفز في كل مكان من الأرض والسماء، وتتصرف بقدرات عجيبة خارقة . . فهي تارة تعبث بالناس تخيفهم . . وتسبب لهم «الفالج» . . وتارة تدخل أجسادهم وتسبب لهم الصرع والجنون . . وتارة تسبب العداوة والبغضاء أو تجلب الحب والوفاق لبعض الناس بفعل «حِجاب» كتبه الشيخ الفلاني من خلال قدرته على تسخير الجن . . وهي أحياناً ترصد الكنوز وتؤذي من يقترب منها، أو تدل بواسطة المندل على الكنوز وتجلب الحظ السعيد للباحث عنها. وهي تساعد الشيخ وأعوانه على معرفة الغيب وخفايا الأمور، ولكنها تؤذي من لا يصدق بها وبقدراتها، كما تؤذي من يغسل ثيابه في الليل أو يقص أظافره، أو يهرق ماء ساخناً يصادف مرور جني أو جنية أو ولد لهما . . والويل كل الويل إذا كان هذا الولد ابن أحد ملوك الجان الأزرق أو الأحمر أو غيرهما من الألوان. ويفصّل المروجون لقصص الجن أسباب إيذاء الجن والعفاريت للناس فيقولون:

«إنه قد يكون عن شهوة ومحبة وعشق كما هو الحال بين الآدميين وقد يكون عن بغض وانتقام، إذا ما صدر عن الإنس فعل يؤذيهم: كأن بال عليهم وهو لا يدري أو قتل أحداً منهم عن غير قصد وقد يكون عبثاً منهم . . لذلك فليحذر الإنسان من هذه الأشياء»(1).

الحقيقة غير ذلك . .

فالإسلام، سواء في القرآن أو في بيان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف، يعلّمنا مفهوماً آخر عن حقيقة ما ورد من ذكر للجن والشياطين.

علّمنا الإسلام عن الجن مفهوماً رائع البيان لا يتناقض مع المنطق السليم، ولا يلفظه العقل، ولا يرفضه العلم المختص بالدراسة والبحث والتحقيق في هذه المفاهيم.

ولكن قبل أن نورد البيان الحق، ونكشف السر المخبوء، يفيدنا أن نُعيد إلى الأذهان الصور العجيبة والغريبة عن العقائد والأفهام المأثورة لدى الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية أو الإجتماعية أو غيرها فيما يسمى بحقيقة الوجود الشبحي للجن والشياطين،

(1) ـ راجع «الإنسان بين السحر والعين والجان» لمؤلفه زهير الحموي.

وإمكانية استحضار الأرواح الطاهرة والخبيثة منها كما يزعمون.

يكفّـر المؤمنون بأشباح الجن من لا يؤمن إيمانهم فيقولون:

«فمن نكر وجودهم كافر لإنكاره ما عُلم من الدين بالضرورة»(١)

ولو تتبعتَ وصف الجن في الكتب المروِّجة لها فإنك ستجد نفسك أمام صورة خرافية محضة لا يمكن للعقل السليم المخلص أن يقبلها إلا إذا استطاع أن يصدّق الخرافات والأساطير عن بلاد السحر والعجائب ووحوش جزر الواق واق المروية في قصص ألف ليلة وليلة أو «أليس في بلاد العجائب» وأفلام الكرتون.

المفهوم الخرافي للجن:

فالجن عنـد هؤلاء أجسـام عاقلة خفيفة تغلب عليها النارية أو الهوائية، وهـم ـ كما يقولون ـ مخلوقات سفلية من أخلاط نارية صافية، «وهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ولهم ذرية، ومنهم الـذكور والإناث، وهم غالباً ما يسكنون في مواضع النجاسات والمعاصي كالحمّامات والمزابل، وفي الخرائب حيث يفضّلون الأماكن الخالية من الإنس كالصحارى وقد يسكنون مع الإنسان في سكنه، وأكثر ما يتواجدون في الأماكن غير المأهولة كالبيوت المهجورة والأودية والأماكن المظلمة»(٢).

ويتساءل المرء مستغرباً ترى من أين يأتي هؤلاء بكل هذه المعلومات والبيانات المفصّلة عن هذه الأشباح؟!

ويزيدون في التفصيل فيقولون:

«وللجن قدرات كبيرة ومهارات فائقة، وإبداعات فنية، فهم قد بنوا لسليمان عليه السلام مدينة تدمر الأثرية في بادية الشام، ومشهور على ألسنة الناس في أوروبا أن جسر سان كلود في باريس وأن قنطرة شوكير في سويسرا من عمل الجن أيضاً»(٣).

ويؤكد أصحاب هذه المؤلفات إمكانية تسخير الإنسان للجن واستحضارهم وصرفهم.

ويتحدثون عن طعام الجن فيقولون:

«إن فضلات طعام الإنسان من العظم هي طعامهم، وفضلات دواب الإنسان من الروث علف لدوابهم»(٤).

---

(١) ـ راجع «الإنسان بين السحر والعين والجان» طبعة ١٩٩٠ ص ١٢٠ زهير الحموي.

(٢) ـ نفس المرجع ص ١٢٠. (٣) ـ نفس المرجع ص ١٢١. (٤) ـ الإنسان بين السحر والعين والجان ص ١٢١.

ويروي صاحب كتاب «الإيمان بالملائكة» أن الروث والعظام هي أيضاً من طعام الجن، ص٢٥٧ كما يورد صاحب كتاب: «الإنسان بين السحر والعين والجان» فهمه لحديث عن رسول الله ويعلّق عليه كما فهمه هو فيقول:

«ولما خرج رسول الله ﷺ لقضاء حاجته أمر أبا هريرة أن يأتيه بأحجار يستجمر بها، وقال له: لا تأتني بعظم ولا روث» ويعلّق صاحب الكتاب فيقول: «وبيّن أن سبب ذلك أنهما من طعام الجن... لذلك نهانا أن نستجمر بالعظم حتى لا نحرِم الجن من أكله».

أي أن الجن على عظَمة شأنهم وطول صرح عماراتهم وخارق قدراتهم ـ كما يؤمنون هم لايعيشون فقط في أماكن النجاسات كالمراحيض والحمامات ـ كما يقولون ـ وحسب ولكنّ قدَرَهم المقدّر أيضاً أن يكون غذاؤهم من فضلات طعام الإنسان والحيوان كالروث والعظام.

يقولون هذا بالرغم من اعتقادهم هم أن:

«الجن والشياطين عالَم قائم بحد ذاته منهم المؤمنين، ومنهم دون ذلك، وهم على أديان مختلفة.. وأنهم كالإنس يملكون حرية التصرف والإرادة»(١).

ويطلع علينا المروّجون لقصص الجن وأخبارهم بنكات يأخذونها هم مأخذ الجد الرصين. جاء في كتاب أحدهم:

«وإذا كان الإنسان القديم يخوّف صغاره بالجن والعفاريت فلا أستبعد أن يخوف الجن في الوقت نفسه أولادهم بالإنسان وبأسه وبطشه، خصوصاً وأن وسائل الدمار والمكر والبطش التي توصّل إليها الإنسان، قادرة على إبادة الأرض ومن عليها لا سمح الله»(٢).

ويروي صاحب كتاب «الإيمان بالملائكة» نكتة أخرى عما أسماه: تأديب العاصي من الجن، فيقول بأن تفسير قول الله تعالى:

﴿ومن يُزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾

(سبأ: ١٢)

يعني: «أي يسلط عليه ـ على الجني ـ المَلَكُ سوط نار، فيضربه الملك إذا استعصى الجني عن طاعة سليمان عليه السلام».

---

(١) ـ «الجن والشياطين بين العلم والدين» رياض العبد الله.

(٢) ـ نفس المرجع ص ١٥.

ويدهشنا بالمزيد من خوارق الجن فيقول إن جن الملك سليمان:

«كانوا يصنعون له الجفان الكبرى التي هي كالحياض الكبرى وكلها مملوءة بالطعام، وأنه كان يقعد حول الجفنة الواحدة من تلك الجفان ألف رجل يأكلون من الطعام»[1].

ولكن صاحب الكتاب لم يذكر لنا على نار أي بركان كانوا يطبخون طعام الصحن الواحد من هذه الصحون العملاقة، كما لم يذكر لنا شيئاً عن عمليات الإنقاذ بالقوارب الصحنية لمن يسقط من الآكلين في مرق الطعام الموضوع في الصحن المعدّ لألف رجل، أو لربما كان يغرق في الحساء الكثير من الآكلين دون أن يتمكن أحد من إنقاذهم.

وأورد الأستاذ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب «قصص الأنبياء» في الصفحة ٣١٨ عن المفسرين يحكون عن بساط الريح الذي كان يطير به الملك سليمان على حد زعمهم، فيقولون:

«إن سليمان كان له نحو البساط من الخشب له ألف ركن، في كل ركن ألف بيت يكون فيها جند سليمان من كل صنف، وتحت كل ركن ألف جني يحملون ذلك الشيء الخشبي حتى يرتفع في الجو، وحينئذ تسير به الريح، وكان يخرج من القدس فيقيل في اصطخر، ثم يبيت في خراسان».

ويورد الأستاذ عبد الوهاب النجار تحليلاً متفكراً لهذه الخرافة فيقول:

«لو أن القائلين ببساط سليمان ـ الذي تحمله الريح ـ اقتصروا على عشرة أذرع في مثلها، أو عشرين ذراعاً في مثلها، أو مائة ذراع في مثلها، لكان الأمر معقولاً مقبولاً. أما وهم يقولون: إن فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت، فإنهم يجعلون له من السعة وترامي الأطراف مالا يقبله تصور. بل لم يكن في ملك سليمان كله ما يكفي لشغله من الجند ـ إذ جعلوا فيه مليوناً من البيوت للجند ـ فإذا كان في البيت الواحد جنديان فقط، كان فيه مليونان من الجند. ولا يصح أن يكون قد خلّف من الجند أقل منهم لحماية البلاد. فتلك أربعة ملايين. فإذا كانوا عشر السكان وجب أن يكون السكان أربعين مليوناً، وهو عدد لا يمكن أن تسكن فلسطين ولبنان وسوريا بنصفه أو ربعه».

ويتابع الأستاذ النجار حساباته لخرافة بساط الريح فيقول:

«ويكون البساط ـ على ما وُصف ـ في مساحة أكبر من مائة كيلو متر مربع، ومحال أن تجد في فلسطين مكاناً مستوياً يستقر عليه هذا البساط، فضلاً عن البلاد التي ينتقل إليها على غير استعداد. وهذه مدينة المقدس ليس فيها مكان مقداره عشرة أمتار في خمسين يوجد مستوياً أصلاً. فأين كان سليمان يبسط بساطه؟!» ص٣٢١.

---

(١) ـ راجع الكتاب المذكور ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ لمؤلفه عبد الله سراج الدين.

ويؤكد المروّجون للخرافة والخيال على حتمية الاعتقاد بالجن كمخلوقات غيبية شبحية خارقة، فيقولون:

«فلذلك وجب الاعتقاد الجازم بوجود الجن وأنهم عالم حقيقي ليس وهماً تخيلياً ولا ضرباً من النفوس البشرية ولا من القوى البشرية الخبيثة، ولا نوع من الجراثيم المكروبية الضارة، فإن جميع هذه الأفهام والأوهام حول عالم الجن هي تحريف لكلام الله تعالى عن معانيه المرادة، وصرف له عن الوجه المخبر عنه إلى وجه آخر هو في معزل عنه، وإنما الجن عالم خفي حقيقي الوجود، له شأنه وأحكامه. وقد صُنِّفت الكتب في تفصيل ذلك»(١).

وماذا صنّف المصنّفون في كتبهم عن الجن! قالوا:

الجان: أبو الجن، والجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتب:

إذا ذكروا الجن خالصاً، قالوا: جني.

وإذا أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا: عامر.

فإذا كان ممن يعرض للصبيان، قالوا: أرواح.

فإن خبث وتعرّض، فهو: شيطان.

فإن زاد على ذلك وقوي أمره، قالوا: عفريت(٢).

وقالوا بأن العلماء يرون الخلق الراقي أربعة أنواع هي: الملائكة والإنس والجن والشياطين.

والجن عندهم نوعان: شياطين لا خير فيهم البتة. وجن منهم الصالح ومنهم الفاسد، وأن أصل الشياطين من الجن، وعليه فإن الشياطين يدخلون في الجن(٣)، ولذلك فإن جمهور العلماء اتفقوا على أن الجن والشياطين جنس واحد، وأُطلق اسم الشيطان على المتمرد من الجن(٤).

ونقلوا عن ابن سينا قوله إن الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة(٥).

---

(١) ـ «الإيمان بالملائكة» عبد الله سراج الدين.

(٢) ـ نقله صاحب كتاب «الإنسان بين السحر والعين والجان» عن أبي عمر (ابن عبد البر) طبعة الأولى ١٩٩٠ ص ١١٧.

(٣) ـ أي حين تقول شيطان فإنك تعني الجن أيضاً ـ المصدر نفسه.

(٤) ـ المصدر السابق. (٥) ـ محيط المحيط مادة جنن.

وتحدث المروّجون لأشباح الجن عن أوصاف الجن وأجسامهم كما زعموا فقالوا:

ويرى بعض العلماء أن الجن أجسام هوائية لطيفة تتشكل بأشكال مختلفة، والشياطين أجسام نارية من شأنها إضلال الناس وغوايتهم(١).

ويصف الدكتور السيد الجميلي في كتابه «السحر وتحضير الأرواح بين البدع والحقائق» ـ طبعة دمشق ١٩٩١ ـ الجنَّ بأنها مخلوقات من لهيب من نار السموم، ويقول بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل لها قدرة على التشكل، وقال إنها تحيا حياة أثيرية (غازية) وأن: «طعامهم وشرابهم وملبسهم من الغازات التي تتناسب مع طبيعتهم».

ويتابع الدكتور الجميلي فيقول:

«وقد احتجبوا ـ الجن ـ عن أبصارنا كما احتجب الملائكة ولمّا كانت ذراتهم ممتزجة بالهواء كان الهواء مسخراً لهم فإذا أرادوا الظهور كوّنوا من الهواء ومن الأشعة الكونية صوراً كثيفة تُمكّن البشر من رؤيتهم. . . وربما يكون للجني القدرة على التحكم في ذبذبات تكوينه الجسمي فيجعلها بطيئة بحيث تُرى في الشكل الذي يريده، ولله في خلقه شؤون».

ويتابع الدكتور علمه المفصل عن الجن والعفاريت فيقول:

«وهي تختلف عن الملائكة ففيها الذكورة والأنوثة، وتختلف أيضاً عن البشر في التكوين، ولكنها تتساوى معهم في أشياء كثيرة فهي تأكل وتشرب(٢) وتنام وتتزوج وتموت. . والجن يتناسل كبني ادم. ومنهم الصالحون والطالحون والعلماء والدهماء كالإنسان سواء بسواء»(٣).

ويبين الدكتور طريقة تزاوج الجن ـ ولا أدري من أين حصل على هذه المعلومات (العلمية) العجيبة حيث أنه لم يذكر مصدراً أو مرجعاً، فيقول:

«وللجن الذكور والإناث اتصال جنسي كتداخل الدخان بعضه في بعض، فيلتذّ كل من الذكر والأنثى بهذا التداخل، ويحصل اللقاح أشبه بلقاح النخل بمجرد الرائحة»(٣).

ثم يتابع الدكتور عرض البيان العلمي بعلم الاجتماع المختصّ بالجن والعفاريت

---

(١) ـ المصدر السابق.

(٢) ـ سبق قوله بأن أكل الجن وشربهم يكون من الغازات ـ المؤلف.

(٣) ـ راجع الكتاب المذكور ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٤) ـ «السحر وتحضير الأرواح بين البدع والحقائق» د. السيد الجميلي ص ١٠٥.

فيقول:

«وهم قبائل يروننا من حيث لا نراهم، وذلك لسرعة ذبذبات تكوينهم، كالهواء والريح والغازات والعوالم المائية التي لا نراها وهي كائنة بيننا»(١).

ونلاحظ هنا أن هؤلاء (العلماء) يقولون لنا مرة إن الجن يأكلون الروث والعظام، ومرة يقولون إن طعامهم وشرابهم الغازات، ومرة يقولون إنهم يأكلون كما يأكل البشر، وهكذا يجد المرء نفسه تحت رحمة علومهم ومعارفهم القافزة المتنططة بكل ثقة وثبات من غير سلطان أتاهم أو برهان يقدمونه!

وينقل الدكتور الجميلي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله:

«من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون الزاعم نبياً».

ثم يعلّق على هذا القول بأن الشافعي رحمه الله لم يكن يقصد عدم إمكانية رؤية الجن، فيقول:

«ولعل قصد الشافعي رضي الله عنه: الذين يرون الجن في صورتهم الغازية. فإن كانوا كذلك فلم تكن هذه الرؤية حقيقة وإنما هلوسات سمعية وبصرية وخداع الحواس».

ويتابع الدكتور فيصنّف الجن فيقول إنها في رأي العلماء ثلاثة أصناف:

«١ ـ صنف حيّات وعقارب وخشاش(٢) الأرض، والجراثيم وما إليها. وهذا الصنف من الجن ضارّ، وعلى الإنسان قتلها إذا وجدها.

٢ ـ صنف كالريح في الهواء.

٣ ـ صنف كبني آدم تماماً مكلّفون يخاطبون بالشرع، مسؤولون يوم القيامة.

وللجن ممالك وأنظمة وقوانين...»(٣)

ويلاحظ المرء أن هؤلاء يختلفون في موضوع قتل الحيّات الجنية، حيث يخالِف صاحب كتاب «الإنسان بين العين والسحر والجان» الدكتورَ الجميلي في تنفيذ قتل الحية مباشرة لأن قتلها مباشرة يمكن أن يؤذي قاتلها أو قد ينتقم منه أهلها من الجن، فتجده يقول في معرض شرحه لحديث على ما يفهمه هو:

---

(١) ـ المصدر السابق ص ١٠٥.

(٢) ـ وردت في المصدر «خشخاش» وهو خطأ.

(٣) ـ «السحر وتحضير الأرواح» ص ١٠٦ د. الجميلي.

«ومعنى ذلك أن الإنسان إذا رأى في بيته حية فلا يستعجل في قتلها، وعليه أن يؤذنها - أي يمهلها - ثلاثة أيام فيقول لها: أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكم[1] سليمان بن داوود، ولا تظهروا لنا، وإلا قتلتك - فإن عادت بعد ثلاثة أيام قتلها»[2]

نجد هنا أن صاحب كتاب «الإنسان بين السحر والعين والجان» يعلّم الناس عدم التهور بقتل الحيّات السامة التي قد يجدونها في بيوتهم، إذ لربما تكون من الجن، فعليهم أن يكلّموها ويذكّروها بالعهد الذي أخذه عليها الملك سليمان ألا تؤذيهم.ويحضُر العاقلَ هنا سؤال:

وماذا يحدث إذا صدف وكانت هذه الحيّات أفاعي حقيقية سمّها زُعاف ولدغتها تبعث بمن يعترضها إلى القبر حالاً؟! كيف يمكننا أن نتخيل مصير من يقف أمام هذه الأفعى ليحادثها بثقافة ولباقة وتهذيب وهي تتلوى أمامه متحيّنة فرصةَ غرس أنيابها في رقبته، وهو يتحلّفها قائلاً: «أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان بن داوود لا تؤذوننا . . .».

إلى آخر العهد العجيب. ثم ماذا إذا صدف أن كانت هذه الحيّة لا تتحدث لغات أجنبية كلغة البشر مثلاً؟!

لا شك حينئذ أن هذا العالِم العارف بعهود الأفاعي من الجن أو الجن من الأفاعي سيتورّم محقوناً بالسم القاتل حتى قبل أن يكمل مناشدته للحية (الجنية)!

ونتساءل هنا أيضاً: ترى ماذا عساه يكون مصير بقية أفراد أهل البيت الذي تُعطى فيه أفعى سامة مهلة ثلاثة أيام لتقتُل هي من تشاء قبل أن تُقتل؟

يا سبحان الله. . حقاً، ومن العلم ما قتل!

ولا شك أن هذا التخريف يتعارض تماماً ويتناقض مع الحديث المشهور عن سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمر فيه بقتل الحية والفُويسقة - أي الفأرة - والعقرب. ويتابع صاحب كتاب «السحر وتحضير الأرواح» عن مخالطة الجن للبشر وتقديم خدماتهم التي أسماها «جليلة» فيقول:

---

(١) - الخطأ في اللغة من المصدر.

(٢) - ص ١٤٩ من المرجع المذكور.

«وكثير من الجن خالطوا البشر وعاشروهم في كل زمان ومكان[1]وكثيراً ما قاموا لإخوانهم الإنس بخدمات جليلة» ص١٠٣ .

ثم يعلّق في ملاحظة هامشية فيقول :

«ليس في ذلك من غرابة ، فبعض الإنس يستأنس الوحوش الفتاكة والحشرات الضارة ، والجن خلق بيننا يمكن لبعض الناس الاستئناس بهم ومعاشرتهم» ص١٠٣ .

ويتابع :

«والأديان كلها ، كما هي منتشرة بين الإنس ، فهي منتشرة بين الجن» .

ولا شك في أن هذا يعني أن الجني يمكن أن يكون مسلماً من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أو مسيحياً من أتباع عيسى عليه السلام ، أو بوذياً ، أو مجوسياً أو . . . أو.

ولكن المشهور في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن كل نبي كان يرسل إلى بني قومه خاصة ، ولم يُرسل إلى العالمين إلا محمد صلى الله عليه وسلم[2] فكيف إذن يمكن للجن أن يؤمنوا برسالات لم تعنيهم وبرسل لم يرسلوا إليهم؟! وسنورد بعون الله تعالى شرحاً لهذا الإشكال في الفصول القادمة .

ثم يتابع الدكتور متحدثاً بلسان العارفين عن الجن فيقول :

«وربما أن الجني يأخذ حكم من يرافقه أو يعايشه أو يساكنه أو يدين بدينه . ويقال أن الجن هي التي بنت بيت المقدس لسليمان عليه السلام . ويقال أنها في بلاد أوروبا آخت بعض نفر من أمراء المقاطعات ، فأقامت لهم الأسوار حول ممتلكاتهم وحفروا القنوات وعبّدوا الطرق . . . ويوجد في انكلترا أسوار سميكة حول الخرائب والقصور المتهدمة يطلق عليها حيطان وأسوار الجن»[3] .

ولكن المؤلف يعود فيقول إن هذه المزاعم والظنون لايعتقد هو شخصياً بها . ويشرح صاحب الكتاب المذكور طريقة استحضار الجن فيقول :

«والذين يستحضرون الجن بأنواع العزائم إذا قرئت على الجن خاف خوفاً شديداً فيذهب على المعزّم وفي قلبه كراهية له وفي نفسه تربّص لأضراره ، فهو يتحيّن الفرص لذلك»[4] .

---

(١) ـ لاحظ قوله عن مخالطة الجن للإنس في كل زمان وكل مكان واسأل نفسك أو غيرك إن كان قد رآهم مرة واحدة في أي زمان أو أي مكان .

(٢) ـ سيرد نص الحديث في حينه .

(٣) ـ راجع المصدر المذكور ص ١٠٤ .

(٤) ـ المرجع السابق ص ١٠٦ .

وتحت عنوان: «علاقة الإنسان بالجن» ورداً على السؤال: هل يمكن الاتصال بالجن وكيف، وهل نصدق أخبار الجن؟

يجيب صاحب كتاب «الإنسان بين السحر والعين والجان» فيقول:

«نعم، الاتصال بالجن أمر ممكن عقلاً وشرعاً، وثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ولكنه اتصال ليس خاضعاً للمقاييس والاعتبارات العادية عند البشر، لأنه اتصال من نوع آخر فقد تأتي الشياطين في صورة إنسان، وقد تتلبّس جسم إنسان، وتتكلم بصوته وذلك في حالة الصرع[1]، وقد يُسمع صوتها ولا تُرى، وكما أسلفنا في بحث السحر، فإن هناك عزائم تتلى لاستحضار الجن»[2].

وتمهيداً للحديث عن إمكانية اتصال الإنس بالجن وتلبّس الجن لأجسام الإنس من خلال الصرع والاستحضار كما يزعمون، وكي يروي لنا حكايات عنها يزعم أنها من الواقع، يقول صاحب المصدر السابق ناقلاً عن مروجي قصص الجن مايلي:

«كما يمكن الاتصال بالجن ومحادثتهم من خلال تلبّسهم للإنسان المصروع، وهو أمر معروف ومشاهَد، وقد ذكر الشيخ محمد الحامد رحمه الله أنه قد وقف أهل الحق موقف التسليم للنصوص المخبرة بدخول الجن أجسام الإنس، وقد بلغت من الكثرة مبلغاً لا يصح الانصراف عنه، إلى إنكار المنكرين وهذيانهم، فإن الوحي الصادق قد أنبأنا هذا، ووقائع سلوك الجن في أجساد الإنس كثيرة مشاهدة[3] لا تكاد تحصى لكثرتها، فمنكر ذلك مصطدم بالواقع المشاهد ببطلان قوله»[4].

وبعد هذا التمهيد يطلع علينا صاحب الكتاب المذكور تحت عنوان: «من الواقع» بحكايات مرويّة عن مروّجيها يسميها هو واقعاً مصدقاً عن دخول الجن الأجساد، فيقول:

«وهذه قصة واقعية من الوقائع الكثيرة التي تتحدث عن دخول الجني في الإنسان وتلبّسهم له، وتحدثهم بلسانه والقصص في هذا المجال كثيرة جداً، وأكثر من أن يأتي عليها الحصر!!، وقد يكون لكل منا مشاهدات في هذا المجال، لكني أوردت هذه الواقعة لأن الذي يرويها (أستاذ في جامعة الأزهر) وهو الدكتور علام محمدين (المدرس بكلية الدراسات الإسلامية) حيث يروي الدكتور علام واقعة شاهدها بعينه، كانت سبباً في دخوله عالم الجن. فقد ذهب وصديقه أستاذ الشريعة إلى شاب في العشرين من عمره، بناء على طلب والده (لواء في الجيش).

---

(١) ـ ثبت أن للصرع منشأ جسدياً مادياً يمكن معالجته في بعض الحالات بالجراحة، وهذا مشهور الآن حيث تجري جراحات في الرأس لمعالجة مواضع تمت إصابتها بشكل ما وقد نجحت العديد من هذه العمليات الجراحية.

(٢) ـ ص ١٠٦

(٣) ـ أين البرهان على هذا الزعم بكثرة مشاهدات دخول الجن أجساد الإنس؟

(٤) ـ ص ١٣٨

كان الشاب يعاني نوبات صرع عاتية. وجلس إليه الصديق أستاذ الشريعة. وقرأ على الشاب بعض الآيات القرآنية. ظهر الجن بعد أن غاب الشاب عن الوعي، وتقمص جسده وبدأ الجن يتحدث بصوته من خلال جسد الشاب الغائب عن الوعي! ...»

ويتابع قصته (الواقعية) فيقول:

«دار حوار بين الجني وأستاذ الشريعة واتضح أنه جني مسيحي ولا يؤمن بالقرآن، ولكنه يتحدث العربية[1]. عرض عليه أستاذ الشريعة الدخول في الإسلام[2]، رفض فزجره وأمره بالانصراف وإلا سيضطر إلى حرقه. خاف الجن وانصرف. بعدها لم تعاود نوبات الصرع هذا الشاب أبداً، كما يقول الدكتور علام الذي سعى بعدها لتعلم هذه المهارة لخدمة المسلمين وابتغاء مرضاة الله، وكان همه في البداية معرفة صحة ما شاهد، وهل هو حلال أم حرام، ويؤكد أنه اكتشف بالبراهين الدينية والقرآنية أن الاتصال بعالم الجن لا ذنب فيه[3] طالما كان يقوم على القرآن والسنة، ويستخدم لأهداف نبيلة»[4].

ويتابع صاحب ذات الكتاب فيقول:

ويحكي الدكتور علام محمدين من تجاربه الشخصية في عالم الجن تجارب مثيرة:

ذهبت يوماً مع صديق لي مستشار ورئيس محكمة قضائية[5] إلى منزل إحدى قريباته شابة متعلمة انتابتها نوبات صرع لم ينجح الأطباء في وقفها. كانت الفتاة مخطوبة وتعاني المشكلات مع خطيبها.

بدأتُ الجلسة معها باسترخائها على مقعد، ثم شرعتُ في قراءة آيات قرآنية وأستعيذ بالله حتى أحصّن نفسي. ثم بدأتُ في تلاوة الفاتحة قرب أذن الفتاة اليمنى[6] ثم قراءة آية الكرسي ثلاث مرات، وبعدها شعرتُ بتعب الفتاة، ولكنها لم تتكلم. ظللتُ حائراً، تشككتُ أن يكون الجن أبكم[7] بحثتُ في مراجع دينية فلم أصل إلى شيء[8]. عاودت الجلسة مرة أخرى[9] وقمت بنفس الخطوات السابقة حتى جاءني صوت

---

(١) - لاحظ هذه التركيبة.

(٢) - نعلم أن شرح الإسلام أمر يحتاج إلى بيان علم وأركان وبراهين ومنطق يطول شرحه، فكيف يمكن تصور قبول الإسلام بمجرد العرض؟

(٣) - أين هذه البراهين؟

(٤) - ص ١٣٩ من كتاب «الإنسان بين السحر والعين والجان».

(٥) - لاحظ الإختصاصات العلمية العليا.

(٦) - تصور الشيخ، مستحضر الجن وطارد الأرواح وهو ينحني هامساً في أذن الفتاة «المسكونة» بعزائمه ونفثه، بينما الفتاة المريضة المسكينة لاتعي ماذا يحدث لها.. وهذا طبعاً وضْعٌ لابد منه لطرد الجني من جسد الفتاة!!.

(٧) - أو لايتحدث لغات!

(٨) - وهذا يعني أن الشيخ سيطرد الجني بعلم خاص من عنده وذلك بسبب خواء علوم الطب والدين من القدرة على تحريك ساكن في هذا المجال!.

(٩) - تتكرر عادة جلسات طرد الجن من أجساد الفتيات وتطول وذلك بحسب جمال الفتاة «الممسوسة» وكرم أهلها في =

الجنية التي كانت داخل جسد الفتاة. كانت الجنية خائفة تتحدث العربية بأخطاء بسيطة كنت أصححها لها. عرفتُ أنها مجوسية(١) وأن والدها ملك (الجان)، وأن أخاها مارد عنيد(٢) أما سبب تقمصها جسد الفتاة فيعود إلى أن أخاها المارد يرغب في الزواج من هذه الفتاة، ولذلك طلب منها إبعاد الفتاة عن خطيبها الإنسي»*(٣)

وتحت عنوان: «هل يجوز زواج الجن من الإنس» يروي المروّجون للخرافة الأعاجيب فيقولون أن الزواج من الجن أمر وارد ولا بأس به من الناحية الشرعية، وقالوا بأنه قد يتناكح الإنس والجن ويولد لهما، وأن هذا أمر كثير الحدوث ومشهور وشائع ـ على حد زعمهم ـ وينقلون أقوالاً مثلاً: «قال الشبلي أن نكاح الإنسي من الجنية وعكسه ممكن» وقال الثعالبي: «أن التناكح والتلاقح قد يقعان بين الإنس والجن». ويوردون عن الحسن البصري بأنه حين سئل عن التزوج بجنية، قال: «يجوز بشهود رجلين»(٤). ويروي صاحب المصدر السابق الرواية التالية، قال إنها عن الدارمي عن الأعمش، قال:

«حدثني شيخ من بجيل، قال: علق ـ أي عشق ـ رجل من الجن جارية لنا، ثم خطبها إلينا وقال: إني أكره أن أنال منها محرّماً، فزوجناها منه، قال: فظهر معنا يحدثنا، فقلنا: ما أنتم؟ فقال أمم أمثالكم وفينا قبائل كقبائلكم»(٥)

وينقل صاحب المرجع المذكور رأياً فقهياً يتعلق بكراهة زواج الإنسية من الجني فأورد في كتابه عن «الفتاوى» مايلي:

---

* الضيافة والإستجابة لمطالب الشيخ والأسياد من الجن. روى لي صديق أن شيخاً في إحدى القرى، بعد أن ضرب امرأة بالقضيب على جسدها لطرد الجني الساكن فيها ـ أعلن لأهل هذه المرأة أنه مضطر للبقاء في بيتهم قربها مدة أربعين يوماً وذلك لأن الجني قد كُسرت رجله داخل جسد المرأة أثناء ضرب الشيخ له، وكان لابد من الإنتظار طوال الفترة التي حددها الشيخ حتى يتم جبْر كسْر الجني فيستطيع الخروج من جسد المرأة الجميلة المسكونة ـ أو المسكينة... ضريبة الجهل.

(١) ـ تصور جنية مجوسية وتتحدث العربية بأخطاء ـ براعة وإتقان في الإفك!.

(٢) ـ نسلّم أن أخا الجنية كان مارداً، ولكن كيف عرف الشيخ أنه كان عنيداً؟

(*) ـ ولماذا لايصرع هذا المارد الولهان خطيب الفتاة بدلاً منها وبذلك تخلو له هي وحده؟!.

(٣) ـ الإنسان بين السحر والعين والجان ص ١٤٠.

(٤) ـ المرجع السابق ص ١٤٣.

(٥) ـ ص ١٤٣.

«إن قوماً كتبوا لمالك، قالوا: إن هاهنا رجل من الجن يخطب إلينا جارية، يزعم أنه يريد الحلال، فقال: ما أرى بذلك بأساً في الدين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل لها: من زوجك؟ قالت من الجن، فيكثر الفساد في الإسلام»(١).

ويعرض للمصدق بهذه المزاعم الكثير من الأسئلة:

ترى ما مصير ابن الجنية أو الجني من الإنسية أو الإنسي؟

هل يأتي الولد هجيناً نصفه جني ونصفه الآخر إنسي، يعني هل يخاف نصفه من النصف الآخر؟!

وهل يرث الولد من جهة أمه أم من جهة أبيه؟

وهل يتزوج من قوم أمه أم من قوم أبيه؟

وهل يمكن للناس أن يروه كالإنس أم أنه يكون خفياً كالجن وهل عندما ترضعه أمه أو تحادثه يظنها الناس مجنونة؟!

وهل.. وهل..؟ رحم الله العقل والتعقل!

ويخاطب صاحب كتاب «الجن والشياطين بين العلم والدين» الذين ينكرون الوجود الشبحي للجن والشياطين فيقول:

«وأخاطب الآن الذين أنكروا وجود الجن الشياطين من الأصل فأقول: هل عرفتم وأدركتم كل ما في الكون الرحب من خلائق ولم تجدوا الجن والشياطين بينهم، وعلى هذا الأساس أتى إنكاركم المتعسف؟»(٢).

ثم يعود فيتواضع صاحب الكتاب المذكور، للعلم فيقول:

«إذا كان العلم قد بين أن الجن والشياطين هراء... فإن إنكاركم مقبول... وعلى كل حال فإن ما نعرفه سوية هو أن العلم لم يحدد إنكار وجود الجن والشياطين، بل على العكس فقد أكد وجود مخلوقات راقية وغير مرئية وتحمل درجات عالية من الذكاء، بل ولها قدرات خارقة غير مألوفة للبشر»(٣).

ونتساءل هنا... هل هذه المخلوقات الراقية عالية الذكاء وخارقة القدرات وذات القوى غير المألوفة للبشر هي ذاتها التي يقولون عنها إنها تسكن الخرائب وأماكن النجاسات وتعيش

---

(١) - ص ١٤٣ ويعلم المطلعون والمهتمون أنه قد حصل مثل هذه الأحداث التي تنبأ بها الإمام مالك رحمه الله.

(٢) - ص ١٦.

(٣) - ذات المرجع ص ١٧.

وتتغذى على فضلات طعام الإنسان من العظام وعلى فضلات دوابه من الروث؟!.

ثم يتابع فيقول:

«وعلى هذا فإن أصحاب الإنكار قد أتى إنكارهم على وجه واحد فقط، هو حب المجادلة لا أكثر».

ثم يشدد المؤلف هجومه على من ينكر القول بوجود الجن والشياطين ـ على وصفهم المذكور ـ فيقول:

إن من يعارض وجود الجن والشياطين يكون كالمحرف لكتاب الله عن قصد وكالقائل (لاتقربوا الصلاة) دون أن يتم الآية فيقول (وأنتم سكارى)» ويتابع شارحاً:

«قد يكون ذلك جهلاً منه، وقد يكون لغاية في نفس يعقوب أو مثله مثل الذي يتذرع بالعلم والتكنولوجيا الحديثة فيعتبرهم الآلهة له يعبدها ويثق بها، علماً بأنه يدرك أن العلم هو ابن الإنسان.»(1).

ويجد هنا في اعتقاد هؤلاء السادة من الذائدين عن الإعتقاد بالوجود الشبحي للجن والشياطين، أن من يتفكر ليفهم أو يجرؤ على التفكر يكون كمن يعبد العلم و «التكنولوجيا» ويجعلها بمثابة الآلهة يعبدها. ولربما يقول قائل إن الحديث عن الجن والشياطين لم يعد في زمننا هذا، يستأثر اهتمام الناس، كما لم يعد له أثر يذكر عليهم فهل الحقيقة كذلك؟

يعبّر الدكتور أحمد أمين في كتابه «قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية» عن دهشته من كثرة عدد الكتب التي تكتب عن موضوع الجن وكيفية تسخيرها لتحقيق الرغبات والوصول إلى الأغراض المستعصية فيقول:

«ويستغرب الزائر لدار الكتب من كثرة الكتب التي تحتويها في هذا الموضوع، وكثرة استعارة هذه النوع للمطالعة».

ومعلوم أن الخرافة المتعلقة بمفهوم الأشباح والمخلوقات الخفية قد تداخلت من خلال الأسطورة وغيرها مع الأديان لدى مختلف الشعوب منذ القدم. ولقد لاحظ المستفيدون من نشر الوهم والخرافة بين الناس أن ربط الخرافة بالدين بشكل أو بآخر يُكسب هذه الخرافة مع الزمن قوة متميزة ويدفع الجماهير الجاهلة إلى قبولها وتصديقها، مما يتيح لمحترفي الشعوذة في المجتمع فرصة أكبر لاكتساب مكانة أكبر على الصعيدين الإقتصادي والإجتماعي،

---

(1) ـ الجن والشياطين بين العلم والدين ص ٢٩.

وأحياناً السياسي كما تجلى ذلك في المكانة التي وصل إليها «راسوتين» في روسيا القيصرية[1].

ونجد في كتاب أبي مصور الثعالبي أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بوجود ما يسمى بالجن والشياطين وكانوا يقولون بذكورة وأنوثة الشياطين ويزعمون أن الجن تفعل الكثير مما يفعله الناس. فمثلاً نسبوا إليها أنها بنت «تدمر». ويزعم القطامي أنها تغني. ويزعمون أيضاً أن للجن علاقة بالإنس، فقد «يعشق الجني امرأة، وقد تعشق جنية رجلاً»[2] وذكر أبو منصور الثعالبي في كتابه «فقه اللغة وسر العربية» أن الجن والإنس قد يتزاوجون وينجبون[3].

ولكن اعتقاد الجاهلين بالجن لم يكن جزءاً من عقيدتهم الدينية بشكل محدد، كما لم يكن معقداً ومفصلاً كما هو الحال في زمننا الراهن، بل كان أكثر اعتقادهم بالجن أنهم على شكل شياطين توحي إلى الشاعر بشعره. فلقد زعم العرب الجاهليون أن لكل شاعر شيطاناً. يقول شاعرهم أبو النجم العجلي:

«إني وكـل شاعـر من الـبشر شيطانـه أنـثـى وشـيطاني ذكـر»

ونجد في التاريخ أن خرافة الجني والمارد الذي يخدم سيده ويحقق له أحلامه الاقتصادية والإجتماعية، قد ظهرت ابتداء من القرن الرابع وحتى نهاية العصر العثماني. نجد ذلك واضحاً في عدد من قصص «ألف ليلة وليلة»، حيث نقرأ عن المارد المحبوس في قمقم منذ آلاف السنين والذي يصبح خادماً لصاحب الحظ السعيد فيحقق له رغباته وينقله إلى قصور خيالية حجارها من الذهب والفضة.. الخ[4].

وكذلك نجد في سِيَر «سيف بن ذي يزن» و «حمزة البهلوان» و «الملك الظاهر» وغيرها، حيث يظهر في هذه الفترة ميل العامة إلى نسج القصص والأساطير عن إمكانيات تسخير الجن لخدمة الإنسان. إلا أن التاريخ الإسلامي قد ذكر أيضاً عدداً من المفكرين الإسلاميين الذين امتازوا بنزعة عقلانية، بحيث لم يكونوا على استعداد لتصديق كثير من الخرافات

(١) ـ راجع «دراسات في العقلية العربية ج ٢ الخرافة د. ابراهيم بدرخان و د. سلوى خماش.

(٢) ـ أحمد أمين «قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية» ص ١٤١.

(٣) ـ مطبعة الإستقامة القاهرة ص ١١٧.

(٤) ـ دراسات في العقلية العربية ـ الخرافة.

الرائجة في عصرهم، وكان المعتزلة على رأس هؤلاء. وقد أدت بهم نزعتهم العقلانية إلى تأويل الآيات القرآنية التي فيها إشارة إلى الجن والسحر أو مايشبهها. ولعل الإمام الزمخشري كان من أبرز المفسرين الذين رفضوا الإعتراف بوجود هذه الخرافات وأوّلوا الآيات الدالة عليها تأويلات تحمل معنى الرمز أو المجاز أو ما شابه ذلك[1].

ومع أن مثل هذه التفسيرات كانت تخلف ما تعارف عليه المفسرون من أن المقصود بها كان فعلاً «الجن» بمفهومه الغيبي السائد، إلا أن أهمية هذه التأويلات والتفاسير جاءت مؤكدة للموقف العقلاني الذي تمسك به أصحابها كالزمخشري مثلاً ومحاولته لايجاد تفسير للآيات القرآنية، ولكن ليس على حساب العقل والمنطق السليم.

ولقد استمر، حتى زمننا الراهن، الإعتقاد في تسخير الجن سواء في الشفاء من الأمراض الجسدية أو النفسية، أو في دفع فلان لحب فلانة، أو لبعث النفور والكرهية في قلب فلانة لفلان، أو في ضرب المندل للبحث عن ضالة فقدت أو سرقت، أو في معرفة أسرار وأحوال بعض الناس والإطلاع على أخبارهم الخفية، أو في دفع السحر وشر العين والحسد وغير ذلك مما هو مشهور بين الناس حتى الآن.

ويؤكد الأستاذ أحمد أمين في قاموسه[2] أن الكثير الكثير من المشعوذين ينتفعون ويرتزقون من استغلال إيمان الجهلة من الناس لهذه المعتقدات سواء خواصهم أو عوامهم، أغنياؤهم أو فقراؤهم، مسلموهم أو أقباطهم.

وهكذا يمكن إجمال مفهوم الناس المصدقين بأشباح الجن أنهم مخلوقات شبحية نارية سريعة التنقل والحركة وتنتمي إلى عالم غيبي، فهم:

«غالباً مايعيشون تحت الأرض ولكنهم يحبون زيارة الأرض ليلاً، وخاصة الأماكن الخالية والمهجورة، مثل المقابر، ولذا يستحسن في اعتقاد العامة الإبتعاد عنها في الليل كذلك يستحسن عدم زيارة القبور ليلاً فلربما يكون فيها نفر من الجن.. ويعتقد هؤلاء بأن الجن تأخذ أشكالاً مختلفة يلاحظها الإنسان بالإحساس (في الواقع بالوهم) بشيء غريب وغير عادي»[3].

---

(١) ـ راجع أحمد أمين «ضحى الإسلام» ج ٣ دار الكتاب العربي. بيروت ص ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) ـ ص ١١٦.

(٣) - Sonia Hamdi «Temprament and Character of the arabs» P.174 .

ويعتقد هؤلاء أيضاً بأن ثمة حوادث تشير إلى وجودهم، فإذا تعثر الإنسان في الظلام فالسبب يُعزى إلى مشيه فوق جني. والذي تصطك أسنانه أثناء نومه تتقمصه الجن، وإذا أكل المرء كثيراً ولم يشبع، فذلك بسبب مشاركة الجن له في طعامه[1]. والجن عند هؤلاء المصدقين بشبحيتهم وخوارقهم غالباً ماتكون مؤذية شريرة، تجلب النحس والمرض والفشل بمشاركة الشياطين، وهي كذلك تنشر الرعب خاصة بين النساء اللاتي يعشن في خوف دائم منها. ويزعمون أيضاً أن ثمة فئات معينة من الناس تكون أكثر عرضة للجن وأذاهم من غيرها وهم: الأطفال حديثو الولادة، والمرأة النفساء والعريس وعروسه[2].

ويحدد الدكتور عبد الحميد يونس في «الحكايات الشعبية» مفهوم جمهور الناس عن الجن من حيث العلاقة المتبادلة ـ كما يتصورونها هم ـ في الأوجه التالية:

« ـ الجن يعين البشر.
ـ الجن يلحق الأذى بالبشر.
ـ الجن يخطف الآحاد من البشر لأغراض خاصة.
ـ استبدال الجن بواحد من البشر.
ـ زيارة أفراد من البشر أرض الجن.
ـ عشق الجن لواحد من البشر»[3].

وقد تفنن المحترفون، من المشعوذين وغيرهم من إخوان ملوك «الجن الأحمر» أو «الأزرق»، في اختراع أسماء للمردة والشياطين وكلمات مبهمة على الناس ممتزجة بآيات قرآنية وأسماء الله تعالى أو للرسول صلى الله عليه وسلم، توحي إلى الإنسان العادي بأن ما يقال هو جزء من الدين بصورة أو أخرى، حيث تجد في «القصيدة الجلجلوتية» المشهورة لدى مشايخ الجن أن الشاعر يبدأ ـ حين يتحدث عن فنه ـ باسم الله تعالى، ويصلي على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يسأل الله تعالى باسمه الأعظم ـ وهنا يطمئن السامع إلى تقوى الشاعر وصدقه ـ ثم ما يلبث أن ينها ل بصوته على المستمعين سائلاً:

---

(1) ـ «pagan survival in Muhamadan civilization» by westmark E.A P.6 .

(2) ـ «Temprament and character of the Arabs» p.176 .

(3) ـ ص ٤٩ من المرجع المذكور.

«بآج، آهوووج
جلجووووت، هلهلت
صمصا آآآم، طمطآآم
بمهراش الذي به النار أخمدت
بحق شيآآآخ أشمخ. . الخ»(١).

ونجد كذلك أن المشعوذين قد استغلوا ورود ذكر الجن والشياطين في القرآن الكريم، وتأكيد المشايخ لوجود هذه المخلوقات الشبحية المزعومة، وجهل الناس بحقائق علوم القرآن فحاولوا استغلال الحروف المجهولة المعنى لدى الناس في أوائل بعض السور من القرآن الكريم مثل:

«طسم، كهيعص، الر، الم، ق، ص»

لصالحهم فزعموا أنها مفاتيح لتسخير الجان وهم «وحدهم» الذين يتقنون استخدامها(٢). ولم يستطع رجال الدين أن يقطعوا ببطلان هذا الزعم لجهل معظمهم بمعاني هذه الحروف على وجه التحقيق(٢).

وقد ربط بعض المشعوذين من مشايخ القرى والأحياء وغيرهم بين إمكانية استخدام الجن وكثرة الصوم والصلاة وقراءة القرآن والجلوس في الخلوات، فقالوا:

من أراد أن تخدمه الجن فإنه يصوم أربعين يوماً في خلوة لا يأكل إلا خبز الشعير والزبيب الأسود، ولا يأكل إلا كل أربع وعشرين ساعة، ثم يتلو العزائم ويستحضر بها الخدام.

وعندئذ يظهر الخادم الأول، وهو عبد أسود في يده حجر أحمر، وعزيمته لاستحضاره هي:

«يابنووووخ دردموووخ
أجيبووا أجيبووا بحق سمماط
شموووع
برهوووت

(١) ـ أحمد أمين «قاموس العادات» ص ١١٧.

(٢) ـ لاشك أن لهذه الأحرف معانيها وبيانها في الإستخدامات اللغوية العربية، ولعل الله تعالى يرزقنا أن نبيّنها للناس في بحث خاص، المؤلف.

برهين

اسحيم.

تقرأ ألف مرة»[1].

ومنهم من يدّعي أن قراءة الفاتحة مئة ألف مرة تمكن قارئها من تملك خادم تقي من الجان يخدمه طوال العمر، ولكن عليه قبل المخاطرة بالدخول في هذه المحاولة أن يتأكد من إيمانه وشجاعته وأنه لن يتردد أو يتراجع، لأن الجن لابد حينئذ أن يؤذوه فيسببون له الفلج فيلتوي حنكه أو يصاب بالشلل أو غير ذلك من البلاوي، وذلك لأنه بعد قراءته للفاتحة بضعة آلاف من المرات سيظهر له الجن يرعبونه ويخوفونه ويجعلونه يرى الأهوال، فيرفعون السقف عنه ويهربون بالحيطان، وتظهر له كلاب سود تكشر أنيابها وتسعى للانقضاض عليه. ولكن عليه أن يصمد وألا يخاف لأن هذا كله مجرد تخويف لاختبار شجاعته وجرأته وكفاءته لاستخدام الجني المارد الذي سيصير عبداً له ويخدمه طوال عمره.

قد يعتبر بعض القراء الأكارم هذا الكلام من قبيل المبالغة في الوصف التعبير، ولكنني أؤكد أنني كثيراً ما سمعت أمثال هذه الوصفات والمعتقدات حتى من شباب مثقفين ويحملون شهادات جامعية عليا. ولا بد أنكم أنتم أيضاً سمعتم مثل ذلك.

وثمة من يدعي أن قراءة آيات قرآنية معينة بالمقلوب تحقق المطلوب وتوصل أرباب العقول والقلوب من الذين يقرؤونها إلى التمكن من تسخير مارد من الجن يحقق لهم جميع أحلامهم في الثراء والقوة والرفاه.

وهكذا نسج البلاء خيوطه في عقول الكثير الكثير من الناس داخلاً من باب الإعتقاد بوجود مخلوقات شبحية تسمى الجن والشياطين.

الجن في الأدب العربي المعاصر:

وأما في الأدب العربي المعاصر فإننا نجد أن أثر الإعتقاد بتسخير الجن والعفاريت والخوف من شرهم وأذاهم كان واضحاً بيّناً ومنتشراً، حيث نجد في «الأيام» أن طه حسين في سيرته الذاتية، يصور لنا تعلق خياله كطفل بفكرة تسخيرالجن والعثور على خاتم سليمان، إذ كان ينظر إلى القناة والضفة الأخرى وكأنها عالم آخر، فهو:

---

(١) ـ «قاموس العادات والتقاليد..» أحمد أمين ص ١١٧.

«كان يعلم يقيناً لايخالطه الظن، أن هذه القناة عالم آخر مستقل عن العالم الذي كان يعيش فيه، تعمره كائنات غريبة مختلفة، لاتكاد تحصى فيها التماسيح التي تزدرد الناس ازدراداً، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل، حتى إذا أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء، وهم حين يطفون خطر على الأطفال وفتنة للرجال والنساء.

ومنها هذه الأسماك الطوال العراض التي لاتكاد تظفر بطفل حتى تزدرده ازدرداً، والتي قد يتاح لبعض الأطفال أن يظفروا في بطونها بخاتم الملك، ذلك الخاتم لايكاد الإنسان يديره في إصبعه حتى يسعى إليه دون لمح البصر خادمان من الجن يقضيان له ماشاء، ذلك الخاتم الذي كان يتختمه سليمان فيسخر له الجن والريح وما شاء من قوى الطبيعة.

وما كان أحب إليه أن يهبط في هذه القناة، لعل سمكة من هذه الأسماك تزدرده فيظفر في بطنها بهذا الخاتم، فقد كانت حاجته إليه شديدة.. ألم يكن يطمع على أقل تقدير في أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ماوراء هذه القناة ليرى بعض ماهنالك من الأعاجيب؟ ولكنه كان يخشى كثيراً من الأهوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة»(1).

وهكذا نلاحظ الأثر السائد للخرافة في الحلم بالحصول على خاتم الملك سليمان لتسخير القوى الجنية والمردة لتحقيق الأحلام وإنجاز الأعمال.

هذه الصورة تبين النشأة الفكرية التي يعايشها أطفالنا في المدن والقرى، وفي البيئات التي يكون فيها للخرافة دور بينها ينشأ الأطفال في المجتمعات المتقدمة علمياً وحضارياً واجتماعياً على تكريس العلوم والتكنولوجيا والكشوفات لزيادة العقول علماً ونوراً وحقائق ووقائع تدفع بالمجتمع وأهله صعداً لمزيد من التقدم والبناء لخير الإنسان أنى يكون ـ أليست أمتنا أولى بالعلم الحق والنور؟ أليست هي التي أنارت العالم وأنقذته من ظلمات العصور الوسطى وأهدته علوماً أضاءت جنباته وأخرجته من الظلمات إلى النور؟

لماذا الإصرار على تعليم أولادنا الخوف والوهم والخرافة في عصر يعلّم أولاده استخدام الألكترون والكومبيوتر في معظم جوانب الحياة اليومية فيكون الطفل عالماً ينشأ على حب العلوم والإكتشاف والإبداع؟.

في أرض الخرافة لاينمو إلا الوهم والخيال فتذوي طاقة الإنسان تموت ويموت معها المجتمع المريض بها... وفي أرض العلم والبحث والتفكر والإكتشاف، ينمو العقل ويزهر

(1) ـ طه حسين «الأيام» ج 1 ص 13 دار المعارف القاهرة.

الإبداع وتأتي قوى الكون تخدم الإنسان في مجتمعه فيحيا بنور العلم ألف حياة وحياة.

ويرسم لنا طه حسين في روايته الشهيرة «شجرة البؤس» صورة حية لتصديق أهل القرى البسطاء لحكايات الجن ودورها المباشر في حياتهم:

«قالت أم رضوان كنت أخبز في قريتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الآن، وكانت صاحبة الدار أم عثمان جالسة معي بين أتراب لها وجارات... ولم تكد امرأة من القرية تخبر الجمع بما رأت وسمعت، حتى رأينا أم عثمان قد ثارت مولّولة، فنفضت شعرها ومزقت ثيابها، وجعلت تطلطم وجهها، وتضرب صدرها، ونحن نحاول أن نردها إلى الهدوء ونسألها عن أمرها، ولكنها بعد حين تثوب إلى نفسها قليلاً... ولكن ماراعنا إلا أن رأيناها تقذف نفسها في التنور، فلا نرى لها أثراً ولانسمع لها حساً.

كانت جنية تمثلت لأبي عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان، ثم جاءها النبأ أن أخاها يحتضر، فأسرعت له قبل أن يموت، وسلكت إليه أقرب الطرق وهو التنور حين يكون ملتهباً، والجنيات يألفن التنور، ولذلك لاينبغي أن يحمى التنور دون أن يذكر اسم الله عند إشعال النار فإن ذلك يطرد منه الشياطين ويؤذن - ينبّه - الجنيات المسلمات بأنه سيحمى فيخرجن منه قبل أن يدركهن شيء من النار[1].

ويبين لنا طه حسين أثر مثل هذه الروايات عن الجن على بعض الناس، فيحدثنا كيف أثرت رواية «قصة أم عثمان الجنية» من قبل أم رضوان على إحدى الحاضرات، وهي نفيسة التي لاتتمتع بأي قسط من الجمال، فيقول:

«فلم تكد أم رضوان تبلغ هذا الموضع في حديثها، والنساء يسمعن لها مرتاعات ملتاعات، منهن من تمسك الشهيق، ومنهن من تدفعه، حتى ثارت نفيسة كأنها الجنية وقد نثرت شعرها، وقدت ثوبها، وأخذت تُعْوِل إعوالاً متصلاً وتلطم وجهها وتضرب صدرها وهي تصيح وا أبتاه، وا أماه، ثم تدفع نفسها إلى التنور تريد أن تدخل فيه»[2].

يبين هذا الوصف الذي قدمه لنا طه حسين صورة الجن في أذهان نساء قرية مصرية في أوائل هذا القرن وأن الإعتقاد السائد لدى جماهير القرى هو أن الجن قادرون على تقمص شكل الإنسان، وأنهم قد يكونوا إخوة أو آباء أو أزواجاً. وهي ذات الخرافة التي كانت معروفة لدى الجاهليين قبل الإسلام[3].

---

(١) - طه حسين «شجرة البؤس» ص ١٤٠.

(٢) - «شجرة البؤس» طه حسين ص ١٤١ - ١٤٢.

(٣) - راجع دراسات في العقلية العربية د. بدران، د. سلوى الخماش.

ويورد الدكتور ابراهيم بدران والدكتورة سلوى الخماش في كتابهما «دراسات في العقلية العربية ـ ١ ـ الخرافة» قصة واقعية نشرتها مجلةروز اليوسف المصرية[١] ومفاد هذه القصة الغريبة ملخصاً بتصرف مايلي:

«تعلق شاب يحمل شهادة الدكتوراة بامرأة غير زوجته ولم يجد وسيلة للالتقاء بعشيقته في بيته إلا باستغلال جهل زوجته والتأثير عليها من خلال إيمانها بالجن والأرواح فمنع عنها الكتب الثقافية العامة ثم بدأ يضع تحت يديهـا كتباً تتحدث عن الجن والأرواح، كما بدأ يقص عليها الكثير من الروايات الخيالية عن هذه الأرواح الشريرة المؤذية.

وأخذ بعد مدة يتظاهر بالمرض، وحين كانت زوجته تهم باستدعاء الطبيب، كان ينهاها محذراً إياها، وأخبرها أن ملكة من ملوك الجن تحبه وأنها هي سبب مرضه وعياه، وكان يطلب منها أن تخرج من غرفته وتغلق عليه الباب ساعة ثم تعود.

وتعود زوجته بعد فترة لتسأله عما تم بينه وبين الجنية فيخبرها أنه قد تم الصلح بينه وبين أبيها ملك الجان، ولكن شرط الصلح أن يتزوج ابنة ملك الجان، لأنها كانت واقعة في غرامه وليس بالإمكان الخلاص منها إلاّ بإرضائها وإرضاء أبيها ملك الجن.

واستمر في تضليل زوجته، وصار يقول لها بأن الجان كانوا على وشك أن يضربوه ويؤذوا ابنه ويعذبوا زوجته، فتخاف الزوجة خوفاً شديداً على ابنها وعلى نفسها، وتسيطر عليها حالة رعب شديد أن يحدث لها أو له أي أذى بسبب تعلق تلك الجنية بزوجها الحبيب. وعند ذلك يطلعها زوجها على الحل المطلوب منه للخلاص من شر هذه الجنية وقومها وأبيها فيقول لها إن الجنية لاتريد منه إلا أن ينام في الصالون مرتين في الأسبوع.

ويبدو أن الزوجة المسكينة المؤمنة بقدرة الجن على التلبّس والأذى تصدّق قصة زوجها وخاصة بعد أن أعدّها إعداداً عقلياً ونفسياً مدروساً بكل خبث وإتقان.

كان للصالون باب مستقل على السلم.. وكانت تلك هي الخطة التي أعدها كي يلتقي بعشيقته في بيته بكل ارتياح واطمئنان. واستمر على لقائه بجنيته المزعومة، ثم بدأ يطلب لزوجته الجنية عشاء وشراباً، فتقدم له زوجته المغلوبة على أمرها كل ما يريد مع غاية الطاعة والولاء حتى لا تؤذي الجنية زوجها وابنها.. وحين لاحظ الجيران دخول امرأة غريبة في الظلام شقة الدكتور وخروجها معه في الفجر، بدؤوا يتحدثون في الأمر ويشيعونه حتى أوصلوه إلى زوجته، ولكن زوجته الطيبة كانت ترد قائلة:

«طبعاً هم فاكرين الجنية واحدة ست.. طبعاً ماهية تحضر له في صورة واحدة ست»[٢].

---

(١) ـ العدد ٢٣٩١ في ١٩٧٤/٤/٨ ص ٤٦.

(٢) ـ عن روز اليوسف العدد ٢٣٩١ ١٩٧٤/٤/٨ نقلاً عن المصدر السابق.

ولكن الجيران دبروا كميناً وسلموا المرأة للشرطة على أنها لص تسلل إلى صالون الجيران. انفضح أمر الدكتور وعشيقته وطلبت الزوجة الطلاق من زوجها أمام ضابط الشرطة. لكن الزوج أصر على خداعه بأن «ظل يهمس في أذن زوجته بكلمات كثيرة وهو يبكي ويتوسل، ثم نادى على المرأة الأخرى التي همست في أذن الزوجة ببضع كلمات». فعدلت الزوجة عن طلبها وطلبت من الشرطة أن يقفلوا الموضوع فحفظت القضية.

وحين سئلت الزوجة بعد خروجها من مخفر الشرطة عن سبب تراجعها عن طلبها، قالت بأنها فهمت من زوجها «المسكين» أن تلك المرأة:

«ليست امرأة.. بل هي الجنية ابنة ملك الجان ولكنها أمام الناس اضطرت أن تظهر في صورة امرأة عادية حتى لا يؤذي أبوها ملك الجان الزوج والإبن، وحتى لا يقول الناس عن الدكتور أنه معتوه وملبوس فيفقد وظيفته ومكانته»(١).

وبالرغم من تصديق الكثير من الرجال والنساء في مجتمعنا بالخرافات والروايات المحكية عن الجن والأرواح، إلا أن المرأة بحكم عزلتها وقلة خبرتها وبالتالي جهلها وأثر بيئتها ونشأتها هي أكثر أفراد المجتمع تجاوباً مع مثل هذه الخرافات وأكثر ميلاً لتصديقها وقبولها والعمل بإيحاءاتها(٢).

يقدم لنا الروائي العربي الشهير نجيب محفوظ في روايته «بين القصرين» أمينة زوجة عبد الجواد كنموذج حي للمرأة التي تربّت تربية دينية محافظة، والتي كان يطغى على اعتقادها إيمانها الخرافي بالجن وإمكانية تواجدهم في أي مكان وقدرتهم على عمل أي عمل بالناس.

ويبين لنا نجيب محفوظ في روايته المذكورة، كيف أن أمينة كانت في أول حياتها تعاني من الخوف الكثير حين كان يتركها زوجها وحدها في البيت الكبير ويذهب هو لقضاء سهراته الطويلة. ولكي تبدد خوفها من حضور الجن وإيذائهم كانت:

«تطوف في الحجرات مصطحبة خادمتها، مادة يدها بالمصباح أمامها، فتلقي في أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد الأخرى، مبتدئة بالطابق الأعلى، وهي تتلو ماتحفظ من سور القرآن دفعاً للشياطين، ثم تنتهي أخيراً إلى حجرتها، فتغلق بابها وتندسّ في الفراش، ولسانها لايمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم.

ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأول، فلم يغب عنها ـ وهي التي تعرف عن عالم الجن أضعاف

---

(١) ـ المصدر السابق.

(٢) ـ العالم ليس عقلاً ـ القصيمي.

ماتعرف عن عالم الإنس[1] - أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها - الشياطين - آوت إليها قبل أن تُحمل هي إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا. فكم دبّ إلى أذنيها من همساتهم، وكم استيقظت على لفحات من همساتهم، وما من مغيث إلاّ أن تتلو الفاتحة والصمدية، أو أن تهرع إلى المشربية، فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها إلى أنوار العربات والمقاهي، وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

ثم جاء الأبناء تباعاً، ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحماً طرياً لايبدد خوفاً، ولا يطمئن جانباً، وعلى العكس فقد ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام.

أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته، ولم يكن غريباً وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تنصت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصاً حاضراً:

«ابعد عنا، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون». ثم تتلو الصمدية في عجلة ولَهوَجة.
وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيراً، واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التي لم تجرّ عليها سوءاً قط، فكانت إذا ترامى إليها حس طائف منهم قالت له في نبرات لاتخلو من دالّة:
«ألا تحترم عباد الرحمن. الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرماً»[2].

ونجد أيضاً في رواية «بين القصرين» أن أمينة كانت تخاف خوفاً شديداً وينتابها الذعر والهلع من أن يتردد اسم الجن في الدار، وكانت تحذر ابنها كمال من التفوه بكلمة الجن أو العفريت درءاً لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف، وتمسك عن البعض إشفاقاً ومبالغة في الحيطة.

ولذلك فقد كان يلوح في عينيها التردد والحيرة حين تسمع ابنها كمال وهو يقرأ الآيات التالية ليستذكرها:

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. . ﴾
حتى أتم السورة.

«فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو أحد الإسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تدر كيف تحول بينه

---

(١) - راجع دراسات في العقلية العربية.

(٢) - نجيب محفوظ «بين القصرين».

وبين حفظها، أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة، فداخله سرور ماكر. وجعل يبدأ ويعيد ضاغطاً على مخارج الإسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعاً أن تفصح أخيراً عن إشفاقها في لون من ألوان الإعتذار. ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه، حتى قال:

ـ ها أنت ترين أن من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين وإلا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر.

فقالت المرأة في شيء من الضيق:

ـ لعلهم... ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألا نردد أسماءهم.

ـ لاخوف من ترديد الاسم.. هكذا قال مدرسنا.

فحدجته المرأة بنظرة عتاب، وقالت:

ـ المدرس لا يعرف كل شيء.

ـ وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر، ولكنها لم تجد بداً من أن تقول:

ـ كلام ربنا كله بركة.

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلاً:

ـ ويقول شيخنا أيضاً أن أجسامهم من نار.

وبلغ بها القلق غايته، فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات، أما كمال فاستطرد قائلاً:

ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم ـ من الجن ـ الجنة فقال نعم.. فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة إن الله قادر على كل شيء.

ـ جلّت قدرته.

فرنا إليها باهتمام ثم تساءل:

ـ وإذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم؟

ـ فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

ـ ليس فيها أذى أو خوف»[1].

إن تصديق الطفل للخرافة وامتلاء رأسه بخيالات مبهمة عن الجن والعفاريت والشياطين وتمثلها له في الأشياء التي تصادفه، وتصديقه بأنها مصدر شرور تتعمد إيذاءه، وعجزه في نفس الوقت عن تفسير ما يسمع أو يتخيل، يترك كل ذلك في ذهنه مكاناً ملائماً لنمو

---

(١) ـ نجيب محفوظ «بين القصرين» ص ٧٨.

الخرافة[1] والوقوع في شر براثنها أو الاعتماد عليها والنظر إلى أمر الحياة من خلالها عند الضرورة.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن المجتمع العربي الحديث قد تخلص من ذلك الواقع الذهني الذي صوره طه حسين في «شجرة البؤس»، أو نجيب محفوظ في روايته «بين القصرين» مثلاً، إلا أن المدقق في الأمر لابد سيصل إلى نتائج أقل تفاؤلاً. حيث نجد في الواقع أن غالبية النساء في مجتمعنا هن من المعتقدات بالخرافة عموماً وبالجن خصوصاً، ومن الواضح أن خطورة هذه المسألة تنعكس على الأطفال في سنيّهم الأولى حين تكون الأم هي المصدر الوحيد أو الأساس للمعلومات التي تشكل الخطوط العقلية العريضة للطفل وذهنه وبالتالي شخصيته ويتفاقم الأمر خطراً وسوءاً حين تلجأ بعض الأمهات الجاهلات إلى استخدام الجن كوسيلة لتخويف أطفالهن أو لردعهم عن القيام بما لا يعجبهن. وهكذا نجد أن الأمهات تنقلن دون شعور منهن خوفهن الحقيقي من الجن والعفاريت، ذلك الخوف الذي تحاولن إخفاءه بقناع من التخويف بحجة التربية بالضغط على الأطفال بما قد ينفع في ردعهم عما لا ينبغي فعله.

ويزيد المسألة سوءاً وتعقيداً جهل هؤلاء الأمهات، كما هو متوقع، بطبيعة الجن وأشكالها، الأمر الذي يدفعهن اعتماداً على خيالهن، استناداً إلى روايات سمعنها خلال طفولتهن أو من جاراتهن ومعارفهن إلى تصوير الجن بكل شكل كان أو أي شكل كان، وكذلك يثرن في أذهان أطفالهن إمكانية حضورها وتلبّسها وتمثلها في أي زمان ومكان.

وينتقل هذا الوهم إلى الأطفال بصورة اعتقاد مخيف مروع يجعل الطفل خوافاً يخشى الوحدة والظلام، ويسعى إلى تجنب أي عمل قد يثير عليه ـ كما يتوهم ـ حفيظة الجن وبالتالي إيذاءهم له.

وتتراءى للطفل بسبب هذه المخاوف والأوهام، في حالات مرضه أو انفراده شتى الصور المروعة التي يولدها خياله فيجد نفسه في صراع مؤلم ودائم ضد هذه الكائنات المخيفة المؤذية وغير المرئية.

ولاشك أن مثل هذا الخوف من المجهول الجاثم في كل مكان وكل حين، والخوف من

---

(١) ـ راجع «دراسات في العقلية العربية ـ ١ ـ الخرافة».

الوحدة والظلام يقيد بالضرورة حركة أطفالنا ويشل انطلاقاتهم العقلية أو يعجزها، ويحدّ من رغبتهم الضرورية سواءً بالنسبة إلى شخصياتهم المستقبلية وعقولهم وأفكارهم في الإستطلاع والتعرف على الأماكن والأشياء واكتشافها. وبذلك يظل الطفل راغباً في ملازمة أهله ومكانه المألوف له[١] وبذلك أيضاً نقتل أول ما نقتل في أطفالنا ـ آباء المستقبل ـ روحَ التحرر الفكري والنفسي والانطلاق في رحلة الإنسان الضرورية إلى الاكتشاف والابداع والعمارة السليمة للأسرة والبيئة والوطن والعالم.

وعن مخاوف الطفل من الجن والعفاريت يزيدنا طه حسين في سيرته الذاتية «الأيام» عن خوفه، حين كان طفلاً، من هذه المخلوقات المرعبة، فيقول إنه كان:

«واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من تحت اللحاف، فلا بد أن يعبث بها عفريت من العفاريت الكثيرة التي تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه والتي كانت تهبط تحت الأرض.ما أضاءت الأرض واضطرب الناس. فإذا أوت الشمس إلى كهفها، والناس إلى مضاجعهم وأطفئت السرج وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطراباً وتهامساً وصياحاً.

ولذلك:

«كان يقضي ليله خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم.. ويقضي شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى بيوتهن وقد ملأن جرارهن من القناة وهن يتغنين «الله يا ليل الله» عرف أن قد بزغ الفجر، وأن قد هبطت العفاريت إلى مستقرها من الأرض السفلى»[٢].

ويؤكد الدارسون والمحللون للعقد النفسية لدى الطفل أن:

هذا الخوف والتقييد للإنطلاقة الذهنية والجسمانية يستمر مع الطفل حتى بعد دخوله المدرسة، ويكون علامة بارزة في تكوين شخصيته في المراحال الحياتية التالية. وفي الغالب فإن المدرسة لا تستطيع أن تمحوا كثيراً من الخرافات التي انتقلت إلى الطفل خلال ارتباطه بأمه في البيت، لأن المدرّس سواء أكان مدرساً للدين أو للعلوم أو غيرها من المواد يتحرج لسبب أو لآخر عن الخوض في مثل هذه المسائل ويأمر التلميذ أن يكف عن الإستفسار عن

(١) ـ راجع دراسات في العقلية العربية ج ١ الخرافة.

(٢) ـ طه حسين «الأيام» ج ١ ص ٧ دار المعارف.

الجن وما شابهها(١).

ويلفت الدكتور بدران والدكتورة سلوى الخماش في كتابهما «دراسات في العقلية العربية ـ الخرافة ـ» النظر إلى أن الإنفصال بين كل من المجتمع والبيت والمدرسة، وطبيعة التعليم في الوطن العربي، والمفاهيم الثقافية السائدة، لاتتيح في كثير من الأحيان للفتى أو للفتاة التخلص مما علق في ذهنهما زمن الطفولة. وما يحدث للطالب في المدرسة هو أن المواد الدراسية التي يدرسها تخزن في عقله بالإضافة إلى الخرافة، وكثيراً ما تمتزج بها. وفي أغلب الأحيان فإن الطالب ـ أو الطالبة ـ يكون غير قادر على استعمال معلوماته الجديدة سواء في الفيزياء أو الأحياء أو غيرهما من العلوم أو حتى في الدين نفسه لتمحيص ما تعلمه من خرافات، نظراً لأن ذلك يفرض عليه الدخول في مسائل دينية قد علمته المدرسة ألّا يدخل فيها. وإذا استثنينا نسبة ضئيلة من المتعلمين والمتعلمات في مجتمعنا وبيئتنا، وممن بذلوا جهوداً ذاتية خاصة لتخليص أذهانهم مما علق فيها من خرافات. . إذا استثنينا هؤلاء فإن الكثيرين والكثيرين جداً من المتعلمين من الجنسين مازالوا يحتفظون بأوهام وخرافات زمن الطفولة مكدّسة بين أكداس المعلومات الأخرى، ولم يستطيعوا بسبب دكتاتورية الفكر الخرافي وسلطانه أن يستخدموا علومهم في تفنيد ذلك الوهم وتلك الخرافة، ولذلك نجدهم هم أيضاً عرضة لتصديق أي ادعاء أو خرافة يبتدعها أحد المبتدعين، سواء كان دجّالاً ماهراً، أو مشعوذاً خبيراً، أو أحد الدراويش(٢)

حفلات الزار والشيش:

ومن المظاهر المشهورة في مجتمعنا، والتي تعتمد أساساً على الزعم بالوجود الشبحي للجن وتلبّسهم الناس وإيذائهم لهم، ما يسمى (الذّكر والزار) التي خاصة ما تشتهر وتعرف في القرى حيث يقيم بعض الشيوخ وأتباعهم حفلات صاخبة خاصة، الغاية منها استحضار الجن من خلال «تكنيك» معين يستخدم فيه الضرب على الطبول والرقص والدوران والصياح والنداء بأسماء ما يسمى ب «القطب» و «الغوث» وبقية حضرات الأسياد والشيوخ

(١) ـ دراسات في العقلية العربية.

(٢) ـ راجع «دراسات في العقلية العربية» د. ابراهيم بدران ود. سلوى الخماش ج ١ «الخرافة».

الذين يُزعم أنه من خلال ذِكرهم تحدث الكرامات والمعجزات في حفلات الشيش والزار حيث يتجمهر عدد من بسطاء أهل القرى على عدد من مقيمي حفلات الزار في «بيت الشيخ» أو غيره، تهز قلوبهم ضربات الطبول القوية وتقرع آذانهم صرخات التوحيد الطويلة المـمطوطـة بلحن ثاقب «حي حي حي حي» و« اللهووو ياهوووو» وتتنطط عقول وعيون الحـاضرين مع القفـزات والـدوران والتلويح بالشيش. وهو سيخ حديدي طويل يصنع خصيصاً لهذه المناسبات بغرض إظهار المعجزات والكرامات للأشياخ والأسياد، من خلال التهجم على الحاضرين الذين يجمد الدم في عروقهم كلما زعق الصارخ بحدة وجنون ملوحاً بالسلاح الأبيض ـ الشيش ـ في يده وهو ينوي طعن نفسه فيه أو حتى غيره من الحاضرين، حيث يتوقع المتفرج في كل حين إما أن يمسه جني عفريت أو أن يضربه هذا المجنون الراقص الذي يبدو أنه فقد صوابه مع الصراخ والصياح، بضربةٍ الغاية منها أن ينفذ منها هذا السيخ الملوّح في يده من طرف في جسده إلى طرف آخر.

يحدث كل هذا بينما يكون خدام الشيش والزار قد وضعوا في وسط الحلقة الولد ـ الضحية ـ أو الشخص المريض المرتجف خوفاً وهلعاً المطلوب شفاؤه ببركات الشيخ والأستاذ من مسّ الجن والشياطين.

ويسمـع العابر في حارات القرى والأماكن التي تضج في ليلها حفلات الذكر والزار، قرعات الطبول والصرخات المدوية المجلجلة للراقصين على جهل الناس وكرامة عقولهم، فيخيل إليه أنه في عرس الجن والعفاريت ويوقن أنه لابد من وجودهم حيث تصدر هذه الصيحات العنيفة والمجنونة.

ومن الملفت للنظر أن تجد أن الكثيرين إن لم يكن أكثر من يعمل بـ «مهنة» حفلات الذكر والزار، إنما هم من الذين لاتعرف لهم، حتى في مجتمعهم، فضيلة خاصة أو سلوك حسن ولاحتى التزام بعبادة أو صوم أو صلاة، بل ولاحتى أدنى معرفة متميزة بكتاب الله سبحانه وتعالى أو أحاديث رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. ثم الأغرب من هذا أن تجد بعد ذلك كله من بين المؤمنين والمصدقين بهذه الشعوذات نفراً ليس بالقليل من الدارسين والمتعلمين وخريجي الجامعات، بل وأساتذتها أحياناً(١).

---

(١) ـ من المؤكد أن ضرب الشيش يعتمد على خبرة خاصة ومران معين وليس له علاقة بالدين والكرامات ـ كما يزعمون ـ من قريب أو بعيد.

ولعلم المشعوذين وأصحاب مهنة الشيش والزار أن من يأتيهم من الناس إنما يكون غالباً من المصـدقين بشعوذتهم فقد تفننوا في إبداعاتهم «التقنية» التي يحاولون من خلالها إقناع هؤلاء الناس أن بإمكانهم السيطرة على الجن والعفاريت أو طردها أو التخلص من أذاها، إذ لابد للعقلية التي آمنت بخرافات العالم السفلي، أن تؤمن بتقنية التعامل مع الجن وبالتالي أن تصدق بما يدّعيه المشعوذون من توفر الإمكانات لديهم لاستئصال الجن أو أذاهم من أجساد المرضى والممسوسين.

ومن الملاحظ على مر العصور، أن الكهنة ورجال الدين كانوا أكثر الناس ترويجاً وتصديقاً - في الـظاهر - لسطوة الكائنات غير المرئية من العالم السفلي بزعمهم من: أشباح وأرواح وعفاريت وشياطين وإمكانية إيذائهم وعبثها بالإنسان والتعرض له والسخرية منه، كيفما تشاء وفي أي وقت كان[1].

ويدخـل في «تقنية» هؤلاء المشعـوذين، لاقنـاع البسطاء من الناس بالجن والعفاريت وأذاهم، أن يروِّجـوا أن هذه المخلوقات المزعومة يمكن أن تظهر للناس على شكل قطط وكلاب وحيَّات وماعز وغيرها من الحيوانات، وخاصة السوداء والشديدة السواد منها.

وهكذا وخلال قرون طويلة نشأ في كثير من بيئات مجتمعنا أسلوب وطريقة «تقنية» خاصة لمقاومة الأرواح الشريرة والتغلب عليها وطردها من أجسام المسوسين، وتدعى هذه الطريقة أو «التقنية» بما يعرف بـ «حفلة الذكر والزار»[2].

ويبين لنا الكاتب المصري عبد الحميد جودت السحار في كتابه «قافلة الزمان» كيف أن حفلات الزار ما هي في حقيقتها إلا تجارة بالخرافة وجهل الناس وعقد صفقات رابحة مع المصدقين بالجن والعفاريت وامتصاص دمهم - مالهم - وذلك من خلال وعدهم بالشفاء والخلاص على أيدي الأسياد من الجن وملوكهم الذين لابد من إقامة حفلات وولائم دسمة خاصة بهم لنيل رضاهم وطلب عونهم!

ويصور السحار بشكل حي وواقعي الطريقة التي يتم بها التفاوض بين أهل المريض من

---

(١) - راجع كتب المصدقين بتحضير الجن والأرواح وإمكانية عبثهم بالناس كيفما يشاؤون.

(٢) - راجع دراسات في العقلية العربية - المرجع المذكور.

جهة، وشيخ أو شيخة الزار من جهة أخرى، ثم ما يتبع ذلك من طقوس ظلماتية شيطانية في الحفلة ذاتها. فيروي لنا أن أم زكية قد جاءت إلى شيخة الزار تستنجد طالبة العون منها على شفاء ابنتها زكية من إغماءاتها المتكررة. فتشخص شيخة الزار مرض زكية وتقول بأن الاخوان «العفاريت» قد لمسوها ليؤذوها، فسألتها أم زكية:

«وما يودّون الآن؟

ـ ترضية.

ـ نحن على استعداد لتقديم الترضية التي يطلبونها.

ـ اتصلتُ بهم وعرضت عليهم أن نذبح على السكت ما يطلبون وأن نكتفي «برضوة» فقبلوا وكدت أنجح في مسعاي لولا «السجّان» فإنه أصر على دق الدفوف، فانحاز إليه الباقون جميعاً.

ـ وفيم يرغبون الآن؟

ـ في إقامة زار بالطبول والدفوف.

ـ لهم مايريدون.

واطمأنت الشيخة إلى إقامة الزار، فالتفتت إلى زكية وسألتها:

ـ أما رأيت في منامك طيوراً وحيوانات؟

ـ لاأذكر.

ـ ألا تذكرين أنك رأيت دجاجة سوداء أو حمراء أو عجلاً أو خروفاً له علامة خاصة، أو أي شيء من هذا القبيل؟

ـ والله لا أذكر ياستنا الشيخة.

ـ تذكري كل ما ترينه وقصيه علي.

ـ حاضر.

وانقضت أيام حاولت زكية أثناءها أن تتذكر وتفكر في الطيور والحيوانات قبل أن تنام. ثم جلست إلى الشيخة تروي لها ما رأت: إنها لم تر إلّا حيوانات لها سمة خاصة، فهذا خروف أسود «غطيس» في جبهته هلال أبيض، وهذا ديك رومي أبيض فيه نقطة حمراء، وهذا عجل أحمر قرب ذيله شامة بيضاء.

وكانت الشيخة تنصت في انبساط، فإن ما رأته المريضة يعد بزار كبير يستمر ثلاثة أيام بلياليها. وقالت الشيخة:

ـ اشترى كل هذه الأشياء، فإن الأسياد أوحوا إليك في المنام.

وأقبلت أيام الزار، فذهبت زكية إلى بيت أختها، وذهبت أمها وأمينة لتجهّز «الكرسي». والكرسي نضد مرتفع يوضع في وسط المكان، ويوضع فوقه صينية كبيرة يكدس فوقها سكر وبن ولوز وسلطانية لبن زبادي وفطير وجبن رومي وزيتون وبوظة، وتُصفّ حول الكرسي شموع طويلة تُنار طول الليل.

وفي أول يوم قامت الشيخة وألبست زكية ثياباً بيضاء فهي تعتبر عروس ذلك اليوم، ثم اتجهت إلى الكرسي، وأخذت السكر والبن وكثيراً مما فوق الصينية وحجزته لنفسها، ووزعت مما بقي على الواقفات، وخصت فتياتها اللاتي سيضربن الدفوف بالنصيب الأوفى.

.. وجيء بالحيوانات والطيور، فاختارت الشيخة لنفسها ما يحلو لها، وبعثت به إلى دارها، ثم بخرت ما تبقى وذبحته وحفظت الدم في وعاء كبير، ولطخت منه وجه زكية وذراعيها وثيابها، ثم أخذت مصاغها وغمسته فيه، فبدت زكية كأنها خرجت من معركة (دموية)* قاسية استعملت فيها السكاكين وسالت فيها الدماء.

وارتفعت دقات الدفوف، وجلجلت أصوات فتيات الشيخة بأناشيد العفاريت، فأخذت زكية تدور حول الكرسي وقد وضعت يديها خلف ظهرها، واتسعت حدقتا عينيها، وقام النسوة يتمايلن بجسومهن على دقات الدفوف، وارتفعت الدقات، واشتدت حتى استولت على المشاعر، فاهتز كل شيء، حتى الحيطان بدت كأنها تهتز.

وخلعت زكية ثياباً وارتدت ثياباً، وكانت تنزل إلى ساحة «التفقير» كلما دقت دقة جديدة، وتتمايل بجسمها الضخم، وتضرب برجلها الأرض فيهتز السقف تحتها، ويئز زجاج الأبواب والشبابيك أزيزاً، ومالت على الصينية وقبضت قبضة مما عليها، ونثرتها على الجالسات بجوار الحيطان ينظرن، فرجعن يجمعن ما نثرت في سرور، فإن العفريت راض عنهن.

ومرت أيام الزار الثلاثة، وأهرق فيها دم كثير، حتى كادت زكية تستحم في الدماء. وجهز الحمام، ودخلت زكية تستحم وتبدل ثيابها الملوثة بالدم، ثم خرجت منه وجلست تستريح قبل أن تعود إلى دارها وقد أحست راحة تشيع في نفسها، فإنها لترجو بعد أن أقامت الزار، أن تكون جميع العكوسات قد فكت، وإنها لتأمل كل الأمل بعد ذلك الزار، أن تحمل وأن تنسل نسلاً تقر به عينها»[1].

يتضح لنا من هذا الوصف المأخوذ عن الواقع المألوف والمشهود أن شيوخ «الزار» أو ما يسمى بـ «الذكر» قد صنعوا من جهل الناس تجارة، واتخذوا منه حرفة ومهنة. فهم في الحقيقة نادراً ما يعرف لهم حرفة أو مهنة غيرها، وهم من خلال جهل البسطاء من الناس وإيمانهم بشرّ وأذى الجن المحتمل في أي زمان ومكان، يحاولون دائماً الخروج بصفقات رابحة، سواء بالحصول على الأموال أو الطعام من الذبائح وغيرها. وإمعاناً في تمثيل الدور واستغلال شيوخ الزار لجهل زبائنهم، فإنهم يخبرونهم أن الجن والعفاريت هم الذين يريدون

(*) ـ الكلمة ليست في النص الأصلي.

(١) ـ عبد الحميد جودت السحار في «قافلة الزمان» ص ١٣٢ ـ ١٣٩.

ديوكاً أو عجولاً أو خرفاناً أو غيرها من الذبائح[1] وواضح أن مطاليب الجن والعفاريت تتفق دائماً مع ذوق هؤلاء المشعوذين والمشعوذات من لذائذ الطعام وأغلاه ثمناً.

ويؤكد مؤلفا دراسات في العقلية العربية ـ الخرافة ـ أن حفلات الزار المشهورة في مصر وغيرها لاتقتصر على النساء فقط بل إنها لتشمل الرجال أيضاً، وإن الإعتقاد بها مازال منتشراً حتى اليوم، وبين فئات قد نالت حظاً من التعليم.

وقد أشار إلى حفلات الزار أيضاً الدكتور محمد حسين هيكل في روايته «زينب» وكذلك فعل طه حسين في روايتيه «شجرة البؤس» و « دعاء الكروان» وأيضاً عبد الحميد جودت السحار في «قافلة الزمان» كما مر معنا.

وتصف مجلة روز اليوسف، العدد ٢١٩٢ في ١٥/٦/ ١٩٧٠ ص ٢٣ حفلة زار أقميت في بيت أم غريب في الإسكندرية بأنها كانت تشبه حفلة جاز، فهناك:

«طبول تدق، وزحام من الناس يتمايل، يزيد في سخونة الزحام وجود عشرين سيدة وفتاة في حالة انسجام عصبي مثير»[2].

ويبين الدكتوران ابراهيم بدران وسلوى الخماش أن حفلات الزار في مصر وغيرها من المجتمعات التي يؤمن فيها الناس بأمثال هذه الخرافات قد وصلت إلى حد بالغ الخطورة والأثر السيء في مثل هذه المجتمعات فيقولان:

«ولا يقتصر الأمر على وجود حفلات الزار خاصة بالرجال أو النساء كل على حدة، بل يبدو أن رياح التحرر قد لامست أطراف الخرافة أيضاً، حيث أصبحت تقام في السبعينات حفلات زار مختلطة للرجال والنساء. وفي مصر القديمة وفي ضريح الشيخ أبو السعود، يقيم تجار الخرافة حفلات يرقص فيها النساء والرجال رقصات الزار من العاشرة صباحاً إلى العاشرة مساءً. والهدف هو الحمل. وعندما يتحقق لايسأل أحد هل جاء نتيجة بركات الشيخ أبو السعود، أم نتيجة وجود عشرات من رجال العصابات وتجار المخدرات والقوادين والمحترفين في ساحة الزار»[3].

وهكذا فإن البلاء أشد خطراً من أن يُهمل شأنه من أي جانب أتيته!

---

(١) ـ وكأنها ملَّ الجن من أكل الطعام والروث (طعامهم المفضل) كما مر معنا!

(٢) ـ نقلاً عن كتاب «دراسات في العقلية العربية».

(٣) ـ راجع دراسات في العقلية العربية ج ١ الخرافة د. ابراهيم بدران ود. سلوى الخماش ص ٧٢.

وجاء في برنامج إذاعي تبثه إذاعة دمشق واسمه «حكم العدالة» وهو يحكي قصصاً واقعية من ملف القضاء، أن سيدة شريفة نبيلة على جانب من الثراء وقعت ضحية دجّال مشعوذ، وذلك بالإتفاق مع امرأة من معارفها فصارت موضع ابتزاز حقير كاد يدمر حياتها الشخصية والعائلية وسمعتها بين الناس. وقد ساق هذا الشر كله إليها، إيمانها بقدرة بعض الشيوخ المشعوذين من أدعياء تسخير الجن والعفاريت في فك الرصد والمعالجة والشفاء مما استعصى من الأمراض على الأطباء. والقصة باختصار هي:

إن هذه السيدة المتزوجة كانت متحرّقة إلى الحمل وأن يكون لها ولد تقر به عينها وعين زوجها الذي كان يكابد نفس الحرقة. اقترحت عليها إحدى معارفها أن تذهب إلى شيخ مشهود له بكتابة الحجب التي لا تخيب وتحقيق المعجزات على يديه ويشهرته في معالجة مثل هذه الحالات، حيث أن الكثيرات من النساء اليائسات قد تم لهن الحمل ببركات أعمال هذا الشيخ الولي التقي.

وصدقت المسكينة فوقعت في الفخ.

كان يطلب إليها أن تدخل وحدها غرفة البخور لتستفيد من التبخير في العلاج وحصول الحمل، وكان عليها أن تخلع ثيابها في تلك الغرفة، ولم تدر المسكينة الحمقاء أنه كان يتم تصويرها بشكل سري وهي تخلع ثيابها.

وتكررت زيارات هذه المرأة الضحية بناء على طلب الشيخ والوسيطة لضرورة العلاج. وتكرر طلب المال منها لقضاء حاجات ملوك الجن التي لا تنتهي، إلى حد أن السيدة الضحية بدأت تضطر إلي بيع حليها حتى لاتطلب من زوجها المزيد من المال لتغطية نفقات علاج الشيخ وأقرانه من الجن المتربصين بالأذى. وعندما أعلنت عجزها عن دفع المزيد فوجئت بتقديم صورها المحرجة والفاضحة لها والتي تم التقاطها دون أن تدري وتم اطلاعها علناً على السعي لابتزازها وأن عليها أن تدفع ما يرضي الشيخ ووسيطته، وإلا تم إرسال صورها إلى زوجهـا الذي كان قد نهاها، منذ البداية، عن التصديق بمثل هذه المشعوذات وعن الذهاب إلى مثل هؤلاء الشيوخ المشعوذين.

ولكنها لرغبتها الشديدة وأملها في أن تحمل وتصير أمّاً فتدخل الفرحة والبهجة على قلب زوجهـا الذي سيصير أباً، ذهبت سراً مع تلك الوسيطة، وهكذا سقطت ضحية ضعيفة

مهيضة الجناح بين يدي ذئب متوحش يستغل إيمان الناس بالقدرات الخرافية للجن والعفاريت، واعتقادهم بقدرات الشيوخ في الأثر والسيطرة عليها، وما أغلى الثمن المدفوع في النهاية عبثاً!

ويروي الناس أيضاً، وهذا مشهور بينهم، أن بعض هؤلاء المشايخ من المشعوذين يدّعي للنساء المستعيذات به من شر السحر والعين والجان ضرورة أن تتم كتابة بعض الحجب والتعاويذ بالمسك والزعفران على بطن المرأة التي ترجو الحمل وذلك كي يتم الحمل لها، ولاشك بأن الشيخ ذاته هو الذي يجب عليه أن يجري بيده المباركة كتابة الأسماء والطلاسم والتعاويذ المقدسة على بطون النساء الساذجات اللاتي كثيراً ما أهدرن عرضهن وشرفهن بهذه الصورة المهينة المخزية لهن ولذويهن وللمجتمع الساكت عن هذه الممارسات المخزية!!

آمن بالخرافة وإلّا فأنت سخيف أو مجنون!

والقصص الغريبة العجيبة، على واقعيتها، كثيرة وكثيرة، وكلها تروي حقائق الإستغلال البشع للجهد والمال والعرض والشرف والكرامة الإنسانية باسم الإيمان والإعتقاد بوجود هذه الكائنات الخرافية المزعومة، والتي تسمى بالجن والشياطين والعفاريت، والحجة في ذلك كله أن اسم هذه المخلوقات ورد في القرآن الكريم، وكذلك في الإنجيل والكتاب المقدس، ولذلك فهي من الدين، ولا بد من التصديق بوجودها. . فالكافر وحده، أو السخيف وحده، أو عدو الدين وحده هو من لايصدق بهذه الخرافة وهذا الدجل الظالم وهذه الشعوذة البشعة.

ولذلك فإنك كثيراً ما تجد في كتب «العلماء» تهجماً عنيفاً وتسخيفاً بالغاً بكل من يجرؤ على عدم الإعتقاد بالوجود الشبحي للجن، فهو عندهم مغرور يتبجح بالعلمنة والعقلنة بينما هو في حقيقة الأمر يتخبط في حمأة الخلط والتهوّس وساقط في أشد مظاهر الغفلة والجهل، بل هو من المجانين الذين يرثى لعقولهم التي أفسدتها فلسفات وعلوم الغرب بصرعاتها الفكرية المريبة ـ على حد زعمهم وعاداتهم.

ويجد القارىء الكريم مثالاً واضحاً على مثل هذا التهجم المسبوك سبكاً دقيقاً ومحكماً في كتاب «كبرى اليقينيات الكونية» لمؤلفه الأستاذ الدكتور سعيد رمضان البوطي الذي يُعدّ واحداً من أهم علماء المسلمين في بلاد الشام. ومن المعلوم أن كتابه المذكور قد وصل حتى الطبعة الثامنة وهو أيضاً من الكتب المقررة في كلية الشريعة.

ففي بحث «الجان» من كتابه المذكور، وتحت عنوان:

«إنكار وجود الجن سخف يتقنع بألفاظ العلم» يقول:

«. . إذا تبين لك هذا، فاعلم أنه لا ينبغي أن يقع العاقل ـ على الرغم مما ذكرناه ـ في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع «العلم» فيمضي يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الملائكة أو الجن من أجل أنه لم يرهم ولم يحس بهم.

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها، وما من عاقل يحترم نفسه ثم يذهب هذا المذهب في الخلط والتهوّس.

وما من عاقل فهم معنى «العلم» إلا وعلم أن القاعدة العلمية المشهورة، تقول: عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود. أي عدم رؤيتك للشيء الذي تبحث عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً»[1].

ويتابع الدكتور البوطي منتقداً من أطلق عليهم لقب: «البسطاء من الناس»، فيقول:

«ويغيب عن ذهن البسطاء من الناس، أنه كما لا يجوز الإيمان بوجود الشيء إلا إذا ثبت الدليل العلمي على وجوده، فإنه لا يجوز أيضاً الإيمان بفقدان الشيء إلا إذا ثبت الدليل العلمي على فقدانه».

ويتحدث الدكتور البوطي عما أسماه بـ «السخف العجيب» فيقول:

«غير أن السخف العجيب إنما يكمن عند من يزعم أنه مسلم يؤمن بالله ورسوله وكتابه، ثم يمضي يجادلك، أو يجادل القرآن بتعبير أصح، في وجود الجن مثلاً. ولا دليل يخاصمك به إلا أنه لم ير الجن ولم يحس بهم، أي لا دليل يخاصمك به إلا مجرد جهله كما قلنا».

ويتابع الدكتور البوطي مبيّناً ما أسماه: حقيقة المسألة في جذورها، فيقول إنها مجرد تقليد ومحاكاة لمحترفي الغزو الفكري ضد الإسلام وأهله، أي ـ على حد فهمي لما يقول ـ إنّ منكري الوجود الشبحي للجن هم في النهاية أشبه بالعبيد لأعداء الإسلام الذين يحترفون الغزو الفكري ضده، جاء في كتابه بيانه:

«والمسألة في جذورها مجرد تقليد ومحاكاة لمحترفي الغزو الفكري ضد الإسلام وأهله. فقد ألقوا الآذان إليهم، فسمعوهم يقولون: إن الاعتقاد بالجن والشياطين والملائكة(*)، إنما هو من الإحيائية والخرافات التي كانت سائدة عند العرب، فدعا إليها بعد ذلك محمد عليه الصلاة والسلام باسم الدين والاسلام فأحنوا رؤوسهم لما سمعوا، وأغمضوا العين والعقل عن التفكر في دليل هذه الدعوى وبواعثها وبراهينها العلمية،

---

(١) ـ راجع «كبرى اليقينيات الكونية» للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٨٢ الطبعة الثامنة.

(*) ـ لاشك أن الإيمان بالملائكة هو ركن من أركان الإيمان في الإسلام ـ المؤلف.

ثم انطلقوا يرددون هذا الكلام، دون أن يختلف أي اختلاف عن صوت ساداتهم»[1].

ويتابع الدكتور البوطي متحدثاً عن «السادة» ومن «ينغضون الرؤوس»، فيقول:

«ثم لما عاد أولئك السادة أنفسهم يتحدثون عن الأرواح وقصة تحضيرها وكيفية مناجاتها، عاد هؤلاء مرة أخرى يستمعون، وعادوا مرة أخرى ينغضون رؤوسهم مؤمنين معتقدين، دون أن يكشفوا غطاء العقل لأي تأمل أو برهان علمي. ثم انطلقوا هذه المرة يعتقدون بالأرواح، ويعلّمون الناس السبيل إلى تحضيرها ومكالمتها واستكشاف خفايا الماضي السحيق والمستقبل البعيد بواسطتها»[2].

ثم يبين الأستاذ البوطي أن مسألة تحضير الأرواح قابلة للتصديق أو التكذيب، وذلك بحسب ما تُقدم من دلائل ومشاهدات ثابتة دليلها الحس. ويتابع فينبه إلى أن الروح المحضرة قد تكون إحدى أرواح الجن الشريرة التي «تجيب وتناجي» من قعر السلة، بغية العبث والتسلي واللهو بالناس والسخرية منهم، وذلك ـ كما يقول ـ لأن في الجن، كما في الناس، أشراراً دأبهم الكذب والتلاعب بعقول الناس، ولذلك يجب الانتباه إلى أنه لا ينبغي تصديق الروح المحضرة، إذ لربما تكون من هؤلاء الجن العابثين الساخرين، وإليكم بيان الدكتور من كتابه كبرى اليقينيات الكونية الصفحة ٢٨٣:

«لا بد أنك تتساءل عن موقف العقيدة الإسلامية من قصة تحضير الأرواح، وما شاع من نبأ ذلك في أوروبا، ثم في جهات كثيرة من العالم العربي.

والجواب: أن العالم يمتلىء بالأرواح المختلفة بدون شك، ولكن الإسلام علمنا ألا نصدق أحداً في تحضير روح أو مكالمتها إلا إذا ثبت ذلك ببرهان التجربة المشاهدة، إذ التحضير والمكالمة من الأمور الخاضعة للحس، فلا يمكن أن يكون دليلها أيضاً إلا الحس[3]. وقد مضى بيان ذلك في تمهيد هذا الكتاب. فإن ثبت أمامك ببرهان التجربة والمشاهدة على ذلك، فلا مانع من تصديقه، بل لا مناص من تصديقه، ولكن الذي لا يزال مجهولاً بعد ذلك هو ماهية هذه الروح... ولا يكفي لرفع الجهل أن تنطق الروح أو تكتب أو تزعم بواسطة ما، أنها روح فلان من الناس، فهو خبر يحتمل الصدق أو الكذب. ولا دليل على صدقه، وكما أن في الناس أشراراً دأبهم الكذب والتلاعب بعقول الناس، فإن في الجن أيضاً كذلك. فمن أين لك أن الذي يناجيك أو يكتب لك جواب أسئلتك من قاع السلة ليس شيطاناً مريداً، جاء ليلبس عليك دينك ويلهو بمخادعتك ويتلذذ بالكذب عليك؟»[4].

---

(١) و(٢) «كبرى اليقينيات الكونية» للدكتور البوطي ص ٢٨٢ الطبعة الثامنة.

(٣) ـ الغريب أن يرفض الدكتور البوطي ماأسماه «دليل الحس» في التحقيق في موضوع الجن، ثم يؤكده شرطاً في موضوع الروح رغم انتماء كلا البحثين إلى عالم يعتبره العقل الإنساني حتى الآن خفياً!.

(٤) ـ «كبرى اليقينيات الكونية» حاشية ص ٢٨٤.

ويبين الدكتور البوطي حقيقة الأرواح ـ على حد اعتقاده ـ التي تسيطر على المجانين والمغرورين الذين يعتقدون أنهم أحبّاء الله وأولياؤه، وأن الله قد أكرمهم بأنه أسقط تكاليفه عنهم فيقول:

«. . وأيقنوا أنهم وزراء الله المدللون في الأرض بينه وبينهم نسب الأرواح الطاهرة التي تناجيهم، مع أنها ليست إلا أرواحاً حقيرة من أرواح مردة الشياطين التي تحط فوق قمامات العقول والأفكار(١) تتلهى بإغوائها واللعب بها»(٢).

ثم يتابع الدكتور البوطي متحدثاً عن الروح الشريرة التي تلهو بمخادعة الناس والضحك على عقولهم، فيقول:

«فالأرواح لا شك في وجودها، ولكنها لا ينبغى أن تكون صادقة إذا قالت لك إحداها: أنها روح أحد الأنبياء، ثم راحت تقدم لك المبادىء والعظات بناء على أنها كذلك. إنها بدون ريب روح شريرة تلهو بمخادعتك»(٣).

أرواح شريرة تلهو بمخادعتنا!!..

تصور أن تعتقد وتؤمن بأنك محاط، في كل مكان، بأرواح شريرة تلهو وتتسلى بمخادعتك ومخادعة الناس، وكأنها حرة (فلتانة) في ملكوت الله سبحانه وتعالى، وغير تابعة إلى عالَم معين أو محكومة به!

كيف، والروح، بحسب المفهوم الإسلامي، بعد الموت وفي حياة البرزخ، تكون إما في حفرة من حفر النار، أو في روضة من رياض الجنة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح؟!

فهل من المعقول أن تترك الروح الطيبة روضات الجنة لتستقر في قعر سلة محضّر الأرواح، لتكتب وتناجي وترد على أسئلة الناس؟!

أو هل في إمكان الروح المسجونة في برزخ «حفرة النار» أن تنطلق من سجنها، وتتحرر

---

(١) ـ بيان رائع رفيع المقام.

(٢) ـ الدكتور البوطي في «كبرى اليقينيات الكونية» ص ٢٨٤.

(٣) ـ المرجع السابق ص ٢٤٨.

من عذابها، على هواها، حين استدعائها للخروج من حفرة عالم الروح للنزول في حفرة قعر السلة؟!

ثم، وهل للروح وزن مادي يجعلها تهبط في قعر السلة ثم تضغط بثقلها لتحرك قلماً يكتب على ورقة ويجيب على أسئلة المحضّرين؟

ثم لماذا تكون الإجابة كتابة ولا تكون صوتاً وكلاماً وظهوراً؟ فهل يُسمح للروح بالحضور[1] - حين يأمرها المحضّر - ويسمح لها بالإشعار بوجودها بالحركة والخط والكتابة، ثم يحرّم عليها أن تصدر صوتاً أو كلاماً؟ أم أن ثمة تخصصات في أشكال ظهور الأرواح، حيث أن منها ما يستهويه النزول في قعر السلة والسيطرة على حركة القلم المثبت إليها، ومنها ما ينزل على الحبال الصوتية للوسيط فتتكلم بصوته من عالم البرزخ تخاطب الناس وتحدثهم عن الماضي أو غيب المستقبل[2] أو غيره مما يسألونها عنه؟!

ونسأل هنا: ترى ما الغاية من كل هذه الحركات والتأليفات، بل وما الفائدة، وما النتائج التي حققتها لصالح الإنسان أو يُنتظر أن تحققها سوى زجّ عقول الناس في سجون الوهم والخرافة والخيال والقعود بهم ودفعهم بعيداً عن مدارج الترقي والتقدم ومواكبة الحضارة الإنسانية الراقية أينما وجدت؟ ثم أليس في ترويج الاعتقاد بالجن وتحضير الأرواح إعطاء للفرصة وفسح للمجال في أن يتمكن المشعوذون من استغلال جهل الناس وإيمانهم بالخرافة؟ ثم أين في هذا الترويج «كشف الغطاء عن العقل» للتأمل والبرهان العلمي الذي دعا إليه الدكتور البوطي؟!

أين التأمل في تصديقك بروح جني شرير «تعبث بك وتلهو بمخادعتك»؟ وأين البرهان العلمي في ذلك؟

لقد قطع التعليم الإسلامي في القرآن الكريم الطريق على جميع الحركات الخادعة التي تتصيد في جهل الناس وتستغل نقاط ضعفهم. ولكن قبل أن نبين قول القرآن الكريم في

(١) - يعلّمنا الإسلام أن الروح من أمر الله وحده، قال عزوجل ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ ولم يقل أنها تأتي أيضاً بأمر غيره.

(٢) - يعلمنا الإسلام أن الله وحده يعلم الغيب، قال ربنا في القرآن الكريم: ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو﴾. (الأنعام: ٥٩)

أمر الروح، لا بد من لفت النظر إلى مغالطة كبيرة اشتهرت بين مروجي الاعتقاد بتحضير الأرواح وهي تتعلق بالخلط الكبير بين مفهوم «الروح» ومفهوم «النفس».

بيان القرآن الكريم في النفس . . والروح:

من المفيد في سياق بحثنا هنا أن نعرّج على دراسة موجزة وهامة تتعلق بشرح المفهوم القرآني لـ (الروح) و(النفس) لبيان الخطأ الشائع في الخلط بينهما، وكذلك لدحض الزعم بما يسمى بـ (تحضير الأرواح).

يخلط بعض الناس في اللغة الدارجة بين النفس والروح، فيقولون أن فلاناً طلعت روحه، أو زهقت روحه أو أن روحه اطمأنت أو أنها تتعذب أو أنها تاقت واشتاقت أو ضجرت وملت وكل هذه تعبيرات خاطئة، لأنها في الحقيقة، أحوال تخص (النفس) وليس (الروح)[1].

يبين لنا القرآن الكريم أن ما يخرج من بدن المحتضَر عند الموت والحشرجة هي نفسه وليست روحه، حيث يورد لنا قول الملائكة للمجرمين لحظة الموت:

﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾

(الأنعام: ٩٣)

فها هنا بيان قرآني واضح أن التي تخرج عند الموت هي النفس، وليست الروح.

وكذلك يبين لنا القرآن الكريم أن النفس هي التي تذوق الموت وليس الروح، يقول ربنا عز وجل:

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (آل عمران: ١٨)

ونجد هنا أن النفس تذوق الموت، ثم تمضي بعد ذلك في رحلة إلى ربها عز وجل، يقول تعالى:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾

(الفجر: ٢٧)

---

(١) ـ راجع كتاب الدكتور مصطفى محمود «القرآن كائن حي».

والنفس، في القرآن الكريم، تندرج في مدارج ثلاثة:

أولاً: النفس الأمارة بالسوء

قال ربنا عز وجل: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾

(يوسف: ٥٤)

وهذا يعني أن النفس تغري صاحبها بالشر والسوء وبذلك تدفعه بعيداً عن تحصيل كماله الأخلاقي، وتحثّه على اتباع السبل السيئة والشريرة[١]. وهذه الحال الطبيعية تسيطر على عقل الإنسان قبل دخوله المرحلة الأخلاقية التي هي مرحلة (النفس اللوامة). وتستمر حالة النفس الأمارة للإنسان[٢] طالما أنه منساق بغرائزه وغير منقاد بعقله وفهمه، حيث أنه منهمك في الانغماس ـ وبشكل غريزي ـ في الأكل والشرب والنوم واليقظة والغضب والاستفزاز، كما هي الحال لدى الحيوان في استجابته لغرائزه. ولكن عندما يعمد الإنسان إلى الانقياد والاهتداء بعقله وفهمه، ومن ثم يخضع حالته الطبيعية لسيطرة وضبط عقله بالشكل الملائم والمناسب، فإن حالته هذه تتوقف عن كونها الحالة الطبعية وتدخل في المرحلة الأخلاقية، التي هي مرحلة (النفس اللوامة)[٣].

ثانياً: النفس اللوامة

وهي مصدر الحالة الأخلاقية عند الإنسان، قال ربنا عز وجل: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾

(القيامة: ٣)

وتدفع هذه النفس الإنسان إلى التخلص من أسر النفس الأمارة، كما تدفعه إلى اتباع السلوك الأخلاقي الراقي، وضبط الغرائز الطبعية والسيطرة عليها وعلى العواطف والرغبات وتنظيمها بفعل العقل. ولقد شرّف الله عز وجل هذه النفس حين أقسم بها. وبما أنها تلوم

(١) ـ «فلسفة أصول التعاليم الإسلامية» للإمام ميرزا غلام أحمد.
(٢) ـ وهي أيضاً القرين الذي يأمر بالسوء.
(٣) ـ نفس المرجع.

الإنسان على كل تحرك سيء وشرير فقد سُميت بالنفس اللوامة[1]. وهي أيضاً القرين الذي يأمر بالخير.

ثالثاً: النفس المطمئنة

وهي تشكل بداية المرحلة الروحية لدى الإنسان، قال ربنا في القرآن الكريم: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾**

(الفجر: ٢٨ ـ ٣١)

وهذه هي المرحلة التي تمتلىء فيها روح الإنسان بالطاقات الروحية وتؤسس صلة بالله عز وجل الذي لا تستطيع بدونه تعالى أن توجد أصلاً، وتأتي هذه المرحلة بعد أن يكون الإنسان قد تخلص من كل ضعفه ونقائصه.

وكما الماء ينصب منحدراً من شاهق ولا معيق له، كذلك فإن النفس المطمئنة تنطلق متوجهة إلى ربها[2].

تلك إذن هي مدارج النفس الثلاثة. فالنفس تطوّع لصاحبها العمل الخاطىء والشرير.

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾

(المائدة: ٣٠)

وهي أيضاً شيطان الإنسان الذي يوسوس له:

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾

(ق: ١٦)

وهي أيضاً التي تسول لصاحبها، وتضيق عليه، وتزهَق، وتأمره بالشح، جاء في القرآن الكريم:

﴿بل سولت لكم أنفسكم﴾ **(يوسف: ١٨)**

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ **(التوبة: ١٨)**

(١) ـ المرجع السابق بتصرف.

(٢) ـ المصدر السابق.

﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم﴾

(التوبة : ٥٥)

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾

(الحشر: ٩٠)

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾

(النساء: ١٢٨)

فالنفس هي المتهمة في القرآن الكريم بالشح والوسواس والسوء والفجور والطبيعة الأمارة أو اللوامة، وللنفس في القرآن ترقٍّ وعروج، فهي يمكن أن تتزكى وتتطهر، قال تعالى:

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾

(الشمس: ٨٠٧)

أما الروح في القرآن الكريم، فتُذكر دائماً بدرجة عالية من التقديس والتشريف، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة أو شوق أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر أو ملل، ولا يُذكر أنها تخرج من الجسد أو أنها تذوق الموت. . ولا تُنسب إلى الإنسان، وإنما تأتي دائماً منسوبة إلى الله[1].

يقول ربنا تبارك وتعالى في قصة مريم:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾

(مريم: ١٧)

وفي قصة آدم يقول عز وجل:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فها ربنا هنا يقول «روحي» ولا يقول روح آدم.

﴿وأيدهم بروح منه﴾

(المجادلة: ٢٢)

نجد كلمة الروح هنا أيضاً منسوبة إلى الله تعالى.

---

(١) - راجع «القرآن كائن حي» للدكتور مصطفى محمود.

وفي التعبير القرآني جاءت كلمة الروح تعني القرآن الذي أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾

(الشورى: ٥٢)

والروح في القرآن هي وحي الله لعباده المرسلين:

﴿يلقي الروح على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾

(غافر: ١٥)

نجد من هذا البيان القرآني الواضح أن (الروح) في كتاب الله عز وجل تأتي دائماً منسوبة إلى الله، وهي دائماً في حركة من الله وإلى الله، ولا تجري عليها الأحوال الإنسانية ولا تكون محلاً لشهوة أو هوى أو شوق أو عذاب، ولهذا فقد جاءت في القرآن الكريم في موضع تكريم وتشريف من الله سبحانه وتعالى.

فالروح إذن هي غير النفس، وهي نفخة الخالق فينا، ولكل منا نصيبه منها، قال تعالى في قصة خلق آدم:

﴿إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾

(ص: ٧١، ٧٢)

وما حدث من أمر التسوية والتصوير والنفخ في صورة آدم يعود فيتكرر في داخل الرحم في الحياة الجنينية لكل منا.. فيكون لكل منا تسوية وتصوير، ثم نفخة ربانية حينما تتهيأ الأنسجة ويستعد المحل لتلقي هذه النفخة.. وينتقل الخلق بهذه النفخة من حال إلى حال، قال ربنا:

﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾

(المؤمنون: ١٤، ١٥)

فيقول عند النفخة: **﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾**.. إشارة إلى نقلة هائلة من المضغة المكسوة بالعظام إلى خلق لا يقدر عليه إلا أحسن الخالقين.. وذلك بالنفخة الربانية.

ويتكلم القرآن عن هذا النفخ في الجنين بعد تسويته في آية أخرى عن نسل آدم:

﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾

(السجدة: ٨، ٩)

ونفهم من هذا أن السمع والبصر والفؤاد هي من ثمار هذه النفخة الروحية.. وأنه بهذه المواهب ينتقل الإنسان من نشأة إلى نشأة، ومن مستوى إلى مستوى.

﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾

إن نصيب الإنسان من الروح هو إذن نصيبه من هذه النفخة وكل منا يأخذ من هذه النفخة على قدر استعداده.

وبفضل هذه النفخة يصبح للواحد منا خيال وضمير وقيم وعالم من المثل..

والعلاقة بين الجسد والروح فينا هي أشبه ما تكون بالعلاقة بين أرض الواقع وسماء المثال.

وأما علاقة نفس كل منا بروحه وجسده فهي أشبه بعلاقة ذرة الحديد بالمجال المغناطيسي ذي القطبين.

والذي يحدث للنفس دائماً هو حالة استقطاب.. إما انجذاب وهبوط إلى الجسد.. إلى حمأة الواقع وطين الغرائز والشهوات، وهذا هو ما يحدث للنفس الجسدانية الحيوانية حينما تشاكل الطين وتجانس التراب في كثافتها.. أو يحدث للنفس انجذاب وصعود إلى الروح إلى سموات المثال والقيم والأخلاق الربانية، وهو ما يحدث للنفس حينما تشاكل الروح وتجانسها في سموها ولطفها وشفافيتها.

تكون النفس طوال الحياة في حركة تذبذب واستقطاب بين القطب الروحي، وبين القطب الجسدي.. مرة تطغى عليها ناريتها وطينتها، ومرة تتجلى فيها شفافيتها وطهارتها.

والجسد والروح هما مجال الامتحان والابتلاء، حيث تبتلى النفس وتمتحن بهاتين القوتين الجاذبتين إلى أسفل وإلى أعلى لتُخرج سرها وتُفصح عن حقيقتها ورتبتها وليظهر خيرها وشرها.

وبهذا المعنى تكون كلمة «تحضير أرواح» كلمة خاطئة فالأرواح لا تستحضر، ولا يمكن

لأي روح أن تستحضر، لأن الروح نور منسوب إلى الله وحده، وهو تعالى ينفخ فينا هذا الروح لنستنير به . . وهذا النور من الله وإلى الله يعود ولا يمكن حصره أو استحضاره[1].

وإني وإن كنت أوافق الدكتور مصطفى محمود وغيره ممن يفهم من القرآن الكريم هذا الفهم في التمييز بين الروح والنفس، إلا أنني أخالفه، في تفسيره لـ «تحضير الأرواح» على أنه تحضير للقرناء من الجن، حيث يقول:

«أما ما يحشر ويستحضر فهي الأنفس وليست الأرواح . . هذا إذا صح أن هؤلاء الناس يستحضرون أنفساً في جلساتهم . . وأغلب الظن أن ما يحضر يكون من الجن المصاحب لهذه الأنفس في حياتها (القرناء)، وكل منا له في حياته قرين من الجن يصاحبه، وهو بحكم هذه الصحبة الطويلة يعرف أسراره ويستطيع أن يقلّد صوته وإمضاءه، وهذا الجن الذي يلابس الوسيط في غرفة التحضير المظلمة، ويدهش الموجودين بما يحسبونه خوارق»[2].

إن الدكتور مصطفى محمود يعكس هنا تصديقه بالوجود الشبحي للجن، كغيره ممن يصدقون بذلك، وأما دحض هذا الاعتقاد فسيكون محله الفصول القادمة من كتابنا هذا بعون الله تعالى.

إذن ليس صحيحاً الزعم بأن نفس الميت، أو روحه على ما يزعمون، تعود إلى الدنيا بناء على نداء المحضّر لها فتتكلم على لسان الوسيط أو تستقر في قعر السلة تكتب وتخاطب الناس وتجيب على أسئلتهم.

ويؤكد القرآن الكريم بأن النفس التي يتوفاها الله عز وجل يمسكها أن تعود إلى الدنيا فلا تعود، قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾

(الزمر: ٤٢)

وهل يمكن لـ (نفس) أمسكها الله أن يحررها (محضّر الأرواح)؟ إن كلمة يمسك هنا واضحة البيان في أن النفس تبقى بعد الموت في عالمها الذي يحجزها أن تعود وهو عالم البرزخ. كما يبين القرآن الكريم ويؤكد معنى إمساك النفس هنا بأنه عدم السماح لها بالعودة

---

(١) ـ راجع في هذا البيان كتاب الدكتور مصطفى محمود «القرآن كائن حي».

(٢) ـ مصطفى محمود في «القرآن كائن حي» ص ٣٠.

إلى الدنيا لأي سبب كان، حيث تتابع هذه الآية فتقول:

﴿ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾

(الزمر: ٤٢)

إذن نحن في هذه الآية أمام نفسين: إحداهما يمسكها الله، وهي التي قضى عليها الموت، فكيف تأتي روح من عالم أمسكها الله فيه لتجلس في قعر سلة محضر الأرواح أو تهتزّ على الحبال الصوتية لوسيطه؟ وكيف يمكنها الإفلات من قبضة أمسكها الله بها؟!

وأما النفس الثانية فتظل متعلقة بجسد صاحبها حتى الموت وهي التي تكون قد غادرته جزئياً حال النوم الذي هو أشبه ما يكون بالموت، إليكم الآية كاملة:

﴿الله يتوفى[1] الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾

(الزمر: ٤٢)

وتبين الآية التالية من القرآن الكريم أنه يستحيل على نفس توفاها الله بالموت أن تعود إلى الحياة الدنيا لأن الله عز وجل يحجز الأنفس جميعاً وراء برزخ لا تستطيع تجاوزه إلى يوم تبعث الأنفس ويقوم العباد لرب العباد، يقول ربنا تبارك وتعالى مبيناً هذه الحقيقة:

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال رب أرجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت. .﴾

(المؤمنون: ٩٩)

فما هو جواب الله تعالى لهذه النفس:

﴿كلا، إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾

والبرزخ في اللغة العربية هو الحاجز الفاصل، قال تعالى:

﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾

(الرحمن: ٢٠)

إن البحث في شأن الروح أمر يطول، وهو ليس موضوع بحثنا في هذا الكتاب، بل سيكون لنا بعون الله بيان مفصل يتعلق بالحقائق الإسلامية المتعلقة بالروح في كتاب آخر

---

(١) ـ «توفى فلان حقه: أخذه وافياً، وتوفاه الله: أي قبض روحه». محيط المحيط.

نفرده لدراسة الروح في الفلسفة الإسلامية على ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنني لم أجد مناصاً في هذا الكتاب من تقديم بعض البيان المتعلق بالروح للرد على من يزعم بأن الجن والأرواح الشريرة تحضّر بشكل أو بآخر لتتلاعب بعقول الناس تسخر منهم وتستهزىء بهم من خلال ما يسمى بجلسات (تحضير الأرواح).

وهكذا باسم الوجود الشبحي للجن والشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة والشريرة، نزفت العقول والجهود والكرامات عمراً مكسوراً يئن من ثقل الخوف الباطل من الشر والأذى، فوقعت فريسة سهلة في براثن الشر والأذى على أيدي محترفي الشعوذة والتلاعب بجهل الناس وإيهامهم بالخرافة.

لقد ابتلع غول الخرافة والخيال ما لا يحصى من الضحايا البشرية على مدى الدهور والأزمنة. وقد آن الأوان، إن لم يكن لإنقاذ أنفسكم، فلإنقاذ أولادكم وأهلكم ووطنكم وأمتكم والأجيال القادمة بعدكم من طحن هذا الفك المفترس والخلاص من ضريبة الجهل وإهمال الفكر والتعقل.

يفيدنا كثيراً أن نقف أمام وجداننا وعقلنا وقفة متأملة متفكرة، وأن نعترف ببساطة وصراحة أن الخرافة، التي لا تستند إلى أي تبرير عقلي ولا تخضع إلى أي مفهوم علمي، إنما تكرّس في مجتمعنا العربي ـ الناهض ـ والإسلامي التبعية للوهم والجهل والخيال، فتعطل جانباً كبيراً من القدرات والطاقات العاملة والمنتجة الهامة والضرورية لأمتنا من أجل النهوض بمجتمعنا العربي والإسلامي من حالة التكاسل والتواكل، إلى حالة السعي الواثق والواعي والمستنير بحضارة العقل والعلم لمواكبة ركب الحضارة الإنسانية الحقة في جميع مجالات نهضتها.

والآن..

أعود فأكرر ذات السؤال الذي جاء في مطلع هذا الفصل:

هل علمك بالجن والشياطين والعفاريت..

علم اليقين..

أم عين اليقين..

أم حق اليقين؟

وإذا كنت ممن لا يؤمن بالخرافة ولا بوجود أية مخلوقات شبحية خارقة، فهل باستطاعتك أن تقنع بذلك أولادك وأهلك، أو أصدقاءك ومعارفك أو من شئت من الناس؟

وهل تقدر على تقديم البيان والبرهان على أن هذه الخرافات ليست من الدين ولا من العقل، وأن حجة القائلين بأن ذكر الجن والشياطين قد ورد في القرآن الكريم، لا يبرر بأي حال من الأحوال أياً من هذه الخرافات وبأية صورة كانت أو شكل كان؟

هل لديك الدليل والبيان المقنع من كتاب الله القرآن، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الزعم بوجود مخلوقات شبحية خارقة الأذى والقوى، إنما هو زعم باطل يرفضه القرآن الكريم كما يرفضه الحديث الشريف أي يرفضه دين الله الإسلام؟

هل لديك البرهان؟

إنه في كتاب الله القرآن، والأحاديث الصحيحة لمحمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

يمكنك، أن تقدم البرهان المبين من هذين المصدرين العظيمين (القرآن والحديث) على أن كل هذه الاعتقادات الباطلة وما يتبعها من تأليفات وتصورات وأوهام وخيالات وممارسات، ليست من الدين والإيمان في شيء، بل هي مجرد تخريف ودجل باطل وتجارة يتكسّب بها المشعوذون من ضحاياهم الذين يذبحونهم بجهلهم وبسكين الوهم والخرافة والإيمان الباطل بالقدرات الخارقة للمخلوقات الشبحية المزعومة باسم الجن والشياطين. .

ولقد كانت، ولا تزال، دماء هذه الضحايا والقرابين تسيل على مذابح الخرافة والدجل: أعماراً، أموالاً، شرفاً وكرامة إنسانية تدوسها أقدام الدجالين والمشعوذين والساكتين عنهم. .

فاحذر موطىء الأقدام!

قد سالت تلك القيم الإنسانية الغالية دماء ولا تزال تجري حتى اليوم، ويشربها الدجالون المشعوذون من عروق كل ضحايا الوهم والخرافة والخيال الذين يصدقون بشبحية الجن والأرواح الشريرة والشياطين، ظانّين ذلك من الدين، فبذلوا دينهم وعقولهم وأموالهم وكرامتهم وجهودهم وأعمارهم رخيصة مبتذلة للاستهلاك باسم الدين.

سؤال مخلص:

إذا قفز شخص مذعوراً من فراشه يقول لك إنه رأى عقرباً ينسلّ مندسّاً إلى غرفة نومه، هل تستطيع أن تطمئنه وتذهب الروع عنه بمجرد أن تقول له: لا تخف ليس ثمة عقرب في غرفتك أو فراشك إنما أنت واهم ويمكنك العودة إلى النوم براحة واطمئنان وسلام؟

هل تقنعه بتأكيداتك دونما برهان؟

طبعاً لن يقبل منك، ولن يصدق بكلامك إلا إذا بحثت وفتشت معه في كل مكان من الغرفة والفراش، فجعلته يعلم حق اليقين أنّ ليس ثمة عقرب أو غيره مما يؤذي في غرفته وفراشه أو أن تجد العقرب فتسحقه بقدمك أمام عينيه فيراه مسحوقاً مقتولاً بأم عينيه. عند ذلك فقط تسكن هواجسه وتطمئن نفسه إلى عدم وجود عقرب في غرفته أو فراشه فيعود إلى نومه أو يتابع عمله أو دراسته فيها أو ما يخصه من شأن دون أن يبدده ويقتله هاجس الخوف في كل لحظة وحين.

وطالما أنه لم يتم تفنيد الحجة بأن ورود اسم الجن والشياطين في القرآن والحديث يبرر كل هذه الصور من الخرافة والخيال، فلن يتم حقاً القضاء على هذه التجارة الرهيبة بجهل الناس وكرامتهم وقدراتهم في وطننا ومجتمعنا وأمتنا..

والقصد من هذا الكتاب الذي هو الثاني من سلسلة «الإسلام الذي يجهلون» أن نبرهن بعون الله تعالى أن الإسلام في كتابه القرآن وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يرفض كل هذه الصور من الدجل والخرافة والأباطيل من أساسها، ويقدم للناس في حقيقتها برهاناً ونوراً مبيناً يرفع الإنسان بعقله ومعتقده الحق وإيمانه المخلص السليم إلى ذرى الحضارة والخير والعطاء..

الفصل الثاني

الإختلاف الكبيـــر

إن الإيمان بالوجود الشبحي للجن والشياطين
على أنها مخلوقات مغايرة للبشر
يستلزم وجود تناقض واختلاف كثير
في القرآن الكريم .

قال ربنا عز وجل :

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾

(النساء : ٨٢) .

﴿قل هو الله أحد . . ﴾

والقرآن الكريم هو كلام الله الواحد الأحد . .

ولذلك فإن كل ما فيه يدل على وحدانية الله تعالى . .

وهو الكتاب الذي أحكمت آياته . .

وهذا يعني أنه يستحيل وجود تناقض، أو اختلاف في أية آية من آياته أو أي جزء من أجزائه.

فلو ظهر، حين دراستك لأي موضوع كان، أدنى تناقض أو اختلاف أو تعارض، فلا بد عندئذ من الإنتباه إلى أنك تناقش هذا الموضوع وتدرسه من خلال فهم خاطىء لا يصح ولا يؤيده القرآن وإلا لما بدا لك أي اختلاف، قال ربنا عز وجل عن القرآن الكريم:

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

إذن يجب أن نفهم المواضيع التي يعرضها القرآن الكريم على أساس قاعدة أنه يستحيل وجود أي تعارض أو تناقض أو اختلاف فيه لأي سبب وبأي شكل كان. وهذا هو الدليل الذي ألزمنا به ربنا عزوجل للبرهان على أن القرآن من عنده وحده سبحانه وتعالى، وهو كلامه المحكم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلا فإن وجود أي اختلاف فيه لابد أن يؤدي بالعقل السليم والمنطق الإنساني إلى عدم التصديق بأن القرآن الكريم كتاب من عند الله.

ولذلك فإنّ دَحْضنا للباطل في الإعتقاد بالمفاهيم الخاطئة المتعلقة بالجن والشياطين، يقوم أساساً على برهاننا من كتاب الله عزوجل: إن مثل هذا الإعتقاد لابد موصل صاحبه إلى وجود اختلاف وتناقض في القرآن الكريم، الأمر الذي يستلزم تصحيح هذا الإعتقاد على

ضوء الدراسة والتحليل السليم لآيات كتاب الله القرآن وأحاديث سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، كي يزول ذلك التناقض والإختلاف. وهذا لايكون إلا بتصحيح هذه المعتقدات الباطلة واستبدالها بالمفهوم والإعتقاد الحق. قال ربنا عزوجل:

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾

(الأنبياء: ١٨).

والآن...

نتدارس معاً بالتحقيق، الإشكالات القرآنية المترتبة على الإعتقاد بالوجود الشبحي لمخلوقات غير البشر من الجن والشياطين، والزعم بأن هذا هو الفهم الذي يريد الإسلام منا أن نؤمن ونعتقد به.

وأقول ابتداءاً:

إن الإيمان بوجود غيبي للجن والشياطين ليس ركناً من أركان الإيمان المعروفة في الإسلام والتي هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله كما جاء في الحديث الصحيح. ولذلك فلا مبرر لتكفير من يقول إنه لا يؤمن بوجود الجن والشياطين بالصورة الشبحية التي يقول ويعتقد بها الذين يفهمونها حصراً بهذا الشكل، ولامدعاة لتكفيره واعتباره مرتداً خارجاً عن ملة الإسلام كما يزعمون(١).

أما عن القول بأن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بوجود الجن والشياطين على أساس أنها مذكورة في القرآن الكريم، فأقول:

إن التصديق بالقرآن الكريم يستلزم التصديق بأن هناك ما يسمى بالجن والشياطين، هذا صحيح، ولكنه لايستلزم مطلقاً التصديق بالصوَر الخرافية التي يعتقد بها عامة الناس على أنها هي وحدها المفهوم الإسلامي الصحيح الذي ذكره القرآن الكريم، أو جاءت به الأحاديث.

ولهذا نقول إن اختلاف الناس في فهمهم لحقيقة لفظتي الجن والشياطين الواردتين في

---

(١) ـ راجع كتاب «مبادىء العقيدة الإسلامية» المقرر في جامعة دمشق كلية الشريعة لمؤلفه الدكتور مصطفى سعيد الخن يقول فيه: «الإعتقاد بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة... فمن أنكر وجودهم فقد خرج من الإسلام». ص ٣٠٣.

كتاب الله عز وجل، يجب ألا يؤدي في أي حال من الأحوال الى تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، أو استعداء بعضهم على بعض. فلقد اختلف الأئمة السابقون رحمهم الله في كثير من المفاهيم والمسائل الإسلامية، سواء ما جاء في القرآن الكريم أو الحديث الشريف، فلم يكفّر أحد منهم الآخر، بل عدوا الإختلاف اجتهاداً في الفهم يؤجر صاحبه عند الله تعالى.

ونعود فنقول إن الإعتقاد بالوجود الشبحي للجن والشياطين واعتبارها مخلوقات من غير البشر، وإنها مكلفة ومأمورة بالإيمان بالقرآن الكريم ورسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يؤدي - كما سنبين في هذا الفصل - إلى وجود إشكالات قرآنية واختلاف كبير في الآيات لايمكن أن يزول مع الإصرار على الإعتقاد بهذا الفهم الخرافي السائد.

الإشكال الأول:

القرآن الكريم ينص على أن الإنسان وحده منوط بالتكليف والجزاء.

نعلم هذا بكل وضوح من قول ربنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.

(الأحزاب: ٧٢).

جاء في كلام المفسرين للقرآن الكريم أن الأمانة هنا تعني: «التكليف»[1]، وهي تكليف الإنسان بحمل الشريعة والعمل بهداها وتطبيقها كاملة وعدم الخروج عنها.

ومن المعروف أن التكليف يأتي مع الرسل في رسالاتهم إلى الناس، فمن يؤمن بهم ويصدق برسالاتهم، ويحمل الأمانة، (أي يقوم بأمانة التكليف بأوامر الله تعالى ونواهيه الواردة في شرعه) يكون من الفائزين برضى الله وجنته، وأما من يفشل في حمل هذه الأمانة (يخالف التكليف) أو يرفضها، فإنه يقع في سخط الله وعذابه. وهذا المفهوم المختصر واضح وبسيط ويعكس المنطق المفهوم لدى بعض الناس جميعاً فأين الإشكال إذن؟

الإشكال ينشأ حين نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد استثنت من رفض حمل الأمانة (التكليف) مخلوقاً واحداً فقط وهو: «الإنسان» ولم تستثن غيره. وإلى هنا ليس ثمة إشكال

---

(١) - راجع التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي.

ولكن حين نتذكر قول الله عز وجل في القرآن الكريم:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾.

(الأعراف: ١٧٩)

هنا يحصل الإشكال، إذ كيف يدخل في حساب الله وعذابه من لم يحمّله الله أمانة ولا تكليفاً؟ فلقد علمنا من الآية السابقة أن المخلوق الوحيد الذي حمل الأمانة والتكليف هو حصراً «الإنسان»:

﴿وحملها الإنسان﴾.

ولم تقل الآية الكريمة، /وحملها الإنسان والجان/. بل ذكرت الإنسان وحده فقط.

إذن كيف يحاسَب الجان مع الإنسان في العذاب أو النعيم وهم لم يحملوا أمانة ولا تكليفاً؟

وهل يجرؤ أحد على القول بأن هذه الآية ليست محكمة في معناها ومؤداها؟ هذا لايمكن البتة فقد قال ربنا عزوجل في القرآن الكريم عن القرآن أنه:

﴿كتاب أحكمت آياته﴾ (هود: ١).

أي أن قول الله عزّ وجل في كتابه: أن الذي حمل الأمانة هو «الإنسان» يعني أنه لم يحملها أي مخلوق آخر غيره بل الذي حملها وصار بذلك مكلفاً بها محاسباً عليها هو الإنسان حصراً لاسواه من المخلوقات سواء الملآئكة أو غيرها. هذا إشكال يستلزم الحل[١].

ونورد للإيضاح مزيداً من كلام ربنا تبارك وتعالى:

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾

(الأعراف: ٣٨).

هذه صورة للجن في العذاب.. وأما عن الجن في النعيم، جاء في القرآن الكريم عن الحور العين:

﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان﴾ (الرحمن: ٧٤).

فها أنت ترى معي الجن في النار وفي الجنة، فهل يدخلونها جزاء على التكليف، بينما

---

(١) ـ سنعمد في الفصول القادمة ـ بعون الله ـ إلى حل جميع هذه الإشكالات التي نطرحها في هذا الفصل.

الإنسان وحده حامل الأمانة ومنوط بالتكليف، وهم غير مكلفين؟

إن هذا الإشكال لايمكن أن يزول إذا كان الجن فئة من الناس وأن الإنس والجن تسميتان لجنس واحد من المخلوقات وهم البشر من أبناء آدم عليه السلام[1].

الإشكال الثاني:

يؤكد القرآن أن الله عز وجل لايرسل رسولاً إلا من جنس المرسل إليهم.

قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿قل لو كان في الأرض ملآئكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾
(الإسراء: ٩٥).

هذه الآية الكريمة تبين القرار والمنطق الإلهي في أن الله الحكيم الخبير بخلقه قد قدّر ألا يرسل إلى مرسل إليهم رسولاً إلا من جنسهم حتى لو كانوا ملآئكة[2]. وهذا ينسجم أيضاً مع العقل والمنطق الإنساني في أن الأسوة أو المثل لقوم يجب أن يكون من جنسهم ولهم صفاته وقدراته ذاتها حتى لايكون لهم حجة على رسولهم فيقولوا له نحن لانقدر أن نتبعك أو نتمثل أفعالك وأقوالك، لأنك تتميز بقدرات تختلف عن قدراتنا.

هذا منطق سليم يقبله كل عقل سليم.

فهل يعقل أن نتخيل نسراً يدرِّب خرافاً على أن تقلده وتتمثل قدراته وتسعى لأن تتصف بصفاته؟

أو هل يعقل أن يطلب من النسور أن تتدرب على يدي خروف فَتَحْيا مثله وتأكل وتشرب مثله وتعيش مثل عيشه وتكون صورة عنه؟

أم هل يعقل أن يطلب من الجني والعفريت والمارد، هذه المخلوقات التي هي في عرف الناس تتأجج النار في عروقها وتسبق الضوء في سرعتها وتلمس السماء بأيديها وتتشكل بكل

---

(١) ـ هذا الإستنتاج في هذا الموضع مجرد ملاحظة، أما البرهان فيسأتي في حينه في الفصول القادمة مفصلاً.

(٢) ـ قال تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾
(الأنعام: ٩)

الأشكال وتجوب كل الأنحاء، هل يعقل أن يطلب من هذه المخلوقات (الخارقة) أن تتخذ لها أسوة ومثلاً (إنساناً) يمشي على الأرض بطيئاً، يتعثر ويغرقه الماء وتكويه النار، وإذا أغمض عينيه غفل عما حوله، وإذا عاش عاش عمراً قصيراً، تحجبه المرئيات، وترهقه المسافات، ولايرى إلا ما تراه العيون ولايلمس إلاّ الماديات؟!

ألا يكون في أمر الجن والمردة والعفاريت ـ هذه المخلوقات الخارقة القدرات على ما يزعمون ـ أن يتبعوا إنساناً لا يملك شيئاً من قدراتهم الخارقة، ألا يكون في ذلك حصراً وتحديداً بل سجناً لهم ولقدراتهم، وسعياً للتغيير والتبديل في طبيعتهم التي خُلقوا عليها وتميزوا بها؟

إن أدنى تفكر وتأمل يبدي لنا أن هذا منطق بدهي لا يحتاج إلى شرح أو بيان، إذاً لابد لكل رسول أن يكون من جنس المرسل إليهم، وبذلك يمكنهم أن يتعلموا منه ويقلدوه ويتخذوا منه أسوة لهم، ويحاولوا أن يتمثلوا سيرته وأسوته في كل أفعاله وأقواله وأحواله، ذلك أنه من جنسهم وأنهم من جنسه يقدرون على كل فعل يقوم به إذا ما آمنوا به وتعلموا منه ودرّبوا أنفسهم على الإقتداء به والسير على هدْي أقواله وأفعاله.

وهذا هو المنطق الذي بينه الله العليم الحكيم الخبير في كتابه القرآن العظيم، وذلك في معرض ردّه على احتجاج الناس أن يبعث الله لهم بشراً رسولاً، قال تعالى:

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبَعَثَ الله بشر رسولاً﴾

(الإسراء: ٩٤).

فجاء بيان ربنا مبيناً الحكمة في ذلك:

﴿قل لو كان في الأرض ملآئكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾

(الإسراء: ٩٤، ٩٥)

هذا وقد بين لنا القرآن الكريم أن طائفة من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم فآمنوا به، أي صاروا بعد إيمانهم جناً مسلمين:

﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً* يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾

(الجن: ١، ٢)

تؤكد هذه الآيات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان رسولاً إلى الجن أيضاً، وبما أنه عليه الصلاة والسلام من البشر من أبناء آدم عليه السلام، فلا بد إذن من أن يكون الجن أيضاً من البشر من أبناء آدم عليه السلام، وإلا لما أرسل الله إليهم بشراً رسولاً وذلك مصداقاً لما جاء في كتابه القرآن:

﴿قل لو كان في الأرض ملآئكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾.

الإشكال الثالث:

محمد وحده الرسول إلى العالمين (الإنس والجن)

فعلى اعتبار أن الجن مخلوقات في العالمين من غير البشر هذا يعني أنه لم يُرسل إليهم قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أحد من الرسل ولم يكن مطلوباً منهم أن يؤمنوا بأية رسالة قبل الإسلام.

ثبت في الصحيحين عن جابر عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي - وذكر منها: - وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة. وبعثت إلى الناس عامة».

إن هذا الحديث يؤكد أنه مامن نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ أُرسل إلى قومه حصراً، أما محمد عليه الصلاة والسلام فهو وحده الذي أرسله الله إلى العالمين، قال تعالى: مخاطباً عبده ورسوله محمد:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

وكذلك الكتاب الذي أنزله ربنا تبارك وتعالى هو وحده الكتاب الذي أنزله الله للعالمين ليؤمنوا به ويهتدوا برسالته، قال ربنا عز وجل:

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (يوسف: ١٠٤).

وفي هذا بيان واضح أن القرآن الكريم كتاب ورسالة إلى الجن أيضاً باعتبار أن كلمة العالمين تشملهم لكونهم عالماً من العالمين.

وبما أن القرآن قد نزل على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو إذن وحده الرسول إلى عالم الجن بالإضافة إلى الإنس.

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فُضِّلت على الأنبياء بست ـ فذكر منها ـ وكان نبي يرسل إلى قومه خاصة وأرسلت إلى الناس كافة. وقال الحافظ في الفتح: وثبت في التصريح بذلك ـ يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد أرسل إلى الجن، في حديث:

«كان النبي يرسل إلى قومه، وبعثت إلى الإنس والجن»[1]، وجاء في «الفتح» عن ابن عبد البر أنه لاخلاف في أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث إلى الإنس والجن.

والسؤال هنا: مع ثبوت أن الرسول وحده قد بعث إلى الجن وأن غيره من الرسل لم يرسلوا إلا إلى أقوامهم خاصة فأين الإشكال؟.

الإشكال يكمن في حقيقة القرآن الكريم بيَّن أن وفد الجن الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به كان منهم قوم من اليهود الذين آمنوا بموسى والتوراة، وكان قوم آخرون من المسيحيين الذين آمنوا بالسيد المسيح عليه السلام، فمع الإنتباه إلى حقيقة أنهم كانوا من الجن وأن الجن ليسوا من قوم موسى ولا من قوم عيسى ـ على أساس أنهم ليسوا بشراً ـ وأن موسى وعيسى لم يرسلا إلا إلى قومهما حصراً[2]، فكيف إذن آمن هؤلاء الجن برسالة لم يختصوا لها، ورسول لم يرسل إليهم؟.

أما عن حقيقة أن هؤلاء الجن كانوا يهوداً ونصارى فإليكم البيان:

جاء في سورة الأحقاف على لسان نفر من الجن الذين استمعوا إلى تلاوة القرآن أنهم مضوا بعد استماعهم إلى قومهم ينذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان بالكتاب الذي وصفوه بأنه «أنزل من بعد موسى»:

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم* يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾

(الأحقاف: ٣٠، ٣١).

---

(١) ـ هذا الحديث فيما أخرجه البزار.

(٢) ـ قال تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى هدى للناس﴾ وقال عن عيسى: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ مما يؤكد أن رسالة موسى وعيسى قد كانت للناس فقط.

إن قول نفر من الجن:

﴿سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾

ووصف هذا الكتاب بأنه:

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾

يدلّ دلالة واضحة على أن هؤلاء النفر من الجن لم يكونوا فقط مؤمنين برسالة موسى عليه السلام، بل كانوا أيضاً على علم بأحكام التوراة وتفصيلاتها، وهذا يؤكد أنهم كانوا من اليهود المصدقين بموسى عليه السلام والتوراة التي أنزلها الله عليه.

وفي معرض تفسير قول الله عز وجل:

﴿وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾

(الأحقاف: ٢٩)

قال المفسرون إن نفر الجن المشار إليهم هنا هم من يهود «نصيبين»، أو كما قال بعضهم من الموصل أو نينوى في العراق[1].

ونحن وإن لم نكن في معرض تفسير هذه الآيات الآن، ولكن ما نريد بيانه من هذه الآيات الكريمة هو أن هؤلاء النفر من الجن كانوا من اليهود المؤمنين بشريعة موسى عليه السلام، كما تبين معنا.

وأما في سورة «الجن»، فنجد أن نفر الجن الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به وأسلموا وأعلنوا توحيدهم ونفوا أن يكون لله صاحبة أو أن يكون له ولد كما يزعم المشركون من المسيحيين، قالوا:

﴿وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾.

(الجن: ٣)

وفي هذه الآية بيان واضح يشير إلى حقيقة إنكار هؤلاء النفر من الجن للزعم المشرك أن يكون لله ولد، كما يزعم الذين يقولون إن الله اتخذ ولدا ـ سبحانه ـ وأن مريم عليها السلام

---

(١) ـ راجع تفسير روح البيان.

قد ولدت هذا الولد.

فحقيقة الأمر إذن أن هؤلاء النفر من الجن كانوا من المسيحيين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام، كما كان نفر من الجن المذكورين في سورة الأحقاف من اليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام.

والسؤال هنا: قد علمنا أن رسالة موسى وعيسى عليهما السلام لم تكن عالمية، بل كانت حصراً لقومهما من بني اسرائيل، فكيف إذن آمن هؤلاء الجن برسالة موسى وعيسى إذا لم تكن تعنيهم ولم يكن مطلوباً منهم الإيمان بها؟

إن هذا يثير إشكال أن الجن كانوا مأمورين باتباع موسى وعيسى عليهما السلام، وهذا لايصح إلا إذا كان الجن من البشر ـ من الناس ـ من قوم موسى وعيسى عليهما السلام.

يؤكد القرآن الكريم أن التوراة التي أنزلت على موسى وبيّنها للناس عيسى عليهما السلام أنزلها الله هدى للناس فقط، قال تعالى:

﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾.

(آل عمران: ٤)

فإذا كان المطلوب من الجن أيضاً أن يؤمنوا بالتوراة والإنجيل فهذا يعني أن الجن من الناس من أبناء آدم[1] وإلا فإن هذا الإشكال لايزال يستلزم الحل لأن القرآن الكريم لا تناقض فيه ولا اختلاف.

الإشكال الرابع:

القرآن الكريم أحكام وهداية للناس حصراً[2].

يعلم المسلمون أن الإسلام بني على خمسة أسس أو أركان وهي بالإضافة إلى الشهادة، الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت كما جاءت في الدين أحكام كثيرة تتعلق بالإنسان كبشر مثل أحكام الجنابة والطهارة والحيض والنكاح والطلاق والمعاملات، وكذلك أحكام

(١) ـ سيأتي البرهان لاحقاً.

(٢) ـ نورد هذا الإشكال هنا بشكل موجز وسيأتي بيان القرآن في حينه بعون الله تعالى.

القصاص، كمبدأ النفس بالنفس والعين بالعين، وحتى الجروح فقد تناولها القرآن الكريم بيّن أحكام الجزاء المترتبة عليها، قال تعالى:

﴿والجروح قصاص﴾.

ثم هناك الأحكام المتعلقة بالزكاة، والتي هي كما نعلم ركن من أركان الإسلام، فهناك زكاة المال والحلي والزروع والأنعام وغيرها على مافيها من تفصيلات وتوضيحات.

وإن الدارس المحقق في هذه الأحكام يجدها تتناول الجانب المادي فيما كان من جسده كبشر أو مما بين يديه من ممتلكات وعينيات.

والسؤال المطروح هنا: إذا كان الجن مخلوقات شبحية وغازية هوائية، أو نارية دخانية كما يزعمون، فهل تنطبق هذه الأحكام المتعلقة بالبشر عليهم أيضاً، يعني هل تتربص الجنية المسلمة المطلقة بنفسها ثلاثة قروء عملاً بقول الله تعالى:

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولايحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن..﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ومن المعلوم أن من معاني كلمة «قرء»: الطهر والحيض عند النساء[١]. وقروء هي جمع كلمة قرء، فهل تحيض نساء الجن وتطهر مما يستلزم أن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أو ثلاث حيضات وطُهر ليُعلم ما في أرحامهن؟ أم أن لِنساء «الجن» احكاماً خاصة بهن؟ وإن كان الأمر كذلك ففي أي كتاب جاءت هذه الأحكام؟ وما معنى إذن أن يؤمن الجن بالقرآن على أنه كتاب أنزل من الله يهدي إلى الرشد.

﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾

(الجن: ١)

ومن المعلوم أن على المسلم أداء حق الزكاة، وهذا يعني أن على الجن المسلمين أيضاً أداء هذا الحق فهل يقدم الجني، في زكاة الأنعام، من المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين؟ ومن أين يأتي بهذه الأنعام؟ هل يسلبها من الإنس، أم يصطادها من البر، أم أن

---

(١) - راجع قاموس محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني.

للجن أنعاماً خاصة بهم فهناك جمل جني وبقرة جنية وماعز جني وغير ذلك؟.

وهل يؤتي الجنُّ زكاة أثمارهم لقول الله عزوجل:

﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾

(الكهف: ١٤١)

أم أن الجن يُخرجون زكاتهم مما يأكلون من العظام والروث ـ على زعم من يقول بأن هذا طعامهم ـ، أم أنهم يقدِّمون الزكاة على شكل قطع من السحب والغازات ـ على قول من قال بأن طعامهم وشرابهم من الغازات ـ [1]؟

وهل يُجلد الجني الزاني والجنية الزانية مئة جلدة لارتكاب جرم «تداخل سحابيهما الدخانيتين مع بعضهما» على زعم من قال بأن تناكح الجن يتم على هذه الشاكلة، كما مر معنا في كتاب الدكتور الجميلي حيث قال:

«وللجن، الذكور والإناث اتصال جنسي كتداخل الدخان بعضه في بعض، فيلتذ كل من الذكر والأنثى بهذا التداخل»[2].

إذن في حال حصول هذا التداخل السحابي بين الجني والجنية من غير عقد شرعي للنكاح وشهود الشاهدين على سنة الله ورسوله، هل يقام عليهما الحد بالجلد مئة جلدة بسوط عادي أم بسوط من غاز أو نار؟ وإن كان لهما في كتاب الله حكم آخر، فأين هذا الحكم في القرآن أو الحديث في الإسلام؟.

يعلم كل مسلم أن النظافة من الإيمان، وأن الإسلام قد تميز بتعليم رائع يحفظ من خلاله نظافة الإنسان والمجتمع فيستمر سليماً معافاً من العدوى والأوبئة والأمراض.

جاء في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

«قصوا الأظافر فإن الشيطان يعقد على ماطال منها»[3].

فهل يعقد الشياطين من الجن على الأظافر الطويلة للجن أيضاً، أم أن الجن لاتطول أظافرهم، أم ما هي أحكام نظافتهم في الإسلام، وفي أي كتاب أو حديث هي؟

(١) ـ راجع كتاب «السحر وتحضير الأرواح بين البدع والحقائق» للدكتور السيد الجميلي طبعة دمشق ١٩٩١.

(٢) ـ المرجع المذكور ص ١٠٥.

(٣) ـ رواه مسلم.

وهكـذا. . وهكذا لو تتبعنا الأحكام في القرآن الذي آمن به، الجن لطال بنا البحث والمقـام دون أن نجد أحكاماً خاصة بالجن ـ على اعتبار أنهم غير الناس ـ يعملون عليها ويهتدون بهديها.

فبأي شكل إذن يهتدي الجن «الأشباح» بالقرآن الكريم وهم الذين قالوا:

﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾

هل يهتدون بأن يؤمنوا «فقط» من غير التزام ولا تطبيق للأحكام والمعاملات والتعليم والبيانات الدينية؟ .

وأسأل الذين قد يقولون نعم:

ماالدليل لديكم؟

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين!

الإشكال الخامس:

يبين القرآن الكريم أن ثمة تلازماً ومعاشرة بين الجن والإنس في التعامل والمعايشة والتبعية وغيرها من الصلات الواضحة في حين أن الواقع لايبدي من ذلك شيئاً.

يجد الدارس للقرآن الكريم أن الآيات التي ورد فيها ذكر الجن والإنس تضع قارئها أمام صورة فئتين من العقلاء الذين هم في حالة معاشرة وتعامل وتخاطب وحوار دائم مستمر. وإن أبلغ دليل على ذلك هو استعمال القرآن لتعبير «معشر الإنس والجن». وإن هذا التعبير ليضع التصور أمام صورة جمع من الناس يعيش متلازماً في بيئة واحدة غير منفصلة زماناً ولا مكاناً، بحيث أن اتصال هؤلاء بعضهم ببعض لا يتم مصادقة أو في ظروف خاصة، بل هو اتصال معايشة وتعاشر مستمر وذلك بدليل وصفهم في القرآن الكريم بكلمة «معشر»، قال تعالى:

﴿ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم﴾

(الأنعام: ١٢٨)

فها أنت هنا أمام صورة معشر من الجن قد تعامل مع الكثيرمن الناس بشكل أو بآخر واستمتعوا[1] بعضهم ببعض أيضاً، فكان لهذا المعشر الأثر البالغ في الإضلال المتبادل حتى وردوا النار وكانت مثواهم.

إذا ما درسنا معنى كلمة «معشر» من مراجع اللغة العربية نجد ما يلي:

«. . العشرة: المخالطة. . اعتشروا وتعاشروا: تخالطوا. وعشيرة الرجل بنوا أبيه الأدنون، وقيل هم القبيلة. العشير والمعاشر: القريب والصديق. وعشير المرأة: زوجها لأنه يعاشرها وتعاشره كالصديق والمصادق».

وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء:
«وتكفرن العشير» أي الزوج. قال تعالى:
﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أي لبئس المعاشر.
ومعشر الرجل: أهله.
وقال الليث: المعشر كل جماعة أمرهم واحد، نحو معشر المسلمين ومعشر المشركين.
والمعاشر: جماعات الناس»[2].

فكلمة معشر تدل إذن على الناس الذين يتعايشون ويتعاشرون عن قرب ومخالطة إلى حد أن يكون أمرهم واحداً في بعض الأحيان. وكذلك فإن معنى الصديق والصداقة تدخل أيضاً في معنى العشير والمعاشر، وهم الناس المتعاشرون والمخالطون والمشتركون في أمر واحد يبرر محاسبتهم عليه، لذلك نجد في القرآن الكريم صورة لمحاسبة معشر الجن والإنس المشتركين في موقف واحد من دعوة رسل الله إليهم وهو رفضهم القبول والإستماع إلى آيات الله والإيمان بها، قال ربنا عزوجل:

﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا، وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

(الأنعام: ١٣٠)

---

(١) - إن لفظة «استمتع» تشير إلى التمتع باستمرار ولمدة طويلة. راجع الفرق بين معنى «تمتع» و«استمتع» في آيات القرآن الكريم وقاموس لسان العرب.

(٢) - راجع لسان العرب الجزء الرابع ص ٥٧٤.

وهكذا فإنك تجد نفسك هنا أمام صورة قرآنية لمعشر متآلف بعضه مع بعض، ويؤثر بعضه في بعض وقد غرّته الحياة الدنيا فكفر بالله تعالى وباء بسخطه.

كما وتجدر الإشارة إلى المعشر الواحد للجن والإنس في القرآن الكريم في المواضع التي يتحدى الله عزوجل هذا المعشر مشيراً إلى عجزه رغم تماسكه في معشر واحد واجتماعه لأمر واحد، يقول ربنا:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

(الإسراء: ٨٨)

ونجد في موضع آخر في القرآن الكريم، قول الله عزوجل:

﴿يامعشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان* يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾

(الرحمن: ٣٥)

نرى هنا الخطاب والتحدي موجهين من الله عزوجل لمعشر واحد أن يستخدم كل ما يملك من القوى والعلوم والقدرات المشتركة للنفاذ من أقطار السموات والأرض أو للنفاذ من قبضة الله تعالى، ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم يتحدث عن هزيمة كلتا هاتين القوتين المتعاشرتين بفعل أثر لقوى مشتركة هي ذاتها سيرسلها الله على كلتا الفئتين فيهزمهما بها مما يدل على أنه لا تمايز لفئة منهما على الأخرى في دفع الخطر عن نفسهافكلتاهما ستنهزم خائبة بالنار والنحاس. وإذا كان الجن فئة متميزة عن الإنس حيث أنهم من جنس النار بينما الإنسان من جنس التراب، فلمَ لا تكون القوة المخصصة لاحباط الجن (الأقوى) مختلفة عن القوة المخصصة لهزيمة الفئة المتمردة من الإنس؟

ويبين لنا القرآن الكريم صورة معشر أعداء الأنبياء الذين يجتمعون ويتحاورون ويتآمرون على دعوة الله وأنبيائه بما يوحي بعضهم إلى بعض من زخرف القول ونفخ الغرور والتعالي على دعوة الله والمصدقين بها، يقول ربنا عزوجل:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾

(الأنعام: ١١٢)

فها هم أولاء معشر واحد يمكر ويتآمر في عداوته للنبيين مستخدماً أسلوب الوعود والتمني بالكلام المنمق والمزخرف الواعد، وهكذا فإن أفراد هذا المعشر يُضلُّون بعضهم بعضاً بالكلام المتبادل وزخرف القول بلغة واحدة مشتركة بينهم، وأما عن كلمة «يوحي» فليس من غير المألوف أن تقول لمن قال كلاماً: قد «أوحيت» إلى بفكرة كذا وكذا. أي ليس في كلمة «يوحي» ما يعني الخفاء بالضرورة.

وهكذا نجد في بيان القرآن الكريم تداخلاً كبيراً في المعشر والتعامل بين الإنس والجن مما يؤدي بنا إلى إدارك حقيقة أن هؤلاء الجن لا ينتمون إلى وجود غيبي شبحي يفصلهم عن عالم الإنس، وإلا لما ذكر عنهم هذا التعاشر والتداخل المتواصل والمستمر.

وعلى فرض أن الجن أمة تنتمي إلى عالم شبحي خاص بهم، فأين الواقع المشهود في أنهم يأتوننا من عالمهم الشبحي ليحاورونا ويعاشرونا ويتعاملون معنا ويستكثرون منا إلى حد أنهم يكادون يخالطوننا في كل أمر؟

وإذا لم تكن أنت شخصياً ممن حَصلَتْ له عشرة أو معرفة «الجن» أو مخاطبتهم والتحادث معهم، فأين إذن تجد هذا المعشر المتداخل في القول والمعاملة والمكر والتخطيط وغير ذلك مما يرويه الرواة؟!.

إننا لانجد في الواقع موضعاً واحداً يصادق على التداخل والمعاشرة مع العالم الشبحي المزعوم في ترويج القائلين بأشباح الجن والعفاريت، فعن أي معشر يتحدث القرآن الكريم إذن؟

وأعود فأذكّر هنا أن الغاية في هذا الفصل هي مجرد طرح الإشكالات القرآنية المترتبة على الإعتقاد بالوجود الشبحي للجن والشياطين، وأما الشرح والبيان والبرهان فيسأتي بعون الله تعالى في حينه في هذا الكتاب.

الإشكال السادس:

الناس وحدهم هم وقود النار، فكيف يدخلها الجن أيضاً؟

ذكر القرآن الكريم دار العذاب التي يورد الناس إليها أنفسهم بذنوبهم وخطاياهم وهي النار التي يأمرنا ربُّنا أن نقي أهلنا وأنفسنا عذابها، فقال عزوجل:

﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾

(التحريم: ٦)

نلاحظ هنا بكل وضوح أن القرآن الكريم يبين حقيقة أن الذين يدخلون في عذاب النار فيكونون وقودها هم «الناس» حصراً والحجارة. وتؤكد آية كريمة ثانية هذه الحقيقة حيث نجد في سورة البقرة قول ربنا عزوجل:

﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾

(البقرة: ٢٤)

إذن الناس وحدهم دون بقية خلق الله تعالى هم وحدهم عرضة لأن يدخلوا أنفسهم عذاب الله وناره، وهذا ما يؤكده لنا القرآن الكريم كما رأينا. والإشكال ينشأ حين نقرأ في القرآن الكريم أن الجن أيضاً يدخلون النار فيكونون وقودها، جاء في سورة الأعراف:

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس في النار﴾

(الأعراف: ٣٨)

ها نحن نرى هنا أنه بالرغم من تأكيد القرآن الكريم أن وقود النار هم الناس حصراً، فإنه يذكر أن الجن أيضاً يدخلون النار ويعذبون بكفرهم وذنوبهم، وفي هذا تناقض واختلاف لايزول إلا إذا كان الجن فئة من الناس[١].

الإشكال السابع:

هل الجن مخلوقات خارقة القوى أم أنها في غاية الضعف؟

يعتقد عامة الناس أن الجن يملكون قوى خارقة يعجز عن مثلها الإنسان، فهم يتنقلون بسرعة تفوق لمح البصر ويصعدون إلى السماء يلمسونها ويسترقون السمع منها، ويدورون حول الأرض في لحظات يأتون بالعلم الخفي ويخبرون به إخوانهم من الإنس الذين يستحضرونهم بعزائم وكلمات خاصة؟!

ويقدم هؤلاء الدليل على اعتقاداتهم هذه بما فهموه هم من بعض آيات القرآن الكريم.

---

(١) ـ البرهان سيأتي لاحقاً، والملاحظة هنا للتفكر فقط.

فهم يستدلون على سرعة الجن الخارقة من الآية الكريمة التي تحدثت عن أمر سليمان عليه السلام لبعض جنه أن يأتوه بعرش الملكة بلقيس.

تقول الآية:

﴿قال عفريت[1] من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾

(النمل: ٣٩)

فهذا دليل - لديهم - على السرعة الخارقة لعفاريت الجن ويقولون بأن الذي عنده «علم من الكتاب» - أي كتاب تسخير الجن على حد زعم بعضهم - كان أقدر من العفريت ذاته وأشد سرعة في إحضار عرش الملكة بلقيس - على ما يفهمون -.

ويستدلون على أن الجن يصعدون إلى السماء يلمسونها ويسترقون السمع من خلالها بالآية الكريمة:

﴿وأنا لمّا لمسنا السماء وجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً* وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾

(الجن: ٩، ١٠)

وكذلك يستدلون بالآية الكريمة:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

(الملك: ٥)

ويقولون بأن الجن تعمل أعمالاً خارقة على كوكب الأرض أيضاً، فهي تبني الأبنية العظيمة وتغوص في أعماق البحار تخرج كنوزها، وأنها هي التي شادت للملك سليمان بيت المقدس، وهي التي بنت مدينة تدمر في الصحراء، كما أنها شادت الكثير من الأبنية المشهورة في أوربا[2].

ويؤيد هؤلاء اعتقادهم بقدرة الجن على عمل الخوارق بالآيات الكريمة التي ذكرت تسخير الجن لسليمان عليه السلام قال تعالى:

﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب* والشياطين كل بنّاء وغوّاص* وآخرين

---

(١) - «العفريت: النافذ في الأمر المبالغ فيه مع دهاء. . ويقال: رجل عفريت: أي شديد» محيط المحيط مادة (عفر).

(٢) - سبق ذكر المرجع لهذه المعلومات.

مقرنين في الأصفاد﴾

(ص: ٣٨)

وقال ربنا عزوجل أيضاً:

﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير* يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾

(سبأ: ١٣، ١٤)

من خلال الفهم الخاطىء لهذه الآيات الكريمة تخيَّل المتخيلون قدرات عجيبة للجن تناقض بيان القرآن الكريم وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

والإشكال هنا يكمن في أنه قد ورد في مجموعة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجن أضعف بكثير من أن تقدر على أداء عمل ولو كان سهلاً بسيطاً كفتح باب مغلق، أو حتى كشف قدر طعام مغطى، وهذا يؤدي إلى دحض الإعتقاد بتملُّك الجن لقدرات خارقة تفوق قدرة البشر.

جاء في صحيح مسلم:

«عن جابر عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا الإناء وأوكوا السقاء، وأغلقوا الأبواب وأطفئوا السراج فإن الشيطان ـ وفي رواية فإن الجن ـ لايحل سقاء، ولايفتح باباً، ولايكشف قدراً».

فإذا كانت الجن والشياطين أعجز من أن تفتح باباً مغلقاً أو أن تكشف إناء مغطى، فكيف يكون لها تلك القدرات الخارقة المزعومة؟

وكيف إذن يمكن للشياطين التي تعجز عن فتح الباب المغلق أن تدخل إلى بيوت الناس لتوسوس في صدورهم إذا كانوا قد أغلقوا أبوابهم جيداً ولم يفتحوها للجن والشياطين التي لاتقدر أن تفتح باباً مغلقاً؟

الإشكال الثامن:

لماذا لم ينصر الجن المؤمنون رسولَ الله وأصحابه في جهادهم في الذود عن دين الله؟

أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فأبت

---

(١) ـ سيأتي تفسير الآيات في حينه بعون الله تعالى.

شياطين الإنس والجن إلا أن تكفر بدعوته والنور الذي أنزل عليه، وتآمروا وكادوا للقضاء عليه وعلى الإسلام حتى أنهم أعدوا العدة وجمعوا الفرسان والصناديد وزحفوا بالخيل والرجال مدجّجين بأمضى السلاح للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، محاولين بذلك القضاء على دين الله الإسلام حتى لاتقوم له، بعد ضربتهم التي جمعوا لها، قائمة.

فقام أصحاب رسول الله الذين آمنوا بالله الواحد يذودون عن الإسلام بقلب المؤمن الواحد والجسد الواحد يضربون المعتدين من الكفار بشدة وهم ذوو القلوب الفياضة بالرحمة إلى حد أن الله تعالى قد وصفهم في قرآنه الكريم:

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾

(الفتح: ٢٩)

ولاشك أن نصر محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الإسلام، كان من أهم الواجبات التي كان على المسلمين المؤمنين حينئذ أن يقوموا بها دفاعاً عن دينهم ضد الهجمة الجاهلية الظالمة التي كانت تريد محوهم واستئصال شأفتهم. ولقد هب المؤمنون لنصرة دين الله عزوجل كما أمرهم ربهم، وقد شهد لهم التاريخ بإيمانهم وانتصارهم لدين الله وبذلهم النفس والمال وكل ما كانوا يملكون في سبيل ذلك، وهم الفقراء الذين كانوا قلة مستضعفة في الأرض، ومع ذلك فقد وقفوا بإيمان صادق لمواجهة الكثرة من صناديد قريش وأبطالها وغيرهم من أعداء دين الله ورسوله.

ولقد كان الأمر من الله تعالى بالنفرة لنصر دين الله واضحاً بيناً وملحاً في دعوته لجميع المؤمنين دون استثناء لينفروا في سبيل الله، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض﴾

(التوبة: ٣٨)

والإشكال هنا هو، على فرض أن الجن الذين آمنوا بالإسلام بعد أن استمعوا للقرآن، كانوا يملكون كغيرهم من الجن القوى الجنية الخارقة، فلماذا لم يهبّوا بقدراتهم الخارقة الخفية لنصر محمد صلى الله عليه وسلم طاعة لأمر الله تعالى في القرآن الذي آمنوا به، فينفروا في سبيله منتصرين لدينه ضد هجمة قريش والقبائل المتحالفة معها والتي كانت تهدف إلى تدمير محمد ودينه الإسلام؟

إن التاريخ ورواة الأحاديث لم يذكروا لنا شيئاً عن مشاركة ولا حتى جني واحد في الذود عن دين الله تعالى مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لماذا؟

أليس القرآن كتاب المؤمنين من الجن أيضاً على ما يقولون؟ ألم يكن من الواجب عليهم طاعة أمر الله عزّ وجل للنفرة في سبيله لنصر دينه؟

لابد من التفكر[1].

وختاماً لهذا الفصل نقول:

لو أراد الدارس المحقق أن يعرض كل الإشكالات الإيمانية المترتبة على الإعتقاد بالجن والشياطين على أنها مخلوقات شبحية خارقة القوى، على ما يزعمون، للزمه إفراد كتاب خاص يتمم فيه الإشكالات جميعاً ومن كافة جوانبها.

ولكن السؤال هنا: ألا يكفي ما أوردنا في هذا الفصل من إشكالات قرآنية بغية لَفْت نظر صاحب المنطق السليم؟

أليس في هذا بيان كاف لمن يريد أن يسمع أو يتفكر.

وعملاً على حل جميع الإشكالات الإيمانية المترتبة على الفهم الخاطىء لحقيقة مفهوم الجن والشياطين ننطلق متابعين البحث بعون الله . .

---

(١) - راجع كتاب «المفهوم الإسلامي الصحيح للجن والشياطين» للأستاذ نذير المرادني.

الفصل الثالث

دراسة تحقيقية

في المعنى اللغوي لكلمتي: الجن والشيطان.

قال الله تعالى :

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾

(يوسف : ٢)

﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾

(الزخرف : ٣)

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾

(الشورى : ٧)

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾

(الرعد : ٣٧)

قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربي مبين﴾

(الشعراء: ١٩٥)

إذن لايصح فهم القرآن وبيانه وأحكامه إلا على أساس الأخذ بالمعنى اللغوي الصحيح لكل لفظة ومفردة، وفي سياقها الذي وردت فيه، إذ لابد من فهم هذه المعاني والمفردات انطلاقاً من أصول اللسان العربي الذي شاء الله عزوجل أن يُنزل به كلامه المبين في قرآنه الكريم ليكون كتاباً للعالمين. ولذلك فقد أجمع علماء التفسير على أن اللغة العربية السليمة بأسسها وقواعدها هي إحدى أهم مصادر تفسير آيات القرآن الكريم لفهم بيانها والمعاني التي فيها، وهذا يعني أن من لا يأخذ بأصول اللغة العربية في الفهم والبيان، لايمكنه بأي حال من الأحوال أن يفهم آيات القرآن الكريم ولا أن يشرحها أو يفسرها ويبين ما فيها من معان وحقائق.

ولهذا لم أجد بداً من إفراد هذا الفصل للبحث والتحقيق اللغوي لبيان المعاني الصحيحة للفظتي «الجن» و«الشيطان» تمهيداً لفهم الآيات الكريمة التي في هذا الشرح إلى تناول أشهر وأوثق مراجع اللغة العربية.

ويفيدنا هنا أن نتذكر معاً أن الجهل السائد باللغة العربية عمقاً واتساعاً، سواء من حيث قواعد اللغة أو تعدد المعاني لمفرداتها، يؤدي بالناس إلى استغراب كثير من الحقائق والمعاني التي هي من أصل اللغة فيسارعون إلى استنكارها ورفضها في الوقت الذي تكون هذه المعاني من أعمق جذورها وأصولها وأبلغ معانيها.

والأمثلة على ذلك كثيرة يعرفها الباحثون والمهتمون، وأما عامة الناس والقرّاء العاديون، فقد لايدركون من المعاني اللغوية للمفردات إلا ماشتهر تتداوله حتى إذا واجههم متحدث بمعنى لم يطلعوا عليه ولم يسمعوا به حسبوه جهلاً منه أو اختراعاً يفتري به على اللغة العربية ومعانيها.

ونستطيع في هذا السياق أن نضرب مثلاً طريفاً يساعدنا على فهم إمكانية الإشكال في الفهم للفظة واحدة من اللغة حيث يكون سبب هذا الإشكال هو الأخذ بالمعنى المتداوَل فقط وعدم التفكر والبحث عن المعاني الأخرى لذات اللفظة. وإليكم المثال:

لنفرض مثلاً أن رجلين جاءا إلى طبيب يشكوان علة واحدة، ولنفرض أن هذا الطبيب كان من الضالعين بالمعاني المتعددة لمفردات اللغة العربية، وكذلك كان أحد هذين المريضين على مستوى الطبيب في الخبرة اللغوية. ثم لنفرض أن الطبيب قال بعد الفحص والتشخيص لكلا المريضين: إن علّتكما واحدة، وإن كلاًّ منكما يعاني من «الجن» الذي في صدره، ولذا فإنني أنصحكما أن تراجعا مختصاً في أمراض «الجن».

ماذا تراه يحدث بعد ذلك؟

سنجد أن المريض الذي لا يعرف من كلمة «الجن» إلا المعنى الشائع المتداول بين الناس، يذهب إلى شيخ يرجوه أن يبخِّره أو يكتب له حجاباً يخلص به من «الجن» الذي يسكن صدره ويسبب له اعتلال صحته.

وأما المريض الآخر الذي افترضنا أنه خبير بمعاني ومفردات اللغة العربية، سنجد أنه يذهب إلى مختص في أمراض «القلب» وجراحته ليشخِّص له علّته ويصف له الدواء، لماذا.. لأن هذا المريض الخبير بمعاني مفردات اللغة العربية يعلم أن كلمة «الجن» تعني أيضاً «القلب»[1].

قال ربنا عزوجل:

﴿ولاينبئك مثل خبير﴾

(فاطر: ١٤)

---

(١) - راجع قاموس «لسان العرب» مادة «جنن».

وبغية إدراك الفهم السليم، سنعمـد معـاً، عزيزي القـارىء، إلى استخـراج المعاني اللغوية الأصيلة اللازمة لبحثنا، وبعون الله نبدأ:

جاء في قاموس «لسان العرب» الشهير، والذي يُعتبر أكبر معاجم اللغة العربية في مادة «جنَنَ» مايلي:

«جنّ الشيء يجّنه جنّاً: ستره.

وكل شيء سُتر عنك فقد جنّ عنك (أي هو جنّي بالنسبة إليك)[1] وجنه الليل يجنّه جنّاً وجنوناً وأجنّه: ستره.

وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار.

ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه.

وجنّ الليل وجنونه وجنانه: شدة ظلمته وادلهامه.

قال تعالى: ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً﴾.

ويقال لكل ما ستر عنك: جنّ وأجنّ.

وجن الميت جناً وأجنه: ستره.

الجنن: القبر لستره الميت.

والجنن أيضاً: الكفن.

والجنين: المقبور.

والجنان: القلب لاستتاره في الصدر.

وربما سمي الروح جناناً لأن الجسم يجنه.

الجن: القلب.

المجن: الوشاح.

المجن: الترس.

والجنة: ماواراك من السلاح واستترت به منه.

والجنة: السترة.

ويقال استجن بجنة: أي استتر بسترة.

وقيل كل مستور جنين، حتى قيل حقد جنين وضغن جنين.

والجنة: الوقاية، وفي الحديث: «الإمام جنة» و «الصوم جنة»

وجن الناس: معظهم، لأن الداخل فيهم يستتر بهم.

---

(١) ـ كما أن ماخفي عنك يكون خفياً، فكذلك ما جنّ عنك يكون جنياً.

وجنان الناس: جماعتهم وسوادهم ودهماؤهم.
الجنة: الجنون وطائف الجن.
الجانّ: ضرب من الحيّات.
الجان: الشيطان.
وكان أهل الجاهلية يسمون:
الملائكة جنّا: لاستتارهم عن العيون.
وجن الشباب: أوله، وقيل جدته ونشاطه.
ويقال: كان ذلك في جنّ صباه، أي في حداثته.
وكذلك جن كل شيء: أول شدّاته[1] وجن المرح كذلك.
وجن البيت: زهره ونَوْره.
وقد تجننت الأرض وجنّت جنوناً.
وجنّ النبت: زهره ونَوْره.
وقد تجننت الأرض وجنّت جنوناً.
جن النبت جنوناً: غلظ واكتهل وطال والتف وخرج زهره.
وأرض مجنونة أي معشبة لم يرعها أحد.
والجنة هي دار النعيم في الآخرة من الاجتنان، وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها.
والجنية: ثياب معروفة ومطرف مدوّر. / أي إذا قلنا: لبست سعاد جنية، يعني: أنها لبست ثوباً مطرفاً مدوّراً، ولا يعني أنها تلبست بشبح الجنية وصار يلزمها حجاب يطرد الجن والأشباح[1]،[2].

وجاء في موسوعة «لين» الشهيرة للغة العربية:

«الجن: الغريب».

وجاء في قاموس المنجد:

«الجن من الشباب: أوله.
والجن من النبت: زهره ونوره.
وجنّ الناس: معظمهم.
ويقال: لاجنّ في هذا الأمر، أي: لا خفاء فيه.
الجنة: الحديقة ذات الشجر»[3].

(١) ـ لاحظ أن هنـاك جنّ النـاس، وجنّ الشباب، وجن النبات، وجن كل شيء، أي أن لكل شيء جنه وحالته العادية. ـ التعليق من المؤلف.
(٢) ـ راجع قاموس لسان العرب.
(٣) ـ راجع قاموس المنجد.

وجاء في قاموس محيط المحيط:

«. . الجن كل ما استتر عن الحواس من الملائكة والشياطين . . وقيل بين الملائكة والجن عموم وخصوص، فكل ملائكة جن، وليس كل جن ملائكة . .

وقال أبو البقاء: ظاهر كلام الفلاسفة أن:

الجن والشياطين: هم النفوس البشرية المفارقة عن الأبدان بحسب الخير والشر[1].

والجن من الشباب وغيره: أوله وحدثانه، ومن النبات زهره ونوره. .

وجن الناس: معظمهم.

وأما قول موسى بن جابر الحنفي:

فما نفــرت جني ولا فل مبردي ولاأصــبــحــت طيري من الخــوف وقّــعــا

فإنه أراد بالجن: القلب، وباللسان المبرد.

وقد شبهوا الرجل الناقد في الأمور بالجني والشيطان[2].

والجنون: مصدر جنّ وزوال العقل وفساده.

والجنين: المستور من كل شيء، والمقبور.

والمجن: الترس والوشاح.

ونخلة مجنونة: أي طويلة»[3]

وفي الحديث عن الجن لابد أيضاً من الحديث عن الشياطين، خاصة وقد جاء في مراجع اللغة العربية أن كلمة الجني تعني الشيطان أيضاً.

جاءت تحت مادة «شطن» في معجم لسان العرب مايلي:

«شطن: بَعُدَ، وأشطنه أبعده، وفي الحديث:

(كل هوى شاطن في النار).

الشاطن: البعيد عن الحق.

وشطنت الدار تشطن شطوناً: بعدت.

ونية شطون: بعيدة.

والشطين: البعيد.

---

(١) - أي هي أسماء وصفية تدل على نفوس البشر وليس على مخلوقات غيرها.

(٢) - أي الجني والشيطان: هو أيضاً الرجل النافذ في الأمور.

(٣) - راجع قاموس محيط المحيط.

والشطن: مصدر شطنه شطناً: خالفه عن وجهه ونيته
والشيطان: فَيْعال من شطن إذا بعد.
والشيطان: معروف، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب[1].
وتشيطن الرجل وشيطن: إذا صار كالشيطان وفعل فعله.
وقيل الشيطان: فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق.
وقوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾: كأنه رؤوس الحيّات، فإن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً..

وقد تسمى الحيّة الخفيفة الدقيقة شيطاناً وجنّاً على وجه التشبيه.. وجاء في الحديث: (إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم).

وإذا جعلت النون زائدة كان الفعل من شاط يشيط إذا هلك، أو من استشاط غضباً إذا احتدَّ في غضبه والتهب. جاء في الحديث: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»[2].

وجاء في محيط المحيط:

«.. سمي الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق وتمرّده.
والشيطان: كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة.
وشاط الشيء يشيط شيطاً وشياطة وشيطوطة: احترق ومنه الشيطان.
وقيل هو من شطن ومعناه: البعيد عن الرحمة.. ومعناه الهالك.
وأشاطه إشاطة أحرقه.
وأشاط فلاناً: أهلكه»[3].

وجاء في القاموس المنجد:

«شطنه شطناً: خالفه عن نيته ووجهه، وأبعده.
شطن في الأرض: دخل.
وشطن الرجل بعد عن الحق وغيره.

«شطنه شطناً: خلفه عن نيته ووجهه، وأبعده.
شطن في الأرض: دخل.

---

(١) ـ إذن كل عات متمرد من الناس والحيوان هو شيطان وبالتالي هو جني أيضاً.
(٢) ـ راجع لسان العرب.
(٣) ـ راجع محيط المحيط مادة «شاط» و«شيطن».

وشطن الرجل: بعد عن الحق وغيّره.

أشطنه: أبعده.

وشيطن شيطنة وتشيطن: فعل فعل الشيطان.

الشاطن: الرجل الخبيث، البعيد عن الحق.

الشيطان: كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة، والحية ويقال ركبه الشيطان: أي غضب»[1].

وجاء في كتاب عباس محمود العقاد: «الشيطان» شرح وتحليل لغوي لمعنى كلمة الشيطان، قال:

والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية قديمة فيها، لايبعد أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية، لأن اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يتفرع منه لفظ الشيطان، على أي احتمال وكل تقدير. ففيها مادة «شط» و «شاط» و«شوط» و «شطن» في هذه المواد معاني البعد والضلال والتلهب والإحتراق، وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من كلمة الشيطان جميعها.

فالشطط: من الغلوّ الذي يدخل في أخص عناصر الشيطنة.

والشط: بمعنى الجانب المقابل، وقد تلحظ في مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان.

وشاط: بمعنى احترق وتلف.

وأشاطه: بمعنى أهلكه وأتلفه. . وانطلق شوطاً أي ابتعد واندفع في مجراه.

وشطن: أي ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال.

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان، ويقال في بعض التفسيرات أن هذا هو المقصود من قوله تعالى:

﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[2].

وجاء في «آكام المرجان»: [3]

«الجن: داخلون في مسمى الناس».

وهكذا نجد من أصول اللغة العربية وجذورها وما اشتهر من المعاني لدى العرب أن كلمة «الجن» هي من الكلمات المشهورة العادية والشائعة بين العرب، والتي كانت تطلق على كل ما استتر عن العين مهما كان جنسه ونوعه، فهي تعني الملائكة وتعني الناس وكذلك تعني

---

(١) ـ راجع المنجد في اللغة العربية.

(٢) ـ راجع كتاب «إبليس» للكاتب العربي الكبير عباس محمود العقاد ص ٢٤٠.

(٣) ـ راجع آكام المرجان ص ٣٦.

الدواب والحيات والثعابين، كما وجدنا أن اشتقاقات هذه الكلمة تطلق أيضاً على الأرض وبعض النباتات وحتى الأشياء والأمكنة المستورة كالجنة والمجن - أي الترس والمجنة - أي القبر وغير ذلك مما يدخل فيه التميز بالقوة والشدة والستر والتستر. ولهذا فقد جاء في كتب المؤلفين والباحثين، كما مر معنا، أن الجراثيم والمكروبات الخفية عن أعين الناس هي أيضاً من الجن، ويطلق عليها اسم «الجن» لاستتارها عن أعين الناس بالرغم من وجودها المادي العادي.

ولذلك فإن اللص المتسلل في الظلمة خلف جدران البيوت، والذئب المتربص خفية لغنمة يريد افتراسها، والثعلب المترقِّب بهدوء وحذر لاصطياد دجاجة أو طير في جانب بيت ريفي، وحتى الحية والثعبان والعقرب أو الفأرة المتسللة خلسة إلى البيوت تبحث عن الطعام في الصحون والقدور.. هذه كلها في اللسان العربي المبين وبدون أية فلسفة أو «فذلكة» هي من الجن حين تكون مستترة عن عيون الناس وحسّهم، تتحرك خلسة متربصة في سعيها وصيدها وبحثها على غفلة من الإنسان الذي لا يراها ولا يحس بها، لاستتارها عنه، وهذا ما تشير إليه جميع قواميس اللغة العربية بكل جلاء ووضوح.

راجع قواميس اللغة العربية المشهورة كلسان العرب لابن منظور، وقاموس محيط المحيط لبطرس البستاني، والقاموس المنجد، وموسوعة لين وغيرها مما عرف واشتهر بين الدارسين والباحثين في اللغة العربية، فتجد أنه يمكنك أن تطلق لفظة الجن على الناس والشباب والغرباء والنباتات المزهرة بقوة والأشجار الملتفة والطويلة وغير ذلك من جميع مخلوقات الله تعالى مما تميّز بالقوة والتستر والسيطرة وإيقاع الأثر القوي سواء بشكل مباشر واضح أو بشكل خفي ومستور.

ولهذا فإن كلمة «الجن» يمكن أن تطلق على الأثرياء والقادة والفنانين، وأصحاب الصنائع القوية، وأصحاب القوة والبأس والسلطان، والناشطين في الخفاء عن أعين الناس كالغرباء والجواسيس المندسين بين الناس على غير علم أو دراية منهم[1]. وهؤلاء هم القسم الأول من الناس من أبناء آدم. وأما القسم الثاني فهم الناس العاديون والبسطاء المألوفة

(١) - إن إطلاق لفظة الجن على إنسان ما لاتعني الذم أو القدح به، بل تعني وصفه بالتميّز والقدرة والقوة الخ، بينما نجد أن كلمة الشيطان تعني الذم حتماً والبعد عن الحق.

رؤيتهم ومعايشتهم في كل يوم وحين، وليس لهم قدرات خاصة غير عادية يتميزون بها عن العاديين من الناس.

ويمكن أن تطلق على كلا هذين النوعين من الناس لفظة «الناس» كما مر معنا بكل وضوح من المراجع اللغوية الموثقة التي لامجال للطعن فيها بأي شكل كان. ولبيان أن هذا ليس رأياً استنتاجياً متفرداً، نعيد التذكير بما جاء في قاموس لسان العرب الجزء السادس الصفحة ٢٢٤ حيث يقول:

«الناس قد يكون من الإنس ومن الجن»(١).

يعني أن الناس هم من الجنة والناس.

وأما عن معنى لفظة «الشيطان» فقد جاء البيان في هذه المراجع اللغوية الشهيرة أيضاً واضحاً كل الوضوح، مبيناً أن لفظة «الشيطان» تنطبق على كل عات ومتمرد وبعيد ومهلك وهالك وحارق وملتهب سواء من الإنس أو الجن أو الدواب والمخلوقات المهلكة كالحية والثعبان والعقرب والجراثيم، وكذلك جميع الميكروبات والفيروسات الفتاكة العاتية التي تسبب «الشَيَطان» أي الإلتهاب فتُهلك الآلاف بل والملايين بالأوبئة والحميات المهلكة كالطاعون والكلوليرا وغير ذلك من الأوبئة المهلكة السريعة الإنتشار. فهي جميعها في اللغة من الشيطان أو الشيطان بعينه، وقد ورد بيان ذلك واضحاً في كثير من أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

إن هذه المعاني اللغوية الواضحة لكلمتي «الجن» والشيطان لتلفت النظر المدرك الواعي إلى أنه ليس صحيحاً القول أو الإعتقاد بأن ذِكْر الجن أو الشيطان في أي موضع من كلام أو سياق لابد أن يعني المخلوقات الشبحية المزعومة على مدى الأزمنة والدهور من فهم دلالات هذه الكلمات على ضوء معناها اللغوي السليم والسياق الذي استعملت فيه وذلك لادراك وفهم المعنى الصحيح الذي جاءت فيه اللفظة والسياق.

وإنني سأعمد في الفصول القادمة من هذا الكتاب إلى شرح وبيان كل ذلك بالتفصيل المدروس المركّز وما توفيقي إلا بالله العليم الخبير.

---

(١) ـ راجع لسان العرب.

(٢) ـ سيأتي ذكر هذه الأحاديث في حينها بعون الله تعالى.

الفصل الرابع

الشيطان الإمبراطور

إذا كان الشيطان في عالمكم
«امبراطوراً» يتربع على
عرش ضلالاتكم وجرائمكم . .
فأنتم وحدكم المسؤولون والملومون على ذلك
وليس الشيطان . .
لأنكم أنتم الذين نصبتموه امبراطوراً
واسع الأثر والنفوذ عليكم .

زعموا أن الشياطين:

أرواح غير منظورة، شريرة، ولايمكننا الإستدلال عليها بحواسنا، وهي ترانا ونحن لا نراها، وهم جند ابليس الأوفياء».

وقالوا:

«الشيطان من طبيعته الكبرياء والأذى وإلحاق الضرر بالإنسان فالإنسان عدو له ولأبيه ابليس دون سبب أو سابق معرفة، لا يدفعه إلى ذلك سوى الحقد.. فهو لا يعدم الوسيلة أياً كانت لضرر الإنسان في دينه ودنياه.

وقد فهم فلاسفة الأوروبيين ذلك فاشتقوا كلمةDevil) بمعنى الشيطان وهي مشتقة من كلمتين (Do) بمعنى يفعل و (Evil) شراً»[1].

ويتحدثون عن عقول الشياطين فيقولون:

وعقول الشياطين بعيدة عن الحق، لأنها محرومة من فهمه وإدراكه[2]. وهذا لا يمنع ما فيهم من ذكاء خارق في الشر فقط وسعة حيلة في الإضلال، وهو يستمد طاقة الشر من أبيه إبليس.

والشيطان بدأ حياته على الأرض منذ وجد الإنسان، وحدث الإحتكاك بينهما في الجنة.

ولقد آمن بالشيطان عباقرة الأمم»[3].

ويبيِّن هؤلاء عظمة وهول امتداد أثر الشيطان فيقولون:

«وهذه الحضارة قامت أكتافها على أساليب الشياطين في الإضلال والهلاك، فأضل الأمم جمعاء، وعبّر عن الحضارة في أذهانهم بأنها الفسق والإباحية والشذوذ والفواحش وتغيير خلق الله، وما من رذيلة في الأمم السابقة، إلا وجدناها فضيلة في الأمم حالياً، وأخذت مشروعيتها بألفاظ حديثة»

(١) ـ راجع كتاب «السحر وتحضير الأرواح» للدكتور السيد الجميلي.

(٢) ـ إذا كان هذا الزعم صحيحاً فالشياطين إذن ليست مسؤولة عن شرورها وآثامها، لأن شرع الله يقول: ﴿لايكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾.

(٣) ـ المرجع السابق.

ويتابعون الحديث عن الإرهاب الشيطاني:

«وهذه الآلات الجهنمية، القنابل الذرية، الصواريخ، والطوربيد وماإليه من الفتك بالبشرية كلها من وحي الشيطان لدى عباقرة العلوم، وقد اتخذ الشيطان من البشر دعاة له للإغواء والإفناء..».

ويرصد الدكتور الجميلي في كتابه الحديث «السحر وتحضير الأرواح» أثر الشيطان البالغ في العالم وفي تعبد الناس له فيتحفنا بتلخيص مفيد لظاهرة عبادة الشيطان فيقول:

«وازدادت شهرة الشيطان في الشر وازدهرت أعماله فدعا بعض الناس إلى عبادته شخصياً، ففي بعض الأمم قوم يقال لهم «عبدة الشيطان»وهم في الوقت نفسه يعبدون الله. ويقولون إنما نعبده لنتقي شره، هذا في بعض أمم الشرق[1]. أما في الغرب فقد ازدهرت هذه العبادة وازدهرت صلة الإنسان بالشيطان ليس من طريق الإغواء فحسب، بل من طريق الإتصال الشخصي أيضاً[2] ففي خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، تكونت الجمعيات وتأسست الأندية المختلفة في أوروبا وأميركا لعبادته والإقرار بفضله.

وتضم هذه الجمعيات عقول كثير من المفكرين والفلاسفة والأثرياء في أمريكا وانكلترا وفرنسا والمانيا، وأول جمعية أنشئت لهذا الغرض، جمعية أميركية باسم (Satanists) أي المتشيطنين. وغرض هذه الجمعية عبادة الشيطان ذاته شخصياً حتى لا يضرهم، وانضم لهذه الجمعية العدد الوفير منهم بقصد قضاء حاجة معينة، ومنهم ممن يقصد قضاء رغبة جنسية دنيئة، ومنهم من يقصد تعلم السحر»[3]

ويتابع الراصدون لنشاطات جمعيات عبادة الشيطان فيؤكدون انتشارها في أمريكا وأوربا حيث تنتشر في انكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، حتى أوصلها المروجون لها إلى جنوب أفريقيا.

ومن الجمعيات العالمية للإتصال بالشيطان جمعية الإله «مونتاكا» في الهند، حيث يزعمون بأن الشيطان هناك يظهر في صورة مهيبة ليلاً في مكان موغل بين الأدغال ويجيب لأتباعه طلباتهم لاغوائهم وصدهم عن الطريق السوي.

وفي بلجيكا قام القس المدعو «دوكر» بالدعوة إلى عبادة الشيطان، فهو - في رأيه - الحاكم المطاع في العالم، وهو الذي يضر وينفع ويمتلك ناصية خير الناس وشرهم.

وكتبت رئيسة دير راهبات «لوسيفر» في مذكراتها أنها عبدت الشيطان وهي طفلة، ورأته شخصياً، وتدرجت في المناصب الشيطانية حتى أصبحت رئيسة دير «راهبات لوسيفر» وتعني

(١) - نقله عن «كتاب رحلة في ربوع آسيا» للرحالة محمد ثابت.

(٢) - ترى ما المقصود من قوله: «الإتصال الشخصي» بالشيطان؟

(٣) - المرجع السابق ص ١١٦.

كلمة «لوسيفر» الشيطان، وهو الإسم الذي يطلقه أتباعه عليه. ومما ذكرت في مذكراتها أنها خطبت للشيطان «اسيمودس» وهو أحد نبلاء دولة الأبالسة، وتشرح بلا حياء ولا خجل أشكالاً من تعاملها معه[1].

ويصف العالم الفرنسي «باتلا ليلي» رحلته إلى سنغافورة وحضوره إحدى حفلات تعميد الراهبات في دير الشيطان هناك وما دار فيها من خبث ورذائل.

كما يصف أحد الرحالة كيف أنه حضر في بومباي في الهند حفلة أقيمت فيها الطقوس الدينية الشيطانية، ويذكر على حد زعمه كيف ظهر الشيطان متجسداً في هذه الحفلات، وألقى عليهم مواعظه[2].

ويقول المتابعون لدراسة هذه الجماعات الشيطانية أن أعضاءها في كل مكان من العالم قد اتخذوا لأنفسهم علامات ورموزاً وشارات سرية يتعارفون بها على بعضهم.

ويؤكد هؤلاء بأن في كيمبرج واكسفورد في إنكلترا جماعات شيطانية كثيرة أنشأها طلبة وأساتذة في جامعتي هاتين المقاطعتين، وقد أسسوا هناك أيضاً ما يعرف ب «نادي جهنم» بزعامة الإيرل ريتشارد بارسون، وهو يضم جماعة كبيرة من رجال المال والأعمال والفن والثقافة والسياسة[3]. وهكذا فقد اخترع الأفاكون للشيطان قوى وقدرات خارقة يبسط من خلالها سلطانه الذي لا يقف عند حد، وقد بالغ هؤلاء في الشر والأذى المنسوب إليه فجعلوه المسؤول والملوم عن كل جريمة وخطأ وزلل وفشل يقع فيه الإنسان حتى كاد بعض الناس أن ينسوا لوم أنفسهم على أخطائهم وتقصيراتهم وفشلهم، وكأنما يرون أن إرادة الشيطان وحده هي القاضية والحاكمة المستبدة التي لا فكاك منها. جاء في كتاب «المسكونون بالشيطان» لمؤلفه رياض العبد الله:

«إذا استطاعت أجيالنا أن تحافظ على بعض قيمها وإنسانيتها وطيبتها، فإن أبناءنا وأحفادنا تزحف نحو خطر مجهول السلاح والهدف.. إنه الشيطان برمّته.. الذي لامنازع له على الإطلاق في تملك الشر في العالم»[4].

---

(١) ـ راجع المصدر السابق.

(٢) ـ المرجع السابق.

(٣) ـ راجع كتاب «تحضير الأرواح» لمؤلفه محمد جعفر.

(٤) ـ المسكونون بالشيطان لمؤلفه رياض العبد الله ص ٧٠.

وأما صرعات الفريق الآخر من المتشيطنين فهي كما رأينا قد وصلت بهم إلى حدّ تأليه وعبادة الشيطان خوفاً من بأسه المزعوم ودفعاً لشره وأذاه.

إن هؤلاء النـاس ـ سواء عن قصـد منهم أو غير قصـد ـ قد نسجوا من عند أنفسهم للشيطان في خيالهم صوراً وقدرات عجيبة خارقة يأبى العقل والمنطق السليم قبولها في أي شكل من أشكالها، فهم بما زعموا للشيطان من أثر وقدرات وتسلط وانتشار قد جعلوا منه امبراطور الشر المتسلط الذي يتملك بتأثيره وإرهابه الخفي كل ما ومن على الأرض ويبثّ جنـوده غير المرئيين، ينفثون ويوسوسون ويتملكون عقول الناس وقلوبهم ويسيطرون على أعمالهم وأحوالهم، بينما الإنسان في كل هذا ضحية عاجزة لا حول له ولا قوة كالشاة اللبون الوديعة وقد غرس الذئب أو الضبع أنيابه الحادة المفترسة فيها وهي مسلمة له رقبتها النازفة موقنـة بالهـلاك وعبثية السعي للنجاة والخلاص، إذ أنها مقضي عليها بين فكّي اليشطان المفترس لامحالة.

ولهذا فإنك تجد على لسان الناس أن اللوم فيما اقترفت أيديهم يقع على الشيطان بزعمهم.

فهو الملوم إن قتلوا أو سرقوا أو اختلسوا أو غشوا.

وهو الملوم في كل جرم وذنب وإثم.

وهو الملوم في كل ظلم أو عدوان.. وهو هو دائماً القوي القادر على كل الناس بما يوسوس لهم، وهم لاحول لهم ولا قوة. ركبهم اليأس واستكانوا للضلال والظلم لأنفسهم وغيرهم، وهم دائماً يلعنون في ذلك كله الشيطان الرجيم، ولا يتفكرون في حقيقة ما تقترف أيديهم وما يجلبونه لأنفسهم من شر وأذى.

وهكذا تجد أن الناس قد جعلوا من الشيطان امبراطوراً للشر في العالم، وصوروا للأذهان أن له سلطاناً يمتد بلا حدود وأنه يجلس متربعاً متمكناً على عرش الشر يحتل كل شبر من الأرض، وكل لحظة من الزمان، وكل فكرة أو خاطرة من خواطر البشر.

ومع الأسف الشديد أن تجد من هؤلاء الناس من يدعم إيمانه بالإنتشار الواسع لسلطان الشيطان وقـدرته على الناس بما فهم هو خطأً من بعض النصوص في الكتاب المقدس أو القرآن أو الحديث الشريف، وبذلك يزعمون أن الدين يؤيِّد هذه الخرافة وأنه يؤيد الزعم بأن الشيطان قادر قوي بسلطانه على الناس بينما لا يملك الإنسان أي حول أو قوة لمنع انتشار

شرور الشيطان الملعون الذي امتد بسلطانه على أبناء آدم جميعاً.

والآن . . .

هل يوافق الإسلام على هذا التصور المفرط لقدرة الشيطان وامتداد أثره وسلطانه على عباد الله؟

في الفصل القادم ندرس معاً بيان الإسلام في «الشيطان» من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف حيث سيتبين معنا أن الإسلام لا يرى للشيطان أي سلطان على عباد الله، بل يؤكد حقارته وهوان شأنه.

سنرى على ضوء البيان الإسلامي الحق أن الشيطان ليس امبراطوراً في عالم الإنسان، بل هو ذليل حقير ومن الصاغرين.

الفصل الخامس

الشيطان الذليل

قال ربنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم مبيِّناً ذلّة الشيطان وصَغاره:

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾

(سورة الأعراف: ١٣)

يبين لنا دين الله الإسلام من مصادره الأساسية في القرآن والحديث الشريف أن الشيطان مخلوق ضعيف عاجز هالك مذؤم مدحور وهو من الصاغرين، وأما عن كيده فقد علّمنا ربنا تبارك وتعالى أن كيد الشيطان ضعيف لا خوف منه على عباد الله، قال عزوجل:

﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾

(النساء: ٧٦)

إذن فالشيطان في تعليم القرآن الكريم ضعيف الكيد والمكر والحيلة، لماذا؟ لأنه لايملك سلطاناً على عباد الله عزّ وجل قال ربنا تبارك وتعالى مبيناً عجز الشيطان:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾

(الحجر: ٤٢)

ويعترف الشيطان بعجزه وضعفه فيقول:

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾

(ابراهيم: ٢٢)

وكيف يكون للشيطان سلطان وقد لعنه الله وجعله من الصاغرين، قال تعالى مبيِّناً حكمه على الشيطان:

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾

(الأعراف: ١٣)

كما بين لنا القرآن الكريم حقارةَ شأن الشيطان وحُكْمَ الله عليه بأن يظل حقيراً مهزوماً خائباً على مدى العمر:

﴿قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً﴾(١).

(الأعراف: ١٨)

(١) ـ قال المبرد: المدحور أشد الصغار والذل ـ راجع التفسير الكبير للرازي.

وهكذا نجد في بيان الإسلام أن حالة الشيطان إنما تعبّر عن العجز والضعف والإنهزام والـذلّـة والهـوان، وهذا يناقض تماماً إفراط الناس ومبالغتهم في تصوير قدرات الشيطان واعتبـاره الملوم عن كل جريمـة وذنب وإثم، فاللّوم في حقيقـة الأمر يجب أن يكون على المخـطئـين والآثمين أنفسهم والبرهان في ذلك أنه لا سلطان للشيطان على الناس إلا أن يدعوهم وهم حين يستجيبون فإنما يستجيبون بإرادتهم هم ودونما سلطان قاهر عليهم، وقد صور لنـا القـرآن الكريم هذه الحقيقة في صورة حوار بين الشـيطان وأتباعه ساعة الندم والحسرة، حيث يقول الشيطان لأتباعه:

﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾

(ابرهيم: ٢٢)

فالإسـلام إذن يعـبِّر عن حقيقـةٍ مخالفـة لما يشيعه الناس عن أثر الشيطان وسلطانه. فالشيطان في المفهوم الإسلامي حقير ذليل منهزم ومدحور وهو أيضاً ضعيف الكيد خائب السعي والرجاء وهو فاقد السلطان إلا على من يستجيب له من نفسه ويختار أتّباعه.

ويجـد المتتبـع لحقيقة الشيطان في أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تكشف حقيقة ذلة الشيطان وعجزه وهوانه إلى حدّ بعيد.

كيف..

إليكم الحقيقة من خلال عرض الصور التالية عن الشيطان الذليل والتي جاءتنا موثّقة في أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عرش الشيطان:

علِمنا، مما مر معنا، أن فئات من الناس قد عظّموا من شأن الشيطان وخطر شره إلى حد أنهم قد نصّبوه امبراطوراً على عرش الشر في العالم يتسلط بقدراته المزعومة على البشر جميعاً وهم فاقدو الحيلة أمام جبروته وسطوته، ولذلك فقد شَيّدت له بعض هذه الفئات من الناس أبنية ومعابد تعبّده فيها واعتقدوا متصورين في خيالاتهم أنه يقعد قوياً مهيباً على عرش الشر في العالم كله. فماذا قال الإسلام عن عرش الشيطان!

جاء في حديثٍ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«يا أبا هريرة قلِّم أظافرك فإن الشيطان يعقد على ما طال منها»

رواه أحمد

وهكذا ترى الشيطان الذليل يعقد مع الأقذار المتجمعة على الأظافر الطويلة للإنسان وهو يرتجف خوفاً وهلعاً من سطوة المقص إذا ما جاء ليُلقي بعرشه إلى سلة المهملات ثم إلى مصيره المحتوم في حاوية الزبالة!

فندق الشيطان:

ينام الأثرياء من الناس حين أسفارهم في الفنادق الفخمة ذات الرفاهية الباذخة والأجواء المكيَّفة والأطعمة الذيذة، ويتنعمون بالنوم في الغرف الهادئة والأسرَّة الناعمة، فأين ينام الشيطان وأين يبيت؟

جاء في حديث رواه أبو هريرة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرات فإن الشيطان يبيت على خياشيمه).

صحيح مسلم

إذن فالشيطان يبيت في أنوف الناس يفترش مخاطها ويتدفأ بهواء الشهيق والزفير الداخل والخارج من فتحة المنخرينْ، والويل كل الويل للشيطان حين يقوم الإنسان صباحاً بتنظيف أنفه والاستنثار ثلاثاً، لأنه بعمله هذا سيُخرج الشيطان من أنفه ساقطاً مدحوراً مع المخاط وماء الإستنثار ويصير إلى مصيره المرعب الخانق في البالوعة والمجاري. فإذا كان هذا مصير الشيطان في صباح كل يوم حين ينظف الناس أنوفهم، فكيف يكون امبراطوراً ولا يكون ذليلاً؟!

حاذر أن تبصق لئلا تُغرق الشيطان:

في رحلات التنزه والإستمتاع يخرج الناس إلى البساتين والرياض يمتِّعون أنفسهم على ضفاف الأنهار والبحيرات ينتعشون بمرأى المياه العذبة أو السباحة فيها والإرتواء منها. ويذهب الكثير منهم ليمتعوا أنفسهم بالتفرج على عيون الماء التي تتفجر من الينابيع في كهوف الجبال ثم تهدر جمالاً وروعة وتنساب سحراً ورواءً في السهول والحقول والوديان تشكل جنات ألفافاً ينتشي فيها الجمال بهياً زاهياً يخلب الألباب والأبصار.

فإلى أي الكهوف يأوي الشيطان، ومن ماء أي الينابيع يستقي . . .

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه فإن الشيطان يدخل)

صحيح مسلم

وهكذا كلما تثاءب إنسان دخل الشيطان إلى فمه يستَرْوِح عبق أنفاسه ونخر سوس أسنانه، ويسبح منتعشاً في لُعابه!

ولكن ماذا يكون مصير الشيطان إن بصق هذا المتثائب؟ حينئذ يقع على الشيطان البلاء والقدر المحتوم حيث يخرج من فم الإنسان مدفوعاً بقوة هائلة مع البلغم والبصاق ويستقر مكوّماً تعيساً، مقهوراً على تراب الأرض، إلى أن يجف البصاف في حرارة الشمس ثم تذروه الريح!

الشيطان يستجدي اللقمة:

من المحتمل أنك استجمعت ما في صدرك من شجاعة وما في جيبك من مال ثم استعنت بالله ودخلت في ذات أول شهر مطعماً دعتك إليه رائحة الشواء والمقبلات وأطايب الطعام. أو لربما صَنَعَتْ لك زوجك أو والدتك الغالية وليمة خاصة في مناسبة خاصة، أو لربما تكون على الأقل شاهدت في التفزيون كيف أن في عالمنا الواقعي ولائم من الخراف المحشية والأسماك والفطائر والحلوى والفواكه وغيرها مما لم يحلم به امبراطور في زمانه، فهل حلم الشيطانُ يوماً بوليمة كهذه، وهل يلذُّ له الأكل من الطيبات لو (صحّت) له؟

أبداً . .

المسكين لا عمل له بعد أن يطرده المستيقظون صباحاً من خياشيمهم، أو يبصقه المتنحنحون من أفواهم، أو يقصه المتطهرون من أظفارهم، لاعمل له إذا جاع، إلا أن يقف ناظراً بذلٍّ إليك وأنت تأكل راجياً أن تسقط من فمك لقمة على الأرض ليأكلها ـ هذا إذا تركتَها له ولم تأخذها ثانية فيرتد هو طاوياً على جوعه حتى الموت!.

روى ثابت ابن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان) صحيح مسلم[1].

---

(١) ـ راجع ما أورد ابن كثير في ذلك.

ومع كل هذا الذل للشيطان (الإمبراطور) فهو لا يفضِّل من الأطعمة اللحوم والفاكهة والقشـدة والعسـل أو غيرهـا من الـطيبـات، بل إن أحب الأطعمة إليه: العظام وروث الحيوانـات، فلقـد ورد عن ابن مسعـود عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم نهيه عن الإستنجاء[1] بالعظم أو الروث لأنها طعام الجن، فقال:

(لايستنجين أحدكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة)

(صحيح مسلم)

ونَصَحَ بعض الفاهمين لهذا الحديث بأن يعمل الناس على عدم استعمال العظم والروث بعد قضاء الحاجة وبيّنوا، على حد فهمهم، سبب ذلك فقالوا:

«حتى لا نحرم الجن من أكله»[2].

ولو أراد الدارس المحقق أن يزيد في ذلّة الشيطان وهوانه في المفهوم الإسلامي لوجد المجال واسعاً ممتداً أمامه. ولكن بما أننا سنعرض في الفصل القادم لشرح هذه الأحاديث الصحيحة على ضوء البيان السليم من اللغة العربية والقرآن الكريم والعقل والمنطق السليم، فإننـا نكتفي هنـا بما صـوّرنا من ذلٍّ وهوان للشيطان الرجيم الذي جعل منه الكثير من الضالين امبراطوراً يجتاح العالم بشره، أو حتى إلهاً يُعبد في معابد خاصة به، نعوذ بالله تعالى من شر ذلك ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والآن، كيف نفهم الآيات والأحاديث التي ذكرت الجن والشياطين إذن؟

نفهمها معاً بدءاً من الفصل القادم.

---

(١) ـ أي التطهر بعد قضاء الحاجة.

(٢) ـ راجع كتاب: «الإنسان بين العين والسحر والجان» لمؤلفه زهير الحموي. ص ١٣٤.

الفصل السادس

حقيقة مفهوم الجن والشيطان
في بيان الحديث الشريف

سـيدنا

محمد رسول الله صلى عليه وسلم

لا يزال حياً باقياً في رسالته وبيانه إلى العالمين . .

ولا تزال الشهادة على حياته وبقائه

تشرق مسفرة في كل يوم عن إعجاز وبيان جديد

تتكشف عنه أحاديثه الشريفة

فتؤكد أنه الرائد الأول

الذي كشف البيان قبل البيان . .

وتحدث بالعلم قبل العلم

مؤكداً أنه لا ينطق عن الهوى

إنْ هو إلا وحي يوحى . .

وهاهو لا يزالُ يبشّر العالمين

بإعجاز محمدي جديد أنه :

لا إله إلا الله محمد رسول الله .

قد استعمر الوهم الشبحي في الإعتقاد بالجن والشياطين أنحاء عقول الناس في كافة بقاع الأرض، وعلى مدى عصور كثيرة من الزمان، انتُهكت فيها حُرمات العقل البشري وأُهمل منطقه، وأهينت كرامته وضُيِّعت شخصيته.

والآن..

آن الأوان لأن يُبدِّد نورُ دين محمد صلى الله عليه وسلم ظلمات هذا الإستعمار الشبحي لعقول الناس في كل زاوية وركن من أركان الأرض، لتسطع بنور ربها وليدين الناس بالعرفان والتصديق والتقدير للإسلام الذي أسلف البرهان بأنه حين ارتفعت رايته بالصدق، أشرق العالم بالنور والعلم والحرية من قيد كل جهالة، فانتكست راياتها وزهق باطلها، وتبدد ليلها.

وها هو ذا الإسلام يعلن، من جديد، على لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي بيان حديثه الشريف أن شمس الإسلام لاتغيب، فهي لابد ستشرق من مغربها بعد أن ظن الناس أنها قد آلت للغروب.

وبعد طغيان إرث ليل طويل من الجهل والوهم والخيال واحتلال الجن والشياطين والأرواح والأشباح لعقول الناس من مختلف فئاتهم ومستوياتهم، جاء الإسلام بنور الله ليبينِّ حقيقة هذا الجهل المهلك، وليكشف الظلمات ويحرر العقول والأفهام ويسطع ببيانه الحق في مفهوم الجن والشياطين.

وإليكم البيان..

تعلمون أن القرآن الكريم قد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بلغة العرب وبيانهم، وقد قال ربنا عزوجل عنه:

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ (الرعد: ٣٧)

وقال تعالى:

﴿بلسان عربي مبين﴾

(الشعراء: ١٩٥)

فالحكم في الفهم والبيان إذن للغة العربية كأصل من أصول التفسير، بالإضافة إلى ماجاء من أصول أخرى صنفها العلماء.

ولقد تبين لنا من مراجع اللغة العربية الموثقة أن من معاني كلمة الشيطان: «الجن» أيضاً[1].

ومر معنا أيضاً أن لفظة «الشيطان» تعني:

«كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن والدواب»[2].

وهذا يعني أنه يُمكنك أن تقول:

الإنسان العاتي شيطان.

والدابة العاتية المؤذية شيطان.

والجني العاتي شيطان.

وهذا يعني أيضاً أن:

من الجن شياطين.

ومن الناس شياطين.

ومن الدواب شياطين.

وكذلك يبين لنا اللغويون في معاجمهم أن كلمة «الإحتراق» و «الشيَطان» و «الإلتهاب» تدخل أيضاً في جذور لفظة الشيطان. وقد تحققنا من ذلك معاً في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

وسنعمل الآن، معاً أيضاً على أن نتبين ونفهم الحقائق الإعجازية المدهشة التي أشار إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمتعلقة بلفظتي الجن والشيطان، فكان في ذلك رائداً في العلم والبيان.

(١) ـ راجع المصادر المشار إليها.

(٢) ـ لسان العرب، محيط المحيط، المعجم والوسيط وغيره.

ومما يجب الإنتباه إليه أن هذه الأحاديث المعنية قد استعملت لفظة «الجن» في بعضها ولفظة «الشيطان» في بعضها الآخر في رواية ثانية لذات الحديث. وإنني لا أقول هنا أن ورود لفظة الجن مكان لفظة الشيطان أو بالعكس يؤدي المعنى ذاته دون زيادة أو نقصان، بل أريد أن أشير هنا إلى حقيقة أن لكل لفظة دلالتها اللغوية والعلمية الدقيقة التي يجب الإنتباه إليها بكل دقة وإخلاص، وعندها يتألق في أذهاننا الإعجاز المحمدي في أحاديثه الشريفة التي هي من نور الله عزّوجل ووحيه إلى رسوله الكريم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ليكون للعالمين سراجاً منيراً يضيء الكون كله بدين الله (الإسلام).

علِمنا أنه قد ورد في معجم لسان العرب في معنى لفظة «الجن» مايلي:

«وكل شيء ستر عنك فقد جنّ عنك».

أي أنه كما يصحّ قولك عن كل ماخفي عنك بأنه: خفي، كذلك يصح قولك عن كل ماجنّ عنك (أي ستر عنك) بأنه: «جني».

ولاشك في أن للجراثيم والميكروبات التي تنشر الوباء وتفتك بالألوف من الناس، وجوداً مادياً حقيقياً بالرغم من كونها مستورة عن نظر الإنسان، فهي لصغر حجمها ودقة أبعادها، لايستطيع رؤيتها بعينيه المجردتين بالرغم من وجودها أمام عينيه، ولذلك فهي تُعتبر من الجن بحسب ما جاء في اللغة العربية[(١)].

ولكون هذه المخلوقات الدقيقة الحجم تسبب أيضاً الأمراض والحُميّات والإلتهابات وتهلك المصابين بها من الناس، فهي أيضاً من جنس «الشيطان» بسبب فعلها وعتوّها في الفتك والأذى، حيث مر معنا في تعريف الشيطان: «أنه كل عات ومتمرد من الإنس والجن والدواب». فالجراثيم والميكروبات هي من الجن العاتي الذي لا تراه العيون وهي مع ذلك تبطش بالكثير من الناس والدواب وتهلكهم من غير أن يُرى لها وجود عيني محسوس أو ملموس. وهي لذلك شيطان أيضاً.

فإذا حاولنا أن نفهم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضوء حقائق وبيان

---

(١) ـ راجع ما أوردناه من تحقيق لغوي في الفصل الثالث.

اللسان العربي المبين، وليس من منطلق الوهم والخيال المتوارث، فإن ظلمة الجهل ستنجلي، ويحل محلها الواقع المبين بنور المعرفة الحقة.

الحديث الأوّل:

لأنّ النظافة من الإيمان، وكي نحمي أنفسنا وأهلنا ومجتمعنا من أخطار الجراثيم والميكروبات والأوبئة، فقد بيّن لنا سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الجراثيم والميكروبات السامّة التي تسبّب الأمراض بما تُحدث في الجسم من تسممات والتهابات إنّما تعقد مع الأقذار على الأظافر الطويلة للإنسان، وهي من الجن لأنّها خفية عن النظر المباشر وهي أيضاً من الشيطان لما تسبب من التهابات وأمراض مهلكة تنتشر عن طريق التلوث على شكل أوبئة فتّاكة مهلكة للنّاس في كل مكان يتم فيه هذا التلوث.

ولذلك فقد أمرنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننتبه إلى أنّ نظافة الأظافر وقصّها يمنع فرصة تراكم وعقد هذه الميكروبات عليها، وبالتالي يمنع فرصة الإصابة بالأوبئة والالتهابات والحمّيات التي هي جميعاً من الشيطان وتدخل تحت تسميته، فقال:

«يا أبا هريرة، قلّم أظافرك فإنّ الشيطان يعقد على ما طال منها». رواه أحمد

ولا شك في أنّ الظِفْر الملوّثة بالجراثيم والميكروبات تسبب التسممات والالتهابات للجروح والعيون وكذلك البلعوم حيث يضع الأطفال أصابعهم في أفواههم، فتسبب الأمراض والالتهابات، كما أنّها تؤدّي إلى نقل العدوى بالأمراض والأوبئة، التي هي من الشيطان، فقد ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنّه قال أنّ «الحمّى» من الشيطان. أي أنّها من جراثيم الوباء التي تسبب الإلتهاب والسخونة الشديدة. ولذلك فإنّ في تقليم الأظافر والحرص على نظافتها، صيانة صحيّة هامّة وضرورية للفرد والمجتمع وحفظاً لأنفسنا وأطفالنا من خطر الأمراض والأوبئة التي تسببها الجراثيم والميكروبات الجنية الشيطانية ـ أي الخفية المهلكة.

وفي هذا يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رائداً في التعليم الصحي للمجتمع الإنساني في هذا الباب من الهَدْي والتعليم، وذلك قبل اكتشاف الميكروبات والجراثيم وإمكانية رؤيتها بالمجاهر الألكترونية.

أمّا أن نقرّ أو نصرّ على الاعتقاد والفهم بأنّ الشيطان الشبح المزعوم يترك كل ممالكه ودنياه وينتظر منك أن تطيل أظافرك ليقضي عمره عليها، فهذه خرافة وخيال مضحك حاشى لله ورسوله أن يكون من الإسلام في شيء!

الحديث الثاني:

ولمّا كانت الأقذار ومعها الجراثيم والميكروبات السامّة تعقد على ثلمة القدح أو الكأس ويصعب تنظيفها تماماً، فقد نهى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها كما في الحديث التالي الذي أورده صاحب لسان العرب نقلاً عن كتب الحديث، قال:

«وفي الحديث: أنّه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب من ثلمة القدح... وقد جاء في الحديث أنّه مقعد الشيطان»(1).

كما روى أبو داوود في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال:

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرب من ثلمة القدح وأن ينفخ في الشراب».

رواه أبو داوود

فهل يصح، عزيزي القارىء، الاعتقاد هنا أيضاً، أنّ الشيطان الشبح المزعوم ينتظر الكؤوس والأقداح حتى تثلم لكي يتربع على عروش ثلماتها ويجعل منها مقعداً ومركباً له، أم أنك ستوافقني على أنّ الحديث هنا أيضاً يحذّرنا من خطر التعرّض للتلوث بجراثيم وميكروبات الأمراض والأوبئة والحمّيات ـ وهي كلّها من الشيطان ـ التي تعقد مع الأقذار على ثلمة الكأس وتصيب المتناوبين في الشرب من كأس مثلوم واحد ينتقل من فم إلى فم آخر.؟

الحديث الثالث:

ولقد أكّد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه على ضرورة ألّا تبقى أواني وقدور الطعام والشراب مكشوفة معرّضة لتلوّث الجراثيم والميكروبات، ممّا يؤدّي إلى تلوّثها بجراثيم الأمراض والأوبئة، ولذلك فقد أمر بتغطية الأواني وحمايتها من خطر التلوّث.

---

(1) ـ لسان العرب مادة «ثلم».

روى جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال:
«غطّوا الإناء وأوكوا السّقاء، وأغلقوا الأبواب، واطفئوا السّراج، فإنّ الشيطان لا يحلّ سقاء ولا يفتح باباً ولا يكشف إناء»

صحيح مسلم كتاب الأشربة

تخيّل معي هذا العجز الفاضح للجن والشيطان بالمقارنة مع الاعتقاد الشائع بالقدرات الخارقة المنسوبة إليهم. إن الصورة هنا في هذا الحديث الشريف تبيّن أنّه إذا أراد الشيطان أن يدخل بيتاً بابه مغلق، فإنّه سيبقى واقفاً أمام الباب بذلّة وهوان طوال عمره إذا لم يَفتح له أحد الباب.

وكذلك حين يجوع الشيطان وينظر إلى أواني الطعام المغطاة ولعابه يسيل، فإنّه سيموت جوعاً إذا لم يكشف له فاعل خير غطاء إناء الطعام ليأكل فلا يَنْفق جوعاً، أو يكشف له إناء الشرب ليروي حرقة ظمأه فلا يهلك عطشاً!

وكيف يصحّ للجن والشياطين أن تكون بهذا العجز والضعف الهائل وهي التي يعتقد الناس أنّها بقدراتها الخارقة نقلت عرش الملكة بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر، وأنّها تطير أسرع من الضوء فتلمس السماء وتسابق الشهب، وأنّها تصيب الناس بالمسّ فتصرع وتفلج، كما أنّها تعين وتؤذي وتخيف الناس بخوارقها وأعاجيبها؟!

فهل الجن والشياطين حقاً كذلك، بينما يرينا الإسلام أنّها تكاد تموت جوعاً أو تهلك عطشاً أمام وعاء طعام أو شراب حفظه الإنسان عنها بغطاء عادي، أو أغلق دونها باب بيته؟!

من الواضح هنا أنّ تغطية آنية الطعام والشراب يحميها من التلوث بالجراثيم والميكروبات المنتشرة في الهواء والمسببة للأمراض والأوبئة التي هي بدورها تسبب الإلتهابات والحمّيات التي يمكن أن يطلق عليها في اللغة العربية اسم: «الشيطان».

والبرهان الواضح على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقصد بلفظة «الشيطان» في قوله:
«فإنّ الشيطان لا يكشف إناء».

«الوباء المتسبب عن الجراثيم»، هو الرواية الثانية التي وردت في صحيح مسلم:

عن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«غطّوا الإناء وأوكوا السقاء، فإنّ في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلاّ نزل فيه من ذلك الوباء».

صحيح مسلم[1]

ترى هنا أن كلمة «الوباء» حلّت تماماً محل كلمة الشيطان في الحديث الذي يأمر بفعل واحد ـ وهو تغطية الأواني ـ لردّ شرّ خطر واحد وهو الشيطان ـ الوباء أو الوباء ـ الشيطان.

إذن فإنّ هذا الحديث يؤكد بكل وضوح أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد استعمل لفظة «الشيطان» للتعبير عن جراثيم وميكروبات الوباء الذي تنتشر معه الحمّى التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّها من الشيطان.

ولكن ماذا عن الشيطان أو الجني الذي لا يفتح باباً مغلقاً ويقف عاجزاً دونه ينتظر ابن حلال يفتح له؟

لقد مرّ معنا أنّ كلمة الشيطان تعني من ضمن ما تعني: الحيّة السامة، وكذلك كلّ ضارّ ومؤذ من الدواب، وفي هذا تدخل العقارب السامة والذئاب والضباع والسباع وغيرها من الدواب المؤذية المهلكة والتي جميعها ـ في واقع الأمر ـ لا تستطيع أن تفتح باباً أغلقه دونها الإنسان.

وإذا ما أخذنا بالروايات التي استعملت لفظة «الجن» بدل لفظة «الشيطان» ـ حيث ورد في رواية أنّ الجن لا تكشف إناء ولا تفتح باباً ـ نجد أنّ هذه الحيوانات والحشرات المؤذية، لكونها تنسلّ خفية مستورة، أي تنسلّ بجنّ دون أن يحس بها الإنسان، فهي تدخل في معنى «الجن» أيضاً، إذ كما تعلمون من اللغة العربية:

«وكل ما ستر عنك فقد جنّ عنك»[2] أي هو جنّي بالنسبة إليك.

وهكذا يتم معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بهَدْيٍ رائع بُغية حفظ الناس من الشرّ والأذى المتسبب عن جميع المخلوقات المؤذية والضارة بالإنسان بدءاً من أدقّ الجراثيم

---

(١) ـ الصفحة ١٥٩٦ من صحيح مسلم.

(٢) ـ راجع المعاجم المذكورة آنفاً.

والميكـروبـات، وانتهـاء بالحيّات والعقارب الوحوش والسّباع والحيوانات البرية المؤذية أو المفترسة التي قد تنسلّ خفية تحت ستر الليل أو الصمت، وتكون بذلك جنّاً وشياطين مؤذية مهلكة.

صلى الله على سيدنا رسول الله وجزاه عنّا كل خير.

الحديث الرابع:

وصف الله تعالى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأنّه «رحمة» للعالمين، فقال:

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

كما شهد ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنّه يتألم ويعزّ عليه عنت المؤمنين لأنّه بهم رؤوف رحيم فقال:

﴿عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾

(التوبة: ١٢٨)

وهذا يعني أنّه عليه الصلاة والسلام رحمة الله تعالى للعالمين في كل شأن يعنيهم، وأنّ قلبه يفيض بالرحمة والرأفة للمؤمنين كأبناء له يعزّ عليه ويؤلمه أن يصيبهم أي مصاب.

ولـذلك فإنّ من الطبيعي جداً أن يهتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما ينفع النـاس، وأن يهمّـه أيضاً تحذيرهم من كل ما من شأنه أن يؤذيهم في أي أمر كان. ونقرأ مصداقاً لهذا الاهتمام الحديث التالي:

روى جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال:

«إذا كان جنـح الليل - أو أمسيتم - فكفّـوا صبيانكم فإنّ الشياطـين تنتشر حينئذ. فإذا ذهبت ساعة فخلّوهم، وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله عليه فإنّ الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً»

صحيح مسلم

وعنه أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا ترسلوا فواشيكم[1] وصبيانكم إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، فإنّ الشياطين تنبعث

---

(١) - الفواشي: كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم.

صحيح مسلم

نرى من هذا الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذّر الناس من إيذاء هوائم الأرض وسوائمها المؤذية كالحيّة والعقرب وغيرها من الحيوانات التي تخرج عادة مع بدء امتداد جنح الليل في البيئات الحارّة نسبياً، وذلك لأنّها تختبىء طوال النهار في جحورها من حرّ الشمس الشديد فتهرب عميقاً في حفر الأرض وثغورها[1] متخذة لها مأوى بارداً في أعماق الأرض، ولكن ما إن تبرد الشمس حين مآلها إلى الغروب ويأتي جنح الليل ببرودته حتى تخرج هذه الهوام والحشرات والحيوانات والحيّات والعقارب من جحورها مسرعة وقد أمضّها جوع اليوم، لتبحث عن صيدها وطعامها لساعة أو أكثر ثم تعود إلى جحورها لتطعم صغارها وفقسها أو لتأوي هناك حتى يومها التالي، وهكذا.

وإذا ما كان ثمة أولاد منتشرون أو أغنام ودواب مما يرعى الإنسان فلربما تتعرّض للأذى من جرّاء انتشار هذه الهوام والزواحف المؤذية السامة، أو الحيوانات الضارية الشرسة. وهي، كما مرّ معنا، تُعتبر من الشياطين لعتوّها وأذاها، كما أنّها من الجن لتسللها خفية مستورة تحت جنح الليل.

ولا بد، أنك لاحظت انتشار السحب السوداء الواضحة من البعوض لحظة الغروب تحوم فوق الرؤوس بكثافة وكثرة وتدور في دوائر مزعجة مسببة الأذى في العيون والأنوف والأفواه حين تدخل مع التنفس. إنّ ساعة انتشار هذه الحشرات توافق أيضاً ساعة غروب الشمس ودخول الليل. ومن باب رحمة ورأفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبّهنا إلى هذه الحالات الخفيّة من الأذى المحتمل في أوقات معيّنة، وجاء تحذيره لنا في هذا الحديث الجامع الذي حوّله الناس إلى خرافة عجيبة تبعث الاستغراب في العقل وتحرم الناس من الاستفادة من حقيقة هدي محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يفسّرون هذا الحديث في بعض كتبهم كما يلي فيقولون:

«إنّ هذا الوقت من الليل هو محلّ الأرواح الشريرة الخبيثة ولذلك فإنّ السحرة يختارون هذا الوقت غالباً للاتصال بالشياطين»[2].

---

(١) ـ قد مر معنا أن من معاني «شطن»: دخل في الأرض، وهذا يعني أن كل مايدخل في الأرض يشطن فيها ويكون شيطاناً ـ راجع التحقيق اللغوي.

(٢) ـ راجع كتاب: «الإنسان بين العين والسحر والجان» لمؤلفه زهير الحموي ص ١٣٦.

الحديث الخامس:

من المعروف أنّ العرب الرعاة في الصحراء كانوا إذا خرجوا لقضاء الحاجة، استعملوا للتطهّر فيما يستعملون قطع الأحجار أو أعواد الخشب وغيرها، وكان من ضمن هذه الأشياء العظام والروث الجاف وبعر الحيوانات. ولكون العظم والبعر والروث من المواد العضوية التي تتكاثر عليها الميكروبات والجراثيم وبيوض الديدان وغيرها، فقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطر استعمالها لإمكانية التلوّث بها، وقد جاء تحذيره هذا في صيغة جملة من الأحاديث الصحيحة التي حذّرت من استعمال هذه المواد العضوية بسبب أنّها تشكل غذاء المخلوقات «الجنيّة» (أي المستورة عن العين) والتي هي الميكروبات والجراثيم التي تتكاثر على هذه المواد العضوية.

جاء في صحيح مسلم، كما روى أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه نهى عن الاستنجاء أو الاستجمار بالروث والعظم لأنّها طعام الجن، فقال:

«لا يستنجينّ أحدكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة»

مسلم(1)

وأورد المهتمون بهذه الأحاديث روايات أخرى، فقد أورد صاحب كتاب «الإنسان بين السحر والعين والجان الرواية التالية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«ولمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لقضاء حاجته أمر أبا هريرة أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له:

«لا تأتيني بعظم ولا بروثة»

وبين سبب ذلك أنّهما من طعام الجن(2).

ثم يعلق صاحب الكتاب على هذا الحديث قائلاً:

«لذلك نُهينا أن نستجمر بالعظم حتى لا نحرم الجن من أكله»(3)

---

(1) - راجع في ذلك تفسير ابن كثير.

(2 و 3) - المرجع المذكور ص ١٣٤.

وهـو يقصـد هنـا أنّـه إذا استعمـل الإنسـان العظام في التطهر والاستجمار فإنّ الجن والعفاريت ستُحرم من طعامها الذي هو العظام وتموت جوعاً، وهذه هي في رأيهم الغاية من الحديث وهذا هو هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بينما حقيقة الأمر أنّ ميكروبات الأمراض والأوبئة تتكاثر على هذه المواد العضوية فتلوّثها. الأمر الذي يشكل خطر التلوّث على الناس بهذه الجراثيم لو استعملوها وبذلك يحيق الخطر بصحة الناس والمجتمع، بينما لو انتبهوا إلى خطر هذا التلوّث لَحَمَوْا أنفسهم ومجتمعهم من خطر انتشار الأمراض والأوبئة بسبب استعمال هذه المواد العضوية التي تتكاثر عليها هذه المخلوقات الجنّية: (الميكروبات والجراثيم) التي لا تُرى بالعين المجرّدة ولذلك فهي خفية عن الإنسان وهي جنّية. وذلك بحسب التعريف اللغوي الذي مرّ معنا في المعاجم اللغوية:

«وكل ما ستر عنك فقد جنّ عنك»[1] أي هو جنّي بالنسبة إليك. وهذا هو عين ما بيّنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، فقال لنا إنّ في هذه المواد العضوية مخلوقات لا تُرى بالعين تتغذّى وتتكاثر عليها وهي طعامها، وهي تؤذي الإنسان الذي لا يستطيع رؤيتها لأنّها قد جنّت وخفيت عنه لدقة حجمها.

أمّا أن يكون العظام والروث والبعر طعام الجن الأشباح التي منها المؤمنون بزعمهم والتي تصلّي وتصوم، وقد تفطر على هذه المخلّفات على أنّه طعامها الذي يجب ألّا نحرمها منه على حد زعمهم، فهذا أمر قبوله فوق طاقة العقل المتفكر!

الحديث السادس:

وحماية للبيئة من التلوث وانتشار الأمراض بسبب تراكم الذباب والديدان والجراثيم على مخلّفات الطعام إذا رُميت أو تُركت مما يؤدّي إلى تكاثر هذه المخلوقات المؤذية بما تسببه من انتشار للأمراض والأوبئة، نجد في الحديث التالي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بألّا يترك الإنسان شيئاً من الطعام للجراثيم حتى ولو كان بمقدار لقمة واحدة، لأنّها ستكون سبباً في نشر التلوث والـوبـاء الـذي يفتـك بالنـاس بفعل «الشيطان» الذي هو جراثيم وميكروبات الأمراض والأوبئة.

(1) ـ المرجع السابق الصفحة ١٣٤.

عن ثابت بن أنس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان».

رواه مسلم

ويـذلـك يمنع الناس أسباب تراكم الذباب والديدان والجراثيم ويحافظون على سلامة صحتهم وصحة بيئتهم من الأمراض والتلوّث[1].

ألم ترَ يوماً لقمة طعام في الأرض قد تراكم عليها الذباب أو النمل؟ ولكنكَ طبعاً لن تستطيع رؤية الجراثيم المتراكمة عليها بالملايين لأنّها خفيّة عن عينيك لصغر حجمها ولذلك فهي من الجن بالنسبة إليك، وهي أيضاً من الشيطان لما تسببه من أذى مهلك للناس حين تنشر بالهواء والتلوّث أخطر الأمراض والأوبئة.

أم أنك تعتقد الحديث يتكلم عن الشيطان الشبح المزعوم الذي يقف طوال اليوم منتظراً أن تسقط لقمة من فم الإنسان لينقضّ عليها ويأكلها قبل أن ينفق جوعاً؟!

الحديث السابع والثامن:

وكذلك بيّن لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ما يعلق في الهواء من الجراثيم والميكروبات ينجذب إلى فم الإنسان حين يتثاءب بقوة (شفط) الهواء، ولذلك فإنّ عليه أن يضع يده على فمه عند التثاؤب:

عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل»

رواه مسلم

وكـذلك فإنّ هذه الجراثيم المنتشرة في الهواء والتي يمكن أن تسبب التلوث بالأمراض والأوبئة والحمى والالتهابات يشدّها استنشاق الإنسان وهو نائم مغلق الفم إلى فتحتي أنفه كما بيّن لنا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
«إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خياشيمه»

مسلم في صحيحه

وهكذا بِغَسْل أنفك بالماء والاستنثار تَطردَ ما تراكم من شوائب وجراثيم وميكروبات دقيقة

(١) ـ وهذا ينسجم مع هدي رسول الله في الحفاظ على نظافة البيئة وصحة المجتمع حيث قال في حديث له: (البصقة خطيئة وكفارتها ردمها).

دخلت مع الهواء واستقرّت في خياشيمك، فتسبب الالتهابات التي هي من الشيطان.

أم تعتقدون أنّ الأشباح تنسلّ إلى الأفواه وتسكن في الخياشيم؟

الحديث التاسع:

مما يعرفه الناس جيداً هو أنّه ليس من خطر أعتى وأشد فتكاً بالناس من انتشار الأوبئة. ومن المعلوم أيضاً أنّ هذا الخطر العاتي المهلك إنّما يتسبب عن جراثيم وميكروبات خفيّة لا تراها العين المجرّدة بالرغم من عتوّها وشدة خطرها.

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلي:

«سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن»

رواه الحاكم وأبو حنيفة(١)

إنّ كلمة «وخز» هنا ذات دلالة لافتة للنظر، وبما أنّ الجراثيم مستورة عن عين الإنسان لصغر حجمها فهي تدخل في تعريف الجن كما مرّ معنا. وأمّا عن كونها عدواً للإنسان فلا شك في أنّ كل ما يؤذي الإنسان كالجراثيم وغيرها يدخل في زمرة عدو الإنسان، بما تسبب له من هلاك.

وكذلك قد بيّن لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الجراثيم والميكروبات المسبّبة للحمّى والأمراض إنّما تنتقل بالعدوى وتدور مع الدورة الدموية للإنسان فتصل إلى أوردته وشرايينه وكل موضع يجري فيه الدم حتى تهلكه فقال:

«إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»

صحيح مسلم

كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى قوله:

«إنّ الشيطان ليبلغ من ابن آدم مبلغ الدم»

صحيح مسلم

وهكـذا يتبيّن لنا، بكل جلاء ووضوح، من سلسلة الأحاديث التي تناولناها بالدراسة والتحليل في هذا الفصل، أن استخدام رسول الله صلى الله عليه وسلم للفظتي «الجن» و

---

(١) - راجع «قبس من نور محمد» للدكتور المط.

«الشيطان» إنّما كان استخداماً بيانياً معجزاً من حيث كونه كلاماً جامعاً، بالإضافة إلى أنّه يشير في كل جانب منه إلى معنى دقيق مركز يفهم الناس منه حقيقة متميزة في حد ذاتها.

وأنا لا أقول هنا إنّ كلمة الجن والشيطان تعني فقط الجراثيم أو الحيوانات المؤذية للناس كما مرّ معنا في الأحاديث السابقة، بل أعني أنّنا إذا أردنا أن نفهم دلالات استخدام هذه الألفاظ، فلا بد لنا أن نفهمها من جذورها اللغوية من جهة، ومن سياقها في النص المذكور من جهة أخرى. ولا يصح أبداً الإطلاق أو التقييد في الدلالة والمعنى من غير قرينة أو برهان لغوي واضح وسليم. ولذلك فإنّ إطلاق مفهوم الشبح[1] على كل لفظة «جني» أو «شيطان» أو حتى إطلاق مفهوم الجراثيم على هذه الألفاظ بصورة دائمة لا يكون صحيحاً ما لم تتم دراسة الدلائل اللغوية المقصودة في النص من أصول اللغة والسياق المترابط مع سياقه.

أشير إلى هذا هنا لأنّ كلمة «الشيطان» يمكن أيضاً ـ وفي سياق مختلف أن تشير إلى الإنسان ووساوسه وأفكاره ونفسه الأمّارة بالسوء، أو عدوّه المضلّ المؤذي، أو المشرك والكافر وغيرهم من الناس ممن يتّصفون بالبعد والابتعاد عن الحق والوقوع في حمأة الهوى والضلال الشائن المهلك. كما ويجب التفكر بنفس الأسلوب فيما يتعلق بلفظة الجن الواردة في أي نص. ويفيد أن نتذكر هنا أنّ الشيطان في التعريف اللغوي وفي عرف الناس يكون من الجن أيضاً.

الجن الناس:

إنّ هذا البيان المعجز من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع في أيدينا مفاتيح فهم حقيقة لغز الجن والشيطان في أي نص كريم من كتاب الله تعالى، أو حديث شريف له عليه الصلاة والسلام. وعسى أن يفيدنا في هذا المقام ذكر المزيد من الشواهد:

روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث قدسي أنّ الله عزّ وجلّ يقول:

«يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وأنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في

(١) ـ على حد زعم القائلين بالمفهوم الشبحي للجن والشياطين.

ملكي شيئاً . . يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وأنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني **فأعطيت كل إنسان مسألته** ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . . ».

رواه مسلم

نرى بوضوح مبين من هذا الحديث القدسي أنّ الله عزّ وجلّ قد أطلق على كلتا الفئتين «الإنس والجن» لفظة «**إنسان**» وذلك في قوله عزّ وجلّ في ذات الحديث:

«**فأعطيت كل إنسان مسألته**».

بعد أن قال: «أنسكم وجنّكم . . فسألوني».

إذن كما إنّ الإنس هم من الناس، فالجن هنا هم أيضاً من الناس في نص هذا الحديث القدسي، وهذا هو عين ما جاء في معاجم اللغة العربية حيث قرأنا في لسان العرب وغيره:

«والناس قد يكون من الإنس ومن الجن».

يتضح لنا إذن من هذا الحديث القدسي أنّ الله عزّ وجلّ إنّما يخاطب «الناس» حصراً لأنّ جمع «الإنسان» هو «الناس» التي مفردها أيضاً «الإنسان»، لذلك قال ربّنا عزّ وجلّ في هذا الحديث القدسي بعد أن ذكر خطابه للإنس والجن، قال:

«فأعطيت كل إنسان مسألته».

فإذا لم يكن «الجن» فئة من الناس الذين واحدهم «الإنسان» فلماذا لم يقل ربنا:

فأعطيت كل إنسانٍ وجنّي مسألته . .

طالما أنّه قال لو أنّ جميع «الإنس والجن» قاموا فسألوني؟

إنّ معنى هذا الحديث لا يمكن أن يستقيم هنا إلاّ إذا أخذنا بالمعنى اللغوي الصحيح ومنطق السياق والسباق والذي يبين بكل تأكيد أنّ «الجن» هم فئة من الناس ولكنّها تتميّز بقدرات خاصّة عن الناس العاديين، ولذلك فإنّ الحديث القدسي هنا يخاطب كلتا الفئتين من الناس: العاديين منهم وغير العاديين من الأثرياء وأصحاب السلطان والقدرات المتميزة وكلاهما من عباد الله، لذلك خاطبهم الله تعالى بقوله:

«يا عبادي»[1].

---

(١) - راجع «المفهوم الإسلامي الصحيح للجن والشياطين» لمؤلفه الأستاذ نذير المرادني.

شاهد آخر:

جاء في سيرة ابن هشام[1] في ذكر إحدى البيعات لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال لمن يبايعونه:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون عنه نساءكم وأبناءكم . . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع به أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر» ثم قام أسعد بن زرارة فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ـ لقومه ـ:

«إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم، والجنّ والإنس قاطبة»[2].

ويعلّق الدكتور الخالدي في كتابه «البيعة في الفكر السياسي الإسلامي»، فيقول:

«فكان مقصود هذه البيعة حماية الحكم الذي يزمع إقامته والدولة التي يعمل لإعلانها، فكان موضوع البيعة نصرة الإسلام داخل كيان سياسي»[3]

نلاحظ من نص هذه البيعة الموثّق قول هذا السيد العربي لقومه:

«إنكم تبايعونه ـ أي الرسول صلى الله عليه وسلم ـ على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس قاطبة».

ونلاحظ أنّه يلفت نظر قومه أنّهم لن يحاربوا العرب والعجم والإنس فقط، بل و «الجن» أيضاً، فهل سجّل التاريخ يوماً حرباً قامت بين جيش من الإنس وأشباح الجن باعتبار الجن أشباحاً غير مرئية على حد اعتقاد الزاعمين بذلك؟

إنّ كلمة «الجن» هنا تعني ضمن ما تعني جن الناس أي أشداءهم وغرباءهم ودهماءهم ومعظمهم وأثرياهم وأصحاب السلطان والقدرات الخاصّة، كما مرّ معنا من معاجم اللغة العربية:

«وجن الناس معظمهم لأنّ الداخل فيهم يستتر بهم.
وجنان الناس جماعتهم وسوادهم ودهماءهم.

---

(١) ـ ابن هشام ج ٢.

(٢) ـ الفائق في غريب الحديث ج ١ ص ٢٠٥، وانظر «الكامل في التاريخ» ج ٢ ص ٩٩، وراجع «البيعة في الفكر السياسي الإسلامي» للدكتور محمد الخالدي ص ٢٨.

(٣) ـ المرجع المذكور ص ٢٨.

وجن الشباب: أوله.. وجدته ونشاطه[1].

وكـذلـك مرّ معنـا أنّ كلمة «الجن» تعني في اللغة ضمن ما تعني: الغرباء من الناس والأجانب عن البلاد. جاء في موسوعة لين:

«الجن: الغريب»[2].

هكذا نجد أنّ استعمال لفظة «الجن» هنا لم تكن تعني الأشباح والأرواح، بل كانت تعني المعنى الشائع والمشهور لدى العرب أهل اللغة العربية كما بيّنا آنفاً، وكانَ المقصود بها فئات متميزة من الناس البشر الذين هم أيضاً من أبناء آدم عليه السلام.

استـأنسنـا في هذا الفصل بطائفة من أحاديث وبيان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحققنا من دلالاتها اللغوية والبيانية فيما ذُكر عن «الجن» و «الشيطان» وأدركنا معاً البيان المعجز الجامع والدقيق والسابق في حقائقه لعصر العلم والاكتشافات الحديثة، وثبت معنا، كيف أنّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبقى الرائد في العلم والبيان، شريطة ألّا ننحوا في فهم بيانه منحى الخرافة التي يرفضها العقل والمنطق السليم.

---

(1) ـ لسان العرب مادة «جنن»، والفصل الثالث من هذا الكتاب.

(2) ـ راجع موسوعة لين في اللغة العربية.

الفصل السابع

في بيان القرآن :

الإسلام رسالة إلى الناس حصراً .

قال ربنا تبارك وتعالى عن القرآن الكريم

﴿هذا بيان للناس﴾

علماء اليوم يعلِّمون الناس الإعتقاد بأن الجن مخلوقات غيبية شبحية وأنهم صنف غير صنف الناس، يقولون:

«الجن كالملائكة من الأمور الغيبية التي لا نعلم عن وجودها إلا عن طريق الخبر الصادق، وكذلك لا نعلم عن حقيقتها وصفاتها إلا من الطريق نفسه»(1).

ويتابعون القول:

«إنهم صنف غير صنف الملائكة والإنسان، فهم مخلوقون من مارج من نار، أي من أخلاط نار صافية»(2).

ثم يفصِّلون:

«إنهم مخلوقون قبل الإنس. . . وإنهم يتناسلون ولهم ذرية. . . . وإن من شأنهم أنهم يروننا من حيث لا نراهم. . . . وإن الإنس لا يرون الجن ماداموا على حالتهم التي هم عليها، وأما لو تحولوا إلى شكل آخر فمن الممكن رؤيتهم. . . . والجن قسمان: مؤمنون وكافرون، وهذا تابع لما منحهم الله إياه من الإرادة والإختيار، والكافرون منهم شياطين، وهم جنود الشيطان الأكبر إبليس اللعين، الذي كان أول من عصى أمر ربه من الجن، وأول من كفر بنعمة الله منهم»(3).

ويتحدثون عن القدرات الخارقة للجن فيقولون:

«إن لهم قدرات كبيرة ومهارات صناعية فائقة. فقد سخَّر الله لسليمان الجن يقومون بأعمال البناء الضخم والغوص في البحار، والأعمال الصناعية الرائعة كالجفان الكبيرة والقدور الراسية، والأعمال الفنية كالتماثيل والصور، وقد كانت جائزة ثم حُرِّمت في الإسلام، إلى غير ذلك من الأعمال. .»(4).

---

(1)، (2)، (3)، (4) ـ من كتاب الأستاذ في كلية الشريعة الدكتور مصطفى سعيد الخن في كتابه المقرر: «مبادىء العقيدة الإسلامية» طبعة عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ بحث الجن.

ويبيّنون حال الجن قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون:

«إنهم كانوا قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام يسترقون السمع من أفواه الملائكة من السماء وينقلونها إلى قرنائهم من الإنس في الأرض»[١].

وأما عن قدرتهم على التشكل، فيزعمون:

«أن لهم قدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية»[٢].

وعن تأثير الجن في أجسام الإنس يقولون:

«قد يؤثر بعض خبثاء الجن بعض التأثير في أجسام بعض من الإنس، ولكن يكون هذا التأثير على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم من ذكر أو أنثى، أو يتعرض لتقبل مسّهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر وتلاوة القرآن، ويتجافى عن التحصن من شرهم بالأوراد المأثورة، والإستعاذات الدائمة بالله من كيدهم»[٣].

يؤكد علماء المسلمين وجماهيرهم أن الجن مطالبون بالتكاليف الشرعية الواردة في الدين الإسلامي، يقولون:

«ذهبت جماهير أهل العلم إلى أن الجن مكلّفون بالشرائع الإلهية، وأنهم تتناولهم الأوامر والنواهي الشرعية... وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، وذلك كله يستلزم أنهم كانوا في الدنيا مأمورين بالشرائع ومتعبدين بها... فالجن مكلّفون كما أن الإنس مكلفون، وأن تكاليف الجن هي تكاليف الإنس من حيث الإجمال، وأما من حيث التفصيل فقد يختص الجن بأحكام فرعية جزئية دون الإنس، لاختلافهما في الجنس، كما نص عليه العلماء والله أعلم»[٤].

ورغم إصرار هؤلاء السادة على أن الجن مخلوقات غيبية من غير جنس الناس، فإنهم بالإضافة إلى ذلك يعتبرون من لا يعتقد بوجودهم على هذه الصورة الشبحية الغيبية كافراً مرتداً وخارجاً عن ملّة الإسلام، حيث ورد في كتاب الدكتور الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «كبرى اليقينيات الكونية» ما يلي:

(١)، (٢)، (٣) - من كتاب «مبادىء العقيدة الإسلامية» للأستاذ في كلية الشريعة الدكتور مصطفى سعيد الخن، والكتاب مقرر في السنة الثانية. بحث الجن.

(٤) - راجع كتاب «الإيمان بالملائكة» لمؤلفه الأستاذ عبد الله سراج الدين.

«أجمع المسلمون على أن الإيمان بوجود الجن من المستلزمات الأساسية للإيمان بالله عزوجل[1] وأن إنكارهم أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الإسلام»[2].

ولاشك أن المتّهم بالردّة عند هؤلاء السّادة يجوز عليه تطبيق حكم المرتد، وهو القتل على حد زعمهم[3]

وجاء أيضاً في كتاب الدكتور مصطفى سعيد الخن المدرِّس في كليَّة الشريعة مايلي:

«وفي شريعة الإسلام أن منكر وجودهم - أي الجن - كافر خارج عن الملّة الإسلامية لمخالفته الأدلّة القطعية في ثبوتها ودلالاتها»[4]

وكما بيّنا آنفاً فإن المقصود بالإنكار هنا ليس مجرَّد الإنكار الكلِّي، بل إن هؤلاء السادة يقصدون إنكار الجن على أنها مخلوقات غيبية من غير جنس البشر من أبناء آدم عليه السلام.

وددنا لو أن الحق وافقهم أو لو أنهم هم وافقوا الحق في زعمهم هذا. ولكن مابااليد حيلة، حيث أن الدارس للقرآن الكريم على أساس أنه أيضاً رسالة إلى الجن ليؤمنوا به وبمن أنزل عليه، يجد أن القرآن يؤكد على حقيقة أنه نزل حصراً رسالة إلى الناس البشر من أبناء آدم عليه السلام وأنه ليس بأي حال من الأحوال رسالة إلى غير البشر كما يزعمون، بل هو حصراً رسالة من الله إلى الناس وإليكم فيض البيان الذي جاء في كتاب الله عزوجل، القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب أنزله الله للناس فقط:

الآيات التالية من كتاب الله عزوجل تؤكد بكل وضوح أن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى إلى الناس حصراً وليس إلى أشباح أو أرواح:

قال ربنا عزوجل في سورة آل عمران ١٣٨:

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾.

---

(١) - أستغرب كيف يقول الدكتور البوطي ذلك، مع أن أركان الإيمان المعروفة في الإسلام لم يرد فيها ذكر الجن مطلقاً، بل هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

(٢) - ص ٢٨٠.

(٣) - راجع فصل بحث الردة وأسبابها في كتاب «كبرى اليقينيات الكونية» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وراجع كتاب «قتل المرتد الجريمة التي حرمها الإسلام» للمؤلف. (٤) - ص ٣١٧ من المرجع المذكور.

وفي سورة البقرة: ١٨٥ قال ربنا:

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾

وفي سورة ابرهيم: ٥٢ قال تعالى:

﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾

وفي سورة القصص ٤٣:

﴿بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾

وفي سورة الإسراء ١٠٦:

﴿وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس﴾

وفي سورة النحل ٤٤:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبينّ للناس ما نزل إليهم﴾

وفي ابراهيم ١:

﴿الر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾

وفي سورة الزمر ٤١:

﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق﴾

وفي سورة الجاثية ٢٠:

﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾

وفي سورة النساء ١٧٤:

﴿ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾

وفي سورة يونس ٥٧:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾

ها نحن نرى هنا أن القرآن الكريم إنما هو حصراً:

بيان للناس.

هدى للناس.

بلاغ للناس.

بصائر للناس.

برهان للناس.

موعظة للناس.
شفاء لما في صدور الناس.
لتقرأه على الناس.
لتبيِّن للناس.
لتخرج الناس «من الظلمات إلى النور».
للناس بالحق.
ورحمة للناس.
فأين ذكر الأشباح والأرواح الجنية هنا؟

إن هذه الآيات الكريمة لتؤكد لنا بأن القرآن قد أنزله الله تعالى حصراً للناس.

محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الناس حصراً:

وكذلك يبيِّن لنا القرآن الكريم ويعلمنا أن الله تعالى قد أرسل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى الناس حصراً. وإليكم البيان الإلهي:

قال ربنا تبارك وتعالى في سورة النساء ٧٩:

﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾

وفي سورة سبأ ٢٨:

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾(١).

وفي سورة الأعراف ١٥٨:

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾

وفي سورة يونس ٢:

﴿أن أنذر الناس وبشِّر الذين آمنوا﴾

وفي سورة ابراهيم ٤٤:

﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾

---

(١) ـ يلاحظ أن كلمة «إلا» تفيد الحصر.

وفي سورة الحج ٤٩ :

﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾

إن كلمة «إنما» تفيد الحصر كما يعرف أهل اللغة العربية جيداً.

وكذلك قال ربنا تبارك وتعالى في سورة النساء ١٧٠ :

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق﴾

وفي سورة يونس ١٠٨ :

﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾

وفي سورة النحل ٤٤ :

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نزل إليهم﴾

وفي سورة النساء ١٠٥ :

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾

وفي سورة النساء ١٧٠ :

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾

وكذلك بيَّن الله تعالى أنه قد أرسل أيضاً جميع الرسل إلى الناس ليحكموا بالحق بما أنزل الله عليهم، يقول ربنا تعالى في سورة البقرة ٢١٣ :

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس﴾

وهكذا نوقن من كتاب الله أيضاً أن الله تعالى قد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة القرآن والإسلام إلى الناس حصراً والذين هم بشر من أبناء آدم عليه السلام.

ولقد قرأنا هنا في بيان الله تعالى عن مهمة محمد عليه الصلاة والسلام :

وأرسلناك للناس.

وما أرسلناك إلا كافة للناس.

قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم.

أن أنذر الناس.

ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير.

لتبينَّ للناس.

لتحكم بين الناس.

وهكذا في بيان الله و آياته أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما هو رسول من الله تعالى إلى الناس وليس إلى جنس آخر من غير الناس أشباحاً كانوا أم أرواحاً.

الآيات والأمثال في القرآن الكريم إنما هي للناس حصراً:

على فرض أن «الجن» أشباح من غير جنس البشر من الناس على ما يزعمون، وعلى أساس أنهم مأمورون بالإيمان بالقرآن الذي هو كتاب لهم أيضاً، فهذا يعني أنه يجب أن يكون قد أنزل الله تعالى في القرآن الكريم أمثالاً لهم ليهتدوا بها وألا تكون هذه الأمثال محصورة بالناس، فهل حقيقة الأمر كذلك؟

يبين الله تعالى لنا في كتابه المجيد أن الآيات والأمثال التي أنزلها في كتابه إنما هي حصراً للناس، وإليكم البيان:

يقول ربنا عزوجل في سورة البقرة ٢٢١:

﴿ويبينُ آياته للناس﴾

فها بيان الآيات هنا حصراً للناس ولا علاقة لغير جنسهم بها.

ويقول ربنا تبارك وتعالى في سورة العنكبوت:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾

إذن ماذا تستفيد المخلوقات التي هي من غير جنس الناس من هذه الأمثال القرآنية وماذا تستطيع وأن تأخذ من القرآن لنفسها إذا كانت الأمثال فيه حصراً للناس؟

ويقول ربنا في سورة الروم ٥٨:

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾

وفي سورة محمد ٣:

﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾

وفي سورة الحشر ٢١:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾

وفي سورة النور ٥٣ :

﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾

وفي سورة البقرة ١٨٧ :

﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾

فإذا كان الله تعالى يبين الآيات للناس فقط، فكيف يستطيع «الجن» إذا كانوا من غير جنس الناس أن يتبيَّنوا الآيات وأن يتَّقوا حتى لا ينالهم عقاب الله تعالى؟

وهكذا نجد من كتاب الله تعالى أن بيان الآيات والأمثال وبالتالي كل ماجاء في القرآن الكريم إنما هو حصراً للناس وليس لمخلوقات خفية من غير جنس الناس على ما يزعم الزاعمون.

البيت والحج للناس حصراً:

على فرض أن الجن مخلوقات شبحية خفية من غير جنس البشر، وعلى أساس أنهم مكلفون بالإيمان بالقرآن والإسلام وأنهم محاسبون على تطبيق أركانه، فهذا يعني أنهم مكلّفون أيضاً بالحج إلى بيت الله الحرام لأن الحج ركن من أركان الإسلام، وهذا يعني أن الله تعالى كما جعل البيت الحرام للناس، فكذلك يجب أن يكون لهذه المخلوقات أيضاً على اعتبار أنها مكلَّفة بالإيمان ورسالة الإسلام، أما إذا ثبت أن الحج للناس حصراً، فماذا يفعل الجن إذا كانوا من غير جنس الناس؟

هل يكون لهم بيت خاص بهم وحج خاص، أم أنهم لا يحجون؟

وإذا كانوا لا يحجون فكيف يقيمون أركان الإسلام كاملة؟

يبين الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم أنه عزوجل قد وضع البيت الحرام للناس حصراً، وأنه قد فرض الحج على الناس حصراً.

قال ربنا في سورة الحج ٢٥ :

﴿والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس﴾

فهذا المسجد الحرام قد جعله الله للناس فقط.

وقال تعالى في سورة البقرة ١٢٥ :

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾

وهذا بيت الله مثابة للناس فقط وأمناً لهم هم حصر.

وقال تعالى في سورة آل عمران ٩٦ :

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾

وها هو ذا بيت الله في مكة قد وضعه الله للناس فقط.

وفي سورة المائدة ٩٧ :

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾

فالكعبة للمسلمين وهي للناس حصراً.

ويبن ربنا تبارك وتعالى أن الحج فريضة على الناس حصراً فيقول في سورة آل عمران ٩٧ :

﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾.

ولم يقل ربنا ولله على الناس والجن حج البيت. لماذا؟ أفلا تتفكرون؟.

في القرآن الكريم يضرب الله تعالى الأمثال بالناس فقط:

وعلى فرض أن القرآن الكريم كتاب «الأشباح» الجن أيضاً فذلك يعني أن يجدوا فيه أمثالاً تضرب بهم ليتعلّموا منها وليتّقوا الله ربهم، ولكن الدارس للقرآن المجيد يجد أن جميع الأمثال إنما تُضرب بالناس وللناس وفقط مصداقاً لقول الله عزوجل :

﴿وكذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾

(محمد : ٣)

ونبدأ بقول ربنا عزوجل في سورة البقرة ٨ :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾

وفي سورة البقرة ١٦٥ :

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾

وفي سورة البقرة ٢٠٤ :

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام﴾

وفي سورة البقرة ٢٠٧ :

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾

وفي سورة البقرة ٢٠٠ :

﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾

وفي سورة الحج ٣ :

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد﴾

وفي سورة الحج ٨ :

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾

وفي سورة الحج ١١ :

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾

وفي سورة لقمان ٦ :

﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾

وهكذا أمثال القرآن جميعاً تذكُر الناس وحدهم وتحذِّرهم من السقوط في الخطأ. فلماذا لا يكون في القرآن الكريم مثال واحد يقول: ومن الجن، كما قال مراراً: ومن الناس؟

أليس الجن بحاجة إلى التعليم القرآني، أم أن ما ينطبق على الناس ينطبق عليهم؟

الخطاب في القرآن الكريم موجه إلى الناس حصراً:

وكذلك نجد الخطاب في القرآن الكريم يتوجه إلى الناس حصراً، وأما ماورد في سورة الرحمن فسنبينُ منعناه في حينه بعون الله تعالى، وندرس الآن معاً الخطاب القرآني للناس:

يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة الحج : ١ :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾

ألا يحتـاج الجن أيضاً إلى الإنـذار بأن يتَّقوا ربهم خوفاً من زلزلة الساعة أم أنهم لا يقومون في الساعة لرب العباد؟

وفي سورة فاطر ٣:

﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾

وفي سورة فاطر ٥ :

﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرَّنَّكم الحياة الدنيا﴾

وفي سورة فاطر ١٥ :

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾

أليس الجن فقراء إلى الله؟

وفي سورة الحج ٥ :

﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب﴾

وفي سورة العنكبوت ٢ :

﴿أحسبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون﴾

ونجد في سورة الروم ٤١ : أن الفساد قد ظهر في الأرض بسبب الناس :

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾

وهل الجن بريئون من إظهار الفساد في الأرض، أم هل شياطينهم أيضاً غير ملومين على ماظهر في الأرض من فساد؟!

أم أن الجن من الناس وهم جميعاً مشتركون في الفساد في الأرض؟

الحساب للناس فقط :

وكذلك نجد في بيان القرآن الكريم أن يوم الحساب إنما هو يوم موعود للناس حصراً، وأن المخلوقات الأخرى التي هي من غير صنف الناس ليست معنية بيوم الحساب، على الزعم بأن الجن من غير صنف الناس، وإليكم البيان :

يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة الأنبياء ١ :

﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾

وماذا عن الجن؟ ألم يقترب حسابهم؟ أم أن يوم حسابهم لايزال بعيداً؟

وفي سورةالمطففين ٦ :

﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾

ولماذا لايقوم الجن أيضاً لرب العالمين؟

وفي سورة هود ١٠٣ :

﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾

ولماذا لايكون مجموع له الجن والناس؟

وفي سورة آل عمران ٩ :

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾

ولِمَ لمْ تقل الآية الكريمة : ربنا إنك جامع الجن و الناس ليوم لا ريب فيه؟

وفي سورة ابراهيم ٤٤ :

﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾

وماذا عن الجن، ألن يأتيهم العذاب، أم أنهم غير مكلفين، أم أن الإنذار هنا يعنيهم أيضاً لكونهم فئة من الناس؟

وفي سورة الدخان ١١ :

﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾

ولماذا يغشى دخان العذاب الناس فقط ولا يغشى الجن ألأنهم مخلوقون من نار ولايهمُّهم الدخان؟ أم أن الدخان يغشاهم هم أيضاً لأنهم هم من الناس كذلك؟

وفي سورة الحج ٢ :

﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾

وفي سورة الإسراء ٦٠ :

﴿وإذ قلنا إن ربك أحاط بالناس﴾

هل أحاط ربنا بالناس فقط؟

وفي سورة الجاثية ٢٦ :

﴿ثم يجمعكم إلى يوم لاريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

وفي سورة الأحقاف ٦ :

﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾

وفي سورة غافر ٥٩ :

﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾

وماذا عن الجن، هل جميعهم مؤمنون؟

وفي سورة الحج ١ :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾

وماذا عن الجن ألا تزلزلهم الساعة؟

وفي سورة الزلزلة ٦ :

﴿يومئذ يصدرُ الناس أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم﴾

والجن ألا يصدرون؟ وكيف يصدرون؟ ولِمَ لمْ تذكرهم الآية الكريمة؟

وفي سورة القارعة ٤ :

﴿يومِ يكون الناس كالفراش المبثوث﴾

وكيف يكون الجن؟ ليس من ذِكْر لهم في السورة!

ونجد أيضاً في بيان القرآن الكريم أن الدار الآخرة خاصة بالناس فقط، نقرأ في سورة البقرة ٩٤:

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾

ونقرأ في سورة البقرة ٢٤ أيضاً أن الناس فقط هم الذين سيكونون وقوداً للنار وليس مخلوقات حية أخرى من غير صنف الناس، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾

ولِمَ لم يقل ربنا: اتقوا النار التي وقودها الناس و «الجن» والحجارة. ألم يقل عزّ وجل في آية أخرى:

﴿لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

(هود: ١١٩)

فيكف إذن لا يكون الجن وقوداً لجهنم ويكون الناس حصراً وقوداً لها؟ أم أن الجن هم من الناس أيضاً؟

مزيد من فيض البياني القرآني:

نؤمن أن الله تعالى رؤوف بالعباد جميعاً، ولكننا نقرأ في سورة البقرة: ١٤٣ :

﴿أن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾

وماذا عن الجن، أليس الله رؤوفاً ورحيماً بهم؟

ويعلمنا القرآن الكريم أن دين الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فهو لذلك ينسجم مع طبيعتهم وفطرتهم ويلقى منهم القبول والإستحسان، قال تعالى في سورة الروم: ٣٠:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾

فعلى أساس أن الجن أيضاً مأمورون بالإيمان بالإسلام، إذن لابد أن يكون دين الإسلام منسجماً أيضاً مع فطرتهم كما هو منسجم مع فطرة الناس، فهل هذا يعني أن الفطرة التي فطر الجن عليها هي نفسها الفطرة التي فطر الناس عليها؟

أم الجن هم فئة من الناس كما تقول معاجم اللغة العربية؟

قال ربنا تبارك وتعالى في سورة الحج: ١٨:

﴿ألم ترَ أنَّ الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾

نرى في هذه الآية الكريمة أن جميع خلق الله تعالى يسجدون له عزوجل:

يسجد له من في السموات.

ويسجد له من في الأرض.

والشمس تسجد له.

والقمر يسجد له.

والنجوم تسجد له.

والجبال تسجد له.

والشجر تسجد له.

والدواب تسجد له.

وكثير من الناس يسجدون له،

كل هؤلاء يسجدون له، فأين ذِكْر الجن ولماذا لا يسجدون له؟

ولنفرض أن الكافرين من الجن لا يسجدون لله على شاكلة الكافرين من الناس، ولكننا نجد أن الله عزوجل قد ذكر أن كثيراً من الناس يسجدون، وكثيراً حق عليهم العذاب.

إذن لماذا لم يذكر الله أن المؤمنين من الجن هم أيضاً يسجدون له؟ أم أنهم لا يسجدون؟ أم أنهم من الناس الذين يسجدون له كما يسجد الخلق أجمعون؟

وهكذا نجد في بيان القرآن الكريم أن القرآن رسالة من الله تعالى إلى الناس، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله إلى الناس، وأن الآيات والأمثال والموعظة والهدى في كتاب الله هي جميعاً للناس، وأن البيت الحرام وضعه الله للناس، وأن الحج فريضة على الناس، وأن القيامة يوم مجموع له الناس وهكذا القرآن كلُّه للناس وبالتالي الإسلام رسالة الله التي أنزلها على عبده محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو رسالة إلى الناس وليس إلى مخلوقات مختلفة من غير جنس الناس الذين هم بشر من أبناء آدم عليه السلام.

من خلال هذا البيان القرآني الكريم تتوضح لنا حقيقة قرآنية لا بد من الأخذ بها، وهي إما أن يكون الجن فئة من الناس وبالتالي فإن جميع ما جاء في القرآن الكريم من هدي وتعليم وأمر ونهي يخصُّهم وهم مكلَّفون به محاسبون عليه، أو إذا أخذنا بالزعم القائل أنهم مخلوقات غيبية من غير صنف الناس، فهذا لابد سيعني أن القرآن لا يعنيهم وأن الإسلام لا يخصُّهم.

ولكن الحقيقة في كتاب الله تعالى هي أن الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم قد بلَّغ الجن رسالة الإسلام وأنهم قد آمنوا بها، قال تعالى في سورة الجن ١:

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآناً يهدي إلى الرشد فآمنا بـه﴾

إذن الجن معنيون أيضاً بالإيمان بالقرآن والدخول في الإسلام وهم مكلَّفون ومحاسبون، قال تعالى:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: شهدنا على أنفسنا، وغرّتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلُها غافلون﴾

تؤكد هذه الآية الكريم أن الله قد أرسل إلى الجن رسلاً يدعونهم إلى الإيمان وأنهم كبقية النـاس قد غرتهم الحياة الدنيا، فكفروا، وأنهم من أهل القرى التي لا يهلكها الله بظلم وأهلها غافلون، لم يرسل إليهم.

فإذا كان الجن مكلَّفـين ومحـاسبـين كما الناس مكلَّفون ومحاسبون فهذا يعني أن جميع

التعاليم القرآنية التي تخاطب الناس إنما تعنيهم هم أيضاً بهذه التعاليم على أساس فئة من الناس ولكنها تميَّزت بالثروة والقوة والسلطان والأثر البالغ في الناس.

قال تعالى في سورة الذاريات ٥٦:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي أن هاتين الفئتين مأمورتان بعبادة الله تعالى بحسب تعاليم القرآن والحديث التي هي ذاتها للناس جميعاً وليس لصنف آخر من غير الناس.

ونلاحظ من الآية السابقة أنها تتحدث عن رسل من الجن، ونذكر في مقام آخر من القرآن الكريم قول ربنا عزوجل في سورة يوسف ١٠٩ مخاطباً عبده محمداً صلى الله عليه وسلم:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾

إن قول ربنا «إلا رجالاً» في هذه الآية يفيد الحصر كما هو معلوم لأهل البيان العربي، وهذا يعني أن الله تعالى لم يرسل رسلاً إلا كانوا رجالاً. وإذا لاحظنا البيان الإلهي في قول ربنا عزوجل: «رجالاً من أهل القرى» نزداد تأكداً بأن هؤلاء الرجال إنما كانوا بشراً يسكنون القرى فهم من آهلها.

وقد يكون ثمة من يزعم أن كلمة الرجل في اللغة العربية يمكن أن تعني أيضاً الذكَر من المخلوقات الشبحية التي هي الجن بزعمهم. ورداً على هؤلاء السادة نحيلهم إلى ماجاء في معجم لسان العرب، قال:

«الرجل: معروف، الذَّكَر من نوع الإنسان. . . وقالوا: ما أدري أي ولد الرجل هذا: يعني آدم»[1].

لاشك أن المجال يتّسع للمزيد والمزيد من البيان إلا أنني أرجو أن يكون الله تعالى قد وفقني في لفت النظر وعرض البيان القرآني لمن آمن بالله واليوم الآخر ولم يجعل فوق حديث الله حديثاً، قال تعالى:

﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾

(الجاثية: ٦)

---

(١) - قاموس «لسان العرب» الجزء ١١ الصفحة ٢٦٦ وكذلك جاء في المعجم الوسيط ج ١: «الرجل: الذكر البالغ من بني آدم، وجاء في التفسير الكبير في تفسير سورة الجن: «الرجل: اسم الإنس لااسم الجن».

الفصل الثامن

حقيقة مفهوم الجن والشياطين
في بيان القرآن الكريم

قال الله عزّ وجل:

﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغني من الحق شيئاً﴾

تبيّنَ بالتحقيق في الفصـل الثاني من هذا الكتاب أن الإيمان بالجن على أنها مخلوقات شبحية من غير صنف النـاس، يؤدي إلى وجـود إشكـالات قرآنية تستلزم وجـود تناقض واختلاف كبير في آيات القرآن الكريم من جهة . ، كما تؤدي إلى وجود تناقض وتعارض بين الحديث الصحيح والقرآن الكريم من جهة أخرى.

وبما أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أحكمت آياته فلا يصح الزعم بوجود أي اختلاف أو تناقض فيه، قال ربنا:

﴿ولو كان من عند غير الله لوجودوا فيه اختلافاً كثيراً﴾

وهـذا يعني أن بروز أي اختـلاف أو تناقض في القرآن الكريم إنما يكون حتماً بسبب الإصرار على فهم خاطىء واعتباره صحيحاً غير قابل للنقاش أو إعادة البحث والتحقيق.

في هذا الفصل، سنعمد بعون الله تعالى إلى شرح وبيان معظم الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الجن، والتي ـ بسبب عدم فهمها فهماً صحيحاً ـ مال معظم الناس إلى الإعتقاد بالوجود الشبحي الخرافي للجن، في الوقت الذي يؤكد القرآن الكريم في آياته المعجزة على حقائق وبيانات إلهية عظيمة أخرى تتعلق بمفهوم الجن والشياطين.

ولما كان الإشكال والإختلاف ناشئين عن الخطأ في فهم الناس حتماً، وذلك لاستحالة وجـود تنـاقض أو اختـلاف في القـرآن الكريم، كان لابد من إعادة التحقيق في أفهامنا واعتقاداتنا، وحينئذ سيتبين لنا الفهم الصحيح السليم بعون الله تعالى، وسيزول معه كل اختلاف أو إشكال.

مر معنـا في تحقيقنـا اللغـوي أن كلمة الجن تَطلق فيما تطلق على الناس. . سوادهم ودهماءهم وشبابهم والغرباء كما وأنها تعني عظماء القوم وأثرياءهم وزعماءهم والذين يملكون القدرات على الأعمال ذات الأثر في الناس فيكون لها سواد وانتشار وتغطية فتُجنّهم كما جن

الليل على سيدنا ابراهيم عليه السلام، قال تعالى:

﴿فلما جن عليه الليل﴾

أي غطّاه وستره وأجنّه واحتواه، ولهذا فإن مفهوم الجن يدخل في كل ما يغطّي ويسود ويسيطر بقدرة ما سواء بشكل واضح مكشوف، أو بشكل خفي مستتر وغير مباشر، ولهذا فإن أصحاب القدرات الخاصة من الناس، كالفنانين والعلماء والمفكرين والأثرياء والزعماء يدخلون جميعاً في فئة الجن من الناس، ولقد فهم الأولون من السلف الصالح حقيقة اشتراك فئة الجن من الناس مع الإنسان في لفظة «الناس» حيث جاء في التفسير الكبير للإمام فخر الرازي قوله:

«والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الإنس والجن ما روي أنه «جاء» نفر من الجن فقيل لهم من أنتم؟ فقالوا أناس من الجن»(١).

وعسى أن يفيد في هذا المقام أن نُذَكّر بما جاء في معجم «لسان العرب» الشهير في بيان معنى لفظة الجن، قال:

«جن الناس: معظمهم، لأن الداخل يستتر بهم».

ها أنت ترى معي بكل وضوح أن هناك جناً من الناس من أبناء آدم، وهذا يعني أنك تستطيع القول بحق أن من الناس من يكون جناً، كما ويمكنك القول أن من الناس من لايكون جناً، وكلاهما من الناس. وهذه هو عين ما بيّنته سورة الناس التي سنشرحها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وكذلك بيّن ابن منظور في قاموسه أن مرحلة الشباب عند الناس هي مرحلة جنّ الشباب، فقال:

«وجن الشباب: أوله، وقيل جدّته ونشاطه. ويقال كان ذلك في جنّ صباه، أي في حداثته»(٢)

فهل كنت، عزيزي القارىء، تعلم ذلك عندما كنت في جنّ صباك؟

---

(١) ـ راجع «التفسير الكبير» للإمام فخر الدين الرازي المجلد ٣٢ الصفحة ١٩٩ طبعة دار إحياء التراث العربي.

(٢) ـ راجع لسان العرب لابن منظور مادة «جنن».

ويؤكد صاحب قاموس لسان العرب حقيقة أن لفظة «الناس» تعني وصفاً لفئتين كلاهما من الناس فيقول:

«الناس: قد يكون من الإنس ومن الجن»(١).

كماونعلم ما جاء في موسوعة لين في اللغة العربية:

«الجن: الغريب».

إذن على ضوء ما جاء في بيان اللغة العربية في أشهر مراجعها، وتفاسير المفسرين من السلف الصالح(٢) وتدبّر آيات القرآن الكريم نستطيع الآن بسهولة أن نفهم البيان القرآني المتعلق بالجن والشياطين بعون الله تعالى.

من سورة الناس:

يستشهد المعتقدون بشبحية الجن وبأنهم صنف من غير الناس بسورة الناس، ويقولون إنها تؤكد كون الجن صنفاً آخر غير الناس بدليل قول الله عزوجل:

﴿من الجنة والناس﴾

أي أن المُوَسْوِسين في صدور الناس نوعان: الناس البشر والجن المخفيون عن عيون الناس.

هذا الفهم ينتج عن الأخذ السريع المتعجِّل المتأثِّر بالشائع والمشهور من الأفهام، ولكن استبطان الحقائق والتعمق في إدراك ما وراءها يؤدي دائماً إلى تبيّن حقائقَ أوثق وأدق قد تكون في بعض الأحيان مخالِفة تماماً للفهم المأثور والمتوارث جيلاً عن جيل دونما تفكّر أو تدبّر. وأكثر ما يحدث من تباين واختلاف في الحقائق إنما يأتي من طريق الإختلافات اللغوية ودلالاتها وإشاراتها المتعلقة بالسياق والسباق لنصٍّ أو بحث أو حوار. واسمحوا لي هنا أن أضرب لكم المثل التالي:

أورد الإمام فخر الرازي في التفسير الكبير الرواية التالية:

---

(١) - «لسان العرب» الجزء السادس الصفحة ٢٤٤.

(٢) - راجع ما أوردنا لفخر الرازي.

«عن سعيد بن جبير: أن الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول فيَّ؟
قال قاسط عادل.
فقال القوم ما أحسن ما قال، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل، فقال الحجاج:
يا جهلة إنه سمّاني ظالماً مشركاً، وتلا قول الله تعالى:
﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ (سورة الجن: ١٥).
وقوله تعالى:
﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ (سورة الأنعام: ١)[١].

وهكذا نجد في اللغة العربية أن نفس المفردات قد يكون لها معان ودلالات مختلفة ومعاكسة تماماً للمأثور والمألوف.

ويفيدنا في هذا المقام ذِكْر مثال آخر يبين أن اللفظة في اللغة العربية قد يكون لها معنى معينٌ حين ترد كمفردة بغير سياق أو مقارنة، ويكون لها معنى مختلفاً حين ترد مقارنة بمفردة أخرى، وإليكم المثال:

لو أنك قرأت في كتابِ التعريف التالي:

«إن كلمة (النبات) إنما تعني حصراً النباتات الصغيرة دون الأشجار». فهل كنت ستوافق على هذا التعريف وتعتبره صحيحاً؟

طبعاً لا. حيث أنه لا يختلف اثنان في أن كلمة (النبات) إنما تعني: كل ما تنبته الأرض من أشجار وغيرها، وهذا ماتقول به جميع قواميس اللغة العربية.

إنك إذن ستردُّ على هذا التعريف بكل ثقة وتقول إنه تعريف خاطىء، لأن كلمة النبات، إنما تعني الأشجار أيضاً.

ولو قال لك قائل: ولكن كلمة النبات قد تعني: النباتات الصغيرة فقط دون الأشجار في بعض الأحيان، فماذا عساك تقول؟ هل.. ستعتبر هذا الرأي أو الفهم خاطئاً أيضاً؟

الحق أن كلمة النبات إذا جاءت مطلقة إنما تعني كل ما ينبت على الأرض من النبات والأشجار. ولكن كلمة (النبات) ذاتها إذا ماجاءت مقيَّدة بقرينة معيَّنة فإنها ستعني حصراً النباتات الصغيرة فقط، كما في التعبير التالي:

---

(١) - راجع التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي المجلد ١٥ تفسير سورة الجن.

«إن ماء هذا النهر يروي جميع أشجار ونبات هذا السهل». تجد هنا أنك تفهم مباشرة ودون عناء أن كلمة (نبات) في هذاالسياق والمقارنة إنما تعني حصراً النباتات الصغيرة التي هي دون الأشجار، وكذلك لمقارنتها بالأشجار، وإن كان كلاهما ينتميان إلى صنف واحد وهو (النبات).

إن كلمة (النبات) تدل على جنس من المخلوقات، بينما تدل كلمة (الأشجار) على صنف من ذات الجنس الذي هو النبات. ومن خلال المقارنة بين أصناف الجنس الواحد يتعين المقصود، ونجد هذا واضحاً في سورة الناس إذا ما أخذنا بعين الإعتبار هذا البيان بالإضافة إلى الدراسة اللغوية المفصلة التي تقدمت معنا.

جنس الناس وفئة الجن في سورة الناس:

قال ربنا عزّ وجل في القرآن الكريم:

بسم اللهالرحمن الرحيم

﴿قل أعوذ برب الناس* ملك الناس* إله الناس* من شر الوسواس الخناس* الذي يوسوس في صدور الناس* من الجنة والناس﴾

سورةالناس

من المعلوم أن هذه السورة هي آخر سورة في القرآن الكريم، وهي بهذا تُعتبرخاتمة القرآن التي لابد من التفكر والتدبر في معانيها ومدلولاتها باهتمام خاص وبذلك تتفتّح لنا أبواب كنوزها ونستنير بمعانيها وندرك الفائدة الحقة من التعوذ الذي أمرنا الله به فيها.

نجد في هذه السورةالكريمة أن الله عزّ وجل يشير إلى ذاته بصفات ثلاث وهي أنه:

رب الناس.

ملك الناس.

إله الناس.

وهذا يؤكد أن الإستعاذة بهذه الأسماء الحسنى يدفع شر الناس وأذاهم. ويجول في الخاطر هنا سؤال وهو: بما أن الله تعالى هو رب العالمين، فهورب الجن أيضاً، وكان يمكن تأكيد هذه الحقيقة بورود وصفه تعالى على أنه رب الجن كما هو رب الناس، وخاصة أن التعوذ هنا

مطلوب من شر الجن أيضاً، فلِمَ لم ترِد الإستعاذة برب الجن، واكتفى البيان الإلهي بذكر: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، مشدِّداً بذلك على ذكر الناس وحدهم دون صنف آخر غيرهم؟

إنه الإحكام القرآني العظيم، فالناس وحدهم هم المقصودون بهذه السورة و ليس صنف آخر غيرهم، فكما أن في الإنس شياطين[1] فكذلك فيهم الجن أيضاً كما مر معنا من مراجع اللغة العربية[2] الموثّقة والمعمول بها، وهذا يعني أن لفظ «الجنّة» الوارد هنا يعني فئة من جنس الناس وليس صنفٍ غيرهم، إلا أن هذه الفئة تتصف بأنها ليست من العاديين من الناس بل هي من أشدائهم وأثريائهم وأصحاب النفوذ والأثر فيهم، فهم ليسوا من الناس البسطاء والعاديين. وكما مرَّ معنا في المثال اللغوي أن كلمة (النبات) إنما تعني النباتات العادية والصغيرة فقط حين نقارنها بالأشجار - التي هي من النبات أيضاً - فكذلك كلمة «الناس» يصير معناها الناس البسطاء والعاديين، حين مقارنتها بكلمة «الجن» الذين هم فئة من الناس أيضاً، كما جاء في قواميس اللغة العربية وغيرها من المراجع الموثقة.

والآن كيف يمكننا أن نفهم سورة الناس:

إن لصفات الله الثلاث الواردة في مطلع هذه السورة، والتي هي: «رب الناس»، «ملك الناس»، و «إله الناس» علاقة وثيقة بالحالات: الجسمية المادية، والأخلاقية، والروحانية للإنسان. وذلك لأن التقدم والتطور المادي والروحي للإنسان إنما يتم من خلال صفة الله «الرب»، بينما يُعاقب الإنسان على أفكاره وكلامه وأفعاله من خلال صفة الله «الملك»، أما صفة « الإله» فإنها تشير إلى أن الله إنما هو غاية حُب الإنسان وعبادته، وأن الله تعالى هو هدفه وقصده.

وإن ذِكْر هذه الصفات الإلهية الثلاث في هذه السورة يشير إلى أن جميع خطايا الإنسان إنما تنشأ عن أسباب ثلاثة:

أولاً: عندما ينظر الإنسان إلى إنسان آخر على أنه «ربه». ولذلك فقد أمر الله الإنسان أن يعوذ بـ «رب الناس» وحده وألّا يتّخذ له رباً سواه.

---

(١) - قال تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف القول غروراً﴾ ١١٢.

(٢) - راجع التحقيق اللغوي في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ثانياً: عندما ينظر الإنسان إلى إنسان آخر على أنه «مَلِكَه». في حين أن «الملك» الحق هو الله وحده والعياذ به وحده.

ثالثاً: وكذلك يخطىء الإنسان حيث ينظر إلى إنسان آخر على أنه «إلهه» فيتعبَّده ويُذهِب نفسه حُبّاً له وتعلقاً به. ونفهم من هذا البيان الإلهي أن الإنسان يَضل ويخسر حين يخطىء فينظر إلى إنسان آخر على أنه السند والدعامة الأساسية في حياته، أو أنه يستسلم بذلٍّ وعبودية إلى سلطته الظالمة، أو أن يجعل منه هدف حبِّه وعبادته.

إن هذه الآيات الكريمة الموجزة تبين أن الله عزوجل يفرض على الإنسان أن يؤمن ويوقن بالله تعالى على أنه هو وحده العون الحقيقي له في حياته. وأن يعطي له وحده حق الخضوع والطاعة والإسلام دون شرط. وأن يجعله وحده عزوجل هدف حبه وعبادته، وبهذا ينقِذ الإنسانُ نفسه من شر العبودية والإستغلال من قِبل (كبار الناس) سواء كانوا من الرأسماليين المستغلين من التجار والأثرياء، أو الحكام الطغاة الظالمين، أو من الطبقة الكهنوتية المخادعة التي تستغل البسطاء الغافلين من الناس بلا رحمة ولا شفقة ولا خوف من الله عزوجل.

هذا وإن الوسوسة من أشرار الناس إنما تكون في صدور الجن (كبار الناس) كما تكون أيضاً في صدور العاديين من الناس يوحون لهم زخرف القول ويستغلون سذاجتهم أو ضعفهم أو حاجتهم، فيستعبدونهم بها ويذلّونهم ويستغلونهم أبشع استغلال.

ولكن حين يعوذ الإنسان بالله الواحد الأحد الذي هو رب الناس، وهو وحده ملك الناس وهو وحده إله الناس، فإنه ينجوا من الشرور جميعاً ومن خطر الوساوس كلها وينعم برضى الله تعالى ولا يذل ولا يشقى(١).

وهكذا ترى معي أن هذه السورة لا تتحدث عن أشباح ولا أرواح، ولاعلاقة لها من قريب أو بعيد بالخرافة والخيال الذي نسجه الناسجون حولها واستفاد منه المشعوذون والدجّالون الذين يحرصون على نشر الإعتقاد بالوجود الشبحي لـ «إخوانهم» من الأشباح والأرواح التي تدعمهم بقدراتها الخارقة المزعومة، وبذلك يستغلون الكثير من بسطاء الناس

---

(١) - «THE HOLY QURAN» With English translation and commentary, published under the auspices of Hadrat Nasir Ahmad 1981.

وممن لم يُشغلوا عقولهم بالتفكر والتدبر في هذه المعتقدات المأثورة عمّن أقحمها على الدين سواء عن قصد أو غير قصد.

الجن في سورة الأحقاف:

يستشهد القائلون بشبحية الجن بسورة الأحقاف التي ورد فيها قول ربنا عزوجل:

﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين* قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديـه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم* يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم* ومن لايجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾

(الأحقاف: ٣١ ـ ٣٤)

ولابد لشرح هذه الآيات الكريمة من دراسة المعنى اللغوي لكلمة «نفر»، جاء في المعجم الوسيط:

«(نَفَرَ) نَفْراً ونفورا: هجر وطنه وضرب في الأرض. وفي التنزيل العزيز: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾** وفي التنزيل العزيز: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾**.

(النفر): من ثلاثة إلى عشرة من الرجال. والنفر المجمع من الناس»[(١)].

وقال صاحب قاموس محيط المحيط:

«النفر: الناس كلهم، ومن ثلاثة إلى عشرة وقيل إلى سبعة»[(٢)].

نجد هنا أن «النفر» كلمة تعني عدداً من الرجال هجروا وطنهم مجاهدين دفاعاً عنه أو لطلب العلم والتفقه في الدين، وهم كما جاء في القواميس من الناس، الغرباء عن وطنهم لخروجهم منه للسبب الذي تقدُّم ذكره.

وإذا ما أخذنا هذا البيان اللغوي بعين الإعتبار نجد أن هذه الآيات الكريمة لا تؤيد

---

(١) ـ راجع المعجم الوسيط مادة «نفر».

(٢) ـ معجم محيط المحيط للبستاني، مادة «نفر».

بشكـل من الأشكـال ولاتدعم الزعم القائل بوجود أشباح خفية اسمها الجن، وأنها هي المقصودة هنا. وإن الذي يدرس هذه الآيات على ضوء التفاسير ومراجع اللغة العربية يتبين له أن الحديث هنا عن نفر من الناس وُصفوا بأنهم جنّ لخروجهم من وطنهم ضاربين في الأرض طلباً للعلم وبحثاً عن نبي الزمان محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاؤوا إليه خفية يجنّهم الليل بستره حتى لا ينكشف أمرهم لقريش التي كانت تسعى للبطش عاديةً على محمد وأصحابه ومن يؤمن به صلى الله عليه وسلم. ولذلك فقد كانوا بحق نفراً من الجن كما قال ربنا عزّ وجل، وإليكم البيان:

أورد الإمام فخر الرازي صاحب التفسير الكبير أن هؤلاء الجن هم نفر من اليهود من أشراف جن نصيبين، وكذلك نُقل عن القاضي عيَّاض أن هؤلاء الجن كانوا يهوداً، وكذلك قال الحسن أن هؤلاء الجن كانوا على اليهودية(١).

وأورد صاحب البيان أن هؤلاء النفر كانوا يهوداً من منطقة نصيبين أو الموصل أو نينوى في العراق(٢). ولقد كان هؤلاء النفر عارفين بمعارضة قريش ومناهضتها لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاؤوا إليه خُفية في الليل يُجنهم الظلام بسواده. وكذلك استمعوا إلى القرآن الكريم وإلى دعوة رسول الله صلى عليه وسلم دون أن يُظهروا أنفسهم لقريش، وقبلوا الإسلام وحملوا الرسالة الجديدة إلى قومهم الذين قبلوا الإسلام ودخلوا فيه(٣).

وأورد الإمام الرازي رأياً تفسيرياً قال فيه إن الرسول صلى الله عليه وسلم لمّا يقصد قراءة القرآن على هؤلاء النفر، بل إن الله تعالى قد ألقى في قلوبهم ميلاً وداعية إلى الإستماع، فلهذا السبب قال:

﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾(٤).

إن مجيء هؤلاء النفر مهاجرين من بلادهم وضاربين في الأرض تحت جنح الليل من جهة، وكونهم غرباء قدموا من بلاد بعيدة من جهة ثانية، يبرِّر تماماً ـ من الناحية اللغوية ـ وصْفَهم بأنهم نفر من الجن، رغم كونهم من الناس إلا أنهم كانوا من جن الناس وغربائهم.

---

(١) ـ راجع التفسير الكبير للإمام فخر الرازي في تفسير سورة الأحقاف.

(٢) ـ تفسير البيان.

(٣) ـ راجع تفسير روح البيان.

(٤) ـ التفسير الكبير.

وكذلك يبرِّر وصفهم بـ «الجن» حقيقة أنهم استمعوا إلى سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم دون علم منه، كما جاء في تفسير الرازي أنهم قد استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يدري باستمعاهم له حتى أنبأه الله عزّ وجل بذلك(١) وقد علِمنا من مراجع اللغة العربية أن ما سُتر عنك فقد جُن عنك، أي أنه قد صار جنياً بالنسبة إليك لخفائه عنك(٢) ويؤيد حقيقة أن هؤلاء النفر كانوا من اليهود، قول الله عزوجل في هذه الآيات عنهم إنهم كانوا مؤمنين بكتاب موسى عليه السلام ويعرفونه تمام المعرفة، حيث قالوا:

﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه﴾

فها أنت ترى هنا أنهم يعرفون كتاب موسى جيداً ولذلك فقد وصفوا القرآن الكريم بأنه:

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾

أي أنهم على علم بالأمور التي يصدِّق القرآن الكريم بها من كتاب موسى.

إذن كان هؤلاء نفراً من اليهود الذين قدموا غرباء من بلاد بعيدة، وجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت جنح الليل متخفين عن أعين قريش ليستمعوا إلى كتاب الله ودعوة رسوله التي كانوا يترقبونها، فآمنوا بالله ورسورله، وحملوا الرسالة الجديدة إلى قومهم دعاة ومبشرين.

ماكانوا أشباحاً ولا أرواحاً، وإنما كانوا من الناس البشر من أبناء آدم، وقد أطلق الله تعالى عليهم وصف الجن لكونهم غرباء، ولمجيئهم خفية في جنان الليل وسواده، ولاستماعهم سراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو القرآن الكريم فأنصتوا وآمنوا.

وهنالك حقيقة قرآنية أخرى ترفض أن يكون هؤلاء ـ الجن اليهود ـ من غير جنس الناس، وإلا لما كانت تعنيهم رسالة موسى وما كان ليعنيهم الإيمان بكتابه، وذلك لأن الله تعالى قد بيَّن في القرآن الكريم أن كتاب موسى إنما أنزله الله تعالى هداية لجنس الناس حصراً، وليس لمخلوقات من غير جنسهم، قال تعالى:

﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس﴾

(الأنعام: ٩١)

---

(١) ـ راجع ما أورده الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير.

(٢) ـ راجع لسان العرب.

وما كان ليعني الجن أيضاً ـ لو كانوا مخلوقات من غير جنس الناس ـ الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي أنزل معه، لأن الرسول الكريم ـ كما تعلم ـ قد أرسله الله تعالى إلى الناس حصراً وقال له:

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾

(الأعراف: ١٥٨).

ولم يقل عزّ وجل له قل يا أيها الناس والجن إني رسول الله إليكم جميعاً. وأكد ربنا تبارك وتعالى أن القرآن الكريم قد أنزل على محمد بالحق للناس حصراً فقال:

﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق﴾

(الزمر: ٤١)

ولما كان هؤلاء النفر من الجن الذين قد آمنوا بموسى عليه السلام والكتاب الذي أنزل معه، فهذا يعني حتماً أنهم من الناس من قومه الذين دعاهم وآمنوا به وبالكتاب الذي أنزل معه هدى لهم، ثم بشّرهم موسى عليه السلام برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه. ولما كانوا يعلمون أوان ظهور النبي الجديد وأوصافه فقد أرسلوا نفراً منهم ليستقصوا خبر الرسول الجديد وليعلموا عن رسالته وليؤمنوا به تصديقاً لما جاء في كتابهم التوراة، حيث نقرأ في سفر التثنية الإصحاح ١٨ العدد ١٨ ـ ٢٠ بشارة الله عزوجل لموسى بظهور محمد صلى الله عليه وسلم:

«أقيم لهم من وسط إخوتهم نبياً مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ماأوصيه به. ويكون ان الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي»

تثنية ١٨: ١٨ ـ ٢٠

نجد هنا أن التوراة تأمر اليهود بالإيمان بالنبي الذي يأتي متكلماً: باسم الله. ونعلم أن القرآن الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم من ربنا عزوجل يبدأ كل سورة بـ:

﴿باسم الله الرحمن الرحيم﴾

وكانت هذه علامة صدق رسول الله صلى عليه وسلم لليهود والمسيحيين من أهل

---

(١) ـ راجع نسخة التوراة «كود نيوز بايبل» نشر أميركان بايبل سوسيتي. ١٩٧٨.

. Good News Bible. American Bible Society - New york

الكتاب، لأن النبي الذي يتكل باسم الله كاذباً، فعلامته أن يُقتل ذلك النبي ولا يموت ميتة طبيعية(٢).

وهذا معنى:

«فيموت ذلك النبي».

وإلا فلا معنى لهذه العلامة إذا كان سيموت موتاً طبيعياً لأن الموت هو قدر الناس جميعاً دون استثناء. ولقد وردت كلمة «يُقتل» في بعض نسخ الكتاب المقدس ويمكن للباحثين الإطلاع عليها(١).

وأما عن مكان ظهور هذا النبي الجديد، فقد جاء صراحة بكل وضوح أنه سيظهر في بريّة «فاران» في الجزيرة العربية(٢) إذن جاء هؤلاء النفر من اليهود متتبعين البشارات التوراتية بظهور النبي الجديد في جزيرة العرب فآمنوا به وصدّقوا بالكتاب الذي أنزل معه لأنهم وجدوه:

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من كتابهم التوراة.

كانوا أناساً بشراً من الذين آمنوا بموسى عليه السلام والكتاب الذي أنزل معه هدى للناس.

ولم يكونوا أشباحاً..

ولا أرواحاً.

وبما أن الزاعمين بالوجود الشبحي للجن يستشهدون بسورة الجن دعماً لاعتقادهم، كان لا بـد من الوقوف عندها للشرح والبيان وتدارسها معاً لنرى فيها إذا كانت حقاً تؤيد هذا الزعم السائد إن لم يكن بين جميع الناس ففي أغلبهم.

---

(١) - يؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما من أحد منكم عنه حاجزين﴾ ٤٥

(٢) - راجع سفر التثنية ٣٣: ٢.

من سورة الجن :

تاريخ نزول السورة، بسياقها وموضوعها:

تُعتبر هذه السورة عموماً بأنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف، حيث ذهب إليها بعد أن كاد ييأس من قريش الذين لم يتلق منهم رداً على دعوته لهم إلا التسخيف والمعارضة والإضطهاد.

ولقد جاءت زيارته صلى الله عليه وسلم إلى الطائف قبل سنتين من الهجرة حينما اتخذت المعارضة لدعوته شكلاً ممعناً في الأذى والإضطهاد البشع، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حالة غاية في المشقة والعناء.

وتأتي هذه السورة في السياق بعد سورة نوح التي بيَّنت أن دعوة نوح الطويلة العمر لقومه لم تلق منهم إلا النفور والتسخيف والصد والإضطهاد، ولم يقبل منه إلا القليل من قومه عدا بعض أقربائه، وحتى ابنه وزوجته لم يكونا من المؤمنين به، بل شاركا في معارضته.

إذن ثمة تشابه في الموقف الكافر للرافضين لدعوة الرسل والأنبياء، بدءاً من زمن نوح وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتذكر السورة هنا أنه بالرغم من الحصار الإضطهادي الذي فرضه كفار قريش على رسول الله صلى الله عيه وسلم ودعوته إلى دين الله الإسلام، فإن الله عزوجل قد صرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَراً لا يعرفهم ومن غير قومه، فاستمعوا إلى القرآن وآمنوا به.

وتبين السورة تفصيلاً واضحاً لمعتقدات هؤلاء النفر من اليهود كما وتصور سلوكهم ومفاهيمهم ونظرتهم إلى الحياة. وتؤكد السورة أيضاً على أنه من المستحيل أن ينجح أحد في تشويه وإعاقة كلمة الله، وذلك لأنها محروسة بالعناية الإلهية، كما تُحرس الكنوز الثمينة الغالية.

ونجد في نهاية السورة بياناً أنه كلما جاء معلِّم من عند الله يدعو الناس إلى ربهم، فإن قوى الشر تسعى إلى كتم وإخماد صوته، ولكن هذا المعلِّم يتابع جاداً مخلصاً في دعوته، غير عابىء بالمساعي الشريرة لقتل دعوته وإطفاء نورها.

وتختتم السورة ببيان معيار لا يخيب في امتحان المصدر السماوي لرسالة رسول ما، بأن رسالة الرسول الذي يأتي من الله تحتوي على نبوءات عظمى تتعلق بالعالم، ولا يمكن للمعرفة البشرية التنبؤ بها، وأن الرسول لابد في النهاية أن ينجح في إكمال إيصال رسالته وتبشيرها للناس تحقيقاً لمهمته التي اختاره الله لأجلها(١).

ونبدأ بالآيات الأولى من سورة الجن:

﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفرٌ من الجن فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً* يهدي إلى الرشد فآمنَّا به ولن نشرك بربنا أحداً* وأنه تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولاولداً﴾

مرَّ معنا في البيان اللغوي أن لفظة «الجن» تطلق في اللغة العربية على الآتي من بلاد أخرى(٢). وعلمنا أن نفر الجن المشار إليهم هنا بناء على التفاسير المأثورة هم النفر الذين جاؤوا من نصيبين للإستماع إلى رسالة الإسلام التي بشرت بها التوراة كتاب موسى عليه السلام والتي نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ويبدو من هذا النص رغم تشابهه أنه يختلف بعض الشيء عن النص الوارد في سورة الأحقاف، حيث أن نفر الجن في تلك السورة أشاروا إلى كتاب **﴿أنزل من بعد موسى﴾** وذلك باعتبارهم يهوداً من أتباع موسى عليه السلام، بينما نجد أن نفر الجن هنا يشيرون إلى بيان آخر يتعلق بالشرك بالله والزعم أنه اتخذ ولداً ـ سبحانه ـ، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الجن كانوا من المسيحيين الموحِّدين الذين رفضوا الشرك بالله، وظلوا على دين التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، كما تشهد بذلك الأناجيل حتى يومنا هذا حيث جاء في إنجيل متى: الإصحاح ٤ العدد ١٠ قول عيسى عليه السلام:

/مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد/

(متى ٤ : ١٠)

وكذلك يؤكد الكتاب المقدس على أمر الله بالتوحيد وعدم الشرك بالسجود لتمثال أو صورة أو أي شيء كان فيقول بوضوح شامل مفصل:

---

(١) ـ التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

(٢) ـ موسوعة لين في اللغة العربية.

«لايكن لك آلهة أخرى تجاهي . لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق، ولاما في الأرض من أسفل، ولاما في المياه من تحت الأرض تعبدهم لأني أنا الرب إلهك غيّور»

(سفر الخروج ٢٠ : ٣)

هذا ويؤكد حقيقة أن نفر الجن هؤلاء كانوا من المسيحيين الموحِّدين من أبتاع عيسى المسيح عليه السلام، ما ورد على لسانهم في القرآن الكريم :

﴿وأنه تعالى جدُّ ربنا مااتخذ صاحبة ولا ولداً﴾

نجد أن نفر الجن هنا على علم بمن أشرك من المسيحيين زاعماً أن الله سبحانه وتعالى قد اتخذ ولداً، وهذا يؤكد أيضاً كون هؤلاء النفر من المسيحيين، إلا أنهم كانوا على دعوة المسيح عيسى بن مريم التوحيدية الصحيحة التي لم يدخلها الشرك، ولذلك فقد قالوا :

﴿تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾[1].

ولقد ذكر الإمام الرازي في تفسيره الكبير أن هؤلاء النفر من الجن كانوا من المسيحيين[2].

ونلفت النظر هنا إلى أننا في بحثنا هذا سنتناول فقط الآيات التي حدث خطأ أو إشكال في فهمها، لأن هدفنا ليس التفسير الشامل، وإنما بيان حقيقة أن الجن المذكورين في آيات القرآن الكريم إنما هم بشر من أبناء آدم عليه السلام.

ونتابع :

﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾

أورد الإمام فخر الرازي في تفسيره الكبير رأياً تفسيرياً فقال إن المفسرين ذكروا أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادي، أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح. وكذلك نقل الإمام الرازي رأياً آخر للمفسرين قال فيه :

«المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً لكن من شر الجن، . . . وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه لأن (الرجل) اسم الإنس لااسم الجن»[3].

---

(١) ـ الجد : العظمة ـ راجع التفسير الكبير.

(٢) ـ الجزء ٣٠ من التفسير الكبير ص ١٥٤.

(٣) ـ التفسير الكبير سورة الجن، ويبين الرازي أن هذا رأي بعض المفسرين وليس رأيه هو.

ويعتقد كثير من الناس أن هذه الآية إنما تتحدث عن (الشيوخ) الذين يمارسون ما يسمى ب (استحضار الجن) ويقولون أن الكثير من هؤلاء يصابون في النهاية بالأذى بالمرض أو الفالج أو الموت الذي يسببه لهم الجن أنفسهم.

وعندنا أن هذه التفاسير تغاير المعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة، والبيان كما يلي:

جاء في المعجم الوسيط، وهو المعجم الذي اعتمده المجمع اللغوي وسطاً بين جميع مراجع اللغة العربية:

«الرجل: الذكر البالغ من بني آدم».

وجاء في قاموس لسان العرب:

«الرجل: الذَكَر من نوع الإنسان».

وقد مر معنا أن الإمام الرازي قد أشار إلى هذا المعنى في تفسيره على أساس أن (الرجل) اسم يطلق على الإنسان الذي هو بشر من أبناء آدم. ولاشك أن هذا المعنى المألوف هو الحق، وندرك ذلك يقيناً إذا ماتحققنا من أصل كلمة «الرجل» واشتقاقها، حيث نجد أنها مأخوذة من المعنى الشائع والمألوف للمشي على الرجلين. جاء في قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني:

«رجلَ الرجلُ: مشى على رجليه»

وكذلك جاء في المعجم الوسيط:

«مشى على رجليه» وجاء: «رجل الشيء: جعله تحت رجله».

فعلى الأخذ بالزعم أن الجن مخلوقات هوائية غازية تطير[1] في أجواء السماء وتخترق الجدران والأجساد كما يتخلل الهواء والغاز الأجسام، أو تستقر روحاً شريرة في قعر السلة[2]. فهي إذن ليست ذات أرجل ولا تمشي على رجلين كالرجال ولا يصح تسمية الواحد منها رجلاً يمشي على رجلين، وإلاّ لكان معنى رجال الجن هم فقط الذين لهم أرجل يمشون بها ـ هذا لو صحّ زعمهم.

---

(١) ـ راجع كتاب الإنسان بين السحر والعين والجان ـ زهير الحموي.

(٢) ـ راجع كتاب «كبرى اليقينيات الكونية» الدكتور الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي، بحث الجان.

والآن إذا عاودنا تذكر ما ورد معنا من قواميس ومراجع اللغة العربية عن لفظة الجن وأنها تعني الناس المتميِّزين بالقدرات غير العادية ذات الأثر والنفوذ كالقوة والثراء وغيرها يتبينّ لدينا معنى قوله تعالى:

﴿برجال من الجن﴾

أي أصحاب القدرة والنفوذ والثراء والسلطان من الرجال.

«والإنس» في اللغة العربية هي كلمة مشتقة من الفعل «أَنِس».

جاء في معجم الوسيط:

«أنس به وإليه أنساً سكن إليه وذهبت وحشته. آنسه: لاطفه وأزال وحشته. وآنسه: أبصره. جاء في القرآن الكريم قول موسى عليه السلام: ﴿إني آنست ناراً﴾أي أبصرت ناراً. واستأنس الشيء: أبصره. واستأنس له: تسمَّع له. والانس: الصديق الصفي. والانس: خلاف الجن»[1].

نجـد من هذه المعـاني أن كلمـة الإنس تدل على الناس المستأنسين بعضهم ببعض، المتـلازمـين في تواجـدهم وتعاملهم وتلاطفهم والذين يبصرون بعضهم بعضاً ويستمعون بعضهم لبعض، وهذه هي صفة عامةِ الناس العاديين الذين يراهم المرء ويألف وجودهم في كل مكـان في الشوارع والأسواق والأماكن العامة التي يرتادها عامة الناس، وهم خلاف رجال الجن من الناس الذين يتميَّزون بإمكانات متميِّزة من السلطة والقوة والثراء مما يستلزم وجودهم في بيئات خاصة بهم ومنعزلة نسبياًعن بيئة العاديين والبسطاء من الناس الذين لا يمتلكـون من القـدرات التي يمتلكها هؤلاء إلا النزر اليسير، ولذلك فهم لايستطيعون التـواجـد في المستويات والأجواء التي يعيشها هؤلاء الجن من الناس الذين لهم أجواؤهم ومستـوياتهم الخـاصة بهم والتي تعزلهم عن أن يكونوا مألوفين من خلال معاشرة البسطاء والعاديين من الناس وذلك لاختلاف المستويات والمَلَكات؛ إلا ماندر، ولذلك صحَّ لغوياً تسميتهم ـ لأكثر من جانب ـ بـ «الجن» رغم كونهم بشراً من أبناء آدم.

وهكذا نستطيع أن نفهم الآن معنى أن يعوذ رجال من الإنس البسطاء العاديين برجال من الجن أصحاب النفوذ والثروة والسلطان.

---

(١) ـ المعجم الوسيط ـ قال تعالى في بيان صلاة الخوف ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ وكلمة رجالاً هنا تعني المشاة من الرجال والنساء.

إن ظاهرة أن يعوذ، أي: (يلجأ ويلوذ ويعتصم)[1] بعض البسطاء والعاديين من الناس ببعض الكبار من الرجال أصحاب النفوذ والثراء ليست ظاهرة غريبة، بل هي ظاهرة معروفة بين النـاس حيث يسعى هؤلاء البسـطاء من رجال الإنس إلى التقوِّي بهؤلاء الرجال من الجن، فتكون النتيجة أن يزيد كلٌّ منهم الآخر رهقاً، حيث يرهق أصحاب النفوذ والثراء المستعيذين بهم بما يطلبون منهم من خدمات فيحمِّلونهم ما لا يطيقون، وكذلك يرهق هؤلاء البسـطاء من الـرجـال أصحاب النفوذ والسلطان والثراء بأن يحمِّلوهم المزيد من الإثم، ويزيدوا في غطرستهم وتكبرهم وطغيانهم، وهذا أيضاً من معاني: «رهقاً» أي ظلماً وطغياناً وغروراً وتكبراً[2].

وهكذا نجد أنه لا علاقة للأشباح والأرواح بهذه الآيات الكريمة التي تشرح في بيان واضـح حقيقـة إجتماعيـة مألوفـة تبيِّن أن نتيجة التجاء العاديين من الناس واعتصامهم بذوي النفوذ والثراء إنما تكون زيادة في العَنَت للبسطاء الذين هم رجال الإنس من الناس، وزيادة في الإثم والـطغيان والإستبداد لأصحاب النفوذ والثراء الذين هم رجال الجن من الناس.. وهذا ما يحدث عادة في كل المجتمعات المتخلفة روحياً والقائمة على أساس القوة المادية البحتة.

معنى لمس الجن للسماء والشهب الراصدة لهم:

ومن الآيات التي أدى الخطأ في فهمها إلى الزعم بأن الجن مخلوقات شبحية وأرواح خفية تصعد في السماء وتهيم في الكون، الآيات التالية:

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً* وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن له شهاباً رصداً﴾

(الجن: ٨)

(١) ـ جاء في قاموس محيط المحيط: «رهق الرجل يرهق: سفه وركب الشر والظلم وغشي المحارم.. وأرهق فلاناً: حمّله مالايطيق والرهق: حمل الإنسان ما لايطيق».

وجاء في المعجم الوسيط: «رهق فلان رهقاً: سفه وحمق وجهل وركب الشر والظلم وغشي المآثم.

كلمة «السماء» من الكلمات التي قلما فُهمت واستُعملت بالمعنى الصحيح الذي يجب فهمه والتعبير عنه في سياق لمعنى مقصود بشكل دقيق، إذ إن كلمة «السماء» كانت غالباً ما تعني عند الناس، ذلك السطح الأزرق الممتد فوق السحب والنجوم وهو دائماً مفهوم مادي بحت.

إن هذا المفهوم ـ وإن صح في كثير من الحالات ـ إلا أنه لا يصح مطلقاً في كثير من المعاني التي لا يدل سياق الكلام فيها على معنى مادي مجرد، وإنما يدل على المصدر الذي اشتقت منه كلمة «السماء»، وهو السموُّ والرفعة والعلو، أو على أعلى وأسمى جانب من كون أو كيان ما. كما وإنـك لتجد في معاجم اللغة العربية معاني لكلمة «السماء» لو سمعتها من قائل لاتهمته بالجنون أو الغرور والإستهانة بالمقدسات أو ربما بالكفر.

ماذا عساه يكون ردُّك على من يقول لك:

«قد دخلتُ الجنة ووطأت السماء بقدمي»؟

لا شـك أنك في أدنى الحالات ستتهمه بالكذب، هذا إذا لم تصفه بالجنون. ولكن إذا ما علمت أن كلمة الجنة تطلق على البستان المغطى بالأشجار الكثيفة وأن كلمة السماء تعني أيضـاً العشب[1]، لعلمت عندئذ قصده وهو: أنه دخل البستان الكثيف الأشجار ووطأ بقدميه العشب الأخضر.

ضربت هذا المثل لأبيِّن أن الإصرار على الأخذ بمعنى لغوي محدد لكلمة استُعملت في سياق معين، قد يؤدي بهذا الآخذ إلى خطأ مبين في الفهم، إلا إذا برهن على أن سياق الكلام ومعناه ومناسبته تؤدي حتماً إلى المأخذ الذي أخذ به أو هي على الأقل لا تتناقض معه.

والآن كيف يمكن أن نفهم كلمة السماء الواردة في الآية المذكورة.

جاء في معاجم اللغة العربية أن كلمة السماء اشتقت من الفعل: «سما يسمو سمواً: علا وارتفع وتطاول»[2] وهي لذلك تطلق على كل شيء سام وعال أو مرتفع، سواء أكان مادياً

---

(١) ـ راجع قاموس محيط المحيط.

(٢) ـ راجع المعجم الوسيط.

يتعلق بالمادة والناس والأشياء، أو معنوياً متعلق بالمعاني والأفهام والقوانين والشرائع والأديان.

وللمزيد من البيان نقتطف نبذة مما جاء في بعض معاجم اللغة العربية:

«سما سمواً: علا وارتفع وطلب العز والشرف، ويقال سما في الحسب والنسب. وسما به: رفعه وأعلاه. والسماء من كل شيء: أعلاه. وكل ما علاك فأظلك ـ فهو سماك ـ»[1].

وقال صاحب قاموس محيط المحيط:

«سماء كل شيء شخصه. والسماء ظهر الفرس، والسماء العشب وكل ما علاك فأظلك، والسماء المطر، وسماء الرؤية فلك البروج».

تتبين من اللغة العربية أن الذي يأخذ من كلمة «السماء» المفهوم المادي البحت دونما قرينة أو دليل يخطىء في كثير من الفهم، وذلك لأن كلمة السماء إنما تعني أصلاً السمو والرفعة والعلا، ولاتعني فقط ذلك السطح الأزرق الممتد والذي نقول عنه السماء لأنه فوقنا.

ويمكننا فهم المقصود بكلمة «السماء» التي وردت في بعض آيات القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة، إذا درسنا المعنى المقصود في السياق والسباق لهذه الآيات والأحاديث، حيث يجد الدراس للقرآن الكريم أنه يورد مقارنات بين الكونين المادي الذي هو عالمنا المادّي بأرضه ومائه وبحاره وأشجاره وسمائه ونجومه، والعالم الروحي العالي السامي والذي له هو أيضاً شمسه وقمره ونجومه وسماؤه وأشجاره وجباله، وتوضيحاً لبياننا نبدأ بالحديث الذي جاء في مسند أحمد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

(مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر. فإذا انطمست النجوم، أوشك أن تضل الهداة).

(أحمد).

نجد في هذا الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصف علماء الإسلام بأنهم النجوم في السماء التي تعني هنا الإسلام الذي علماؤه هم نجومها الساطعة. ولو أخذنا من هذا الحديث المقطع: «فإذا انطمست النجوم» واقتطعناه عن سياقه في الحديث، فإنه عندئذٍ يفهم بالمعنى المادي، يعني حين تنطفىء النجوم الملتهبة بالغازات في كبد السماء،

---

(١) ـ محيط المحيط.

ولكن حين نتابع قول رسول الله في الحديث: (عندئذ أوشك أن تضل الهداة) فإننا نجد أن المعنى السابق يضيع ترابطه ويغدو غير معقول أو مقبول. إذ ما علاقة انطفاء نجم مادي في السماء بضلال الهداة من الناس في الأرض؟ ولكن حين نأخذ بسياق الحديث ومعناه نجد أن انطماس النجم الذي هو العالم في سماء الدين التي هي الإسلام، لاشك يؤدي إلى ضلال الناس بسبب ذهاب العلماء والإفتقار إلى علمهم الديني .ولذلك فالعلماء هم النجوم في سماء الدين.

ونزداد إن شاء الله تعالى فهماً لهذه الحقيقة حين ندرس معاً الحديث التالي:

جاء في الطبراني عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

«للعالِم على العابد من الفضل كفضل ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء. . . . وموت العالِم مصيبة لا تجبر، وثلمة لا تسد، وهو نجم طمس. . وموت قبيلة أيسر من موت عالِم»

الطبراني

وهنا نجد أن كلمة القمر لا تعني ذلك الكوكب التابع للأرض والذي يضيء ليلها بانعكاس نور الشمس من على سطحه، وإنما القمر هنا هو العالِم الذي يسطع في سماء الدين بنور القرآن الكريم الذي دعاه الله «نوراً» فقال في (سورة النساء: ١٧٤):
﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾.

وكذلك نجد أن «كواكب السماء» في هذا الحديث لا تعني الكواكب المادية التي تدور في مداراتها الخاصة بها، وإنما تعني العابدين الأتقياء. فالعابد كوكب في سماء الدين، بينما العالِم قمر بدر منير في سماء الدين.

ثم إذا كانت لفظة السماء تطلق على أعلى الشيء أو أعلى الكون المادي ـ كما مر معنا من المراجع اللغوية ـ ألايصح إذن أن تُطلق كلمة السماء على دين الله باعتبار أنه أعلى وأسمى ما في الكونين المادي والروحي؟

وجاء في الديلمي بسند صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:
(العالِم بغير عمل كالمصباح يحرق نفسه).

فها العالِم هنا مصباح في سماء الدين إذا عمل بعلمه، ويحرق نفسه إذا لم يعمل. ولكن إذا مااستفاد الناس من علمه، فعلّمهم وأنار قلوبهم وعقولهم، فإنه يكون بذلك نوراً يُهتدى

به إلى الحق وناراً تحرق ضلال الشياطين المضلِّين لأنفسهم وغيرهم من الناس.

وهكـذا نجد في الإصطلاح الديني للحديث الشريف أن الدين سماء. . . العلماء هم نجومها الساطعة وأقمارُها المنيرة ومصابيحها المضيئة، والعابدون هم كواكبها المتألقة.

السماء في مصطلح القرآن الكريم:

ونجد أيضاً أن ربنا تبارك وتعالى قد أكد هذه المعاني الجميلة السامية في القرآن الكريم، حيث ورد في سورة الفرقان قول الله تعالى في وصف السماء وبروجها:

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾
(الفرقان: ٦١)

هاهي السماء هنا قد جعل الله فيها نجوماً بروجاً وجعل فيها شمساً سراجاً وقمراً منيراً.

ونجد في موضع آخر من القرآن الكريم ذِكْراً لسماء أخرى لها أيضاً شمسها وسراجها المنير، قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم:

﴿وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾
(الأحزاب: ٤٦)

فها نحن هنا أمام شمس ساطعة وسراج منير في سماء ليست هي القبة الزرقاء، وإنما هي السماء الدين. . السماء الإسلام والسماء القرآن. إنها السماء التي شمسها وسراجها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ويؤكد القرآن الكريم في سورة يوسف هذا المعنى في فهم الدين على أنه سماء الأنبياء فيها شموس، والعابدون نجوم والعلماء مصابيح، حيث نقرأ عن رؤيا يوسف عليه السلام:

﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾

(يوسف)

ونجـد في نهاية سورة يوسف أن المرموز إليهم بالشمس والقمر كان يعقوب النبي أبو يوسف الـذي كان شمسـاً لكـونـه نبياً، والقمر كانت زوجته لِعكْسِها أنوار النبي زوجها

والكواكب كانوا إخوة يوسف الأحد عشر الذين كانوا يدورون في فلك أبيهم النبي يعقوب عليه السلام وأخيهم النبي يوسف وكان الجميع نجوماً ساطعة في سماء الدين والتوحيد والدعوة إلى الله عزّ وجل.

وهكذا يروي القرآن الكريم تأويل سورة يوسف:

﴿ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سجَّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾

(يوسف: ١٠٠)

حقاً العلماء نجوم في سماء الدين تستمد نورها من نبي الله المرسل لهداية البشر، وهذا ما أكده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه الشريف:
(أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)(١).

كما ونرى من الحديث الشريف أيضاً أن العلماء في سماء الدين ليسوا نجوماً تسطع بالنور فقط، بل هم أيضاً مصابيح تنير وتحرق. فقد جاء في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

«العالِم بغير عمل كالمصباح يحرق نفسه»(٢).

وهكذا فإن العالم ليس نجماً فحسب بل هو مصباح أيضاً، ومن المعلوم أن المصباح يملك خاصية الإنارة كما يملك خاصية الإحراق، وكذلك فإن العالِم يهدي الناس بنور الله تعالى كما يرمي بنور القرآن ظلمات الشياطين وضلالاتهم ويرجمهم فيحرقهم ويهلكهم بنور القرآن وبيانه. وهذا ما أكده القرآن الكريم في قول الله عزوجل:

﴿ولقد زيَّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

(سورة الملك)

أي أن الله تعالى قد رفع علماء الدين الذين آتاهم العلم وجعلهم نجوماً ومصابيح في الدين الذي هو أعلى وأسمى ما في الدنيا ولذلك فهو سماؤها وهم ـ العلماء ـ مصابيحه التي تزيّنه بما تبديه من نور الدين وهم كذلك يتصدون بعلوم دين الله وبيانه للمضلّلين الذين

---

(١) ـ الجامع الصغير.

(٢) ـ رواه الديلمي بسند صحيح.

يسعون إلى إفساد الناس ودينهم، ولذلك فهم الشياطين الذين يرجمهم علماء الدين بما لديهم من بيان ونور يسطع في الدين فيبدد ظلمات الضلال والمضلين فيعودون مهزومين مرجومين محترقين بنور دين الله الذي يسطع به الأنبياء والعلماء والمصلحون.

وهكذا فقد جعل الله علماء الدين مصابيح ترجم شياطين الإنس والجن بما يكشفون من زيفهم وضلالاتهم وبدعهم وكفرهم فينيرون للناس سبيل الحق فيتبعون الهدى ويدحرون الشياطين فيفشلون ويَهلكون بنور الدين الذي يسطع به الأنبياء ويعمل به العلماء.

ونجد المعنى ذاته في سورة الصافات في قوله تعالى:

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب* وحفظاً من كل شيطان مارد﴾

(الصافات: ٦، ٧)

إن كلمة «حفظاً» هنا تعني حفظاً للناس من الشياطين وضلالاتهم. وماذا عساها تكون السماء التي تحفظ الناس بكواكبها ونجومها من الشياطين والمردة؟ وهل تحفظنا القبة الزرقاء وأجسامها الغازية الملتهبة من الشياطين، وكيف؟

إن الدين الذي هو أسمى ما في الدنيا فهو لذلك سماؤها. . وكذلك القرآن بعلومه ونوره وبيانهم يحفظ الناس من شياطين الإنس والجن، فيمنعهم من إضلالهم بما يلبسون على الناس وبما يزيّفون، وبذلك يتم حفظ المؤمنين العاملين بالنور الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وصار سماء للناس يحفظهم من الضلال والهلاك.

وجدنا من الآية السابقة أن السماء هي التي تَحْفَظُ من الشياطين. ونجد في موضع آخر من القرآن أن الله تبارك وتعالى قد حفظ هو عزوجل هذه السماء بحيث لا يمكن لأية قوة شيطانية أن تنال من حفظها ومناعتها، قال تعالى:

﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾

(الأنبياء: ٣٢)

نجد هنا أن السماء هي محفوظة، كما ونلاحظ أن لهذه السماء آيات يصدّ الكافرون عنها ويقاومونها ويناقضون بيانها.

وذلك لأن معنى كلمة «يُعرضون» مشتق من جذرين في اللغة العربية، أحدهما «أعرض»

أي أضربَ وصَدّ، والثاني «عارض» أي ناقضَ وقاوم[1].

فكيف يمكن للناس أن يعارضوا ويقاوموا آيات السماء التي حفِظها الله وكيف يمكن أن يناقضوها؟

إذا ما قارنا هذه الآية الكريمة مع قول الله عزوجل التالي نزداد فهماً ويزول الإشكال، قال تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

(الحجر: ٩)

فالذكرُ أي القرآن هو لا ريب ـ كما مر معنا من البيان اللغوي ـ سماء الدنيا، ونعلم أن في هذه السماء ـ القرآن ـ آيات يعرض الكافرون عنها مصداقاً لبيان ربنا عزوجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم:

﴿وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

(الأنعام: ٤)

﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾

(القمر: ٢)

﴿ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها﴾

(الكهف: ٥٧)

إذن يؤكد القرآن الكريم أن الكافرين قد أعرضوا ويعرضون عن آيات الله تعالى التي هي في القرآن المحفوظ الذي جعله الله سقفاً محفوظاً وهم عن آياته معرضون.

ومن الجدير بالذكر هنا أنه لما كان القرآن الكريم «حمّال أوجه» ويفيد في آية واحدة أكثر من بيانٍ مالم يكن المعنى فيها مقيداً بقرينة تمنع تعدد المعاني، إذن يمكننا القول بأن المعنى الذي ذهبنا إليه آنفاً لا يتنافى مع الفهم المادي في أن الله عزوجل قد أحكم أيضاً بناء الكون في أرضه وسمائه وزيّنه بالبروج والنجوم والشموس والأقمار التي حفظها وجعلها بهجة وجمالاً لعين الإنسان وسخّرها له ووازن كونه وحفظه بها.

---

(١) ـ قاموس المحيط والمعجم والوسيط.

والآن ـ وقد تبين لنا من البيان اللغوي والقرآني أنه كما للكون المادي سماء، فكذلك للكون الروحي سماء هي دين الله تعالى وكتابه المحفوظ ـ يمكننا أن نعود إلى شرح بيان ما جاء في سورة الجن في قولهم:

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً* وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهباً رصداً﴾

(الجن: ٨)

أورد الإمام فخر الدين الرازي في «التفسير الكبير» معنى قوله تعالى: «لمسنا السماء»، قال:

«اللمس: المسّ، فاستُعير للطلب لأن الماسّ طالب متعرّف، يقال: لمسه والتمسه، ومثْله الجسّ، يقال جسّوه بأعينهم وتجسسوه، والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها».[1]

نجد هنا أن معنى «لمسنا السماء» ليس المقصود به: طرنا إلى أجواء السماء حتى وصلناها ولمسناها بأيدينا. بل المقصود من قوله تعالى:

﴿وأنا لمسنا السماء﴾

أي طلبنا معرفة الدين والكتاب. وقد كان هذا هو هدف وفد الجن من اليهود والنصارى كما مر معنا، حيث جاؤوا غرباء من بلادهم البعيدة متلمسين ظهور النبي الجديد والكتاب الذي أنزل معه مصداقاً للبشارات التي في كتابهم المقدس.

وأما قوله تعالى:

﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾

أي وجدنا ديناً محفوظاً ببيان الله القوي الشديد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي لا يمكن نقضه أو اختراقه لأن الله قد حفظه بالبيان الحق والبراهين القوية الدامغة وبنور الكتاب الساطع المبين الذي يكشف كل زيف وضلال وباطل كما تكشف الشموس والنجوم والشهب ظلمات الليل فتبددها وتجلي سوادها.

وكذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَفَظَةُ القرآن وعلماء الدين هم

(١) ـ نجد هنا أن معنى «لمسنا السماء» ليس المقصود به: طِرنا.

الحرس الشديد الذي يحرس الدين من هجمات شياطين الكفر، حيث وصفهم الله تعالى بأنهم:

﴿أشداء على الكفار﴾

وذلك في قوله عزوجل في سورة الفتح:

﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار﴾

(الفتح: ٢٩)

وهكذا فالحرس الشديد الذي يحمي دين الله تعالى من شياطين الكفر وأباطيلهم هم أيضاً علماء الدين الذين هم مصابيحه ونجومه وشهبه. وقد مر معنا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفه لعلماء الدين بأنهم كذلك[1]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وشهباً﴾.

﴿وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾

إذا لاحظنا في هذه الآية الكريمة لفظتي: «كنا» و«الآن» يتبين لنا أن هؤلاء الجن كانوا يتلمّسون السمع للدين قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم ما كانوا يجدون لهم شهباً رصداً. أما «الآن» من يستمع يجد له شهاباً رصداً، وهذا يعني أن الأمر بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صار مختلفاً عنه قبل بعثته.

نستفيد من هذه الملاحظة الهامة في بيانين متكاملين لمعنى هذه الآية الكريمة:

البيان الأول:

علمنا من تفسير الإمام الرازي أن معنى: «لمسنا السماء» أي طلبنا بلوغها، أي طلبنا معرفة الدين. وهذا يتوافق مع قول وفد الجن: ؛ «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع» أي كنا نتسمع ونترقب ظهور الدين الجديد والكتاب الجديد الذي سيأتي به النبي المبشّر به في التوراة والإنجيل[2].

---

(١) ـ راجع الأحاديث الموثّقة التي أوردناها في هذا الفصل.

(٢) ـ ورد ذكر البشارة فيما سبق.

إن استعمال البيان الإلهي لكلمة «السمع» هنا له دلالة مفيدة جداً لمن يبحث عنها في القرآن الكريم، حيث يبين تعالى أن الهداية من الله تعالى تأتي نتيجة «السمع» بينما الكفر والإلحاد يأتيان نتيجة عدم السمع، وإليكم البرهان:

قال تعالى:

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾

(سورة ق: ٣٧)

وقال عزوجل:

﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾

(سورة الأنعام: ٣٦)

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾

(يونس: ٦٧)

وأما في كون الكفر نتيجة لعدم السمع قال تعالى:

﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾

(الأعراف: ١٩٨)

﴿فما أغنى عنهم سمعهم﴾

(الأحقاف: ٢٦)

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾

(الكهف: ١٠١)

إذن نجد من كتاب الله عزوجل أن إلقاء السمع يكون سبباً في الهداية والإيمان بالله ورسوله والنور الذي ينزل معه.

وهذا هو عين ما صار مع وفد الجن الذين كانوا يسمعون ويترقبون حتى وجدوا النور الذي كانوا يبحثون عنه فصار هذا النور لهم[1] شهاباً رصداً يحميهم من ضلال الشياطين وأباطيلهم.

---

(١) ـ لاحظ أن الآية الكريمة تقول عن الذي يستمع يجد (له) شهاباً رصداً أي يكون لصالحه وليس عليه أو ضده.

ويتأكد لنا هذا الفهم إذا ما تدبرنا الآية الكريمة التالية التي وردت في خاتمة سورة الجن، حيث يبيِّن لنا القرآن الكريم أن الله عزوجل يحمي رسوله من شياطين الإنس والجن بِرَصَد يسلكه بين يديه ومن خلفه، قال تعالى:

﴿عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾

قال الإمام فخر الدين الرازي في «التفسير الكبير»:

«أما قوله تعالى: **﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾** فالمعنى أنه يسلك من بين يدي من ارتضى للرسالة، ومن خلفه رصداً، أي حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم، حتى يبلّغ ما أوحي به إليه، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ولا يضرونه»[1].

وهكذا يتبين لنا معنى قوله تعالى شهاباً رصداً.

وأما عن **البيان الثاني** لهذه الآية فهو كما يلي:

قد دأب شياطين الإنس والجن[2] منذ قديم الزمان على السعي لسرقة تعاليم السماء وتحريفها وتشويهها وعرضها بشكل مشوّه منفّر كي ينفر الناس منها وينفضُّوا عنها، تماماً كما يتصرف بعض المتعصبين من اليهود والمحرِّفون منهم حينما يخططون لمحاربة المسيحية والإسلام والمسلمين[3]، حيث أنهم يسترقون السمع مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾

(الحجر: ١٨)

ومعنى كلمة استرق: أي سرق الشيء، وأما استرق السمع فتعني: استمع مستخفياً[4].

فإذا ماأخذنا من الآية السابقة القعود من السماء مقاعد للسمع بمعنى «استراق السمع» فيصير المعنى بأن محاولة سرقة تعاليم السماء وتشويهها وتحريف الكتب المقدسة التي كانت

---

(١) - راجع التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي.

(٢) - أي شياطين عامة الناس وخاصتهم من المتميزين بالقدرات.

(٣) - راجع كتاب: «المفهوم الإسلامي الصحيح للجن والشياطين» للأستاذ نذير مرادني.

(٤) - محيط المحيط.

ممكنة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لم تعد «الآن»[1] ممكنة لأن الله عزوجل قد رصد دينه ورسوله وكتابه بشهب البيان والنور الجديد الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم، حيث جعل الله لكل محاولة استراق بياناً شهاباً يثقب الباطل المفترى بنور بيانه فيزهقه ويرجم شيطانه.

وهذا معنى قوله تعالى:

﴿إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾

إن كلمة «مبين» هنا مشتقة من البيان الذي يبدِّد به نورُ هذا الشهاب الديني المبين ظلمات الشيطان المسترق للسمع.

وهكـذا نجـد أنفسنا الآن ـ بعون الله تعالى ـ أقدر على فهم الآيات التالية التي تبين الحقائق التي شرحناها آنفاً:

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾

(الصافات)

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

(سورة الملك)

ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين* وحفظاً من كل شيطان رجيم﴾

(الحجر: ١٧)

وكذلك نستطيع الآن أن نفهم ما ترمي إليه كل الآيات التي تتناول الموضوع ذاته مع بيان الفارق.

أما أن تعتقد بأن ثمة مخلوقات شبحية هوائية أو غازية اسمها الجن، وهي تصعد إلى السماء لتلمسها فتلحق بها كواكب المريخ أو الزهرة أو عطارد لتحرقها وتحفظ السماء منها، وتمنعها عن استراق السمع ومعرفة الغيب كي لا تعمد بما علمتْ من الغيب إلى إخوانها من المنجِّمين من شيوخ الإنس لينجِّموا ويكذِّبوا على الناس، وليستغلوهم بهذا العلم القليل، فهذا اختراع يستحيل قبوله عقلاً ومنطقاً وبالتالي يستحيل قبوله على أنه من ديننا الحنيف البريء من هذه الخرافة والضلال.

---

(١) ـ لأن الله تعالى قد تعهد بحفظ دينه وكتابه فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وذلك لأن الإسلام خاتم الرسالات.

وقفة تأملية :

وللمصرِّين على الإعتقاد بأن نجوم السماء تنطلق كالسهام لاحقة بالجن والشياطين الذين يصلون إليها لاستراق السمع نقول : تعالوا نقف معاً هذه الوقفة التأملية :

* * إن الذين تحدثوا عن أشباح الجن والشياطين قالوا إنها مخلوقات تعيش بين الناس على كوكب الأرض رغم أنهم زعموا طيرانها في أجواء السماء، وهذا يعني أنه مهما كبر حجم الجني المزعوم فلن يعدو عن كونه محدوداً بالنسبة إلى الأرض التي يجب أن يكون على ظهرها الآلاف بل والملايين من الجن. ومن المعلوم أن أصغر نجم في السماء يزيد عن حجم الأرض آلاف إن لم يكن ملايين المرات. فكيف يقبل العقل إذن أن ينطلق النجم وراء ما يسمى بأشباح الجن لحفظ السماء منها وليمنعها من استراق السمع؟

* * إن للنجوم في السماء مسارات ومدارات ومواقع موزونة لا يمكن أن تغادرها لأي سبب كان، لأن ذلك يؤدي إلى حدوث انهيارات فضائية كونية في المجرات والمدن النجمية مما يفسد معه نظام الكواكب كلها ومنها الأرض بكل ما فيها.

ولقد أكد القرآن الكريم حقيقة أن للنجوم مواقع محددة فقال :

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾

(الواقعة : ٧٥)

كما بيّن أن السماء ممتلئة بالمسارات النجمية والكوكبية التي هي مداراتها وطرقها المحددة لها فقال :

﴿والسماء ذات الحُبُك﴾

أي ذات المسارات والطرق.

* * كما بيّن القرآن الكريم أن مواقع النجوم قد جعلها الله علامات يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر فقال :

﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾

(سورة النحل : ١٦)

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾

(سورة الأنعام : ٩٧)

فكيف يُعقل إذن أن ينطلق النجم من موقعه مُطارِداً للجن والعفاريت فيغيِّر مكانه المحدد شمالاً وجنوباً، فيَضلُّ بذلك الناس في ظلمات البر والبحر؟

* * إن التاريخ الفلكي لم يسجل يوماً أن نجماً كان الناس يهتدون به شمالاً أو جنوباً أو شرقاً أو غرباً قد غيَّر موقعه لمطاردته جنياً مارقاً.

* * ثم لو صح أن تترك النجوم مواقعها لتطارد الجن والشياطين فتحرقهم حماية للسماء وحفظاً لها، لكان ذلك من شأنه أن يؤدي إلى وجود تناقص متزايد في أعداد النجوم في مواقعها ومساراتها وهذا ما لايصح وما لم يقبل به عقل ولا نقل[1].

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن القرآن الكريم ـ وفي كثير من آياته ـ قد عبَّر بالأماكن كناية عن ساكنيها وشاغليها والمنسوبين إليها، فقال إن القرى تُؤمن أو تكفر أو تَظلِم وكذلك الأرض تَفسد، وقال إن الأرض والسماء تبكيان، والمقصود بذلك كله الناس أهل هذه الأماكن والمحال، قال تعالى:

﴿فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾

(سورة يونس: ٩٨)

من الواضح أن المقصود من كلمة «قرية» هنا هو أهل القرية وسكانها من الناس. وكذلك نجد في سورة الأنبياء قول ربنا عزوجل:

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾

(سورة الأنبياء: ١١)

أي كان أهلها ظالمين، فعبر عن الناس بذكر المكان الذي يشغلونه وينتسبون إليه.

كما عبَّر القرآن عن إحياء الناس بإحياء القرية بعد موتها، جاء في سورة البقرة:

﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾

(البقرة: ٥٨)

فالقرية هنا تموت وتحيا، والمقصود بذلك طبعاً الناس الذين فيها.

وكذلك عبَّر القرآن الكريم بذكر القرية كناية عن ساكنيها وبذكر العير كناية عن راكبيها،

---

(١) ـ أورد هذا الإشكال الإمام فخر الرازي في تفسيره.

جاء في سورة يوسف:

﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا﴾

(يوسف: ٨٢)

نجد هنا أن السؤال للقرية كناية عن السؤال لساكنيها والسؤال للعير كناية عن السؤال لراكبيها من الناس.

وكذلك استعمل البيان الإلهي في القرآن الكريم لفظة الجبال كناية عن ساكنيها، حيث جاء في سورة الأنبياء:

﴿وسخّرنا مع داوود الجبال يسبحن﴾

(الأنبياء: ٧٩)

أي أن الله عزوجل قد جعل سكان الجبال من المؤمنين يسبحون مع داوود عليه السلام، وكان هذا فضلاً من الله عليه. وأما إذا أخذنا المعنى اللغوي لكلمة «الجبل» والتي تعني سيد القوم، كما تعني الأمة العظيمة(١)، فيصير المعنى أن السادة وَمَن وراءهم من الناس كانوا يسبّحون مع داوود مؤمنين بالله الذي جعله نبياً.

وكذلك كنّى القرآن الكريم بالأرض عن أهل الأرض في قوله تعالى:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾

(سورة البقرة: ٢٥١)

أي لفسد أهل الأرض جميعاً.

وكذلك جاء في موضع آخر من القرآن الكريم ذكر السماء كناية عن أهل السماء، وذِكْر الأرض كناية عن أهلها، قال تعالى:

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾

(سورة الدخان: ٢٩)

وطبعاً ليس المقصود هنا أن للأرض دموعاً تفيض من مآقيها أو أن للسماء عيوناً تبكي بها، بل معنى قوله تعالى مابكت عليهم السماء أي ما حزن عليهم أهل السماء وما بكوا

---

(١) - المعجم الوسيط ومحيط المحيط.

عليهم، وما بكت عليهم الأرض أي ما بكى عليهم أهل الأرض وما حزنوا عليهم لأنهم كانوا ظالمين.

من هذا يمكننا أن نفهم إمكانية أن يُعبَّر بالسماء كناية عن أهل السماء أي أهل الإيمان والدين، فيكون معنى تزيين السماء بالنجوم والمصابيح التي ترجم الشياطين هو تزيين أهل المجتمع الديني المؤمن بنجوم هذا المجتمع الذين هم العلماء والمصلحون الذين ينيرون بعلومهم سُبُل الخير للناس ويكشفون بهذا النور ضلالات شياطين الكفر والإلحاد من الجن الذين هم كبراء الناس وساداتهم الذين قد يضلون عن سواء السبيل. وهكذا فإن علماء الدين ونجوم المجتمع الديني المؤمن يحمون هذا المجتمع من ضلالات المضلِّلين حين يكونون أصحاب علم صحيح سليم، وإذا ما كانوا عاملين بهذا العلم.

وهمسة أخيرة: ألا تقولون أنتم عن بعض الناس أنهم نجوم مجتمعكم، فتقولون فلان النجم الصاعد، ولا تقصدون أنه كوكب يشق أجواء الفضاء، بل تقصدون أنه يتألق بقدرات فنية أو علمية متميزة جعلت منه عَلَماً بارزاً في مجتمعه الذي صار فيه نجماً من مشاهير الناس؟

أفتقولون عن الفنان أو العالم أو الأديب في مجتمعكم نجماً من نجوم المجتمع، وتستغربون أن يَعتبر القرآنُ الكريم علماء الدين والإسلام نجوماً أو شُهُباً تتصدى بعلمها للضالين والمضلين من شياطين الإنس والجن؟

أفلا تتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟

مالكم كيف تحكمون؟

قصة سليمان والجن:

نسج النساجون الكثير من الخرافات والإفتراءات حول شخصية وقدرات النبي سليمان عليه السلام، فقد زعموا أنه كان يمتلك ناصية أشباح المردة والعفاريت من الجن والشياطين الخفية(١) التي ما كانت تجرؤ على مخالفته، ولاحتى على النظر إليه، إذ أن الناظر إليه من الجن

(١) - إن ماذكره القرآن الكريم حول تسخير الجن لسليمان عليه السلام ليس له علاقة بالأشباح، وسيأتي البيان في هذا الفصل بعون الله تعالى.

سرعان ما كان يحترق وتلتهمه النار حال نظره إلى النبي سليمان عليه السلام.

وزعموا أنه كان يحادث الطيور وتحادثه بلغتها الخاصة بها، كما كان يكلم النمل وتكلمه. وقالوا أنه عليه السلام كان له ألف زوجة يطوف عليهن جميعاً في ليلة واحدة، وأنه كان له بساط يحمله مئات الألوف من الجن يطيرون به إلى حيث شاء هو ومن معه من مئات الألوف من الجنود. وزعموا وزعموا الكثير من الخرافات التي لا ترقى إلى العقل والمعقول في شيء[1].

الحقيقة غير ذلك.

فما سليمان إلا نبي من أنبياء الله الذين آتاهم الله المُلكَ والسلطانَ في الأرض وجعله نبياً، فعمل بما آتاه ربه من قدرات سخّرها جميعاً لنشر الإيمان والتوحيد في الأرض والناس.

صحيح أن القرآن يذكر أن الله تعالى قد أعطى سليمان عليه السلام قدرات عظيمة ميّزه بها عن كثير من النبيين، إذ جعله ملكاً وسلطاناً قوياً وقائد جيش كبير، وجعله واسع الثراء وكذلك واسع العلم والمعرفة لأنه كان بفضله عزوجل نبياً، ولكن أخطأ الكثير من الناس في فهم حقيقة العطاءات التي أنعم الله بها عليه فبالغوا مبالغة كبيرة إلى حد الخرافة والخيال زاعمين أنها كانت معجزات من الله القادر على كل شيء لسليمان النبي عليه السلام. يقولون هذا في حين أنك لا تستطيع أن تجد في القرآن الكريم أي إشارة إلى أن هذه العطاءات كانت آيات ومعجزات من الله تعالى لسليمان النبي، بل تجد أنها كانت فضلاً من الله وإنعاماً عليه وعلى والده داوود من قبله. ونجد الدليل على ذلك كله في قصة سليمان في القرآن الكريم، حيث نقرأ أن علم سليمان بمنطق الطير وإنعام الله عليه بكل شيء إنما كان فضلاً مبيناً من الله عليه ولم يكن ذلك معجزة له. جاء في سورة النمل بيان فضل ربنا عزوجل على سليمان، قال:

﴿وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين﴾

نلاحظ هنا قول ربنا عزوجل:

﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾

(١) ـ راجع كتب التفسير وقصص الأنبياء.

وهذا يدل على أن تعليم سليمان لمنطق الطير وما آتاه الله من شيء إنما كان فضلاً من الله تعالى عليه ولم يكن آية معجزة له. ولو كان فيما آتى الله سليمان معجزة له لقال إنّ هذه آية مبينة وليس فضلاً مبيناً، إذ أن الدارس للقرآن الكريم يجد بيان الله تعالى في ذكر المعجزات على أنها آيات من الله تعالى لنبي من الأنبياء. فالمعجزة في المصطلح القرآني هي: «الآية»، جاء في سورة البقرة قول ربنا عزوجل:

﴿وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾

(البقرة: ١١٧)

أي: أو تأتينا معجزة تُبين أن الأمر بقدرة الله وحده ويعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وقد عبّر البيان الإلهي هنا عن المعجزة بكلمة «آية» كما هو واضح بينٌ.

وكي نتمكن من الفهم الصحيح لحقيقة ما آتى الله نبيه سليمان من فضل ونعمة، ولنرى فيما إذا كان ذلك معجزة له، لا بد لنا من دراسة حقيقة مفهوم «المعجزة» والفرق بينها وبين الفضل والنعمة اللتين يؤتيهما الله لأنبيائه.

جاء في قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني:

«المعجزة: اسم فاعل من الإعجاز، وهي في الشرع أمر خارق العادة مِن تركٍ أو فعلٍ مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة. والهاء للمبالغة. وسميت معجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، ولا يقدر عليها إلّا الله سبحانه. وقال في التعريفات: المعجزة أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة، قُصد بها إظهار صدق من ادعى أنّه رسول من الله»[1].

نجد من هذا التعريف اللغوي لكلمة المعجزة أنّها يجب أن تتصف بصفات خاصة مميزة وهي:

١ ـ أن تكون أمراً خارقاً.

٢ ـ أن يكون هذا الأمر الخارق مقروناً بالتحدي.

٣ ـ أن لا يتمكن أحد من معارضة هذا الأمر الخارق بشكل من الأشكال.

٤ ـ أن يكون هذا الأمر مقروناً بدعوى النبوة.

٥ ـ أن يكون المقصود منه إظهار صدق من ادّعى أنّه رسول من عند الله.

(١) ـ معجم محيط المحيط.

تلك هي صفات المعجزة في الشرع. وهذا يؤكد أنّها لا تأتي صدفة وبغير مناسبة، بل لا بدّ أن تكون مقرونة بالتحدي لاظهار صدق الرسول، وأن يعجز المعارضون عن معارضتها، وبذلك يثبت أنّ المعجزة قد تمت بقدرة الله وحده وأنّه عزّ وجلّ قد أظهرها تصديقاً وتأييداً لرسوله.

إننا إذا درسنا قصة سليمان في القرآن الكريم لا نجد مناسبة تحدٍّ ومعارضة في معرض ذكرِ فضلٍ وإنعامِ الله عليه (عليه السلام)، ولذلك لم يكن مضطراً في هذه المواضع إلى أن يُظهر الله في شأنه آيات معجزات تؤيده، وهذه ملاحظة هامّة جداً جديرة بالتوقف والتأمّل.

وتأكيداً على أنّ المعجزة هي الآية في المصطلح القرآني نذكر بعض الأمثلة من كتاب الله المجيد:

نجد القرآن الكريم قد عبّر عن المعجزات التي آتاها الله تعالى لعيسى وموسى عليهما السلام بكلمة آية[1] وآيات حيث نقرأ دعاء عيسى عليه السلام لربنا عزّ وجلّ أن ينزل عليه آية يشهد لها قومه، قال:

﴿ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾

(المائدة: ١١٣)

وكذلك يبيّن الله تعالى الأمر الخارق للمألوف في ولادة مريم لعيسى عليه السلام من غير أب، فيقول إنّ ذلك آية «معجزة» من الله تعالى:

﴿وجعلنا ابن مريم وأمّه آية﴾

(المؤمنون: ٥٠)

وكذلك ذكر الله عزّ وجلّ المعجزات التي آتاها لرسوله موسى عليه السلام، على أنّها آيات أرسله بها إلى فرعون وقومه قال:

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات﴾

(الإسراء: ١٠١)

وقال تعالى في شأن فرعون وقومه:

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات، فاستكبروا

(١) - ثمة معان أخرى لكلمة الآية غير معنى المعجزة، إلا أن تلك المعاني تأتي في سياقات مختلفة تحدد معناها.

وكانوا قوماً مجرمين﴾

(الأعراف: ١١٣)

وقال أيضاً:

﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾

(المؤمنون: ٤٥)

وثمّة الكثير الكثير من البيان الإلهي الذي يؤكد أنّ القرآن الكريم قد ذكر المعجزات التي أيّد الله تعالى بها رسله تصديقاً لهم ـ على أنّها آيات منه عزّ وجلّ، إلاّ أنّ ما جئنا به من بيان قرآني يكفي بعون الله تعالى لمن يريد الحق والحقيقة.

ونعود لقصة الملك سليمان عليه السلام، ونبدأ بتفقّده للهدهد، جاء في سورة النمل، قول ربنا تبارك وتعالى عن سليمان:

﴿وتفقّد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾

(النمل: ٢٠)

لو راجعتم كلمة «الطير» في قواميس اللغة العربية لوجدتم أنّها بالاضافة إلى كونها تعني الطيور ذوات الأجنحة فإنّها تعني أيضاً: الحيوانات السريعة الجري كالخيل وغيرها. ونجد كذلك أنّ كلمة الطيّار هي صيغة مبالغة لكلمة طير والتي تعني الحصان السريع الذي يجري بسرعة هائلة حتى ليبدو وكأنّه يطير[١].

وجاء في قاموس محيط المحيط أنّه يمكن إطلاق لفظ الطيران على الإنسان إذا أسرع بأمر، فقال:

«وطار فلان بكذا: سبق به. وطار فلان إلى كذا: أسرع إليه».

وعلى هذا يمكن اعتبار «الطير» أنّهم الفرسان السريعون على ظهور الخيل السريعة العدو.

وكذلك جاء في مراجع اللغة العربية:

«الطير: الدماغ»[٢].

---

(١) ـ راجع لسان العرب وموسوعة «لين».

(٢) ـ راجع «محيط المحيط» لبطرس البستاني.

وعلى هذا يمكن اعتبار أنّ كلمة «الطير» يمكن أن تشير أيضاً إلى العلماء الذين يسبقون بأدمغتهم إلى كل علم ومعرفة . ولقد أخطأ الكثير بالاعتقاد أنّ كلمة «الهدهد» هنا تعني طائر الهدهد الصغير ضعيف الطيران والذي يقع بكل سهولة فريسةً ضعيفة في مخالب الطيور القانصة كالصقر أو النسر.

والصحيح أنّ كلمة «الهدهد» هنا إنّما تشير إلى إنسان عاقل كان اسمه أو لقبه «الهدهد»(١) وكان من قوّاد جيش سليمان التابعين لفرقة «الطير» أو الخيّالة السريعي العدو ولربما كان من كبار ضباط الاستطلاع أيضاً.

وأمّـا الدليل على أنّه كان بشراً عاقلاً ولم يكن طائراً فنجده في الآية ذاتها، ولكن قبل البيان ، تعالوا نتفكر معاً في المثال التالي :

هب أنّك كنت تُري صديقاً لك بعض طيورك الجميلة التي تحتفظ بها في قفص تستمتع بجمال ألوانها وعذوبة صدحها وإنشادها. وافترضْ أنّ صديقك هذا أراد أن يمتدح جمال طيورك فقال لك :

«إنّ هذه الطيور جميلين»

ثم سألك :

«هل هذه جميع طيورك ، أم أنّ ثمة واحداً من **الغائبين**»؟

أفَكُنْتَ عند ذلك تعتبر وصْفه لطيورك أنّها «جميلين» وأنّ أحدها «من الغائبين» وصفاً صحيحاً بحسب قواعد اللغة العربية أم تعتبره قد أخطأ القول ، إذ كان يجب عليه ـ وبحسب قواعد اللغة العربية ـ أن يقول: «إنّ هذه الطيور جميلة» أو أن يسألك إن كان ثمة «طيور غائبة» غير التي عندك وكان أحدها من الطيور «الغائبة»؟

لا شك في أنّ وصف «الطير» يأتي مؤنثاً بحسب قواعد اللغة العربية ، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿أولم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء﴾

(النحل : ٧٩)

نجد هنا وصف ربنا تبارك وتعالى للطير التي تطير بجناحين(١) بأنّها «مسخرات» ولم يقل

---

(١) ـ ورد اسم «هدهد» في سفر الملوك أكثر من مرة على أنه اسم واحد من الناس.

مسخرين، وذلك لأنّ «الياء والنون» في اللغة العربية إنّما هي علامة الجمع للعاقل فقط، وبما أنّ سليمان قد قال عن الهدهد: «أم كان من الغائبين» فاستعمل له جمع المذكر السالم للعاقل، فهذا يعني أنّ الهدهد كان رجلاً من قادة سليمان ولم يكن طيراً. وليس غريباً تسمية الناس بأسماء الطيور كالصقر والنسر والعقاب وهذا أمر شائع ومعروف. أمّا أن نقول أنّ ثمة خطأً لغوياً في هذه الآية ـ معاذ الله ـ فهذا أمر لا يوافقك عليه أحد من المؤمنين.

إذن كان سليمان عليه السلام هنا يسأل عن الهدهد الذي كان أحد ضباط استطلاعه وكان يقوم بمهمة استطلاعية وتأخّر فيها بعض الشيء وهذا ما تشير إليه كلمة «تفقّد» في الآية كما هو واضح.

ويزيدنا القرآن الكريم في هذه الحقيقة بياناً إذا ما تابعنا قراءة الآيات حيث نقرأ قول سليمان عليه السلام عن الهدهد:

﴿لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه، أو ليأتينّي بسلطان مبين﴾

(النمل: ٢١)

تصوّر أن يقول لك شخص ما: إنّ الملك فلان صاحب القوة والسلطان قد غضب على ببغاء عنده فعذّبه عذاباً شديداً ونتف ريشه ريشةً ريشة ثم ذبحه! أفكنت تستطيع قبول هذه الصورة غير المعقولة عن تصرفٍ لملك؟ فكيف إذن نقبلها في حق سليمان الملك النبي عليه السلام؟

ثم تصور أن يقول لك رجل:

«لقد اكتشفت حقيقة مرّة وهي أنّ الببغاء الذي عندي هو من الطيور الكاذبين».

لا شك في أنّك عندئذ تستسخف عقله بسبب وصفه طيراً أنّه: «من الكاذبين» لأنّ الطيور والحيوانات لا يصح وصفها بالكذب وذلك لأنّها تتصرف دائماً بطبيعتها التي فطرها الله عليها ولا تقصد الكذب وإخفاء الحقائق. ثم إنّك حتماً لن تنسى أن تصحح له خطأه في استعماله «الياء والنون» في كلمة الكاذبين في شأن الببغاء، لأنّ هذا الجمع يخص العقلاء فقط.

---

(١) ـ ورد في القرآن الكريم بيان يؤكد أن كلمة الطير يمكن أن تطلق على الطيور العادية وذلك ففي قوله تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ (الأنعام: ٣٨) إن الطائر يطير بجناحين فلماذا التفصيل هنا؟ هذا يؤكد على أن كلمة الطير يمكن أن تطلق أيضاً على مالا يطير بجناحين من غير الطيور وهي الخيل السريعة وغيرها كما مر معنا.

والآن نستطيع أن نفهم كيف أنّ الملك سليمان عليه السلام قد قال للهدهد ـ بعد أن جاءه بتقريره[1]:

﴿سننظر أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾

(النمل: ٢٧)

وإليك البيان من أوّله لنرى ماذا قال الهدهد وبماذا أجابه الملك النبي سليمان عليه السلام:

﴿فمكث غير بعيد فقال أحطتُّ بما لم تُحطْ به وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنّي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتُّها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألّا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض، ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلّا هو رب العرش العظيم * قال سننظرُ أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾

(النمل: ٢٢ ـ ٢٧)

تفكروا معي في هذا البيان العظيم للهدهد المؤمن بالله الواحد والذي يستنكر أن يسجد الملوك والعقلاء من الناس للشمس من دون الله الأحد، ثم اسألوا أنفسكم أيُعقل أن يكون هذا بيان طائر أعجم؟! ثم أين المعجزة؟ هل هي في النبي سليمان الذي يفهم لغة الهدهد، أم في الهدهد ذاته الذي يفهم لغة سليمان ولغة غيره من الناس؟! ثم هل أخطأ ـ حاشا لله ـ القرآن ثانية عندما قال على لسان سليمان عن الهدهد:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾؟

أم الحديث هنا كان عن ضابط أُرسل في مهمة فتأخّر أو قصّر بها أو خان التزامَه وقائدَه[2] فصار يستحق العقاب أو الإعدام كما يحكم القادة على الخائنين من قوّادهم وجندهم، ولكن ليس قبل التحقيق والتأكّد من حقيقة موقفهم، وهذا معنى قوله: ﴿سننظر﴾ أي سنتحقق من صدقك في أنّك التزمت بمهمتك وجئتنا كما تدّعي بـ ﴿نبأ يقين﴾.

(١) ـ من المعلوم أن للطيور وسائلها الخاصة للتفاهم والتواصل فهي تسافر مهاجرة في جماعات منتظمة يقودها قائد وهي لها عاداتها وأساليبها في العيش والإعتياد وهذا يمكن اعتباره منطقها الخاص بها.

(٢) ـ ورد اسم هدد في سفر الملوك الثالث في قصة سليمان عليه السلام، وهو «هدهد الأدومي» ١١ : ١٤ والإستشهاد هنا لمجرد ورود الإسم.

ونحن أيضاً لا بد من أن «ننظر» ونتفكر في حقيقة كل ما نعتقد لنعلم إذا ما كان اعتقادنا وعلمنا علم اليقين.

الملك النبي سليمان والنملة:

ونسعى الآن بعون الله تعالى إلى بيان قوله عزّ وجلّ:

﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾

(النمل: ١٨)

لا شك في أنّ «النمل» كـ «النحل» كلاهما ينتمي إلى جنس الحشرات في مخلوقات الله تعالى. ومن المعروف في قواعد اللغة العربية أنّ جمع الحشرات إنّما هو جمع مؤنث. والدليل على ذلك في القرآن الكريم، هو قول الله تعالى في سورة النحل:

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون* ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاء يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾

(النحل: ٦٨ - ٦٩)

نجد الأمر الإلهي هنا إلى النحل جاء بصيغة التأنيث طبقاً لقواعد البيان العربي ولا شك في أن هذا هو الصواب. إذن كيف يمكننا فهم أن خطاب النملة إلى النمل قد جاء في صيغة المخاطب العاقل وذلك في الكلمات:

«يا أيها» بدلاً من يا أيتها. و «ادخلوا» بدلاً من «ادخلي» و «مساكنكم» بدلاً من جحورك، حيث أن المساكن إنما تكون للبشر فقط مصداقاً لقول ربنا عزوجل:

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾

(النحل: ٨٠)

وقوله تعالى:

﴿أولم يهد لكم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾

(طه: ١٨٢)

وكذلك قوله عزوجل:

﴿وعاداً وثمود وقد تبيَّن لكم من مساكنهم﴾

(العنكبوت: ٣٨)

وهكذا نجد في هذه الآية الكريمة أن جميع مؤشراتها تشير إلى أن خطاب «النملة» لم يكن إلى حشرات وإنما كان خطاباً إلى عقلاء بدليل الكلمات:

«يا أيها» و «ادخلوا» و «مساكنكم» و «يحطمنكم». فمن هي هذه النملة؟ ومن هم هؤلاء النمل الذين تخاطبهم هذه النملة خطاب العقلاء، بدلالة جمع العقلاء «ادخلوا» وضمير المخاطب العاقل المذكر: «مساكنكم» و «يحطمنكم»؟

جاء في تفسير ابن كثير الجزء الثالث الصفحة **٣٥٩** طبعة دار المعرفة ما يلي:

«أورد ابن عساكر من طريق اسحق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن: أن اسم هذه النملة «خرس» وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب»[١].

وماذا عساها تكون هذه النملةالعرجاء الهائلة الحجم والتي تنتمي إلى قبيلة معيَّنة؟

إن التعبير «واد النمل» يشير إلى موقع جغرافي يسكن فيه أهل هذه القبيلة من «بني النمل» ولاشك في أن مثل هذه التسميات مشهورة بين العرب والقبائل العربية، حيث أن هنالك «قبيلة بني أسد وكذلك قبيلة بني كلب وأيضاً قبيلة «مازن» التي تعني بيض النمل[٢]. وكذلك جاء في «القاموس»: «الأبرقة من مياه النملة»[٣]، وقوله: «مياه النملة» يدل على اسم مكان تسكنه قبيلة معينة، إذ لا معنى لـ «مياه النملة» إذا كان المقصود هو مياه حشرة النمل.

وهكذا فإن كلمة «نملة» تشير إلى واحد من قبيلة بني النمل التي كانت تسكن هذا الوادي. ولقد جاء في «تقويم البلدان» أن واد النمل هذا يوجد في منطقة بين «جبرين» و«عسقلان» التي هي مدينة صغيرة على شاطىء البحر على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال من غزة، قرب صحراء سيناء[٤].

---

(١) - راجع تفسير ابن كثير. ومن الجدير بالملاحظة أن للنملة ست أرجل فكيف يمكن أن تكون عرجاء إذا أصيبت إحدى أرجلها؟!.

(٢) - ديوان الحماسة.

(٣) - «القاموس» للشيخ نصر أبو الوفا.

(٤) - راجع تقويم البلدان.

إن هذا الوصف يدل ـ بحسب الخرائط القديمة لسوريةوفلسطين ـ على أن واد النمل هذا يقع قريباً من البحر في منطقة مقابلة للقدس على الطريق من دمشق إلى الحجاز، وعلى مسافة مئة ميل منها. وقد كانت هذه المنطقة مأهولة حتى أيام سليمان عليه السلام من قِبل العرب والمدينيين[1]. وثمة مصادر أخرى تقول إن هذا الوادي يقع في اليمن[2]. ونجد على ضوء هذه الحقائق الجغرافية، أن الأساطير المنسوجة حول «واد النمل» إنما هي خرافة وخيال لا يرقى إلى الحقيقة في شيء.

إن كل ما تشير إليه هذه الآية الكريمة هو أن سليمان عليه السلام قد قابل أثناء مسيرته العسكرية إلى سبأ أناساً من قبيلة كانت تعيش في واد النمل ويقال لهم بنو نمل وقد خاطبهم زعيمهم مشيراً عليهم بالإبتعاد عن طريق جنود سليمان العظيمة القوية حتى يظن هؤلاء الجنود أن وقوف سكان واد النمل في طريقهم يعني رغبتهم في مقاومتهم فيحطموهم وهم لا يعلمون أن هؤلاء الناس لا يريدون قتالاً، ولذلك فقد أشار عليهم قائدهم بالدخول إلى بيوتهم مبتعدين عن مسيرة جند سليمان، لأن ابتعادهم يعني في عُرف قوانين الحرب في ذلك العصر أنهم لا يريدون حرباً[3]. وأما كلمة «لايشعرون» فتشير إلى اشتهار التقوى والخير في جنود الملك سليمان، حيث أنهم لا يعتدون على من لا يبادر أولاً بالظلم والإعتداء، وهذا ماجعل سليمان عليه السلام يبتسم راضياً فرحاً بفضل ربه عليه فيما اشتُهر عنه وعن جنده، حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ﴾ (النمل: ١٩)

إن دعاء سليمان عليه السلام هنا يشير إلى أن كلام «النملة» عنه وعن جنوده إنما كان «نعمة» ولم يكن آية «معجزة» كما أننا نلاحظ هنا أنه ليس ثمة تحدٍّ، أو داع لإظهار أية معجزة لتصديق نبوة سليمان عيه السلام، كما يحضر هنا في الخاطر سؤال وهو: ما وجه الإعجاز أن

---

(١) ـ راجع في ذلك الخرائط القديمة لسورية وفلسطين.

(٢) ـ راجع الخرائط القديمة لليمن وكذلك قال ابن بطوطة: «إن بظاهر عسقلان وادي النمل ويقولون إنه المذكور في الكتاب العزيز»

(٣) ـ تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلن أثناء فتح مكة أنه: «من دخل بيته كان آمناً»

يرى الناس سليمان الملك عليه السلام يصغي ثم يرفع رأسه ضاحكاً ويقول: كنت أستمع إلى هذه النملة وكانت تقول كذا وكذا؟[1] لقد مر معنا في تعريف الآية المعجزة أن من شروطها ألا يقدر أحد على معارضتها أو يحتج عليها، بل لابد من أن تعجز الناس عن الرد فتقيم الحجة عليهم وتُسكت ألسنتهم.

جن الملك سليمان:

لاشك في أن الله تعالى قد سخَّر لسليمان الجن يعملون له، وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم. إلا أن القرآن لم يقل أن هؤلاء الجن كانوا أشباحاً أو أرواحاً. ولقد مر معنا أن كلمة الجن تطلق فيما تطلق على كبار الناس وأثرياءهم والقادة، وكذلك المتميزين منهم بأعمال وقدرات خاصة. وهذا ما جاء بيانه في القرآن الكريم، حيث قال ربنا تبارك وتعالى:

«وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون»

(النمل: ١٧)

وهذا يعني أن جيش سليمان كان يتألف من ثلاث فئات هم:[2] القادة والخبراء والعلماء وهم فئة الجن. وكذلك الجنود العاديون وهم فئة الإنس، ثم فئة الطير، وهي فئة الفرسان الذين يمتطون ظهور الخيل السريعة العدو والتي تسمى في اللغة العربية: «الطير». ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن كلمة «الطير» يمكن أن تشير في هذا السياق أيضاً إلى طيور الحمام الزاجل الذي كان يُستعمل بكثرة في عهد الملك سليمان عليه السلام وذلك لنقل الرسائل إلى بقاع امبراطوريته الواسعة والمترامية الأطراف. وقد أكد القرآن الكريم على استخدام داود قبل سليمان للطير التي كانت تذهب ثم تؤوب وترجع إليه كما هي الحال في استخدام الحمام لنقل الرسائل، قال ربنا في ذكر داود والد سليمان عليهما السلام:

﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب* إنا سخَّرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشي والإشراق*

(١) - من المعلوم أن للنمل وسائله الخاصة للتواصل والتفاهم ومنها اللغة الكيميائية القائمة على تتبع رائحة معينة يتركها جيش النمل على الأرض أثناء مسيره راسماً بها خطاً طريقاً لأفراد قبيلته - راجع المصادر العلمية الخاصة بالنمل.

(٢) - لاحظ أن كلمة الجندي التي جمعها جنود إنما تدل على الناس ولايمكنك القول عن الحصان أو الطير أنه جندي.

والطير محشورة كل له أواب﴾

(ص : ١٧ - ١٩)

ولقد مر معنا أن تسبيح الجبال مع داود إنما هو كناية عن تسبيح سكان الجبال حيث يمكن في اللغة ذكر المنطقة كناية عن أهلها وسكانها. إن هذه الكناية لاتزال مستعملة حتى اليوم إذ يمكننا مثلاً القول: «إن العالم بأجمعه يستنكر الممارسات العدوانية والوحشية لإسرائيل على الشعب العربي في فلسطين». إن كلمة «العالم» هنا لا تعني الأرض بسهولها ووديانها وجبالها، وإنما تعني سكان العالم من البشر.

ونعود إلى سليمان عليه السلام، قال تعالى:

﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير* يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾

(سبأ: ١٢ - ١٣)

وفي سورة الأنبياء، نقرأ قول ربنا عزوجل عن سليمان:

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾

(الأنبياء: ٨٢)

وكذلك جاء في ذكر سليمان عليه السلام قول الله تعالى:

﴿فسخّرناله الريح تجري بأمره رُخاء حيث أصاب* والشياطينَ كل بنّاء وغوّاص* وآخرين مقرّنين في الأصفاد* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾

(ص : ٣٦ - ٣٨)

تؤكد هذه الآيات تسخير الجن لسليمان عليه السلام، فمن هم هؤلاء الجن؟ نقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام قد أخضع لحكمه قبائل الجبال المتوحشين، وقد سخّرهم في أعمال البناء والتعمير الشاقة مثل قَطْع الحجارة من الجبال وغير ذلك من الأعمال، ولقد أكد القرآن الكريم تسخير سكان الجبال لداود عليه السلام، وبما أن سليمان قد ورث الحكم والمملكة عن أبيه فهذا يعني أنه قد أخضع سكان الجبال له أيضاً. وتبين التوراة أن العبيد من غير بني اسرائيل كانوا يُشحنون بالسفن إلى الملك سليمان وكان من بينهم خبراء في الملاحة وغوص البحار.

جاء في سفر أخبار الأيام الثاني:

«وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه. وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمالين، وثمانين ألف رجل يقطعون في الجبل، وثلاثة آلاف وستمئة رجل يناظرون عليهم»

(الفصل الثاني: ١، ٢)

مر معنا في معاجم اللغة العربية أن لفظة «الجن» تطلق فيما تطلق على الغرباء الذين يأتون من خارج البلاد[١]. ونقرأ في التوراة أن الملك سليمان قد سخّر هؤلاء «الجن» الغرباء من الشعوب التي خضعت لسلطانه، جاء في سفر الملوك الثالث:

«فسخر الشعب الذين بقوا من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليوسفيين الذين لم يكونوا من بني اسرائيل»

(الفصل التاسع: ٢٠)

كما ونقرأ عن العبيد الخبراء العارفين في البحر والذين سخّرهم سليمان عليه السلام في أعمال البحر، جاء في سفر الملوك الثالث:

«فأرسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان قوماً ملاحين عارفين بالبحر»

(الفصل التاسع: ٢٧)

رافعة أشرعتها للريح كانت سفن سليمان تمخر عباب البحار وتجلب خيرات الأرض بفضل الله تعالى إلى مملكته من الهند ودول منطقة الخليج وبلاد فارس. وهكذا كانت سفن أسطول الملك سليمان[١] تجلب له الكنوز والخبرات من ممالك الأرض التي كانت تبحر إليها. كما ويذكر سفر الملوك أن سليمان عليه السلام قد أحرز بقوّته البحرية انتصارات كثيرة، كان منها انتصاره على عماليق وسعير وقد حرّر من «النهّابين» اللصوص البلاد الممتدة من حدود يهوذا إلى بلاد أدوم إلى بلاد أيلة وعصيون وجابر[٢].

«وجمع سليمان مراكب وفرسانا فكان له ألف وأربعمئة مركبة وإثنا عشر ألف فارس، فأقامهم في مدن المراكب وعند الملك في أرشليم»

(الفصل العاشر: سفر الملوك الثالث: ٢٧)

(١) ـ كان اسم هذا الأسطول «ترشيش» راجع سفر الملوك وقصص الأنبياء ـ عبد الوهابالنجار.
(٢) ـ المصدر السابق.

وأما في البحر، فيقول سفر الملوك:

«لأن الملك كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنين حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقردة وطواويس»

(الفصل العاشر: ٢٢)

وتولّى الفينيقيون تدريب العبرانيين في الملاحة.. ولذلك كان عند الملك سليمان رجال تعوَّدوا التمرس بالبحر للصيد وكانوا يقومون بتنفيد المهام البحرية التي يأمرهم بها[1].

وهكذا نجد بكل واقعية ووضوح أن قوة البناء في مملكة النبي سليمان عليه السلام، لم تكن بسبب الأشباح والأرواح ولم تكن بسبب فيوض المعجزات في صناعة وبناء وزراعة أو ملاحة بحرية أو مراكب بريّة. بل كان البناء لديه بالقدرات والمهارات والخبرات الفنية والصناعية للشعوب التي خضعت لسلطانه أو للعبيد الذين كانوا يُهدَون إليه من ممالك أخرى. وبما أن هؤلاء جميعاً كانوا من الغرباء القادمين من بلاد بعيدة، فيصحّ إذن تسميتهم بـ «الجن» وذلك بحسب البيان العربي الدقيق.

وأما عن الشياطين منهم، فلا بد أنهم كانوا من السجناء المحكومين بجرائم مختلفة فهم لذلك كانوا من الشياطين، وقد كان يسخّر منهم من كانت لديه مهارات وخبرات في حقل من حقول البناء. ومن البراهين اليقينية على أن هؤلاء الشياطين لم يكونوا أشباحاً ولا أرواحاً هو ما جاء في القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى:

﴿والشياطين كل بناء وغواص* وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾

(ص: ٣٧، ٣٨)

فقول ربنا عزوجل هنا: **﴿مقرنين في الأصفاد﴾** يبين بكل وضوح أن هؤلاء الشياطين كانوا بشراً من السجناء المجرمين والمقيدين بالقيود والأصفاد.. فعلى الأخذ بالزعم بالقدرات الخارقة لأشباح الجن والشياطين كيف يمكن تصفيدهم بالقيود وحجزهم بها؟

وهكذا فإن الجن والشياطين الذين سخرهم الله تعالى لخدمة النبي سليمان عليه السلام، لم يكونوا أشباحاً ولا أرواحاً وإنما كانوا بشراً من العمال والعبيد والأسرى المسجونين الذين

(١) ـ راجع هذه المعلومات في سفر الملوك وقصص الأنبياء للنجار.

كان يستخدمهم في بناء مملكته.

سليمان وعرش ملكة سبأ:

حين يحل ملك أو رئيس دولة ضيفاً على بلد من البلاد فإن الرئيس المضيف يذهب مع رجال دولته إلى المطار أو إلى حدود دولته لاستقبال الرئيس أو الملك الضيف. وغالباً ما تتم قبل وصول الرئيس الضيف الإستعدادات لتهيئة ما يسمى بمنصة الشرف لاستقبال الضيف الكبير، وبعد وقوف الضيف على منصة الشرف واستعراض حرس الشرف، يتوجه إلى قاعة الشرف المخصصة لاستقباله كي ينال قسطاً من الراحة قبل بدء زيارته للدولة المضيفة والرئيس المضيف.

هذا ما لا يزال يحدث بشكل أو بآخر حين استقبال ملك أو رئيس في بلد من بلدان العالم. ومن المعروف أن هذه الإجراءات تُعتبر شكلاً من أشكال الإكرام للضيف الزائر، والتي لابد من القيام بها.

وهكذا كان الأمر أيضاً في الأزمنة السابقة حال زيارة ملك من الملوك لملك آخر، وقد حدّثنا القرآن الكريم عن الإستعدادات التي قام بها الملك النبي سليمان لاستقبال الملكة بلقيس ملكة سبأ الشهيرة، وإليكم القصة من القرآن الكريم حيث يروي أن سليمان عليه السلام بعد أن خرج باتجاه مملكة سبأ بلقيس وأراد أن يهيء منصة أو عرشاً لاستقبالها، فجمع مستشاريه وكبار مملكته وكان بينهم الخبراء والفنيون، واستشارهم في مسألة إعداد عرش الملكة بلقيس - أي عرش استقبالها - (١):

﴿قال يا أيها الملأ من منكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾

(النمل: ٣٨)

إن كلمة «الملأ» تعني الزعماء وكبار القوم. وها سليمان هنا يستشير كبار قومه في شأن إعداد عرش الملكة بلقيس.

---

(١) - من الطبيعي أن يسمى العرش المخصص لاستقبال الملكة بلقيس بـ «عرشها» لأنه كان مخصصاً لجلوسها عليه حين استقبالها.

نلاحظ هنا أن سليمان لم يقل: من منكم يأتيني بعرشها من سبأ، كما أن كلمة «يأتيني» إنما تعني هنا «يعمل ويتم لي»، وذلك لأن معنى أتى الأمر: أي فعله وأتمه[1].

وهكذا فإن معنى الآية الكريمة هنا: «من منكم يستطيع أن يعدَّ ويهيّء لي العرش الذي ستجلس عليه ملكة سبأ حين استقبالنا لها، ولكن بشرط أن يتم هذا قبل مجيئها هي وقومها مسلِمين».

﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾

(النمل: ٣٩)

نجد في القرآن الكريم أن سليمان قد تلقى عرضين ردا على استشارته، وهذا هو الأول الذي عرضه عليه العفريت من الجن.

إن المقطع «عفريت من الجن» قد جعل الكثيرين يتوهون في الخرافة والخيال، وذلك لأنهم قد أخذوا بالخرافة والخيال قبل كل شيء، ودون الرجوع إلى المصادر العلمية والمعرفية للأخذ منها، حيث كان لابد من دراسة معاني المفردات الواردة في هذه الآيات الكريمة بكل عمق ودقة. فلو رجع هؤلاء إلى معاجم اللغة العربية ليعرفوا معنى كلمة عفريت لوجدوا مايلي:

«العفريت: النافذ في الأمر المبالغ فيه بدهاء. ويقال رجل عفريت: أي شديد»[2].

إذن كان هذا العفريت من الرجال الأشداء النافذين في الأمور، ولما كان من «الملأ» أي كان من الزعماء وكبار القوم فقد كان أيضاً ـ وبحسب معاني اللغة العربية ـ من «الجن» وهو لذلك «عفريت من الجن»، وهذا ما أراد القرآن التعبير عنه كما هو واضح بكل جلاء.

وأمـا قوله: **﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾**، فلا يعني: قبل أن تقف على رجليك ـ كما يزعمون. بل إن كلمة مقامك هنا تعني: المكان الذي كان سليمان قد ضرب فيه خيامه مع حاشيتـه وجنده، وهو في طريقه لملاقاة ملكة سبأ واستقبالها. وحيث أن هذا «العفريت» الرجل الشديد كان يمتلك الخبرة والقوة على صناعة هذا العرش في وقت يسير، بدليل قوله: «وإني عليه لقوي»، فقد قدم لسليمان عرضاً أن ينهي صناعة هذا العرش في وقت لايتعدى

---

(١) ـ راجع محيط المحيط ولسان العرب.

(٢) ـ راجع محيط المحيط وغيره من معاجم اللغة العربية.

الوقت المزمع لتحرك الملك سليمان من الموقع الذي أقام فيه، ولابد أن هذا الوقت كان معلوماً لهذا الرجل العفريت الشديد النافذ في الأمور.

وأما العرض الثاني الذي تلقاه النبي سليمان عليه السلام، فقد كان من «الذي عنده علم من الكتاب»، قال تعالى:

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾

(النمل: ٤٠)

يقول الزاعمون أن آصف بن برخيا الذي عنده علم بكتاب تسخير الجن هو الذي قدَّم هذا العرض، بحيث أن الجن المسخَّر قد مضى بأقل من لمح البصر إلى سبأ وأخذ عرش الملكة بلقيس من قصرها ثم عاد به في نفق من تحت الأرض وأحضره إلى سليمان قبل أن تطرف عينه.

لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

لو أن سليمان النبي قد سمح بهذا العمل لكان قد سَمَحَ بسرقة ما يملك الغير أو على الأقل أخْذِ مايملكون دون إذنهم ودون علـم منهم ، وحاشا لله أن تسمح أخلاق الأنبياء بذلك. ثم أين الدليل في هذه الخرافة؟

إن الآية الكـريمـة تتحـدث عن «علمٍ» وعن «كتـابٍ» وعن رجـل «عنـده علم من الكتاب»، فأي علم وأي كتاب يلزم لبناء عرش لاستقبال الملكة بلقيس؟

إذا وافقنـا على أنـه العلم بتسخير الجن، فهل كان في مملكة سليمان من هو أعلم منه بتسخيرهم، ألم يكن بإمكانه أن يأمر أسرعَ جنةٍ بإحضار العرش إليه مباشرة؟

إذن لابد أن يكون في الكتاب علم آخر، علم يدخل في حساب إمكانية صناعة العرش وإعداده في حدود الوقت المطلوب وهو قبل أن يأتوا مسلمين كما تقول الآية الكريمة.

ولكي نتمكن من فهم هذه الآية الكريمة لابد لنا من فهم معنى كلمة «طرفك».

جاء في مراجع اللغة العربية:

«الطرف: الرجل الكريم ومنتهى كل شيء. والمال الحديث»(١) ولاشك أن كلمة طرْف تعني أيضاً

(١) - راجع محيط المحيط والمعجم الوسيط.

طرْف العين، لكن الإشكال هنا هو أنه لايصح القول: «ارتد إلى فلان طرفه» إلا إذا كان طرفه بعيداً عنه ثم رجع إليه. وأما إذا أريد التعبير عن انطباق جفني العين، فيقال حينئذ: طرفت عين فلان أو: طرف فلان.

نعلم أن سليمان قد قال للهدهد «ضابط استطلاعه» إنه سيحقق في المعلومات التي جلبها إليه، وذلك في قوله له:

﴿سننظرُ أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾

وهذا لاشك في أنه يعني أن سليمان كان قد قرر أن يرسل من طرفه من يتحقق له من صحة تقرير الهدهد. ولما كان يصح في اللغة القول عن المراقبين والمخبرين عيوناً لقائدهم الذي يرسلهم في مهام محددة، فيقال قد بث الملك عيونه في البلاد أي أنه قد أرسل مراقبين ومخبرين ليعرفوا له حقائق الأمور، ولا يعني أنه قد أخرج عينية من رأسه وقذف بها بين الناس. وهذا معلوم بالبداهة.

إذن فقد كان «طرف» سليمان هو مبعوثه الذي بعثه لاستطلاع الأمر والتحقق من صحة المعلومات التي جاءه بها «الهدهد» عن سبأ وملكتها والقوم الذين فيها.

وهكذا يمكننا الآن فهم معنى:

﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾

بمعنى قبل أن يعود إليك مبعوثك الذي بعثته إلى سبأ، والذي كان لابد أن يرجع قبل أن تأتي الملكة ومن معها.

ولكن يبقى السؤال: ماهو العلم الذي لدى هذا الرجل وما هو الكتاب الذي لديه علم منه؟

إن إنجاز أي مشروع في دولة أو مملكة يتتطلب أول مايتطلب معرفة الإمكانيات المادية المتوفرة لإنجاز هذا المشروع وإلا فإنه لايمكن إنجازه. وبما أن كلمة «الطرْف» تعني أيضاً المال الجديد المستحدث، فهذا يشير إلى أن الذي عنده علم من الكتاب ربما كان وزير المالية أو مسؤول خزينة الملك سليمان والذي كان جوابه لسليمان أنه بعد اطلاعه على سجل الخزينة فقد وجد أن مافيها من مخصصات لمثل هذه المشاريع يكفي قبل إيداع مال جديد من

عائدات المملكة فيها، ولذلك فقد كان هذا ـ الذي عنده علم بإمكانيات خزينة المملكة ـ جاهزاً ومستعداً للعمل المطلوب تنفيذه مباشرة ودون أدنى إبطاء.

إذن تلقّى سليمان عليه السلام عرضين: كان أولهما من جهة التنفيذ، والثاني من جهة التمويل، وهذا هو ما كان بحاجة إلى بحثه ومعرفته.

أما أن يكون العرض هو سرقة عرش ملكة سبأ وإحضاره من اليمن إلى فلسطين بأقل من لمح البصر فهذا ما لايقول به القرآن الكريم ولايقبل به عقل ولا منطق.

ومن الدلائل على أن الإتيان بعرش بلقيس، ليس فيه آية ولا إعجاز وإنما كان فضلاً من الله عزوجل على سليمان، هو أن سليمان بدل أن يقول ـ بعد أن تم له الأمر ـ: «هذه آية من ربي»، نجده يقول: «هذا فضل من ربي»، وهي الحقيقة التي بيّنها ربنا تبارك وتعالى في قوله:

﴿فلما رآه مستقراً عنده، قال: هذا فضل من رب ليبلوني أأشكُر أم أكفر﴾
(النمل: ٤٠)

الغاية من استحضار الملكة بلقيس إلى مملكة سليمان عليه السلام:

وأمـا عن الغاية التي قصد النبي سليمان عليه السلام استقدام ملكة سبأ من أجلها، فيمكن تلخيصها بما يلي:

علِمَ سليمان عليه السلام أن ملكة سبأ وقومها كانوا يعبدون الشمس والنجوم من دون الله، رغم اشتهـار الملكة بحكمتها ورجاحة عقلها، ورغم اشتهار شـعبها بالرقي والقوة والثراء. فأراد، عليه السلام، أن يلفت نظرها إلى حقيقة التوحيد وأنّ لله وحده حق العبادة لأن كل عطاء وقوة إنما يكون من عنده وحده عزوجل. وبما أنه كان لملكة سبأ عرش تتباهى به، فقد أراد أن يبين لها أن الله قد أعطاه أبهى وأعظم مما أعطاها فيلفت بذلك نظرها إلى عظمـة عطاء الله عزوجل. ثم أراد أن يلفت نظرها إلى أنّ عليها أن لا تنخدع بالمظاهر الكونية الرائعة كالشمس والنجوم وغيرها، فتعبدها من دون الله معتقدةً أن الجمال والبهاء والعظمة منها. لذلك بنى لها صرحاً ممرداً من زجاج وأجرى من تحته الماء حتى ليخيَّل للرائي أن ما يراه إنما هو لجة ماء منساب، ويعجز عن رؤية الزجاج الذي يجري من تحته الماء، وبهذا يتم البرهان على أن الإنسان قد يخونه نظره وتخونه رؤيته للأمور والحقائق فلا يرى إلا الظاهر

للحواس فيتوه عن معرفة الخالق الذي يتجلى من وراء كل عظَمةٍ وروعة وبيان.

كان هذا ماأراد سليمان عليه السلام بيانه لملكة سبأ وتقديم البرهان عليه، فكان أول أمرٍ أمَرَ عمّاله وفنّانيه أن يعملوه هو أن يجعلوا عرش استقبالها عظيماً جداً بحيث يبدو عرشها الذي كانت تتباهى به نَكِرة أمام العرش الذي هيّأه هو لها، وبذلك تُدرك عظمة ما أعطاه الله من ثراء وقدرات، ولذلك قال:

﴿نكّروا لها عرشَها﴾

إن كلمة عرشها تشير إلى عرشها الذي اعتادت أن تجلس عليه في مملكتها، والمعنى: اجعلوا من عرشها نَكِرة أمام العرش الذي ستصنعونه لاستقبالها للجلوس عليه، وبذلك تُدرِك عظمة عطاء الله لنا.

وأما قوله:

﴿ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

أي لنرى إن كانت ستدرك عظمة عطاء الله لنا فتهتدي إلى الإله الحق الذي نعبده موحدين. جاء في القرآن الكريم:

﴿قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾

(النمل: ٤١)

﴿قيل ادخلي الصرحَ فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لرب العالمين﴾

(النمل: ٤٠)

ذكر بعض المفسرين أن الجن أخبرت سليمان عليه السلام أن الملكة بلقيس، بالرغم من جمالها، فإن ساقيها كانتا تشبه ساقي الماعز، فأراد أن يتأكد من ذلك بنفسه فعمد إلى حيلة الصرح الممرد فأمر ببنائه وحين طلب إليها دخوله وهو جالس على عرشه يرقب ويلاحظ تصرفاتها، نظرت هي فاعتقدت خطأً أنه لجّة، فكشفت عن ساقيها لتخوضه فنظر سليمان عليه السلام إلى ساقيها فوجد أنهما عاديتان ولكنهما مكسوتان بالشعر، فأمر الجن فصنعوا له مزيل الشعر، فأعطوه لها ثم أسلمت وتزوجها»[1].

(١) ـ راجع «المفهوم الإسلامي الصحيح للجن والشياطين» للأستاذ نذير مرادني في نقده لخطأ المفسرين كما ورد في تفسير ابن كثير.

لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

لاريب في أن الحق والحقيقـة غير ذلك، وهي أن سليمان عليه السلام أراد أن يبرهن للملكة بلقيس على خطأ الأخذ بظاهر العلم وظاهر الرؤية إذ لابد من التفكر بأن جميع ما يحيط بنا من مخلوقات إنما يستمد قوته وأثره من الله عزوجل فالله هو الذي نوّر الشمس ورصّع السماء بالنجـوم ومـد الأرض ورفع السماء، وهو الذي أنزل الماء وأحيا الأرض، وخلق الإنسان. . وهو الأول والآخر والظاهر والباطن. . وهو بكل شيء محيط. ولذلك فإن الملكة بلقيس اضطربت واحتارت وأبدت عجزها من الناحية الدنيوية المادية حيال عظمة العرش الذي استقبلها لتجلس عليه، ومن الناحية الدينية الروحية حين اكتشفت حقيقة عجزها عن إدراك الحقائق بظاهر الرؤية.

وهذا هو معنى كشفت عن ساقيها. حيث يقال في مصطلح اللغة العربية: «كشف عن ساقه» لمن أبدى حيرته واضطرابه وعجزه أمام أمر ما[1].

ويؤكد القرآن الكريم إبداء الملكةبلقيس لعجزها أمام البرهان الذي قدمه لها سليمان عليه السلام حيث قال لها:

﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾

فجاء ردُّها المباشر في قولها:

﴿رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان لرب العالمين﴾

(النمل: ٤٤)

مما يؤكد أنه كان فيما عمل سليمان عليه السلام دعوة عظيمة للإيمان والتوحيد فنجح سعيه ودخلتْ ملكةٌ وشعبُها في دين الله الواحد، وصاروا مسلمين.

قصة هاروت وماروت:

حين عزمتُ، بفضل الله تعالى، على عمل هذا الكتاب، لم أكن أقصد أن أجعله شاملاً أو مطولاً، بل كان غرضي بيان مفاتيح الفهم لحقائق ما يسمى بالجن والشياطين. ولكن أثناء

---

(١) - راجع لسان العرب وموسوعة لين.

العمل والمتابعة، تبين لي أن ثمة الكثير من الأمور المتعلقة بهذا البحث وتشغل أذهان معظم الناس، فوجدت أنني مضطر إلى بيان ما أمكن من هذه الأمور فلعلني أتمكن بفضل الله تعالى وعونه من تقديم البيان الحق في مواجه كل خرافة أو جهالة شائعة في الناس لسبب أو لآخر. ولذلك فقد وجدتني مضطراً للبحث في بيان الحقيقة المتعلقة بقصة هاروت وماروت التي وردت في سورة البقرة في القرآن الكريم، والتي نسج كثير من الناس حولها الكثير من الخرافات.

تعلمون أن القرآن الكريم قد ذكر الكثير من قصص الأولين لحكمة البيان والتعليم وأخْذِ العبرة من أحداث ونتائج من سبق من الأمم، قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾

(يوسف: ١١١)

ومن هذا نفهم لِمَ أن القرآن الكريم كان ولايزال يلفت نظر الناس إلى التاريخ في أكثر من موضع. وقد جاء القرآن المجيد بقصة هاروت وماروت من باب تذكير الناس وخاصة اليهود بتاريخ معين كما سنجد حين شرحها وبيان الحقائق التي جاءت فيها. ولكن قبل البدء في البيان لابد من أن نذكر باختصار شديد بعض ما جاء من خرافات وجهالات نسجها النساجون حول هذه الآية الكريمة.

قالوا إن هاروت وماروت هما ملكان احتجا على الله عزوجل في أن البشر لكثرة ما يرتكبون من آثام وأخطاء ليسوا جديرين بحلم الله تعالى وصبره عليهم، فقال لهم الله سبحانه وتعالى: لو أن الملائكة كانوا يملكون ما يملك البشر من الغرائز والرغبات لارتكبوا نفس الآثام والأخطاء.

فاعترض الملكان هاروت وماروت، وقالا إنهما على استعداد أن يبرهنا على قدرتهما على الإلتزام بأوامر الله تعالى وعدم ارتكاب الأخطاء والآثام. فخلق الله فيهما ماخلق في البشر من غرائز وشهوات وأنزلهما إلى الأرض ليحكما بين الناس، ويعلّما السحر لمن يريد ولكن بعد تحذيره من أنه لاينبغي تعلم السحر لأنه فتنة يفتن الناس ويدفعهم إلى فعل الشر.

ويتابع هؤلاء تأليفاتهم فيقولون:

وبدأ الملكان هاروت وماروت يحكمان بين الناس بالحق ويعبدان الله تعالى بكل تقوى

وإخلاص إلى أن جاء يوم ودخلت فيه عليهما غادة حسناء تخلب اللّب جاءتهما ليقضيا في قضية لها، فسحرتْهما بحسنها فراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يقتلا شخصاً من الناس أولاً أو يشربا الخمر، فقالا إن القتل جريمة كبرى، ولكنهما انصاعا لها فشربا الخمر، وبعد أن سكرا وغاب رشدهما ارتكبا أيضاً جريمة القتل كما طلبت الحسناء منهما، ثم ارتكبا بعد ذلك الفاحشة معها، وبهذا فقد ارتكب هذان الملكان الموبقات كلّها حال نزولهما إلى الأرض وفيهما غرائز وشهوات البشر. ولذلك فقد حكم الله عليهما أن يُعلَّقا بين السماء والأرض في تعذيب مستمر حتى تقوم الساعة(١).

لاشك أن مثل هذه الرواية أنّى كان مصدرها إنما تكون خرافة محضة لايمكن أن ترقى إلى بيان القرآن الكريم في حال من الأحوال.

ونعود إلى الآية الكريمة حيث قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿واتّبَعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلّمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلّمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾

(البقرة: ١٠٣)

عندما تبين لليهود أن قوة الإسلام كانت تتنامى باستمرار وأن المعارضة له في الجزيرة العربية قد كُسرت تماماً، أدركوا أنهم لم يقدروا على إيقاف الإسلام أو إعاقة تقدمه. عند ذلك جدُّوا في السعي لتحريض القوى الخارجية ضده، ولأنهم كانوا مضطهدين من قِبل الحكام المسيحيين في البلاد التي كانوايعيشون فيها، فقد لجأوا إلى فارس ونقلوا مركز نشاطهم «الديني» إلى بيبلونا(٢). ثم بدؤوا وبالتدريج يمارسون أثراً عظيماً في بلاط ملوك الفرس، وبدؤوا يخططون ويمكرون للقضاء على الإسلام.

(١) ـ وجاء في رواية أنهما عبدا الصنم أيضاً، راجع في ذلك التفسير الكبير ج ٣ ص ٢١٩ للإمام الرازي.

(٢) ـ تاريخ الأمم ص ٥٥٠ لـ «هيتشنسون».

وعندما استلم كسرى الثاني رسالة من الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوه فيها إلى قبول الإسلام، نجح اليهود في تحريضه على إصدار أوامره إلى (بآذان) حاكم اليمن ـ التي كانت عندئذ ولاية تابعة للفرس ـ بأن يلقي القبض على محمد ويرسله مقيداً بالسلاسل إليه.

وتشير هذه الآية إلى التاريخ القديم لليهود في المكر والتآمر وتلفت نظرهم إلى الممارسات الأولى لأجدادهم في تأسيس المنظمات السرية، حيث اتّهم بعضُ أجدادهم سليمانَ عليه السلام بالكفر[١] متتبعين بذلك وسوسات شياطينهم، ولذلك فقد عمدوا إلى تأسيس هذه المنظمات السرية لتقويض مملكة سليمان. وذكرت التوراة أنهم كانوا يعلّمون الأعضاء الجدد في منظماتهم اتخاذ علامات وشارات ورموز ذات دلالات مختلفة يتعارفون فيها بينهم[٢]، حتى يتمكنوا من الإستمرار بدأبهم الشرير لتقويض امبراطورية سليمان وتمزيقها، وقد كانوا بهذه الأعمال هم الشياطين الذين تلوا على ملك سليمان أي: افتروا عليه[٣].

كما ويذكر التاريخ مناسبة ثانية لجأ فيها اليهود إلى تأسيس منظمات سرية كانت خلال أسْرِهم في بابل زمن الملك نبوخذ نصّر. وتذكر التوراة أن قدِّيسين هما: «حجاي» النبي و «زكريا بن عدو»[٤] قد عملا بتعليم من الله على تأسيس منظمةٍ الغايةُ منها تمزيق وكسر مجد قوة أعداء بني اسرائيل، وكان هذان الرجلان الصالحان قد حصرا العضوية بالذكور فقط، وكانا يخبران الأعضاء الجدد أنهما كانا نوعاً من الإبتلاء لإيمان الناس وأن على بني إسرائيل ألا يرفضوا سعي هذين القديسين لخلاص بني إسرائيل وألّا يكفروا بهما، ولذلك فقد كانا يقولان: «إنما نحن فتنة فلا تكفر»، كانا يعلمان الناس التمييز بين الصالحات والسيئات كي لاينخدع الناس بالممارسات المضللة.

وعندما تسلّم قورش ملك ميديا وفارس السلطة، دخل الإسرائيليون في معاهدة سرية معه مما سهّل إلى حد بعيد تغلبه على بابل، ومكافأة لهم على هذه الخدمة فإنه لم يسمح لهم بالعودة إلى القدس فحسب، بل ساعدهم أيضاً في بناء معبد سليمان[٥].

---

(١) ـ راجع سفر الملوك وقصة سليمان في الكتاب المقدس.

(٢) ـ لربما كانت تلك المنظمات السرية تشكل بذرة الماسونية الأولى.

(٣) ـ راجع التفسير الكبير للرازي ومراجع اللغة العربية.

(٤) ـ راجع سفر عزرا ٥ : ١.

(٥) ـ تاريخ مؤرخي العالم ج ٢ ص ١٢٦.

إذن تشير الآية الكريمة إلى مناسبتين سابقتين قام فيهما اليهود قديماً بتأسيس منظمات سرية. كانت الغاية في المرة الأولى هي تمزيق وكسر مملكة سليمان، وقد فشلوا في ذلك وأما في المرة الثانية، فقد كانت الغاية تمزيق وكسر قوى خصوم بني إسرائيل حين أبرموا معاهدة مع الملك قورش وقد نجحوا فيها.

إن كلمة «هاروت»(١) مشتقة من الفعل «هرت» ويعني: مزّق، وأما كلمة «ماروت» فهي مشتقة من الفعل «مرت» والذي يعني: كسر. وهكذا فإن هاروت وماروت إنما هما إسمان وصفيان ينمان عن الغاية من تأسيس المنظمات السرية التي أسسها اليهود قديماً، كما وتشير إلى أن اليهود في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا لايزالون يسعون إلى اتباع نفس أساليب أجدادهم القدماء في التآمر والمكر والتفريق بين الناس، باستعمال سياسة فرّق تسد الشهيرة.

وتقول الآية الكريمة هنا: أن اليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتّبعون نفس الأسلوب الذي اتبعه أجدادهم للقضاء على مملكة سليمان حيث اتّهم الكفرةُ منهم سليمان بالكفر، قال تعالى:

﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾

إن التعبير: «يتلو على فلان» في اللغة العربية يعني: يفتري عليه كذباً(٢). وقال فخر الرازي: «تلا عليه إذا كذب».

إذن المعنى هنا هو أن اليهود قد اتّبعوا ما افترت الشياطين على ملك سليمان بأنه كفر(٣). ويقول تعالى:

﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾

وبما أن اليهود قد كذّبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا يعني أنهم افتروا عليه الكذب وبالتالي اتهموه بالكفر لزعمهم أنه يفتري على الله الكذب بادعائه النبوة كاذباً. ولذلك فإن الآية الكريمة هنا تبين أن أسلوبهم هذا ليس جديداً وإنما هو قديم ومكشوف.

---

(١) - راجع لسان العرب وأقرب الموارد وموسوعة لين في اللغة العربية.

(٢) - راجع التفسير الكبير للإمام فخر الرازي، وتاج العروس.

(٣) - راجع سفر الملوك قصة سليمان.

جاء في التفسير الكبير:

«إن ملك سليمان هو النبوة»

وهذا يعني أن شياطين الكفر من اليهود قد افتروا كذباً على نبوة سليمان وأن أحفادهم من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتّبعوا نفس الأسلوب بالكفر في تكفيرهم وتكذيبهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾

قال الإمام فخر الدين الرازي في التفسيرالكبير(١):

«اعلم أن لفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويُتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع»

وجاء في موسوعة لين أن السحر هو: إخراج ما هو زائف بشكل حقيقة. كما وتبين مراجع اللغة العربية أن كل زيف وخداع وأي عمل خادع ماكر يقصد إلى إخفاء الهدف الحقيقي عن نظر الناس يمكن إدخاله في مفهوم السحر.

من هذا نستطيع أن نفهم أن تعليم شياطين الكفر السحر للناس إنما كان القصد منه التمويه والخداع والتضليل وإخفاء الحقائق عن الناس وإظهار الأباطيل على أنها حقائق.

وهذا هو المقصود بتعليمهم الناس السحر، أي تعليمهم كيفية إظهار الباطل حقاً بالمكر والتزييف والخداع.

﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾

إن كلمة الملكين هنا تشير إلى رجلين صالحين(٢) جاء في سورة يوسف:

﴿وقلن حاش لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم﴾ (يوسف: ٣١)

أي أنه يمكن وصف الإنسان بالمَلَك لاعتبارات معينة. كما ويدل على أن هذين الملكين كانا بشراً ذِكْر الآية الكريمة لحقيقة مخالطتهما وتعليمهما للناس في حين أن القرآن الكريم

(١) ـ الصفحة ٢٠٥ ج ٣ المجلد الثاني.

(٢) ـ جاء في التفسير الكبير: «قرأ الحسن (ملِكين) بكسر اللام وهو مروي أيضاً عن الضحاك وابن عباس. وقيل كانا رجلين صالحين من الملوك» ج ٣ ص ٢١٨.

قد بيّن أن الملائكة إذا نزلوا الأرض لايكونون منظرين هكذا بشكل عادي كالمألوفين للناس. قال تعالى:

﴿ما ننزّل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً مُنظرين﴾

(الحجر: ٨)

تبين هذه الآية الكريمة أن الملائكة لا ينزلون إلا بالحق وأنهم حين ينزلون لا يكونون مُنظرين يشهدهم الناس ويعاشرونهم كما يعاشرون بعضهم بعضاً[١].

إذن نستطيع القول إن هاروت وماروت كانا رجلين صالحين كلّفهما الله عزوجل بتعليم معين، ودليل هذا التكليف هو قوله عزوجل في هذه الآية: ﴿وما أُنزل﴾ على الملكين وهذا يعني أن الله قد أنزل على هذين الرجلين تعليماً[٢] معيّناً، وأما الملائكة فلا ينزّل الله عليهم تعليماً بل يأمرهم أمراً بدليل قوله عزوجل:

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾

(التحريم: ٦)

وهكذا نستطيع أن نفهم أن الآية الكريمة تبيّن أن اليهود اتّبعواماافترى كفرة الشياطين على نبوة سليمان وماافتروه أيضاً على ما أُنزل على هاروت وماروت من تعليم قال الإمام فخر الرازي:

«أي اتّبعُوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وما أُنزل على الملكين».

(الجزء الثالث: ص ٢١٧)

وقد أثبت الإمام الرازي أن ماأُنزل على الملكين إنما هو الشرع والدين فقال:

«.. وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير وإنما كانا يعلّمان الناس ذلك»

(ج ٣ ص ٢١٨ المجلد ٢)

وأورد العلامة الإمام الرازي وجهاً ثانياً لتفسير هذه الآية، فقال:

---

(١) - نقل الرازي رأياً قال: «كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لاينظرون﴾ ج ٣ ص ٢١٩.

(٢) - يؤكد الإمام الرازي بطلان الزعم أن يكون هاروت وماروت ملكين عصيا الله فيقول إن ذلك غير مقبول بدليل: «عصمة الملائكة عن كل المعاصي» ج ٣ ص ٢٢٠.

«الوجه الثاني: أن تكون (ما) بمعنى الجحد ويكون معطوفاً على قوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ كأنه قال: لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين سحر لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان وتزعم أنه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فردّ الله عليهم في القولين، وقوله: ﴿وما يعلمان من أحد﴾ جحدٌ أيضاً أي: لا يعلمان أحداً بل ينهيان أشدّ النهي»(١).

ويتابع الرازي فيقول:

«أما قوله تعالى: ﴿حتى يقولا إنما نحن فتنة﴾ أي ابتلاء وامتحان فلا تكفر، وهو كقولك: ماأمرتُ فلاناً بكذا حتى قلتَ له: إن فعلتَ كذا نالك كذا، أي ماأمرتُ به، بل حذّرته عنه»(٢).

ثم يبيّن الإمام الرازي أن التعليم والتعريف بصفة شيءٍ ما يكون لإحدى غايتين: إما الترغيب على العمل به أو لاجتنابه يقول:

«تعريف صفة الشيء، قد يكون لأجل الترغيب في إدخاله في الوجود، وقد يكون لأجل أن يقع الإحتراز عنه كما قال الشاعر: (عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيه)»(٣).

إذن كان ثمة تعليمان للسحر: تعليم من جهة شياطين الكفر الذين افتروا على مُلك سليمان وصاروا يعلمون الناس أساليب المكر والخداع وتزييف الحقائق وإظهار الباطل على أنه حق، وتعليم آخر للسحر كان من جهة الرجلين الصالحين هاروت وماروت اللذين أنزل الله عليهما تعليماً فصارا يعلّمان الناس كيفية كشف أساليب الخداع والمكر وتزييف الحق والسحر لا لكي يمارسه الناس ولكن حتى يقوا أنفسهم من شرور السحرة والمزيفين. كما كان هاروت وماروت يعلّمان الناس كيف يمكن التفريق بين الناس، وهي سياسة «فرق تسد» التي اتبعها شياطين الكفر من اليهود لتدمير خصومهم، فكان لابد من تعلّم أساليب هذه السياسة حتى لايقع المؤمنون في براثن شرورها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾

إن من يستطيع التفريق بين المرء وزوجه يمكنه من باب أولى أن يفرّق بين كل اثنين وبين المرء وأصدقائه ومعارفه وقومه. . . الخ، وهكذا فإن سياسة «فرّق تسد» إنما هي سياسة قديمة يتّبعها اليهود منذ قديم الزمان وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة، وتبين أن هاروت

---

(١) - التفسير الكبير، ج ٣ المجلد الثاني ص ٢١٨.

(٢) - نفس المرجع والصفحة.

(٣) - نفس المرجع والصفحة.

وماروت كانا يعلّمان الناس أساليب هذه السياسة لحماية أنفسهم من أشرار شياطين وكفار اليهود الذين كانوا يعملون بهذه السياسة لتدمير الدول والممالك والقضاء على الشعوب.

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾

تؤكد هذه الآية هنا حقيقة أنه: (لايحيق المكر السيء إلا بأهله)، وأن مكر اليهود في المدينة والجزيرة العربية واتّباعهم لأساليب أجدادهم بغية تقويض دعائم الإسلام لن ينجح وأنه سيعود عليهم هم أنفسهم بضرر بالغ.

وهـذا ما حدث لليهود زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انكشف أمرهم وباؤوا بغضب الله تعالى وبالفشل المبين.

وهكذا فقد ألقت هذه الآية الكريمة بشكل إعجازي الضوء على تاريخ اليهود الحافل بالمكر والتآمر والخداع وتأسيس المنظمات السرية العاملة بسياسة «فرق تسد» المشهورة عنهم وذلك بغية تقويض أركان الممالك والدول وإبادة الشعوب لصالح كفرهم وأطماعهم وشهوة التسلط على الناس والتحكم بهم وبما يملكون من كنوز وقدرات[1].

إن الدراسة الدقيقة المتأنّية لهذه الآية الكريمة تثبت هذا الفهم ببيان رائع معجز مبين.

وختاماً لقصة سليمان عليه السلام لابد من ذكر بيان قصة:

موت الملك سليمان عليه السلام:

قال المفسرون في موت سليمان عليه السلام عجائب كثيرة، منها أنه مات واقفاً متكئاً على عصاه وهو يشرف على أعمال البناء التي كان ينفّذها الجن له، وبقي كذلك واقفاً ميتاً مدة سنة كاملة حتى أكلت الأرضة عصاه ونخرت خشبها فسقط على الأرض ميتاً حين لم تعد عصاه قادرة على دعم جسده[2].

ويستدل هؤلاء المفسرون على فهمهم هذا بقول الله تعالى عن سليمان عليه السلام:

---

(١) - من المفيد مراجعة «بروتوكولات حكماء صهيون» إذ يتبين أن القرآن قد كشف أساليب اليهود في التخطيط والتآمر قبل اكتشاف العالم لها.

(٢) - راجع قصص الأنبياء للنجار والتفسير الكبير وغيره من التفاسير.

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾

(سبأ: ١٤)

وذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار المدرس في كلية أصول الدين في القاهرة في كتابه «قصص الأنبياء» روايات مختلفة عن المفسرين، وقال إنهم يؤوّلون هذه الآية تأويلات عجيبة، وأن كل ماجاء في هذا الباب أحاديث منكرة[1]. ثم يتابع فيقول: إن ابن كثير يظن أن هذه الروايات مما يقوله أهل الكتاب.

وأما عن الزعم بأن سليمان عليه السلام قد ظل واقفاً ميتاً متكئاً على عصاه مدة سنة كاملة، يورد الأستاذ النجار تحليلاً للرواية الواردة في ابن كثير في هذا الشأن فيقول:

«ونحن إذا نظرنا إلى متن الحديث وجدناه مضطرباً ومخالفاً لسنة الأنبياء وخصوصاً في عهد بني اسرائيل، إذ شريعتهم تقضي على كل اسرائيلي أن يأتي في العيد ويقرّب القرابين ويقوم بالطقوس الدينية، وسليمان شريعته التي يتبعها هي التوراة التي جاء بها موسى وليس له شريعة سواها.

وغير معقول أن يكون سليمان النبي الكريم هو الذي يخالف الشريعة ويمكث في محرابه دون أن يقوم بالمراسيم التي أوجبتها التوراة على كل اسرائيلي، فيغيب عنها في وقت يقوم بها الرؤساء والسوقة. وإذا فعل فيكون قد سن لبني إسرائيل سنّة سيئة تجرّىء سواه على مخالفة الشريعة التي أمر الله بني إسرائيل بحفظها وعدم الإخلال بها. ومعلوم أن اليهود في عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام وأن لا يُرى الخمير في جميع تخومهم، فإذا كان سليمان قد مكث ميّتاً سنة، أفما كان له زوجة تسأل عنه وتبعث له بالفطير الواجب في الفصح فتعلم أنه ميّت وعنده ألف امرأة»؟!.

ثم يستشهد الأستاذ النجّار بسفر التثنية الإصحاح /١٦/ الفصل /١٦/، حيث جاء:

«ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال، ولايحضرون أمام الرب فارغين».

ويتابع بعد ذلك تحليله فيقول:

«فمن الذي يقوم بتلك المراسيم عن سليمان والله لم يسنّ لهم البدل؟ ثم إن سليمان بمقتضى مركز الملك الذي يشغله عليه مسؤولية إقامة العدل بين الناس ـ كما كان يفعل داود ـ . . . . وهو أيضاً بمقتضى منصبه الملكي تأتيه الوفود من الملوك ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم. فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقي سنة كاملة لايعلم بموته أحد ويُهمل إهمالاً لايهمله أحد من السوقة!».

---

(١) ـ الصفحة ٣٣٧.

إن هذا التحليل المتفكر يبيّن كيف أنه يستحيل قبول خرافة أن سليمان عليه السلام قد مات واقفاً متكئاً على عصاه مدة سنة كاملة.

إذن ما هو التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة؟

كي نستطيع فهم هذه الآية الكريمة لابد من تبيّن معاني المفردات التي وردت فيها بشكل دقيق.

إن كلمة «دابة» يمكن أن تطلق على كل مخلوق يدبُّ على الأرض كما هو معلوم ومنهم الناس، قال تعالى:

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون﴾

(الأنفال: ٨)

وإذا كان معنى «الدابة» هو ما يدب على الأرض فما الغرض من وصف الدابة بـ «الأرض» فتكون: «دابة الأرض» كما جاء في قوله عزوجل:

﴿ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾

إن كلمة الأرض هنا ترمز إلى اتّباع الهوى على حسب ما يبيّن لنا القرآن الكريم، قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين* ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾

(الأعراف: ١٧٦)

إذن يمكننا وبحسب القرآن الكريم أن نطلق على الذين يتّبعون أهواءهم مُخْلِدين إلى الأرض لفظَ دابة الأرض.

وأما عن كلمة «منسأة» التي وردت في الآية الكريمة فهي في اللغة العربية تعني «العصا». وإن كلمة العصا في مراجع اللغة العربية تعني جماعة الناس والطاعة والمُلك، ولذلك يقولون شق عصا الملك أي خالف الملك، وشق العصا أي خالف الجماعة[1].

وجاء في محيط المحيط أن «العصا» تعني جماعة الإسلام، أي إذا كان ثمة مُلك فـ

(٢) ـ راجع المعجم الوسيط، ومحيط المحيط، ولسان العرب.

«العصا» تعني: جماعة المُلك: أي حاشية المَلِك.

وهكذا إذا قلنا أن عصا الملك في مملكة كذا كانت فاسدة أو هشة، فالمعنى عندئذ يدل على أن حاشية الملك ورجالات ملكه كانوا ضعفاء فاسدين.

لقد كان سليمان مِلكاً قوياً مهيب الجانب مؤيداً بقوة من الله عزوجل، ولكن بعد موته خَلَفه ابنه «رحب عام» الذي كان ضعيفاً متّبعاً لهواه كما يبين الكتاب المقدس[1] مما أدى إلى انهيار مملكة أبيه سليمان وتمزّقها.

إلى هذه الحقيقة تشير الآية الكريمة، وتوضح بأن موت سليمان الحقيقي لم يكن يوم موته، وإنما كان حين تبين لمن كان في سلطانه وتحت حكمه انهيار قوة مملكته بسبب اتباع ابنه «خليفته» لهواه مما أدى إلى أن تأكل الحاشية في الملك، وعند ذلك فقط تبين لرجالات المملكة ومن كان في ملك سليمان من الغرباء أن سليمان قد خرّ[2] ومات، وأنه كان بإمكانهم ترك الأعمال المكلّفين بها ومغادرة المملكة عائدين إلى بلادهم. وهذا ما حصل، إذ تم إطلاق سراح هؤلاء الجن الغرباء والشياطين من الأسرى فتفرّقوا كلٌ إلى بلده وقومه وهم غير مصدقين بما آل إليه ملك سليمان العظيم[3].

وهكذا نجد في بيان القرآن الكريم أن الحديث عن الجن والشياطين لم يكن حديثاً عن أشباح ولا أرواح وإنما كان بياناً ربانياً دقيقاً مفصلاً يتحدث عن واقع الحياة والناس ويلفت النظر إلى حقائق شديدة الصلة والأثر على الإنسان الفرد والناس عموماً.

واستكمالاً منا لهذا البحث وتأكيد على أنه لا مجال للخرافة والخيال في كتاب الله المجيد، سنعمد بعون الله تعالى إلى رصد ما يلزم من الآيات التي جاء فيها ذِكر الجن والشياطين لبيان مفادها والمعنى المقصود فيها على ضوء الحقائق التي توصلنا، بفضل الله تعالى، إليها في هذا الفصل.

وبعون الله نتابع.

---

(١) - راجع سفر الملوك الثالث الفصول ٢١، ١٣، ١٤ وكذلك الموسوعة اليهودية تحت «ريهوبيم».

(٢) - خرّ الرجل: أي مات - راجع لسان العرب.

(٣) - راجع «المفهوم الصحيح للجن والشياطين حسب بيان القرآن المجيد» للأستاذ نذير المرادني.

الفصل التاسع

تفصيل الآيات في الجن والشياطين

بعد أن تبين لنا فيما قدّمنا من بيان في هذا الكتاب، يمكننا الآن أن نفهم بسهولة أكثر حقيقة المعاني الواردة في آيات القرآن الكريم والتي جاء فيها ذكر للجن أو الشياطين.

ونبدأ بتفصيل البيان في:

الآيات التي جاء فيها ذكر الجن:

إن آيات القرآن الكريم عموماً حين تذكر الجن في مقابلة الإنس فإنها تعني كبار الناس من القادة والزعماء والأثرياء وأصحاب القدرات والنفوذ والسلطان. ولاشك أن جميع هذه المعاني قد وردت في كتب اللغة العربية ومعاجمها، يعني أنها جميعاً صحيحة سليمة ولايمكن لأحد الطعن فيها، وقد أثبتنا ذلك في الفصول السابقة من المراجع المعنية الموثّقة.

ونبدأ بقول الله عزوجل:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

(الذاريات: ٥٦)

تبين هذه الآية الكريمة أن الله عزوجل لم يخلق الناس، سواء عظماءهم من ذوي السلطان والنفوذ والثراء، أو بسطاءهم من الناس العاديين، إلا لغاية واحدة، وهي أن يعبدوه. ولكن ما معنى أن يعبدوه عزوجل؟

إن الأهمية الأولى لكلمة «عبادة»، هي أن يُخضع الإنسان نفسه إلى تدريب وتهذيب روحي صارم شديد، عاملاً بكل ما أوتي من طاقات وقدرات، وعلى أوسع مدى ممكن، وبالتوافق والإنسجام مع الطاعة الخالصة لأوامر الله عزوجل وذلك بغية أن يتلقى الأثر الإلهي فيتمكن من أن يجلّي في ذاته صفات الله تعالى، وأن يستفيد مما وهبه الله من صفات غَرسها في طبيعته البشرية للبحث عن الله عزوجل ومعرفته حق المعرفة، فيدرك بهذه المعرفة

حقيقة أن عليه أن يسلم نفسه إليه كاملاً موحداً. بذلك تتحقق فيه الغاية من خلقه في أن يكون خليفة الله تبارك وتعالى في الأرض(١) وبذلك يكون خيراً عمياً على البشرية وخلق الله جميعاً.

وجاء في سورة الأنعام ١١٢ قول ربنا عزوجل:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾

تبين هذه الآية الكريمة أنه كلما أرسل الله تعالى نبياً يدعو الناس إلى الله عزوجل فإن شياطين الكفر من جماهير الناس وعامتهم، وكذلك من كبارهم وزعمائهم سرعان ما يشنُّون حملة عداء لهذا النبي كما ويضلل بعضهم بعضاً بما يوحي بعضهم إلى بعض بالكلام المزخرف المنمّق الذي يملأ صدورهم وعقولهم بالتعالي والغرور.

وكذلك في سورة الأنعام ١٠٠ نقرأ قول الله عزوجل:

﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم﴾

تبينّ هذه الآية الكريمة كيف أن الناس يتخذون عظماءهم وسادتهم وكبراءهم شركاء لله سبحانه وتعالى. وهذه حقيقة يشهد عليها التاريخ والمجتمعات البشرية في كل مكان، إلا من آمن بالله ورسله. كما وتبين هذه الآية ضلال من يتخذ كبراء الناس شركاء لله تعالى، في قوله هنا:

﴿وخلقهم﴾، أي كيف يكون هؤلاء شركاء لله وهو خلقهم، فأين العقل وأين التفكّر في ذلك؟

ومعنى اتخاذهم شركاء لله هنا، هو أنهم يضعونهم في اعتبارهم في موضع الذي ينفع ويضر فيطيعونهم في كل حق وباطل خوف أن يضروهم أو رجاء أن ينفعوهم، وبذلك يجعلونهم شركاء لله.

وجاء في القرآن الكريم بيان لجزاء كبراء الناس، أي الجن منهم، مع العاديين والذين هم «الإنس» تأكيداً بأنه لاينجو من حساب الله عزوجل أحد من الناس مهما كان شأنه صغيراً

---

(١) - راجع التفسير الصغير للإمام بشيرالدين محمود أحمد.

أم كبيراً، عظيماً أم حقيراً، قال تعالى:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾

(الأنعام: ١٧٩)

فهاهم كبار الناس وبسطاؤهم، الأسياد وأتباعهم في جهنم بعضهم مع بعض، وقد كان جرمهم أنهم قد كفروا بالله تعالى ورسله بسبب أن الله قد جعل لهم عقولاً ولكن لم يتفكّروا ولم يفقهوا بها، وكذلك جعل لهم أعيناً ليبصروا بها حقائق بيان الله وصدق دعوة رسله، ولكنهم عَموا ولم يستفيدوا من أعينهم، كما أنهم صموا ولم يستفيدوا من آذانهم التي خلقها لهم الله عزوجل ليسمعوا الحق فيهتدوا ويؤمنوا بالله الذين آتاهم ما يؤمنون به لو أنهم استفادوا مما أنعم به عليهم.

وجاء في سورة الأعراف قول ربنا عزوجل:

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الإنس والجن﴾

(الأعراف: ١٣٨)

وفي سورة فصلت ٢٥:

﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾

وفي سورة الرحمن ٣٩:

﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾

وذلك لأن وجوههم وسيماهم سود تنبىء عن كفرهم وجرائمهم وتنطق شاهدة عليهم، قال تعالى:

﴿حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾

(السجدة: ٢٠)

ويتحدى الله عزوجل كبار الناس بما يملكون من قوى وقدرات وثراء وسلطان ونفوذ، كما يتحدى معهم صغارهم وأتباعهم بكل ما يملكون من قدرات أن يأتوا بمثل القرآن، ويبين أنهم لامحالة عاجزون عن ذلك ولو ساند بعضهم بعضاً بكل مايملكون من إمكانيات

وقدرات، قال تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾

(الإسراء: ٨٨)

ويشهد التاريخ بكل ثقة ووضوح انتصار هذا التحدي منذ أن أعلنه القرآن الكريم وحتى يومنا هذا مؤكداً حقيقة أن القرآن إنما هو كتاب الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً.

وجاء في القرآن الكريم:

﴿ويوم يحشرهم جميعاً، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾

(الأنعام: ١٢٨)

من المعلوم أن الذين يستكثرون من ولاية الناس والجماهير لهم هم كبار الناس وأقوياؤهم وأثرياؤهم وقادتهم الذين هم من الناس البشر وليسوا من جنس شبحي أو خفي. ولا يذكر التاريخ أبداً أن أشباحاً خفيةً قد استكثرت من الإنس أولياء لهاً.

وهكذا مهما درسنا في القرآن الكريم من آية تذكر الجن فإننا نجدها تشير إلى كبار الناس وسادتهم وأثريائهم وعظمائهم وأصحاب السلطان والنفوذ فيهم، بالمقارنة مع العاديين والبسطاء منهم وجماهيرهم ودهمائهم، ولا يمكن البرهان من كتاب الله بأي حال من الأحوال أنه يقصد بالجن أشباحاً أو أرواحاً من غير جنس البشر، وقد برهنّا بعون الله تعالى على ذلك في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

ومن كان لايزال يصرّ على القول بأن الجن أشباح خفية وأرواح شريرة خبيثة تعبث بالناس وتلهو بهم[1]، أو أشباح غازيّة طيبة تؤمن بكتاب الله تعلى ودينه الحنيف فتصلي وتصوم وتزكّي وتحج وتعمل بكل هدي جاء في القرآن الكريم[2]، فعليه أن يثبت صحة هذا الإعتقاد من

---

(١) - راجع كتاب «كبرى اليقينيات الكونية» بحث الجن للدكتور البوطي.

(٢) - راجع كتاب «مبادىء العقيدة الإسلامية» - للدكتور مصطفى الخن.

بيان الله تعالى في القرآن الكريم، أو بيان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف.

بيان الآيات التي جاء فيها ذكر الشياطين:

قد مرّ معنا في الدراسة اللغوية للفظة «شيطان» أنّها كلمة أصيلة في اللغة العربية التي اشتملت على كل جذر يتفرع منه لفظ الشيطان، على أيّ احتمال وكل تقدير، إذ أنّ فيها مادّة: شطّ وشاط وشوط وشطن. وفي هذه المواد معاني البعد والضلال والتلهب والهلاك والاحتراق، وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من كلمة الشيطان جميعها.

فالشطط: من الغلو الذي يدخل في أخص عناصر الشيطنة.

والشط: بمعنى الجانب المقابل، وقد تلحظ في مقابل الخير بالشر من جانب الشيطان.

وشاط: بمعنى احترق وتلف، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه، وشاط تعني أيضاً: انطلق شوطاً، أي ابتعد واندفع في مجراه.

وشطن: أي ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال.

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان، وقيل في بعض التفاسير، أنّ هذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى:

﴿طلعها كأنّه رؤوس الشياطين﴾.

وذكرت مراجع اللغة العربية أيضاً، أنّ الحمّى تسمّى[1] شيطاناً باعتبار أنّها مرض يلتهب فيه الجسد بالحرارة الشديدة، وذكرت أنّ العرب يسمّون العطش الشديد بـ «شيطان الفلاة»[2] «والرجل الشاطن: الرجل الخبيث»[3].

وجاء في محيط المحيط أنّ الشيطان سُمّي شيطاناً لتمرّده وبعده عن الحق.

هذا ماجاء في اللسان العربي عن لفظة الشيطان، وقد رأينا أنّها تشير إلى كثير من الصفات المشتقة من الجذور المتعددة لهذه الكلمة.

---

(١) - راجع بحث «إبليس» للكاتب الكبير عباس محمود العقاد. وكذلك قاموس لسان العرب في المواد المذكورة.

(٢) - محيط المحيط.

وأمّا في القرآن الكريم، فنجد أنّ ربّنا تبارك وتعالى قد أورد لفظة الشيطان في المواضع المختلفة من آيات كتابه المجيد في بيان معجز دقيق ومحكم بحيث تُشير لفظة الشيطان في كل آية ذُكرت فيها إلى بيان محدّد بإحكام متميّز يؤدّي مفهوماً معيناً يناسب سياق الآية وسباقها والمعنى المقصود فيها.

ولذلك فقد أخطأ الكثير من الناس حين أصرّوا على الأخذ بمعنى واحد للفظة الشيطان في كل موضع ذُكرت فيه في القرآن الكريم، معتبرين أنّها تعني دائماً الشيطان الشبح الخفي ـ على حد زعمهم ـ والذي يتلاعب بالإنسان كما يشاء ويهوى، في الوقت الذي يترنّح هذا المسكين عاجزاً بين يديه وقرونه وأنيابه، فاقد الحيلة والرجاء لأنّه لا يرى له شكلاً ولا يحسّ له وجوداً أو أثراً أكثر من أنّه يتلذّذ بغوايته وإيقاعه في الإثم والضلال.

هذا الفهم الخيالي ليس صحيحاً. وهو فهم سقيم لا يؤيّده القرآن الكريم في أيّ شكل كان، بل الحقيقة هي أنّ القرآن الكريم في حديثه عن الشيطان الرجيم إنّما يتحدّث عن واقع حقيقي مشاهد وملموس لا خفاء فيه ولا خرافة ولا خيال. ويمكننا الإطمئنان إلى هذا الفهم، حين نلاحظ أنّ لفظة الشيطان لا تحتوي في أي جذر من جذورها المشتقة منها على أي غيب أو خفاء.

إذن ما هي المعاني الحقيقية للفظة الشيطان التي وردت في آيات عديدة في القرآن الكريم؟

لدى تلاوتكم لهذه الآيات تلاحظون أنّها تَنسب إلى الشيطان مجموعة من الأفعال التي تدخل جميعها في المعاني الواردة في أصول هذه الكلمة. فالشيطان بحسب وصف هذه الآيات لأعماله:

يستدرج الإنسان خطوة خطوة يبعده فيها عن الحق والسراط السوي، وهو يستنزل الإنسان ويجعله يزلّ، وهو أيضاً يَعِد بالفقر ويخوّف أولياءه، كما أنّه يوقع العدواة والبغضاء بين الناس، وهو يزيّن الأعمال ويوسوس ويسوّل ويفتن ويغوي ويمنّي ويكيد وينزغ ويُفسد ويكفر ويَعِد الإنسان غروراً، ويُخلف الوعد ويعصي الرحمن ويدعو لارتكاب الخطأ ويدعو إلى النار ويصدّ عن السبيل، وكذلك يتبع ويطوف ويُنسي ويُوالي ويُقارن ويستحوز ويُحزّب ويستهوي ويَؤزّ ويَهمز[1] وغير ذلك مما ورد من الأعمال التي تتفق جميعاً في أنّها تبعد الإنسان عن الإيمان

(١) ـ راجع الآيات التي نسبت هذه الأعمال للشيطان.

الصحيح أو اتّباع الحق أو الالتزام به، او المضي واثقاً على سراط الله المستقيم مما يجعله في حالة أذى كبير لنفسه وغيره من الخلق، الأمر الذي لا بدّ أن يؤدّي به في النهاية إلى الهلاك المحتّم فيؤول شاطِناً هاوياً في نار جهنم فيَشيط محترقاً بنار شَطَنِهِ وبُعده عن الحق شوطاً بعيداً بسبب أعماله وأفكاره الشيطانية المهلكة، فيصير من أصحاب السعير بعد أن جعل نفسه من حزب الشيطان مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾

(فاطر: ٦)

وتسهيلاً للفهم السليم لمعاني لفظة الشيطان التي وردت في آيات القرآن الكريم، سنعمد إلى دراسة هذه المعاني من خلال تصنيف معيّن يساعدنا على هذا الفهم المقصود.

خطوات الشيطان:

يبيّن القرآن الكريم أنّ الابتعاد عن الحق والوقوع في براثن الخطأ لا يتم دفعة واحدة، بل غالباً ما يتم نقلةً نقلة يبتعد فيها الإنسان عن صراط الله المستقيم، وبالتالي يَشطُن بعيداً عن توفيقه ورضاه، وقد أطلق القرآن الكريم على هذه النقلات المتدرّجة التي تَشطُن بالناس بعيداً عن سبيل الله اسم: «خطوات الشيطان»، قال تعالى:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتّبعوا خطوات الشيطان﴾

(النور: ٢١)

وقال عزّ وجلّ:

﴿كلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّباً ولا تتّبعوا خطوات الشيطان﴾

(البقرة: ١٤٢)

أي أنّ عليكم في سعيكم لطلب الرزق أن تأكلوا حلالاً طيِّباً واحذروا أن تتدرّجوا شاطنين في الحرام خطوة خطوة فتسعوا إلى تحصيل رزقكم بطرق غير مشروعة، مبتدئين بالميل القليل في أوّل الأمر ثم تمضوا شَوْطاً بعيداً في الحرام فيصير تحصيلكم للرزق كلّه حراماً من

حيث لا تشعرون[1].

إنّ الانتقال المتدرّج من الطلب الحلال للرزق إلى تحصيله بالطرق غير المشروعة، هو ما دعته هذه الآية بـ «خطوات الشيطان» لأنّها تَشْطُن بصاحبها شيئاً فشيئاً بعيداً عن الطلب الحلال للرزق إلى طلبه بالحرام. وإنّ المتفكّر في هذه الحقيقة يجد أنّ هذه هي السمة السائدة في مثل هذه الحالات.

وجاء في سورة البقرة قول ربّنا عزّ وجلّ:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾

(البقرة: ٢)

وهنا أيضاً يحذّرنا ربّنا تبارك وتعالى من التدرّج خطوة خطوة في الشطن بعيداً عن حالة السلم مع الناس واستعدائهم أو التعدّي عليهم، فنقع معهم في خصومة وحرب وعداء مهلك بعد أن كان بإمكاننا مسالمة الناس والعيش معهم في سلام هانىء رغيد يرضى به الله عنّا، لأنّه تعالى يكره أن يؤذي خلقُه بعضُهم بعضاً، إلاّ لمن ظُلم فيعمل بما شرع الله في كتابه فيكون عند ذلك سعياً بالحق وأخذاً به.

ونقرأ في سورة النور قول ربنا عزّ وجلّ:

﴿ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾

(النور: ٢١)

في هذه الآية الكـريمة، يبيّن لنا ربّنا أنّ وقوع الإنسان في الفحشاء والمنكر يأتي أيضاً بالتدرّج خطوة خطوة، ولا يكون نقلة واحدة.

وسوسة الشيطان:

بيّن القرآن الكريم أنّ الشيطان يوسوس للإنسان من أجل أن يوقعه في الخطأ ومعصية الله عزّ وجلّ، قال تعالى:

---

(١) ـ ليست غايتنا هنا التفسير الكامل للآيات، بل مجرّد بيان المقصود بلفظة الشيطان فيها.

﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماوري عنهما من سوءاتهما﴾

(الأعراف: ٢٠)

وقال تعالى:

﴿فوسوس إليه الشيطان وقال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾.

(طه: ١٢٠)

إنّ قصة آدم ووسوسة الشيطان، ورفض إبليس السجود له سنأتي على ذكرها وتفصيل البيان فيها في الفصل القادم بعون الله تعالى، ولكنّ القصد في هذا المقام هنا أن نبيّن أنّ الوسوسة للإنسان هي عمل من الأعمال التي نسبها القرآن الكريم إلى الشيطان الرجيم، وهي في اللغة التحديث بما لا نفع فيه ولا خير، ويقال وسوس الرجل: إذا تكلّم بكلام خفي حتّى يكرّره (محيط المحيط).

كما وبيّنّ القرآن الكريم أنّ النفس يمكن أن تقوم بعمل الشيطان فتُوسوس للإنسان وتكون هي ذاتها شيطانه، قال تعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾

(قٓ: ١٦)

ولقد بيّنّ القرآن الكريم أيضاً أنّ العاديين من الناس يمكن أن يوسوسوا بأفكار عديمة النفع والفائدة أو غيرها من الخواطر والإيحات المسيئة المؤذية، جاء في سورة الناس قول ربّنا عزّ وجل:

﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس﴾

وهكذا نجد أنّ الوساوس الشيطانية تكون من الناس كما تكون من النفس ذاتها(١)، وفي هذا بيان هام جداً لمن أراد أن يفهم أو يتفكّر.

تسويل الشيطان:

جاء في قاموس محيط المحيط:

«سوّلت له نفسه كذا زيّنته له وسهّلته وهوّنته».

فالتسويل إذن هو تزيين الخطأ وتهوين ارتكابه، وبذلك يبعد الإنسان عن الحق ويشطن عنـه بتسويل النفس التي تمضي بالخواطر شوطاً بعيد عن الصواب بما تزيّن وتسهّل الخطأ والباطل للإنسان فتكون الشيطان الموسوس له لارتكابهما، قال تعالى:

﴿إنّ الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبينّ لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾

(محمد: ٢٥)

أي أنّ الشيطان(١) قد زيّن وزخرف لهؤلاء الارتداد عن الهدى وهوّنه عليهم فارتدوا بتسويله.

وجاء في سورة يوسف قول يعقوب عليه السلام لأولاده:

﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾

(يوسف: ١٨)

ونرى من الآية ١٠٠ من سورة يوسف أنّ تسويل النفس لأخوة يوسف عليه السلام كان هو ذاته نزغ الشيطان لهم حيث يقول يوسف في معرض ذِكره للطف ربِّـه به:

﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾.

نجد هنا بكل وضوح أنّ نَزْغ الشيطان لأخوة يوسف عليه السلام كان يكمن في تسويل أنفسهم لهم أمراً، وفي هذا بيان ساطع للمتفكّرين.

أَمْر الشيطان بالسوء والفحشاء:

جاء في سورة البقرة قول ربّنا عزّ وجلّ:

﴿ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين * إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾

(البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩)

(١) ـ وهو يمكن أن يعني هنا أية فكرة أو وسوسة أو خاطر أو حتى إنسان يزين ويزخرف فكرة الإرتداد ويسهلها سواء بدافع من الأطماع أو الخوف على المصالح الدنيوية أو غير ذلك. يقول الإمام الغزالي: «فسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً». إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٩.

ونقرأ في سورة يوسف قول امرأة العزيز:

﴿وما أبرّىء نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء﴾

(يوسف: ٥٣)

فها نحن نرى من بيان القرآن الكريم أنّ الشيطان يأمر بالسوء وأنّ النفس أمّارة بالسوء، وأنّ كلمة «أمّارة» التي هي على وزن «فعّالة» إنّما هي صيغة مبالغة من الأمر بالسوء يعني أنّ النفس تأمر وتأمر كثيراً بالسوء فهي شيطان الإنسان وقرينه الذي يأمره بالسوء لأن الذي يأمر بالسوء يكون شيطاناً على ضوء ما علّمنا القرآن الكريم.

صَدّ الشيطان عن السبيل:

إنّ الذين يصدّون عن سبيل الله عزّ وجلّ إنّما يكونوا شياطين بما يزيّنون للناس ويفتنونهم ويشطنون بهم بعيداً عن صراط الله المستقيم فيضلّوا ضلالاً بعيداً، قال تعالى:

﴿إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً﴾

(النساء: ٦٧)

ولذلك فقد حذّر ربّنا تبارك وتعالى عباده من كلّ ما ومن يصدّهم عن سبيله بما يزخرف ويزين لهم لأنّه إنّما يكون شيطاناً وعدواً مبيناً، قال عزّ وجلّ:

﴿وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل﴾

(النمل: ٢٤)

وقال محذّراً:

﴿لا يصدّنكم الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾

(الزخرف: ٦٢)

ويبيّن الله عزّ وجلّ أنّ الذين كفروا ولم يؤمنوا إنّما هم الشياطين الذين صدّوا عن سبيل الله، قال:

﴿فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه﴾

(النساء: ٥٥)

إذن فالشياطين هم الذين يصدّون عن سبيل الله وتكون عاقبتهم أنّ الله يذيقهم السوء بما يصدّون عن سبيله، قال ربّنا:
﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾

(النحل: ٩٤)

كيد الشيطان:

نجد في القرآن الكريم أنّ الكافرين يسعون دائماً بالكيد والمكر الخبيث في عدائهم لأنبياء الله ورسله ودينه والمؤمنين به، ويبيّن لنا ربّنا أنّه يقابل كيد الكافرين بكيد قاهر من عنده يُفشل خططهم ويُخيّب آمالهم فيقول في كتابه المجيد:
﴿إنّهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً﴾

(يوسف: ٧٦)

كما يبيّن لنا عزّ وجلّ أنّ كيد الكافرين للمؤمنين يضلّ الرجاء ولا يفلح أبداً، يقول:
﴿وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال﴾

(غافر: ٢٥)

﴿وما كيد فرعون إلاّ في تباب﴾

(غافر: ٣٧)

ويؤكد القرآن الكريم للمؤمنين أنّهم إن صبروا واتّقوا فإنّ كيد الكافرين لا يضرّهم، يقول تعالى:
﴿وإنْ تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً﴾

(آل عمران: ١٢٠)

والسبب هو:
﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾

(النساء: ٧٦)

تلك هي الحقيقة، فالكافر بِكيده لإبعاد الناس عن الحق وعن الإيمان بدين الله تعالى،

إنّما يجعل من نفسه شيطاناً. . والشيطان لا يُبعد فقط الناس عن سبيل الفلاح بل هو يبعد نفسه أيضاً عن الفلاح في أيّ عمل قبل الجميع بما يشطن من كيد شاطن من كيد شاطن خائب فيفشل حتى في كيده للناس وللمؤمنين، وهذا هو سرّ:

﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

إذ كيف يفلح في كيدٍ يشطن به - أي يأخذ به بعيداً - عن العمل الصائب؟ إنّ الأعمال الناجحة لا بد أن تكون سديدة وصالحة حتى تحقق الغاية والهدف المقصود، ولكن هذه الصفة معدومة في أعمال الشيطان (أي البعيد عن الصواب) ولذلك كان كيده ضعيفاً.

فتنة الشيطان:

يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ الكافرين يسعون دائماً إلى فتنة المؤمنين والمؤمنات عن دينهم ليجعلوهم كفّاراً مثلهم. ووضّح أنّ مصير هؤلاء لابدّ إلى حريق جهنّم إذا لم يتوبوا، قال تعالى:

﴿إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾

(البروج: ١٠)

كما بيّن ربّنا تبارك وتعالى أنّ الناس يمكن أن يفتنوا أنفسهم باغترارهم وخداع أنفسهم بالأماني، فقال:

﴿. . ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله﴾

(الحديد: ١٢)

ولذلك نجد في القرآن الكريم أنّ الله يحذّر بني آدم من فتنة الشيطان، سواء كان مصدرها النفس أو الناس فيقول:

﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾

(الأعراف: ٢٧)

والفتنة عمل شيطان لأنّها إكراه للنّاس على ترك دينهم ولذلك فإنّ الناس الذين يفتنون الآخرين أو الذين يفتنون أنفسهم. إنّما هم شياطين الضلال الذين سيقال لهم في نار جهنم:

﴿ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾

(الذاريات: ١٤)

إغواء الشيطان:

الغـواية تكون من الشيطان، وذلك لأنّ الغاوي للناس إنّما يقصد إبعادهم عن الحق وصدّهم عن سبيل الله كيفما يمكنه. ويبينّ لنا القرآن الكريم بأنّ الناس يقومون بهذا العمل وأنّهم سيعترفون في نار جهنم على أنفسهم بالغواية فيقولون لبعضهم:

﴿فأغويناكم إنّا كنا غاوين﴾

(الصافات: ٣٢)

كما ويبينّ القرآن المجيد حواراً يجري في نار جهنم بين هؤلاء الذين أغووا بعضهم بعضاً يقولون:

﴿ربّنا هؤلاء الذين أغوينا، أغويناهم كما غوينا﴾

(القصص: ٦٣)

ويوضّح القرآن الكريم أنّ الإغواء إنّما يكون من الشيطان الرجيم الذي اتخذ على نفسه عهداً بإغواء الناس أجمعين فقال:

﴿لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾

(الحجر: ٣٩)

وهكذا فإنّ الغواية من الشيطان، والشيطان هو من يغوي نفسه أو الناس بأي شكل كان.

شيطان الفلاة:

في معركة بدر كانت قوّات قريش قد تملّكت موقع الماء، عند ذلك تخوّف المسلمون من خطورة افتقارهم إلى الماء في ذلك الموقف العصيب، لأنّ الافتقار إلى الماء في الصحراء إنّما

يؤدي إلى الهلاك عطشاً. وقد كان العرب يسمّون العطش: «شيطان الفلاة»[1]، ولقد منّ الله عزّ وجلّ برحمته على المسلمين بأن أنزل عليهم ماء من السماء ليُذهب عنهم شيطان العطش، قال تعالى:

﴿إذ يغشّيكم النعاسَ أمَنَةً منه ويُنزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليَربط على قلوبكم ويُثبّت به الأقدام﴾

(الأنفال: ١١)

ونوجّه إلى الذين يصرّون على القول بأنّ المقصود بالشيطان هنا إنّما هو الشيطان الشبح المزعوم سؤالاً وهو: ما علاقة نزول الماء بذهاب رجز الشيطان وتطهير المسلمين. إذ الماء إنّما يفيد في ذهاب العطش الذي هو شيطان الصحراء كما مرّ معنا، ويفيد الماء أيضاً في طهارة الجسم والتطهّر به للوضوء وغير ذلك، وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة مُضيفةً أن إنزال الماء علىَ المسلمين قد ساعدهم أيضاً على التشجع للصمود في المعركة أمام أعداء الحق والدين، إذ لم يعد ثمة ضرورة للقلق والخوف من التأثّر بالعطش في الحر الشديد.

ويَذْكر القرآن الكريم علاقة الماء بالشيطان في قصة أيوب عليه السلام، حيث قيل إنّه قد أصيب بمرض جلدي، فنادى ربه قائلاً:

﴿إنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب﴾

(ص: ٤١)

نجد هنا أنّ أيوب عليه السلام قد دعا ربّنا عزّ وجلّ أن يشفيه من مسّ الشيطان وتعبه وعذابه، ونجد أنّ رد الله تعالى على دعائه كان بأن أوحى له أن يحث السير إلى مكان فيه ماء بارد ليغتسل ويشرب، فقال:

﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾

(ص: ٤٢)

من المعلوم أنّ ثمة ينابيع ماء تحتوي على أملاح معدنية تفيد في الشفاء من الأمراض الجلدية. وهكذا فإنّ اغتسال أيوب عليه السلام في ماء النبع كان فيه شفاؤه من المرض الجلدي الذي أصابه، كما أنّ شربه من الماء البارد كان فيه رواؤه من العطش الذي هو

---

(١) - راجع محيط المحيط.

«شيطان الصحـراء». ولا يخفى أيضاً أنّ في الاغتسال والشراب من الماء البارد راحة من التعب والنصب وعذابها. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة.

وخلاصة القول:

إنّ الشيطان في تعليم القرآن الكريم هو مصدر الإيحاء بالأفكار الشريرة التي تصدّ الناس عن سبيل الله الحق وصراطه المستقيم. وقد يكون الشيطان فكرة أو نازعاً، أو خاطراً أو كلاماً أو وسـوة أو غير ذلـك مما يزيّن للإنسان ويغويه ويفتنه ويستفزّه للقيام بالأعمال الشيطانية الشريرة والتي هي في حقيقتها كل ما ينافي الهَدي الإلهي من قول أو عمل.

ولقـد فهم المتفكـرون هذه الحقيقة بكل جلاء ووضوح وعبّروا عنها ببيان موجز جامع وجميل، حيث نقرأ في كلمات الكاتب الكبير عبّاس محمود العقّاد قوله:

«كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشري قد تمثّلت في صورة من صوَر الشيطان، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي تدعو المفكر الذي يحترم عقله إلى أن يفهم الصوَر الدينية على حقيقتها، وحقيقتها أنّها لغة حيّة تصوّر الوجود الحقيقي تصويراً صادقاً على أسلوبها الذي يستحق الفهم والتعمّق والنظر إلى ما وراء الظواهر والألفاظ.. وفي هذه الصورة ظهر الشيطان في ديانات الأمم الكبرى، ثم ظهر في الديانات الكتابية بمختلف الأسماء وكلّها تدل على التعطيل والتشويه والإفساد، ولا تدل على الخلق والتكوين.. كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملاً من الأعمال..

هذه القوة الشيطانية تحوّل الخير عن موضعه أو تُملي للنقص في عيوبه، أو تقف في طريق الكمال عقبة تصدّ الساعين إليه، أو تزيّف العملة الإلهية فتجعل الزائف منها كالصحيح في رأي المضلَّل المخدوع.

لكنّها في جميع أحوالها قوّة سالبة وليست بالقوّة الموجبة الموجدة بأيّة حال...

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه.

وقـد يخرج الشيطان على أمر الله، وقد يشوّه الخلق وينتقصه ويستر محاسنة ويبدي عوراته ويحول دون رضوان الله تعالى على مخلوقاته، ولكنّه يعمل تابعاً ولا يعمل مستقلاً في كون من

الأكوان غير الكون الذي خلقه الله.

وفي هذه المراحل جميعاً يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى، فهو المتمرِّد أو هو «الضِّد» أو هو الواشي النمّام، أو هو الساعي بالفتنة والمغري بالفساد والموغر للصدور.

ومـا من اسم للشيطان بين هذه الأسماء إلاّ وهو يحمل في دلالته معنى الإفساد والمنع والتشويه، فليست له القدرة على الخلق والإنشاء إلى جانب قدرة الله. . .

ولمّا تقرّرت المقاييس الإلهية في الأخلاق والأعمال، تقرّرت المقاييس الشيطانية بتعاليمها وبالنسبة إليها، فكان الجديد فيها أنّها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا تُرسم اعتباطاً في الواقع أو في الخيال»[١].

«. . إنّ فكرة الشيطان أعمق جداً مما يخطر للمتعجّل الذي يحسب أنّه يحلّ كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق، أو يحلّ كل مشكلة بإحالتها إلى جهل الأقدمين وضلالهم في الحس والتفكير.

فهناك صوَر للشيطنة بمقدار ما في الذهن البشري من فكرة عن الشر في هذا الكون: هل الشر قوة أصيلة؟ هل هو قوّة إيجابية عاملة؟ هل هو عقبة في طريق الخير؟ هل هو عقبة تريد، وتعمل ما تريد؟ هل هو عقبة لا إرادة لها ولكنّها تضاعف جهود الخير وتستدعيه إلى مزيد من الحركة والثبات؟

إنّ تاريخ الإنسان في أخلاقه الحيّة لا ينفصل من تاريخ الشيطان. وأوّله التمييز بين الخير والشر. ولكنّه الأوّل في طريق لم يبلغ نهاية مطافه.

فبعـد التمييز بين الخـير والشر، خطوة أخـرى ألـزم من تلك الخطوة الأولى في تاريخ الأخلاق الحيّة.

وتلك هي معرفة الخير في الصميم.

فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة.

فليس الخير خلواً من الشر وكفى.

(١) ـ راجع كتاب «إبليس» للأستاذ عباس محمود العقاد.

وليس الخير ابتعاداً عن الشر وكفى.
وليسي الخير عجزاً عن الشر وكفى.
وليس الخير مخالفة للشر وكفى.
كلا.. بل الخير شيء قائم بذاته، وليس قصاراه أنّه امتناع من شيء سواه.
الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين.

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان أنّه سقَطَ لأنّه أَنِفَ من تفضيل آدم عليه السلام.
ومن تلك الآونة عُرفت وظيفة الشيطان في هذا العالم وعرفت معها فضيلة الإنسان.
فإنّما وظيفة الشيطان أن يُثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردّد بين الخير والشر والمباح والحرام.

إنّ فضيلة الإنسان أن يصنع خيراً وللشر عنده غواية وله في نفسه فتنة، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة.. لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخاً للأخلاق الحيّة في وجدان آدم وبنيه»(1).

ولأنّ تاريخ الشيطان كان تاريخاً للأخلاق الحيّة في وجدان آدم عليه السلام وأبنائه، فإنّنا نجد أنّ الأستاذ العقّاد يبدأ كتابه «إبليس» بقوله:

«يوم عَرف الإنسانُ الشيطانَ كانت فاتحة خير».

لأنّ معرفة الشيطان كانت فاتحة التمييز بين الخير والشر، كما كانت معرفة الظلام إدراكاً وتمييزاً للنور.

وكما أنّ الظلام هو الوجود السلبي الذي يظهر حال اختفاء النور، في أي حيّز كان. فكذلك الشيطان هو وجود سلبي يظهر حال انعدام الخير في أي خاطر أو قول أو عمل. ومعاذ الله سبحانه وتعالى أن يمكّن لأيّة قوة للشر مهما قويت وتعاظمت أن تقف مُريدة مختارة في مواجهة قدرته عزّ وجلّ، بل:

لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم الذي له القوة جميعاً الذي قال في كتابه المجيد: **﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا﴾**

صدق الله العظيم

---

(1) - «إبليس» للأستاذ عباس محمود العقاد.

الفصل العاشر

إبليس

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾

(الدهر: ١)

نعم.. قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.. فالله قد خلق السماء وما كانت سماء، وخلق الأرض وما كانت أرضاً.

لم يخلق الله السماء دفعة واحدة مع قدرته على ذلك، كما أنّه لم يخلق الأرض دفعة واحدة رغم أنّه على كل شيء قدير، قال تعالى:

﴿إنّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيّام﴾

(يونس: ٣)

وقال عزّ وجلّ:

﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين﴾

(فصّلت: ٩ ـ ١٠)

نعلم أنّ الله تعالى إنّما يخلق بكلمة «كن»، فلماذا تكون المدة؟ ولماذا ستة أيّام؟ قال تعالى:

﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾

(النحل: ٤٠)

إذن قد كان خلقُ السموات والأرض في ستة أيّام، والسؤال الذي يخطر في البال هو: هل كانت الأيّام مثل أيّامنا، أم كان اليوم يوماً من أيّام الله التي لا يعلمها إلاّ هو؟ لو كانت الأيّام مثل أيّامنا لقال ربّنا: في ستة أيّام مما تعدّون، وذلك قياساً على قوله في سورة السجدة:

﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾

(السجدة: ٥)

وثمّة من أيّام الله ما يعادل خمسين ألف سنة، قال ربّنا عزّ وجلّ:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾

(المعارج: ٤)

وكم تكون هذه السنة المذكورة هنا، أهي مما نعدّ أم أن اليوم الواحد فيها كألف سنة؟

لم يحدّد القرآن هذا اليوم، وهذا يعني أنّ اليوم المقصود هنا ربّما كان يساوي آلافاً أو ملايين من السنين. الله وحده أعلم، وما يهمنا هنا هو أنّ خلق السموات والأرض كان يتطوّر في ست مراحل طويلة الله يعلم مداها. والسؤال هنا ترى ماذا كان يحدث للسموات والأرض خلال هذه المراحل أو الأطوار الزمنية الستة؟

تُبيّن علوم العلماء وبحوثهم واكتشافاتهم مصداقية الحقيقة القرآنية في تطوّر خلق الأرض وانتقالها من مرحلة إلى أخرى حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم في الفترة التي ظهر فيها الإنسان.

كما وتؤكد بحوث العلماء واكتشافاتهم الجادّة الدائبة مصداقية الحقيقة التي جادل فيها نوح قومه فقال:

﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾

(نوح: ١٤)

«قال الليث: الطورة التارة يعني حالاً بعد حال.. وقال ابن الأنباري: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضكم بعضاً»(١).

وجاء في اللغة العربية أنّ:

الطور: هو الحال والهيئة والتارة.. والطور: الطبع والنفس والقلب والروح..»(٢).

وجاء أيضاً أنّ الطور:

«جمعه أطوار ويعني: الوقت والحال والشرط والخاصيّة والطبع والهيئة والشكل. وبهذا تعني الآية أنّ الله عزّ وجلّ قد خلق الناس في أشكال مختلفة وحالات مختلفة وأفهام وطباع مختلفة، كما وتعني أنّه تعالى خلقهم في

---

(١) - راجع فخر الرازي ص ١٣٩ ج ٣٠ مج ١٥.

(٢) - راجع محيط المحيط.

مراحل مختلفة»[1].

وهكذا يؤكد القرآنِ الكريم أنّ الله عزّ وجلّ قد خلق الإنسان من عناصر الأرض وفي أطوار مختلفة حتى جعله في أحسن تقويم، بعد أن قطع شوطاً طويلاً يتطوّر فيه، بعد المرحلة الأولى من خلقه التي بدأها من «الطين»، قال تعالى:

﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾

(السجدة: ٧)

ولبيان حقيقة ما نقول:لابد من وقفة مع آيات كتاب الله المجيد التي تحدّث فيها ربّنا عزّ وجلّ عن خلق الإنسان، ونبدأ ببيان العناصر التي خلق الله منها الإنسان.

نعلم من القرآن الكريم أنّ الله تعالى قد خلق الناس من الأرض، يقول تعالى:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾

(طه: ٥٥)

ونقرأ في القرآن الكريم أنّ التراب هو عنصر من عناصر خلق الإنسان، قال تعالى:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾

(الروم: ٢٠)

وكذلك الماء عنصر من العناصر التي خلق الله منها الإنسان، قال ربّنا:

﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾

(الفرقان: ٥٤)

ومن تمازج التراب والماء يتشكل الطين الذي بدأ الله به خَلْقَ الإنسان فقال عزّ وجلّ:

﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾

(السجدة: ٧)

ويتماسك الطين مع بعضه فيصير لازباً، قال تعالى:

﴿إنّا خلقناهم من طين لازب﴾

(الصافات: ١١)

---

(١) - راجع موسوعة لين في اللغة العربية، والتفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

وحين تشتد حرارة الطين يصير صلصالاً، قال ربّنا:
﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾

(الحجر: ٢٦)

قال الإمام فخر الرازي:

«في الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طُبِخَ فهو فخّار، قالوا: إذا توهمتَ في صوته مدّاً فهو صليل، وإذا توهمتَ فيه ترجيعاً فهو صلصلة»[١].

ويفسر الإمام الرازي مراحل خلق الإنسان فيقول:

«. . والأقرب أنّه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخّار»[٢].

وفي معرض تفسيره لكلمة: «مسنون» يقول العلاّمة الرازي:

«المسنون: المحكوك وهو مأخوذ من سننتُ الحجر إذا حككته وقال الزجاج: هذا اللفظ مأخوذ من أنّه موضوع على سنن الطريق. . وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب. . وقال سيبويه: المسنون المصوّر على صورة ومثال[٣] من سنة الوجه وهي صورته»[٤].

من المعلوم في اللغة العربية أنّ كلمة: «ثم» تفيد في التعاقب مع التراخي إلى حد أنّها يمكن أن تشير إلى فترة طويلة تالية لفترة سابقة، جاء في سورة الروم قول ربّنا عزّ وجلّ:
﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتك ثم يحييكم﴾

(الروم: ٤٠)

إذا لاحظنا قوله تعالى: يميتكم ثم يحييكم نتبينّ أنّ كلمة «ثمّ» هنا تشير إلى فترة تمتد من الموت وحتى يوم القيامة، وهي فترة زمنية طويلة لا يعلم طولها إلاّ الله وحده.

على ضوء هذا البيان الموجز يمكننا أن نفهم الآن حقيقة أنّ خلق الإنسان قد جاء في مراحل متعاقبة وطويلة انتقل فيها من طور إلى آخر متدرّجاً في سنة الله في الخلق. قال ربّنا عزّ وجلّ:

---

(١) ـ التفسير الكبير ج ١٩ مج ١٠ ص ١٧٩.

(٢) ـ نفس المرجع والصفحة.

(٣) ـ قال تعالى: ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾ التغابن ٣.

(٤) ـ التفسير الكبير ج ١٩ ص ١٨٠.

﴿هو الذي خلقكم ثم قضى أجلاً﴾

(الأنعام: ٢)

تُرى ماالذي حدث في الأجل الذي قضاه الله بعد خَلْقِنا؟

نجد الجواب في سورة الأعراف حيث يقول تعالى:

﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾

(الأعراف: ١١)

أي أنّ الخَلْق جاء أولاً، ثم جاءت بعده عملية التصوير التي حَسَّنَ الله ربُّنا من خلالها صُوَرَنا كما أخبرنا في سورة المؤمن فقال:

﴿.. وصوّركم فأحسن صوركم﴾

(المؤمن: ٦٤)

ونقرأ في سورة السجدة البيان القرآني المتعلق ببداية خلق الإنسان وتناسله وتسويته ونَفْخ روح الله فيه، قال تعالى:

﴿الذين أحسن كل شيء خَلَقَه، وبدأ خَلْق الإنسان من طين * ثم جعل نَسْله من سلالة من ماء مهين * ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾

(السجدة: ٧ ـ ٩)

نلاحظ هنا أنّ ثمة مراحل أو أطواراً متعاقبة مرّ فيها الإنسان قبل أن يصل إلى مرحلة نَفْخ روح الله فيه، وهذه المراحل هي:

١ ـ (وبدأ خلق الإنسان من طين).

٢ ـ (ثم جعل نَسْله من سلالة من ماء مهين).

وهـذا يعني أنّ الإنسان في هذه المرحلة صار يتناسل وينجب نسلاً حيّاً يتابع تناسله. ولكنّ السؤال الهام هنا هو: هل حدث هذا التناسل قبل مرحلة التسوية؟[1].

يؤكد القرآن الكريم على أنّ هذه هي الحقيقة، ذلك لأنّ تسوية الإنسان جاءت مرحلة لاحقة لتناسله، حيث يقول ربّنا:

(١) ـ يؤكد الرازي هذه الحقيقة فيقول: «لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة» ج ٢٥ ص ١٧٤.

٣ ـ ﴿ثم سوّاه . . ونفخ فيه من روحه﴾ .

إن هذا البيان القرآني الواضح يؤكد حقيقة أنّ الإنسان قد خلقه الله أطواراً انتقل فيها من مرحلة إلى أخرى حتى تمت تسويته وصار أهلاً لِنَفْخ روح الله فيه . وجاء في موضع آخر من كتاب الله المجيد خطابٌ للإنسان يقول :

﴿يا أيُّها الإنسان ما غرّك بربِّكَ الكريم * الذي خلقك فسوّالك فعدّلك * في أي صورة ماشاء ركّبك﴾

(الانفطار: ٦ ـ ٨)

وفي تفسير قول الله تعالى : «فعدلك» أورد الإمام الرازي ما يلي :

«قـال عطاء عن ابن عبّـاس : جعلك قائماً معتدلاً حَسَنَ الصورة لا كالبهيمة المنحنية ، وقال أبو علي الفارسي : عدّل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم ، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة والفكر ، وصيَّرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الحيوان والنبات ، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم»[١] .

وجاء في مراجع اللغة العربية عن «الفاء» أنّها :

تفيد التعقيب بمعنى ثم . (أي التوالي)[٢] .

وهكذا يمكن أن نفهم قول ربّنا هنا بمعنى التعاقب في مراحل خلق الإنسان : أي أنّه تعالى خلقه ثم سوّاه ثم عدله ، وهذا أيضاً يشير بكل وضوح إلى تطوّر الإنسان في طور بعد طور حتى أوصله الله إلى أحسن التقويم بعد أن سوّاه الله ثم عدله وصوّره فأحسن صورته .

وأمّا عن معنى نَفْخ الروح في الإنسان ، فليس صحيحاً الظن أنّ الروح هنا تعني النفس التي تجعـل الجسد حيّاً وأنّها التي يتوفاها الله حين الموت . بل الروح هنا هي روح الله عزّ وجلّ ، وذلك بدليل قوله تعالى :

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾[٣] .

ولقد مرّ معنا في الفصل الأوّل من هذا الكتاب أنّ روح الله تعالى إنّما هي باختصار وحيه

---

(١) ـ التفسير الكبير ج ٣١ مج ١٦ ص ٨٠ .

(٢) ـ جاء في مغني اللبيب أنها تفيد الترتيب والمهلة ص ١٥٨ .

(٣) ـ راجع دراسة الفرق بين الروح والنفس من القرآن الكريم في الفصل الأول من هذا الكتاب .

ونوره الذي يُلقيه في قلب الإنسان فينوّر به عقله وفكره ويهديه إلى سبيل ربه بعد أن أعطاه خَلْقه، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ على لسان موسى عليه السلام:

﴿ربّنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى﴾

(طه: ٥٠)

وهذه الآية الكريمة أيضاً تشير إلى سنّة التطوّر في خلق الله عزّ وجلّ، تلك السنّة الحكيمة التي بيّنها القرآن واكتشفها العلماء.

اكتشافات العلماء تؤكد الحقيقة القرآنية عن تطور الإنسان:

قال ربّنا تبارك وتعالى في كتابه المجيد:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾

(العنكبوت: ٢٠)

وكذلك لَفَتَ ربُّنا نظرنا إلى حقيقة نشْأتنا فقال:

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾

(هود: ٦١)

ولقد ثبت على مسار تاريخ الإنسان أنّ من أهم الأمور التي تواجهه هو السؤال المتعلق بأصله ومصيره، فهو توّاق أبداً إلى أن يعرف كيف ومتى ومن أين أتى البشر وإلى أين المصير.

ومن هنا جاءت المحاولات من قِبل فلاسفة اليونان منذ القرنين السادس والخامس قبل الميلاد مثل انكسمندر ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين خرجوا عن التصوّر «الميثولوجي» الديني واعتبروا الإنسان جزءاً من الطبيعة المحيطة، يتأثّر بها وتنطبق عليه قوانينها المادية.

وقد أسهم فلاسفة العرب المسلمون في العصور الوسطى، مثل ابن سينا وابن رشد وابن مسكويه وإخوان الصفا في تفسير سر الحياة، وحاولوا فهم ذلك ضمن إطاره الطبيعي وبمعزل عن التعليل الفلسفي والروحي الذي كان سائداً في ذلك الحين. وما إن جاء عصر النهضة في أوروبا منذ القرن التاسع عشر حتى أُعطي هذا الموضوع دفعاً جديداً فظهر تيّار علمي يعتمد على البحث الدقيق الهادف إلى تحديد مكانة البشر في عالم الحياة والطبيعة.

عنـد ذلـك بدأت الـدراسات المختصة التي تقول بتطور الإنسان وارتقائه عبر ملايين السنـين. واشتهـر باحثـون كبـار تبنّوا هذه النظرية، من أهمهـم الفيلسوف وعالم الطبيعة الفرنسي «لامارك» (١٧٤٤ ـ ١٨٢٩) وكان أوّل من طرح نظرية متكاملة تناولت كل أنواع الكائنات بما فيها الإنسان، مؤكداً على أنّ التطور هو نظام الطبيعة الأساسي[1] وأنّ الأنواع تتكيف مع محيطها وتكتسب صفات تنقلها بدورها إلى أحفادها. وكان المأخذ الرئيسي على لامارك هو اعتباره أنّ الصفات المكتسبة متوارثة، لأنّ أعمال «وايزمن» في القرن العشرين أظهرت أنّ هذه الصفات المكتسبة هي غير متوارثة لا كما قال لامارك. وتحت تأثيرات هذا المفكّر الكبير ظهر باحث كبير آخر هو العالم المسيحي الورع «تشارلز داروين» الذي عاش بين ١٨٠٨ ـ ١٨٨٢ وأيّد نظرية التطوّر أيضاً وأعطاها أبعاداً جديدة ثورية مؤكداً على أنّ الحياة غير ثابتة وإنّما متحوّلة ويحكمها قانون الاصطفاء الطبيعي وبقاء الأفضل. وقال إنّ الأنـواع الحيّة قد خرجت من بعضها بفعل عمل قانون الاصطفاء الطبيعي الذي أودعه الخالق فيها. وإن الإنسان ما هو إلاّ الفرع الأخير والأرقى في نظام التطوّر الطويل للفقاريات[2]».

ولقد أخذ هذا الموقف أبعاداً أخرى في القرن العشرين وظهر ما يسمّى بالدراونية الجديدة التي تعتمد على بحوث نظامية ومخبرية صحّحت العديد من منطلقات النظرية الدارونية، وخاصّة أنّها أثبتت أنّ الصفات المكتسبة ليست متوارثة. ويقف العالمان وايزمن وليزلي وايت على رأس أنصار «الدارونية الجديدة». وقد حقّقت البحوث المتعلّقة بعلم الحياة نجاحات متصـاعـدة على يد علماء عديدين منهم دوبـزانسكي وفـاندل وكثيرون غيرهـم، تمحورت دراساتهم حول تفاصيل دقيقة تتعلّق بنظام الجينات أو المورّثات و «الكروموسومات»، أو الصبغيات كاشفين العديد من خفاياها المعقّدة[3]

وليس صحيحـاً الاعتقاد السائد أنّ الإنسان ينحدر من القردة بل إنّ الانسان والقرد ينحدران من رتبة في الكائنات الفقارية تسمّى «الرئيسيات» وعلى هذا فإنّ العلماء يصنّفون الإنسان من حيث الانتماء إلى:

---

(١) ـ ﴿مالكم لاترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾. (قرآن كريم).

(٢) ـ راجع «عصور ما قبل التاريخ» للدكتور سلطان محسن ص٤١ ـ ٤٢.

(٣) ـ المرجع السابق ص ٤٣.

شعبة الفقاريات، صنف الثديّات، رتبة الرئيسيات، فصيلة الإنسانيات، جنس الإنسان، نوع الإنسان العاقل[1].

ولم يكن من الصعب على العلماء الباحثين التمييز بين الإنسان والكائنات الحيّة الأخرى الشبيهة بالإنسان، وذلك لأنّ من الشروط الحضارية للإنسان القيام بالعمليات الذهنية المعقّدة، أي الذكاء. الذي مكّن الإنسان الأوّل من التحكّم بمحيطه وإخضاعه لحاجاته. وقد ظهر هذا الذكاء بشكل تفكير هادف ومنظّم قاده إلى صنع الأدوات والأسلحة الحجرية التي تعتبر الدليل الإنساني الأهم، لأنّ القدرة على صنع الأدوات هي التي ميّزت الإنسان عن الكائنات الأخرى التي تستعمل أحياناً الأدوات الطبيعية كالعصي وحتّى الأحجار ولكنّها لا تصنعها أبداً، ولذلك فإنّ الأدوات المصنوعة التي وجدت في الحفريات مع الهياكل العظمية للإنسان القديم هي التي ساعدت على اكتشاف حقيقة وجود الإنسان القديم الذي يرجع تاريخه إلى ملايين السنين. فلقد اكتشف العلماء أنّ الإنسان القديم قد توصّل إلى صنع الأدوات منذ حوالي (٢,٥) مليون سنة. وبدءاً من هذا التاريخ فقط يتحدّث الباحثون عن الإنسان بالمعنى الكامل[2].

ولقد وجد العلماء آثاراً للإنسان الأوّل، والذي أطلقوا عليه اسم « الأوسترالوبيتك » عام ١٩٢٤ وقد اكتشفه الطبيب الإنكليزي «دارت» في موقع «تاونغ» ثم دلّت الأبحاث اللاحقة أنّه منذ حوالي (٦) مليون سنة ظهر نوع جديد من الكائنات كانت تسير منتصبة القامة ولها حجم دماغ كبير، ثم تطورت وازداد عددها وأصبحت لها صفات فيزيولوجية قريبة من الإنسان لكنّها لم تستطع صنع الأدوات الحجرية وبقيت بذلك خارج الشروط الإنسانية الكاملة[3].

ومنذ حوالي (١,٥) مليون سنة ظهر نوع جديد من البشر أكثر تطوراً من الإنسان الصانع أطلق عليه العلماء الباحثون اسم الـ «هومو اركتوس» أي الإنسان المنتصب القامة. وقد عُثِرَ على عظامه لأوّل مرة في حوض نهر سولو في جزيرة جاوة منذ عام ١٨٩١ على يد الطبيب الهولندي أوجين دوبوا.

---

(١) ـ المرجع السابق ص ٤٤.

(٢) ـ المرجع السابق ص ٤٦.

(٣) ـ المرجع السابق ص ٥١.

ويحمل الـ «هومو اركتوس» صفات فيزيولوجية وحضارية أكثر تطوراً من سلفه، فهو كائن منتصب القامة يتراوح طوله بين (١٥٠ ـ ١٦٠) سم وحجم دماغه بين (٨٠٠ ـ ١٠٠٠) سم٣. جمجمته أكثر تدوّراً وجبهته أقل ميلاناً إلى الخلف. وعظام حواجبه بارزة ومتصلة، وذقنه لا زالت غير واضحة.

وقد كان هذا النوع أكثر قدرة من السابق في السيطرة على بيئته الجغرافية، لأنّه دخل مناطق باردة جديدة في أوروبا وآسيا واستفاد بشكل أكبر من الملاجىء والمغاور الطبيعية كما اهتدى لأوّل مرة إلى بناء الأكواخ البسيطة التي دلّت عليها الاكتشافات من تانزانيا وسورية وفرنسا، وبفضل هذه الأكواخ استطاع الإقامة في مختلف المناطق بغضّ النظر عن طبيعة الطقس، بعد أن ارتدى أوراق الأشجار والنباتات وجلود الحيوانات، كما أنّه عرف النار مبكراً، النار التي حققت له فوائد كبيرة من التدفئة والإنارة والطبخ وفي الدفاع عن النفس.

وقد عُثِرَ على دلائل لهذه النار من كينيا في موقع «شيسوانجا» تعود إلى ما يزيد على مليون سنة.

هذا الإنسان، طوّر قدراته على الصيد فقلّ اعتماده على النباتات منتقلاً بذلك إلى ما يسمّى بالوجبة اللحمية، بينما كانت الوجبة النباتية هي المصدر الأهم في غذاء سلفه.. كما صنع هذا الإنسان أسلحة وأدوات حجرية أكثر فاعلية على رأسها الفؤوس اليدوية التي تُنسب إلى الثقافة الآشولية، واسعة الانتشار، والتي استخدمها في قتل الحيوانات وحَفْر التربة وقَطْع الأشجار والدفاع عن النفس وغير ذلك. وصَنَعَ الأدوات العظمية والخشبية.. ويَعتقد العلماء أنّه أقام حياة اجتماعية منظمة وشكّل الأسرة الأولى التي يقف على رأسها أب تتبعه زوجة أو عدّة زوجات وأولاد، وعرف تقسيم العمل حسب الجنس والسن، فاشتغل الرجال في المجالات الشاقة كالصيد بينما عملت النساء في اللقط وتدبير أمور البيت والصغار.

ويعتقد الباحثون بأنّه كان لدى الهومو اركتوس لغة واضحة المفردات والمعاني شكّلت الرباط النفسي القوي بين مختلف أفراده وجماعاته التي تناقلت تجاربها ومعارفها عبر هذه اللغة، وعلى مرّ الأجيال.

لقد تخطّت تلك الكائنات مرحلة العزلة الفردية وتطورت ضمن المجموعة الإنسانية الواحدة التي تعاونت في السرّاء والضرّاء فكانت تعيش متكافلة متضامنة، تدافع عن نفسها

كجماعة، كما تجوع أو تشبع معاً، وكذلك استهلكت من موارد الطبيعة الحرّة ما يكفي لسدّ حاجـاتها فقط. ولم تشعر بالضرورة إلى التملّك الخاص بل كانت خيراتها مشاعية فبقيت بعيدة عن متاهات تجميع الثروة وصراعات الغنى والفقر(١).

إنسان النياندرتال:

في حوالي مئة ألف سنة قبل الميلاد ظهر نوع آخر من البشر أكثر تطوراً سواء في شكله الفيزيولوجي أو في إنجازاته. وقد عُثِرَ على هياكل هذا النوع لأوّل مرة في وادي النياندر قرب دوسلدورف في ألمانيا. . وقد أحدث هذا الاكتشاف في حينه ضجّة كبيرة ترافقت مع نشر كتاب دارون عن أصل الأنواع، ثم ما لبثت هذه الضجة أن خمدت بعد أن تتابعت عشرات الاكتشافات من مختلف القارات لتؤكد وجود نوع بشري جديد سُمِّيَ بـ «إنسان نياندرتال».

ولهذا الإنسان حجم دماغ كبير (١٠٠٠ ـ ١٢٠٠) سم٣، وجهه مسطّح وأقل بروزاً إلى الأمـام، وحـواجبه أقل غلظة من سلفه، وجمجمته أكثر تدوّراً، وجبهته أقل تراجعاً نحو الخلف ولـه ذقن شبـه واضحة. وصار عند العلماء معلومات أوسع عن حياته الاجتماعية والاقتصادية. فقد كان الناندرتاليون أكثر عدداً من سابقيهم، وانتشروا في مناطق جديدة وباردة في نصف الكرة الشمالي لم تُسكن من قبل، فوصـلوا حتى سيبيريا بعد أن أتقنوا صناعة الجلود الدافئة وارتداءها كما استغلّوا، على أكمل وجه، المغائر والملاجىء الطبيعية التي قاموا بتكييفها وإعادة تنظيمها وتقسيمها وإقامة المصاطب والجدران فيها أو توسيع مداخلها أو تضييقها حسب الحاجة. وكذلك طوّروا الاستفادة من النار التي عرفوا كيف ومتى يوقدونها وبطرق مختلفة كالقَدْح والحكّ متحررين من الاعتماد على النار الطبيعية. ولقد عثر العلماء على العديد من المواقد المنتظمة في المواقع التي أقام فيها هؤلاء الناس.

لقـد كان إنسـان النياندرتال صيّاداً ماهراً قتلَ حيوانات قوية وخطيرة كالماموث ووحيد القـرن مستفيداً من لحمهـا وجلدهـا وعـظمها. كما ابتكر أسلحة حجرية وطُرق تصنيع جديدة، فاستخدم لأوّل مرة النّوى المحضّرة بشكل جيد ليصنع منها مختلف أنواع المقاحف

(١) ـ راجع «عصور ماقبل التاريخ» للدكتور سلطان ص ٥٣ ـ ٥٦.

والسكاكين والمخارز التي تُنسب إلى ما يسمّى بالثقاف «الفلوازية ـ الموستيرية». وصنع الأدوات المركّبة ذات القبضات الخشبية والعظمية والنصلة الحجرية الحادّة، والأدوات الخشبية والعظمية الخالصة.

وكان إنسان النياندرتال أوّل من مارس المعتقدات الروحية والشعائر الدينية التي كرّست إنسانيته، فهو لم يترك موتاه تنهشهم الوحوش والطيور الجارحة، بل اهتم بهم ودفنهم بعناية واضحة. وقد عُثر على القبور النياندرتالية، ضمن المغائر والملاجىء أو في المواقع المكشوفة، في العديد من المناطق كفلسطين والعراق وفرنسا ومناطق الاتحاد السوفييتي السابق، وكانت معظمها قبوراً فردية منتظمة، وأحياناً جماعيّة وُضعت فيها الجثث مثنيّة أو جانبية أو مقلوبة وطُليت بالألوان وزُوِّدت بالأسلحة والأدوات والأطعمة وغير ذلك، مما يدل على أنّ إنسان النياندرتال كان عميق المشاعر وأنّه قد تأثّر بالموت واتخذ منه موقفاً محدّداً واعتقد أنّ الموت لا يُنهي الحياة ولذلك فقد زوّد إخوانه وأفراد أسرته وأحبابه من الموتى بكل ما يحتاجونه.

ولقد خصّ هذا الإنسان جماجم موتاه، أي رؤوسهم، بعناية متميّزة فَدَفَنَهَا بشكل مستقل(١).

الإنسان العاقل:

ظهر بين حوالي (٤٠ ـ ٣٥) ألف سنة قبل الميلاد نوع جديد وآخر من البشر مُحدِثاً انعطافاً كبيراً في مسيرة التطور البيولوجي والحضاري للإنسان، يسميه الباحثون: «الإنسان العاقل» (الهوموسابين). وقد عُثر على هياكل هذا النوع لأوّل مرة منذ عام ١٨٦٨ في موقع كرومانيون في فرنسا مقاطعة الدردون الشهيرة، ومن هنا أُطلق عليه اسم إنسان كرومانيون. وبعد ذلك تتابعت مئات الاكتشافات من مختلف المناطق وهي تدل على أنّ إنسان كرومانيون هو الجد المباشر لإنساننا الحالي، وهو الذي امتلك الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية الأقرب لنا، لأنّه لا يختلف عنّا إلاّ بقدر ما تختلف العروق البشرية الحالية عن بعضها. ومن أجل تمييز الأنواع القديمة منه عن الحديثة، يسميه الباحثون: الإنسان العاقل الحَفْري، بينما يُطلق على نوعنا اسم: الإنسان العاقل الحديث.

وهذا الإنسان العاقل طويل القامة بين (١٦٠ ـ ١٧٠) سم جمجمته مكتملة التدوّر،

(١) ـ «عصور ماقبل التاريخ» للدكتور سلطان محيسن ص ٥٦ ـ ٥٩.

جبهته عريضة ومستقيمة، وجهه مسطّح وذقنه بارزة وحجم دماغه يصل إلى مستوى دماغ الإنسان الحالي: (١٤٠٠ ـ ١٥٠٠) سم٣، وفكّاه وأسنانه مثل فكّي وأسنان الإنسان الحالي أيضاً.

إنّ ظهور الإنسان العاقل دفع الحضارة بشكل لم يسبق له مثيل إذ بلغ المستوى الاجتماعي والاقتصادي درجة عالية من التقدم والتنوّع. وقد تجسد ذلك مع العديد من الابتكارات الجديدة: كالأسلحة والأدوات الحجرية والعظمية مروراً بالبناء والفن والمعتقدات، وانتهاء بالاستقرار والزراعة والتدجين. وقد انتشر هذا الإنسان في كل أرجاء المعمورة ووصل إلى مناطق لم يدخلها أي نوع قبله، وكان أوّل من سكن القارة الأمريكية والاسترالية وأصبح النوع الإنساني الوحيد السائد في كل القارات[1].

وهكذا فقد عرف العلماء المختصون والمهتمون الكثير عن الإنسان القديم منذ ملايين السنين وحتى عصرنا الحالي. وبرز مع اكتشافاتهم المتتابعة والمتطوّرة علم مختص ومتميز أُطلِقَ عليه اسم: «علم ما قبل التاريخ»، وقد ابتكر علماء هذا العلم الكثير من الأسس والأساليب العلمية المتطوّرة بغية الوصول إلى حقائق مؤكّدة وموثّقة تزيدهم معرفة بالإنسان القديم وبيئته ومجتمعه وحضارته.

ولقد كان من أهم المؤشرات العلمية الصحيحة إلى وجود الإنسان القديم في منطقة ما هي الأدوات المصنوعة والتي صنعها الإنسان القديم بنفسه بذكاء ومهارة فائقة تشير إلى القدرات البشرية المتميّزة التي كان يتمتع بها ويستخدمها لتسهيل شؤونه في حياته اليومية على قدر احتياجاته المختلفة. ولقد أثبت الكاتب والباحث الفرنسي بوشير دوبرت أنّ الأدوات التي وُجِدَتْ في المناطق التي عُثِرَ فيها على هياكل الإنسان القديم إنّما كانت أدوات وأسلحة صنعها ذلك الإنسان واستخدمها في قتل الحيوانات الكبيرة كالدب والفيل ووحيد القرن حيث وُجِدَت تلك الأسلحة مقرونة بعظام تلك الحيوانات في موقع «أبيفيل» في حوض نهر السوم في فرنسا. وفي الفترة ما بين ١٨٤٧ ـ ١٨٦٠ قام العالم «دوبرت» بنَشْرِ ثلاثة مجلّدات عن آثار الإنسان في العصور الجليدية أثارت نقاشاً حادّاً شدّ إلى جانب المؤلف عدداً من المفكرين. وقد تدعمت استنتاجات دوبرت باكتشافات ثانية قام بها فرنسي آخر هو «غوردي» في الزمن نفسه والمنطقة نفسها، ولكن في موقع آخر هو سان آشيل حيث عثر على

(١) ـ المرجع السابق ص ٦١ ـ ٦٣.

أدوات حجرية معظمها فؤوس متطورة الصنع وأكثر دقة من التي اكتشفت في «آبفيل».

وهكـذا فإنّ عشرات الألوف من الأدوات والأسلحة التي صنعها الإنسان القديم على مسار تاريخه كانت من أهم المؤشرات على وجود القبائل البشرية القديمة، ولذلك فإنّ العلماء والبـاحثـين قد اهتموا بهذه الأدوات المصنّعة اهتماماً بالغاً ورقّموها وصنّفوها ووضعوها في المتاحف الخاصّة بالعلوم الطبيعية لتكون علماً ومعرفة وبياناً للعالمين.

كما وإنّ اهتمام الإنسان القديم بدفن موتاه بعناية واضحة وفي مقابر فردية وجماعية خاصة، قد ساعد العلماء كثيراً في دراسة ومعرفة الكثير من الحقائق عن هذا الإنسان، وقد عدّ العلماء دَفْنَ الإنسان القديم لموتاه من ضمن ممارساته الحضارية الكثيرة التي ميّزت إنسانيته[١].

ومن الغريب ـ مع كثرة المكتشفات والحقائق المتعلقة بالإنسان القديم وبيئته وحضارته ـ أنّ ثمة من لا يزال ينكر حقيقة وجود هذا الإنسان، ويخطّئ العلماء باعتبارهم إيّاه إنساناً، ويعتبرون أنّه كان مجرّد حيوان من الحيوانات الشبيهة بالإنسان والتي وجدت قبل الإنسان الأوّل بزعمهم. ولعلّه يفيدنا في هذا المقام السؤال التالي:

إذا لم تكن هذه الأدوات القديمة التي عثر عليها العلماء مع هياكل الإنسان القديم والتي تبـيّن أنّها كانت مصنـوعـة لأغراض وأهداف صناعية محدّدة مثل أدوات القطع والكشط والثقب والطرق وغيرها مثل الفؤوس والرماح التي وجدت مقرونة بالهياكل العظمية للحيوانات، أقول: إذا لم يكن الذي صنع هذه الأسلحة والأدوات هو الإنسان القديم، فمن الذي صنعها إذن؟ الدببة؟!

وهـذه القبور القديمة التي اكتشفها العلماء ووجدوا فيها هياكل موتى الإنسان القديم الذي دفنها بعناية فائقة واهتمام كبير إلى حد أنّ تحاليل العلماء قد أثبتت وجود آثار لأكاليل ورود وغبار الطلع في مقابر هؤلاء الموتى، الأمر الذي يشير إلى مرحلة الرقي الحسّي والفكري للإنسان القديم من خلال عنايته بموتاه[٢].

---

(١) ـ راجع كتاب: «حضارات العصر الحجري القديم» لمؤلفه فرنسيس أور فصل الممارسات الحضارية ص ١١٩.

(٢) ـ راجع كتاب حضارات العصر الحجري للعالم فرنسيس أور ص ١٢٠ تعريب الدكتور سلطان محيسن مطابع ألف باء الأديب دمشق ـ ١٨٨٩.

والآن، إذا لم يكن الإنسان القديم هو الذي قد دفن هؤلاء الموتى في مقابر خاصّة بهم، فمن الذي دفنهم؟ رجال الفضاء؟ ثم من يكون هؤلاء الموتى البشر؟ ومن أي عالم أتوا إلى الأرض ليموتوا ويُدفنوا فيها؟

ثم من عساه يكون قد رسم الرسوم القديمة الرائعة والموغلة في القدم[1] وهي رسوم الإنسان القديم التي عثر عليها العلماء في المغاور والكهوف تُصوّر حياة الإنسان القديم في أكثر من جانب ونشاط وأهمها الصيد، وتُصوّر الحيوانات التي كان يقنصها الإنسان القديم ويتغذّى على لحومها كالغزلان والبقر وغيرها؟ فمن هم الفنّانون الذين رسموا هذه الرسوم القديمة في الكهوف والمغاور التي وُجدت فيها هياكل الإنسان القديم؟ أتراهم يكونون مايكل آنجلوا وليوناردوا دافنشي؟! أنا شخصياً لا أتقن الرسم ولم أعش يوماً في كهف أو مغارة والحمد لله.

ثم من عساه يكون الذي سكن تلك البيوت معقّدة التنظيم والمؤلّفة من مجموعات من الوحدات السكنية المتصلة ببعضها والمقسّمة إلى غرف للنوم ومخازن ومواقد، بعضها بيوت مستقلة سكنت فيها أسرة كاملة، وهي متقاربة مع بعضها وتنتمي إلى القبيلة نفسها؟[2]!

إنّه الإنسان القديم بلا ريب. هو الذي صنع ورسم وهَنْدَسَ وبنى وحفر قبوراً دفن فيها موتاه. وهو قديم جداً أقدم من آدم الذي هو أبونا نحن عليه السلام.

إنّ آدم الذي تتحدث عنه المصادر الدينية سواء في التوارة أو في القرآن الكريم لا يعود تاريخه إلى أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، وهذا زمن لا يقارب أكثر من سبعة آلاف سنة على أكبر تقدير، بينما الإنسان الذي تحدثنا عنه وعن آثاره يؤرّخ العلماء ظهوره إلى عشرات الآلاف من السنين في حين يعود ظهور الإنسان الأقدم إلى ملايين السنين[3].

وهكذا بناء على ما اكتشف العلماء المختصون من آثار ومواصفات وتشابهات فقد توجهت أنظارهم إلى حقل آخر من الدراسات تناولت تطوّر العالم النباتي والحيواني في إطار قوانين

---

(١) ـ راجع الشكل في آخر الكتاب.

(٢) ـ «عصور ماقبل التاريخ» د. سلطان محيسن.

(٣) ـ انظر المراجع السابقة حول هذا الموضوع وراجع المصادر المختصة في ذلك والتي تشير إلى تاريخ ظهور آدم بحسب مصادر الكتب المقدسة.

الاصطفاء الطبيعي وبقاء الأفضل. وقد سَبَرَ غورَ هذا العلم الهام عدد غير قليل من العلماء كان أشهرهم «تشارلز داروِن».

داروِن ونظرية النشوء والإرتقاء:

في الصفحة ٣٩٧ من كتابه «أصل الأنواع» يتحدث داروِن عن الأسباب الغائية الغيبية وراء عالمنا المنظور فيقول:

«هنالك وراء العالم المنظور لا بد أن توجد علّة مؤثّرة يرجع إليها السبب في نشوء كل تحوّل»(١).

وفي السطور الأخيرة من كتابه المذكور يتحدث داروِن عن جمال وروعة الإبداع الذي بثّه الخالق في حياة المخلوقات وقِواها التي وهبها الله لها من وراء العالم المنظور فيقول:

«.. إنّ هناك جمالاً وجلالاً في هذه النظرة عن الحياة بقواها العديدة التي نفخها الخالق لأوّل مرة..»(٢).

تُرى كيف توصّل داروِن إلى الإيمان بجمال وجلال ما أبدع الخالق العظيم في الحياة؟

إليكم البيان باختصار:

في كتاب «هؤلاء درسوا الإنسان» لمؤلّفيه آ. كاردينر و آ. بربل، يتحدث المؤلفان عن العالم تشارلز داروِن فيقولان إنّه وُلِدَ في عائلة تتميّز بالعلم والعبقرية بالإضافة إلى الاهتمامات الأدبية. فقد كان جدّ داروِن(٣) لأبيه ذا عبقرية متعددة النواحي إذ كان طبيباً ناجحاً كما كان شاعراً وأديباً ومفكراً فلسفياً جريئاً في العلوم والفلسفة. أمّا تأمّلاته المدوّنة شِعراً حول منشأ الأنواع فقد أثبتت أنّه تطوري استبق آراء لامارك.

وكذلك كان المستر «ويدجود» جدّ داروِن لأمّه خزّافاً شهيراً واسع الخيال جريئاً ومستقل الرأي. ولم يكن أبو داروِن أقل تميّزاً من جدّيه في شخصيته واهتمامه بالعلوم. وقد اقتفى خطى والده في مهنة الطب وغدا طبيباً موسراً في مدينة شروزبري، وكان متميّزاً في شخصيته إلى حد أنّ بعض أقربائه كانوا يلقبونه بـ «المدّ».

---

(١) ـ منشورات مكتبة النهضة بيروت اسماعيل مظهر.

(٢) ـ أصل الأنواع لـ «تشارلز داروِن» ص ٧٧٧.

(٣) ـ آرازموس داروِن.

ذاك كان روبرت دارون والد العالم «تشارلز دارون». أمّا والدته فقد توفيت عندما كان في الثامنة من عمره. ورغم أنّ دارون في إحدى مراحل حياته الدراسية قد التحق بكليّة المسيح في جامعة كيمبردج لدراسة اللاهوت إلاّ أنّه كان فيها مجرد تلميذ عادي، إذ أنّ اهتمامه الوحيد في تلك السنين كان منصبّاً على الصيد وجمع الحشرات ودراستها. وقد أدّت به شخصيته الجذّابة إلى مجالسة ومصادقة عدد كبير من مدرّسيه في جامعة كامبريدج، كان منهم الأستاذ «جون هوسلو» الذي كان لمحاضراته في علم النبات فضل إثارة الاهتمام لدى دارون لدراسة التاريخ الطبيعي. ولقد كان هوسلو هو السبب في اختيار دارون ليكون العالِم الطبيعي في الرحلة الشهيرة حول العالم التي قامت بها السفينة «بيجل».

في عام ١٨٣٦ وبعد خمس سنوات من السير في الأرض والبحر والبحث والدراسة والاستكشاف عادت السفينة «بيجل» من رحلتها العلمية التي كان لها الدور الهام في اكتشاف ومعرفة أهم الحقائق الحياتية المتعلّقة بالخلق «أطواراً» مصداقاً لقول ربّنا عزّ وجلّ:
﴿وقد خلقكم أطواراً﴾

في عام ١٨٥٩ نشر دارون طبعة مختصرة للكتاب الذي كان يعدّه عن أصل الأنواع، وكان عنوان الكتاب عندما نُشر: «حول أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي، أو الحفاظ على الأنواع المحظوظة في تنازع البقاء».

ومع أنّ دارون كان يعدّ كتابه هذا هيكلاً وحسب إلاّ أنّ صفحاته حفلت بمئة حقيقة لدعم كل نقطة أساسية في إقامته الحجة على نظريته. وقد لعب عزوف دارون المتطرّف عن التصريح بآرائه ـ إلاّ حين يتمكّن من تهيئة البرهان الكاسح عليها ـ دوراً كبيراً في سرعة القبول بها وفي أثرها الكبير. وثمة عامل آخر أدّى إلى نجاحه في عمله وبيانه العلمي وهو تواضعه الذي اشتهر به في حين كان يمتدح عبقرية غيره من العلماء.

وبعد خمسة وثلاثين عاماً من الدراسة وتدوين الملاحظات، وثلاثة أعوام في الكتابة نشر دارون كتابه «تحدّر الإنسان» عام ١٨٧١.

ويبدأ دارون كتابه «تحدّر الإنسان» بذكر وجوه الشبه في تركيب الجسم عند جميع الحيوانات العليا بالإضافة إلى الإنسان، ويبيّن كما فعل في كتابه «أصل الأنواع» أنّ تشابهاً كهذا لا يمكن فهمه إلاّ إذا علّلته نظرية تقول بالتعديل الحاصل عن طريق التحدّر من

سَلَف مشترك: (الرئيسيات). وقال إنّه لا يمكن لأيّة نظرية أخرى أن تفسّر سبب وجود الأجـزاء المتشابهة مثلاً في يد الإنسان أو القرد، وحافر الحصان، وزعانف عجل البحر، وجناح الخفاش. ويضاف إلى هذه المجموعة الكبرى من الحقائق مجموعة أخرى تتوافر في علم الأجنّـة المقـارن، التي تبين التطور المماثل في مرحلة معينة في أجنّة الإنسان والكلب وعجل البحر والخفّاش والزواحف إلى آخر ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هناك الأعضاء الضامرة التي لا يمكن وجودها لَوْ لَمْ تأتِ من أسلاف كانت لديهم هذه الأعضاء بحالة كاملة تامّة.

ويبينّ داروِن أن الإنسان قد تطوّر مع الفقاريات في خط سلالي طويل وصل فيه إلى الإنسان القديم ثم إلى إنساننا الحالي.

وفي ختام الفصل المتعلّق بتطور الإنسان الجسماني، يردّ داروِن على الانتقاد الزاعم بأنّ ضعف الإنسان الجسماني، بالمقارنة مع بقية الحيوانات، يجعل من المستحيل عليه أن يبقى بعد صراع كالذي تفرضه فكرة النشوء والارتقاء عن طريق الانتخاب الطبيعي. ويقلب داروِن الحجـة على أصحـابها فيقول: إنّ ضعف الإنسان البيولوجي قد كان في الأغلب سلاحـه الأقـوى، لأنّه تطلّب منه إيجاد علاقة تعاونية بين الأفراد فأدّى إلى قيام المجتمع البشري، الذي يشكل المصدر الرئيسي لنجاح الإنسان في تكييفَ نفسه.

ولقد كان داروِن يعتقد أنّه حالما يصل الإنسان إلى المستوى الفكري والاجتماعي الذي يوفّـر له وسـائـل تحسين وضعه في البيئة ـ وذلك عن طريق استخدام الأدوات والأسلحة والمـلابس والملجأ والنار إلخ. . فإنّ الانتخاب الطبيعي يتوقف عن أداء مهمته في تعديل التركيب الجسماني، ويقول:

«إنّ الإنسان قد مُنِحَ القدرة عن طريق الملكات العقلية أن يبقى وهو في جسد غير متغيّر في حالة انسجام مع الكون المتغيّر».

إلّا أنّ الانتخـاب الـطبيعي لا يني يؤثّـر في تصرّف الإنسـان الفكـري والأخـلاقي والاجتـماعي. فالقيمة في صراع البقاء لم تعد لامتياز البنيان الجسماني، بل لامتياز الفكر والتعاون الاجتماعي، وأنّ الدلائل التي توصل إليها العلماء عن القبائل البشرية المنقرضة أو المنسية التي لا يزال ثمة آثار متوفرة عنها في أكثر بقاع العالم وعبر التاريخ، إنّما تشير إلى أنّ

إخفاقها قد كان بسبب عدم كفاءتها الفكرية والاجتماعية. ولقد كان دارون يعتقد أنّ دور الانتخاب الطبيعي في تطوّر المجتمعات المتحضّرة هو عملية كثيرة التعقيد كما أنّها عملية لا يمكن سبر غورها إلى المدى البعيد. وقد أكّد أنّ التقدم في المجتمع البشري لا يشكل قاعدة ثابتة، إذ أنّ بعض المجتمعات تنشأ وتحقق درجة رفيعة من الحضارة وتمتد رقعتها فوق مساحة متزايدة من الأرض، بينما يبقى البعض منها ثابتاً على مستوى بدائي من التطوّر، في الوقت الذي يمرّ غيرها من المجتمعات في طور انحلال، بعد أن كانت قد بلغت مرحلة متقدمة بعض التقدم، ثم تبيد في أكثر الأحيان(١).

يقول العلماء والمفكرون:

«لقد أقنع دارون العالم بأنّه: من الموت.. والمجاعة.. وحرب الطبيعة الخفية.. قد تأتّى الخير الأكبر وبصورة مباشرة»(٢) على جميع مخلوقات الله تعالى.

وهكذا فقد كان دارون عالماً أراد أن يعرف كيف بدأ الله الخَلْقَ فسار في الأرض ونظرَ وبحث ودرس مخلوقات الله عزّ وجلّ، فكان في ذلك عاملاً بقول الله تعالى:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

انطلقَ في السفينة «بيجل» خمس سنين يجمع النماذج والعيّنات من مخلوقات الله تعالى في كافة أنحاء الأرض، ثم عاد بها وتعمّق في دراساته من خلال التشريح والمقارنة، وتابع في ذلك ما يزيد على ثلاثين سنة. وبعد أن تمّت له البيانات والحقائق العلمية طلع إلى العلم والعلماء بنتيجة بحثه الشاق الطويل وسيره في الأرض لينظر كيف بدأ الله الخلق.

ومن الغريب أنّ ثمة في أوساط بعض (المثقفين) وأتباع بعض رجال الدين من يقول ويعلن أنّ دارون كان يهودياً وكان ملحداً. في حين أنّه كان مسيحياً ورعاً ـ على قول العلماء الذين عرفوه ووصفوه والمؤلّفين الذين كتبوا سيرة حياته ـ(٣)، كما أنّ دارون قد تلقّى تعليمه الديني في كلية المسيح لتعليم اللاهوت في جامعة كمبريدج، وقد دُفن بعد موته في كنيسة

---

(١) ـ راجع في هذه الدراسة كتاب: «هؤلاء درسوا الإنسان» بحث «تشارلز دارون» لمؤلفيه أ. كاردينر و.ـ بربل. ترجمة الدكتور أمين الشريف. منشورات دار اليقظة.

(٢) ـ المرجع السابق.

(٣) ـ راجع كتاب هؤلاء درسوا الإنسان، وقد سبق ذكره.

وستمنستر عام ١٨٨٢ قرب العالم اسحق نيوتن فكيف يكون يهودياً إذن؟ هذا مع اعتقادي الشخصي أنّ كون المرء يهودياً أو غير ذلك من حيث المعتقد لا ينتقص من قَدْره العلمي أو الأدبي، لأنّ المعتقد الديني هو شأن الإنسان ذاته، وهو موقف حرّ بين العبد وربّه، ولهذا يخطىء الذين يجعلون المعتقد الديني محل انتقاص أي إنسان كان، ولا يصحّ أن يكون النيل من المعتقـد هو الأسلوب العلمي الشريف في النقد والجدل والحوار. وما كان هذا سبيل الإسلام وهديه في يوم من الأيّام.

وأمّـا الدليل على أنّ داروِن كان مؤمناً بالله الخالق العظيم فيجد كل من يطالع كتابه الشهير «أصل الأنواع» حيث يقرأ المطّلع عليه الفقرات الإيمانية التالية وأمثالها، وأنا لا أنقلها إلى القارىء العزيز دفاعاً عن داروِن، بل بياناً للحق الذي يجب أن يكون أساساً ومنطلقاً في كل بحث علمي نزيه.

يتحدث ابرام كاردينر وأدوارد بربل مؤلفا «كتاب هؤلاء درسوا الإنسان» عن أزمة داروِن ومشكلته الجادة بعد اكتشافه لحقيقة التطوّر، فيقولان:

«أمّا داروِن، وهو المسيحي الورع، فقد كان إدراكه لهذه الحقيقة بمثابة اعتراف بجريمة قتل».

وذلك لأنّ معتقد الناس السائد بحسب الكتاب المقدس حول الخليقة كان يتناقض مع ما توصّل إليه داروِن. ومع ذلك فهو لم يجبن عن إعلان الحقيقة العلمية التي توصّل إليها. إلاّ أنّه من الجدير بالذكر أنّ داروِن كان يعتبر أنّ التطور إنّما يسير بناء على سنن وضعها الله عزّ وجلّ في طبيعة الأنواع مع كل تحوّلاتها واختلافاتها. فهو يعتبر أنّ المصرّين على القول بالخلق المستقل وبشكل مباشر بعيد عن التطور، إنّما هو تشويه لصبغة الله وخلقه في الطبيعة فيقول في الصفحة ٣٢٥ من كتابه «أصل الأنواع»:

«وما هذا الزعم، إلاّ تبديل غير ثابت بثابت، أو على الأقل غير معروف بمعروف، فهم يشـوهون صبغة الله وخلقه»[١].

وفي معرض وصفه لاستفادة العلماء من تركيب العين في صناعة المنظار، يتحدث داروِن عن عظمة الله تعالى في تدبير الكائنات فيقول:

«وهل لنا أن يخطر في عقولنا أنّ الخالق العظيم يدبّر الكائنات بقوّة عقلية مشابهة لقوة الإنسان؟»[٢].

---

(١) ـ «أصل الأنواع» ترجمة اسماعيل مظهر منشورات مكتبة النهضة بيروت.

(٢) ـ أصل الأنواع ص ٣٥٤.

ومن خلال إيمانه بالخالق الذي يدبّر الكون والمخلوقات من وراء العالم المنظور، يلفت دارون النظر إلى أنّه من الخطأ الاعتقاد بأنّ التحوّلات في المخلوقات إنّما ترجع في منشئها إلى تحوّل طبيعي لا علّة وراءه ولا سبب، فيقول:

«على ألّا نجعل اعتقادنا في هذه التحوّلات الذاتية التي مثّلنا لها في الأسطر السابقة يرجع في منشئه إلى تحوّل في طبيعة الحالات العامّة. إنّ هنالك وراء العالم المنظور لا بد أن توجد علّة مؤثّرة يرجع إليها السبب في نشوء كل تحوّل من تلك التحوّلات»(١).

نقرأ في القرآن الكريم عن سنّة الله عزّ وجلّ في النفع لخلقه حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾

(الرعد: ١٧)

ويتضح من كلام دارون في كتابه «أصل الأنواع» أنّه يؤمن بهذه الحقيقة العلمية التي تبيّن أنّ التطور أو الانتخاب الطبيعي إنّما هو سنّة أبدعها الله في مخلوقاته لفائدة هذه المخلوقات ونفعها، فيقول:

«.. تلك السنّة التي تؤيد أنّ كل ما يُستحدث من التراكيب في صور العضويات لم يحدث إلّا لفائدة الكائن الذي تطرأ عليه مطلقاً لوجه الفائدة»(١).

ويتحدث دارون عن القدرة غير المحدودة التي تعمل في المخلوقات خلال الأزمنة الطويلة فيقول:

«أيّة حدود يمكن أن تقف في وجه هذه القوة التي تعمل خلال الأزمنة الطويلة، فاحصة تكوين كل مخلوق وتركيبه وعاداته.. منتقية الجيّد وتاركة الرديء؟(٢) إنّي لا أرى حدوداً لهذه القوّة في تكييفها البطيء لكل كائن بالنسبة لأعقد علاقات الحياة المحيطة به»(٣).

هذا وإنّ الدارس لكتاب دارون «أصل الأنواع» يجد أنّ كلمات الخالق والمخلوقات ليس نادرة في الكتاب، وإنّما تأتي دائماً في مواضعها المناسبة.

---

(١) ـ أصل الأنواع ص ٣٩٧.

(١) ـ المرجع السابق ص ٣٨٧.

(٢) ـ قال تعالى: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ الرعد ١٧.

(٣) ـ أصل الأنواع ص ٧٥٥.

ويعتبر دارون أنّ سقيم الوجدان وحده هو الذي لا تتملّكه عاطفة الإعجاب الشديد حيال فحص خلية من النحل ملاحظاً الإبداع الذي فيها. ثم يؤكد بصريح العبارة أنّ الانتخاب الطبيعي وحده أعجز من أن يصل بهذه المخلوقات إلى مثل هذا الكمال، مما يشير إلى إيمانه بالخالق كلّي القدرة وراء كل ظاهرة وسنّة تأخذ بالمخلوق إلى حد الكمال، فيقول:

«إذا فحص شخص خلية من خلايا النحل، ولم تتملكه عاطفة الإعجاب الشديد بنظامها، فلا شك نقول: إنّه سقيم الوجدان فإنّك تسمع من كبار الرياضيين أنّ النحلة قد وصلت بطريقة عملية إلى حلّ معضلة من معضلات المسائل الرياضية الكبرى، فاستطاعت أن تبني خلاياها على شكل خاص، بحيث تسع أكبر كمية من العسل مع استهلاك أقل كمية ممكنة من الشمع. ولاحظ بعض الباحثين أنّ أبرع فنّان، مهما أوتي من حُسن الآلات ودقّة المقاييس، ليَشْعُر بأكبر مشقة في بناء خليات من الشمع تبلغ من كمال الوضع وحُسن النَسَق مبلغ ما تبني عشائر النحل في داخل بيوتها المعتمة»[1].

ويتابع دارون فيقول:

«أمّا الانتخاب الطبيعي فلا محالة عاجز عن التدرّج بغريزة البناء الهندسي إلى حدّ من الكمال أبعد من هذا، لأنّ القرص الذي يبنيه نحل البيوت على ما رأينا حتى الساعة كامل كل الكمال من حيث الاقتصاد في الجهد والشمع اللازم لبنائه»[2].

ويؤكّد دارون إيمانه بأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق الذي نفخ الحياة في المخلوقات أوّل مرة، فيقول:

«ولذلك فلا بدّ لي أن أستنتج من المقارنة والتحليل بالمثل أنّه من المحتمل أن تكون كل الكائنات العضوية التي عاشت فوق هذه الأرض قد انحدرت على شكل واحد أصلي بدائي **نفخ الله فيه الحياة أوّل مرة**»[3].

ويتحدث دارون عن القوانين التي طبعها الخالق العظيم على المادة فيقول:

«وبالنسبة لتفكيري فإنّ مذهب نشوء وانقراض الأحياء القديمة والحالية في هذا العالم. ليتفق مع أكثر ما نعرف من قوانين طبعها الخالق على المادة»[4].

ويطرح العالم دارون على منكري نظريته سؤالاً لا يزال ينتظر الجواب فيقول:

«ولكن هل يعتقدون حقاً أنّه في عدد كبير من الفترات في تاريخ الأرض قد أُوحي إلى بعض ذرات العناصر

---

(١) ـ دارون «أصل الأنواع» ص ٤٧٩.

(٢) ـ أصل الأنواع ص ٤٨٩.

(٣) ـ دارون، «أصل الأنواع» ص ٧٧١.

(٤) ـ المرجع السابق ص ٧٧٦.

أن تتحول فجأة إلى أنسجة حية؟ هل يعتقدون أنّه عند كل عملية مزعومة من عمليات الخلق نشأ فرد أو عدد من الأفراد؟ أَخُلِقَتْ الأعداد اللانهائية من أصناف الحيوانات والنباتات في هيئة بيض أو بذور أم في أفراد بالغين؟»[1].

ثم يتابع فيقول:

«ولكن لماذا يكون هذا قانوناً من قوانين الطبيعة لو أنّ كل نوع قد خُلِقَ مستقلاً؟ ليس في مقدور أحد أن يفسر ذلك»[2].

ويتحدث دارون عن مستقبل المخلوقات المأمون من خلال قانون الانتخاب الطبيعي، فيقول:

«.. ومن ثم يمكننا أن نتطلّع بشيء من الثقة إلى مستقبل مأمون لا يقل طوله عن طول ما سبقه من الزمان، وحيث أنّ الانتخاب الطبيعي يعمل فقط لصالح الكائن[3] ويدافع عنه، فإنّ جميع المواهب الجسدية والعقلية ستميل إلى التقدم نحو الكمال»[4].

ثم وفي وقفة علمية متأمّلة تشبه الصلاة، يتحدث دارون عن الروعة والجمال والجلال في الخَلْق فيقول:

«إنّه لمن الممتع..
أن نرقب ضفة يكسوها العديد من النباتات..
من كل الأنواع..
تصدح فيها الطيور،
وتزحف الديدان مخترقة التربة الرطبة،
ثم نتأمّل كيف أنّ تلك الصور الحيّة
المبنية أحسن بنيان..
نشأت كلّها بقوانين تعمل حولنا
وهكذا فإنّ أسمى هدف في هذا العالم،
هو نشوء الحيوانات الراقية..
ليتحقق مباشرة،

---

(١) - المرجع السابق ص ٧٧٠.

(٢) - المرجع السابق ص ٧٥٧.

(٣) - ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

(٤) - ص ٧٧٧.

من حرب الطبيعة،
ومن الموت.
إنّ هناك جمالاً
وجلالاً،
في هذه النظرة عن الحياة.
بقواها العديدة،
التي نفخها الخالق لأوّل مرة،
في عدد قليل من الصور،
أو في صورة واحدة.
وإنّه بينما ظلّ هذا الكوكب،
يدور طبقاً لقوانين الجاذبية الثابتة،
كانت وما زالت تتطور،
من مثل تلك البدايات البسيطة،
صور لا نهائية من الحياة،
غاية في الجمال،
وغاية في العجب.»[1].

وهكذا فقد كان تشارلز دارون عالِماً مؤمناً رغم اتّهام المتّهمين له بأنّه كان ملحداً ويؤيد الإلحاد بسبب قوله بالتطور والانتخاب الطبيعي.

ولكنّ ثمة الكثير من العلماء الذين فهموا وأيّدوا التطور والانتخاب الطبيعي، لم يجدوا في هاتين الحقيقتين العلميتين أي تعارض مع الإيمان بالله العظيم الخالق لكل شيء. ونجد مصداقاً لهذه الحقيقة في قول الدكتور أدوارد لوثر كيسيل المختص في علم الحيوان وأستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو، حيث يقول:

«والانتخاب الطبيعي هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور، كما أنّ التطوّر هو أحد عوامل عملية الخلق. فالتطور إذن ليس إلاّ إحدى السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي، لأنّه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه. ولا شك في أنّه من خلق الله وصنعه.

وإنّ الكائنات التي تنشأ بطريقة عملية الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التي تخضع لها. فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً، وكل ما يفعله أنّه إحدى الطرق التي تسلكها

(١) ـ الصفحة الأخيرة ٧٧٧ من كتاب دارون «أصل الأنواع».

بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة . . وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء».

ولهذا السبب فإنّ داروين يؤكد أنّه لا مبرر لأن يتأذّى الشعور الديني للناس بسبب نظريته، فيقول:

«ولا أرى أيّة أسباب وجيهة تجعل من الأفكار المتضمنة في هذا الكتاب ما يصدم الشعور الديني لأي إنسان»(١).

إنّ داروين لم يكن مجرد عالم مؤمن فحسب بل قد كان من خلال إيمانه بالغ الرقة والتأثّر، ولقد وصفه مؤلف كتاب: «سيَر علماء الغرب»، فقال:

«ولقد تألّم داروين في مذكراته أشد الألم لما يقاسيه السود من ظلم البيض واضطهادهم، ورثى لحالهم أبلغ الرثاء، وقد حمل في مذكراته حملة شعواء على هؤلاء المتاجرين بالأجساد البشرية، وصرّح عن كرهه للاستعباد قبل الحرب الأهلية الأمريكية بعشرين سنة بكلمات لم تلفظ في مثل نعومتها وعذوبتها شفتا أشد القائلين بإلغاء العبودية حماسة في أمريكا، فقال:

(إنّ هؤلاء الذين ينظرون بعطف على مالك العبيد، وببرودة قلب على هؤلاء العبيد المماليك، لم يحاولوا على ما يبدو لي، أن يضعوا أنفسهم محل هؤلاء العبيد، فيالله لهؤلاء المساكين المروّعين، ويالمنظرهم الذي يفتت الأكباد.

تصوّر أنّ سيف العبودية مسلّط فوق رأس امرأتك وأولادك الصغار، تصوّر ما ينتابك لو اغتُصبت امرأتك وأولادك منك اغتصاباً وفُصلوا عنك إلى الأبد، وبيعوا أمام ناظريك بيع السلع لأول مُزايد. فإذا رفعتَ عقيرتك بالاحتجاج، انهال عليك الضرب بسياط من نار.

وهاتيك العقود، عقود البيع، أعدّها رجال مسيحيون، ووجدوا لإعدادها عذراً. رجال يدّعون الإيمان بالله، ويجأرون بقول الكتاب المقدس: «أحبَّ جارك كنفسك» ويصلّون بانتظام قائلين: «لتكن مشيئة الله على الأرض»). »

وهكذا فتح داروين قلبه للآلام البشر كما فتح عينيه إلى سرّ تحدّرهم»(٢).

كان هذا هو العالم الإنسان داروين الذي درس اللاهوت في كلية المسيح في كيمبردج ودرس الإنسان وتحدّره. وقدّم للعالم بيانات ووثائق عملية فذّة خلّدته في تاريخ العلم

---

(١) - داروين «أصل الأنواع» ص ٧٦٧.

(٢) - راجع كتاب: «من سير علماء الغرب».

والعلماء، وبذلك كان لنظريته في التطور دور بارز جداً في بناء أسس العلم الحديث.

والآن.. ترى ما هي الأدلة التي جعلت علماء العصر يتشبثون بصحة نظرية التطوّر العضوي؟

نلخّص فيما يلي أهم الأسس التي ترتكز عليها هذه الأدلة:

أولاً: إنّ دراسة الحيوانات تؤكد أنّها تضم أنواعاً أعلى وأخرى أدنى، ابتداء من حيوانات تتألّف من خلية واحدة إلى حيوانات تتألّف من ملايين الخلايا. كما أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين هذه الحيوانات من حيث صلاحيتها ودرجة رقيها.

ثانياً: لو قارنتَ المعلومات التي جمعها العلماء عن المخلوقات مع الحقائق التي أخرجوها من جوف الأرض، فسترى أنّ ثمة ترتيباً ارتقائياً بحسب الزمن. إذ أنّ الحيوانات التي ظهرت على سطح الأرض قبل ملايين السنين لا تزال الأرض تحتفظ بعظامها المتحجّرة وتقول لنا: إنّ أجسام حيوانات العصر القديم كانت بسيطة التركيب، ثم ظهرت أنواع أرقى وأكثر تعقيداً على مرّ الزمن، وهذا يعني أنّه لم تظهر كل الأنواع إلى الوجود في وقت واحد، وإنّما ظهرت الأنواع البسيطة أولاً ثم ظهرت بعد ذلك الأنواع الأكثر رقياً وتعقيداً.

ثالثاً: ثم نكتشف حقيقة أخرى، وهي أنّ النظام الجسماني لكل الحيوانات متشابه جداً بالرغم من كل الاختلافات النوعية. فالطير يشبه السمك، وهيكل الحصان يشبه جسم الإنسان.. إلخ[1].

وليس صحيحاً أنّ جميع مفكري الدين وعلمائه قد أنكروا التطور وتهجموا عليه، بل إنّ الكثير منهم قد أيّده ودافع عنه وأعاد شرحه وبيانه وتأكيده أنّ التطوّر لا يتناقض مع المفاهيم الصحيحة للدين، كما أنّ الدين لا يتناقض مع الحقائق الصحيحة والسليمة للتطوّر. ولقد أصاب دارون في بعض تفسيراته وبيانه المتعلق بالتطور، إلاّ أنّه أخطأ في جوانب أخرى.

أصاب دارون وأبدع حين وضع المقدمة القيّمة في التشابه التشريحي بين الحيوانات، وأصاب حينما قال بالتطوّر، ولكنّه:

* أخطأ حينما حاول أن يفسّر عملية الارتقاء.

---

(١) ـ راجع كتاب: «الدين في مواجهة العلم» للمفكر وحيد الدين خان.

* كما أخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله.

وثمة حقيقة علمية هامّة لا بد من الأخذ بها حين القول بالتطوّر وهي :

* ماتم اكتشافه الآن باسم «الخرائط الكروموسومية»، إذ أنّنا نعلم الآن أنّ لكل نوع حيواني خريطة كروموسومية خاصّة به، ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية[1].

ورغم اشتهار نظرية دارون في التطوّر إلاّ أنّه لم يبتدع هو نظرية النشوء والارتقاء، فلقد تحدّث حكماء الصين قبل التاريخ المسيحي بآلاف السنين عن فكرة تدرّج الإنسان من بدايات أقل رقياً من الإنسان الحديث، وقد توسّع في هذه الفكرة فيما بعد الفيلسوف اليوناني أبقور (٣٤٢ ـ ٢٧٠) ق.م ثم الشاعر الروماني لوقريطس (٩٦ ـ ٥٥) ق.م ثم حلّت قصة الخليقة في الكتاب المقدس، محل نظرية النشوء والارتقاء وظلّت سائدة، حتى صحّح دارون الفهم الخاطىء لقصة الخليقة في العقيدة المسيحية من خلال نظرية النشوء والارتقاء التي أقامها على أساس علمي رصين[2].

وكذلك ثمة الكثير من الشواهد في كتب العرب والمسلمين التي تدل على أنّهم قد جمعوا كثيراً من الحقائق التي تؤيد فكرة النشوء والارتقاء.

نجد في كتابين للعلاّمة : «أبي أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن» المتوفى عام ٤٢١ هـ، أحدهما : «الفوز الأصغر» والثاني : «تهذيب الأخلاق» نجد شروحاً بيّنة جليّة تنم عن آراء أهل ذلك العصر في النشوء وتحوّل بعض الأحياء من بعض، ونقرأ في كتابه : «الفوز الأصغر» ما يلي :

«إنّ أوّل أثر ظهر من عالمنا هذا من نحو المركز، بعد امتزاج العناصر الأولى، أثر حركة النفس في النبات، وذلك أنّه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء.

وللنبات في قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى، إلاّ أنّا نقسمه إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ـ ليكون الكلام عليه أظهر، وأنّ لكل مرتبة من هذه المراتب غرضاً كبيراً، وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة، وبهذا الترتيب يمكننا أن نشرح ما قصدنا إليه من إظهار هذا المعنى اللطيف».

---

(١) ـ راجع «حوار مع صديقي الملحد» للدكتور مصطفى محمود.

(٢) ـ راجع كتاب : «من سير علماء الغرب».

وهكذا نجد أنّ ابن مسكويه يبينّ أنّ النبات كان أسبق في الوجود من الحيوان، لأنّ حركة أثـر النفس ـ أي الحياة في النبـات ـ كانت أوّل ما ظهر في الأرض بعد امتزاج عناصرها الأولى ـ على ما يقول.

ثم يتابع متحدثاً عن مرتبة أرقى في النبات فيقول:

«ولا يزال هذا الأثر يقوى في نبات آخر يليه في الشرف والمرتبة إلى أن يصير له من القوة في الحركة بحيث يتفرع وينبسط ويتشعب ويحفظ نوعه بالبذر، ويظهر فيه من أثر الحكمة أكثر مما يظهر في الأول، ولا يزال هذا المعنى يزداد في شيء بعد شيء ظهوراً إلى أن يصير إلى الشجر الذي له ساق وورق وثمر يحفظ نوعه».

ثم يتدرج ابن مسكويه من ذلك البيان إلى القول بأنّه:

«إذا انتهى إلى ذلك ـ أي النبات ـ صار في الأفق الأعلى من النبات، وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبقَ له صورة النبات، وقَبِلَ حينئذ صورة الحيوان».

«إنّ هذه المرتبة الأخيرة من النبات، إنْ كانت في شرفه فإنّها أوّل أفق الحيوان، وهي أدون مرتبة وأخسّها، وأوّل ما يرقى النبات في منزلته الأخيرة ويتميّز به عن مرتبته الأولى، هو أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج إلى إثبات عروقه فيها بما يحصل له من التصرف بالحركة الاختيارية، وهذه المرتبة الأولى من الحيوان ضعيفة لضعف أثر الحسّ فيها، وإنّما يظهر فيها بجهة واحدة أعني حسّاً واحداً هو الحس العام الذي يقال له حس اللمس، كما في الصدف وأنواع الحلزون الذي يوجد في شواطىء الأنهار وسواحل البحار».

تلك هي المراتب الانتقالية التي ذكرها ابن مسكويه في نشوء بعض الأحياء من بعض.

ثم يقول في المراتب التي تدرّج الإنسان ممعناً فيها حتى حصل على صورته الحاضرة، إنّها:

«مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذي قارب الإنسان في خلقته الإنسانية وليس بينها إلّا اليسير الذي إذا تجاوزه صار إنساناً».

ويقول في كتابه «تهذيب الأخلاق» في «الأجسام الطبيعية» بعد أن ذكر انتقال الحيوانات التي لم تُعطَ من قوّة الفهم إلّا النزر اليسير إلى مرتبة أرقى، ما يلي:

«ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ويشبهه من غير تعليم كالقرود وما أشبهها، وتبلغ من ذكائها أن تستكفي من التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياض لها. وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها، فإذا بلغ هذه المرتبة تحرّك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من

الله عزّ وجلّ يقتدر بها على الترقي والإمعان في هذه المرتبة، كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها، وأوّل هذه المراتب من الأفق الإنساني المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني، مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الأمـم التي لا تُميِّز عن القرود إلّا بمرتبة يسيرة، ثم تتزايد فيهم قوّة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى أواسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل.

وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عزّ وجلّ بالمحسوسات»[1].

وهكذا فإنّ القول بترقي الإنسان من صورة أدنى إلى صورة أرقى إنّما هو قول قديم غير مستحدث، وقد قال به أيضاً أوائل العلماء المسلمين كما رأينا.

وينقل الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ رغم إنكاره للتطور ونظرية النشوء والارتقاء ـ عن ابن مسكويه من كتابه الفوز الأصغر ما يلي:

«ويقـول ابن مسكويه: (فأمّا اتصال الموجودات التي نقول أنّ الحكمة سارية فيها، حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قِبل الواحد الحق في جميعها، حتى اتصل آخر كل نوع بأوّل نوع آخر، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزاً كثيراً على تأليف صحيح، وحتّى جاء من الجميع عقد واحد»[2].

لم يكن ابن مسكـويه الـوحيد من بين علماء العرب المسلمين الذين تحدّثوا عن النشوء والارتقاء. إذ نقرأ لابن خلدون في مقدمته الشهيرة بياناً يتعلق بالتدرّج في التكوين يقول فيه:

«ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج: آخر أفق المعادن متصل بأوّل أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأوّل أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلّا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أنّ آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أوّل أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية».

وهكذا نجد لهذين العالمين المسلمين في وصف وتسلسل المخلوقات ونموها وارتقائها رأياً بديعاً يشيران فيها إلى مذهب النشوء والارتقاء إشارة صريحة لم يزد عليها المتأخرون إلّا في التفـاصيل، فهما يقولان: إنّ الموجودات مراتب، وكلها سلسلة متصلة.. وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم لا يزال يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق النوع الذي يليه. يبدأ النبات في أفق الجماد، ثم يترقى حتى يبلغ أعلى درجة، فإذا زاد عليها قبِل صورة الحيوان.

(١) ـ راجع هذه المقتطفات لـ «ابن مسكويه» في كتابيه المذكورين، وكذلك في مقدمة ترجمة الأستاذ اسماعيل مظهر لكتاب دارون «أصل الأنواع» ص ٨ ومابعدها.

(٢) ـ راجع كبرى اليقينيات الكونية ـ بحث الإنسان.

وكذلك الحيوان يبدأ بسيطاً ثم يترقى حتى يصل إلى مرتبة قريبة من الإنسان. ثم يخلصان إلى القول بأنّ الإنسان نفسه لا يزال يترقّى ويزداد ذكاء وصحة في التفكير وجودة في الحكم، حتى يبلغ الأفق الأعلى والأرقى.

ويعترض الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على الأخذ من علوم العلماء المسلمين لدعم القول بالتطور والنشوء والارتقاء ويعتبر ذلك طُرفة من الطرائف، فيقول:

«ومن الطرائف أنّ بعضاً ممن لا تزال تستهويهم بحوث الغربيين وأفكارهم، يبحثون لكل فكرة يقول بها باحث غربي عن تأكيد لها في بطون القرآن أو السنّة أو فيما دوّنه عالم من علماء المسلمين.. ولمّا سمعوا بنظريات التطور، أسرعوا يبحثون عن مؤيد لها في أيّ مصدر إسلامي، حتّى إذا عثروا على هذا الذي يقوله كثير من علماء المسلمين من أمثال ابن خلدون وابن مسكويه، وضعوا أيديهم من ذلك على ما يشبه كنزاً ثميناً اكتشفوه. وراحوا يؤكدون ببالغ الزهو والفرح بأنّ علماء المسلمين قد سبقوا داروين بمئات السنين..

ونحن نقول: لو أنّ عالماً من علماء المسلمين سبق داروين إلى نظريته التي جاء بها، لما دلّ ذلك إلّا على سبقِ ذلك العالم عليه في السخف والباطل الذين نبرأ إلى الله منهما»(١).

ويبني الدكتور البوطي تسخيفه لهؤلاء العلماء، على بيانات يقدمها في بحثه «الإنسان» في كتابه كبرى اليقينيات الكونية». ومن النزاهة والإنصاف إطلاع القارىء الكريم على بيان الدكتور البوطي المتعلق بذلك، وكما يفهمه هو من خلال ما يقدم من جدل.

يقول في مطلع بحثه «الإنسان»:

«الإنسان مخلوق ـ من حيث الجنس ـ من عنصر التراب، ومتكاثر من حيث المصدر من الإنسان الأوّل آدم عليه السلام».

ويتابع: «الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتمّ مظهر وأحسن تقويم، لم يتطوّر خلال شيء من تاريخه تطوّراً نوعياً يتدرّج به من فصيلة إلى أخرى»(٢).

ثم يشرح بيانه هذا فيقول:

«.. أي أنّه منذ خُلِق إنّما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمرّ عليها وعُرف بها، أي لم يُنشّأ متنقلاً من شكل إلى آخر»(٣).

---

(١) ـ الأستاذ البوطي في كتابه: «كبرى اليقينيات الكونية» الصفحة ٢٧٢ الطبعة الثامنة.

(٢) ـ الصفحة ٢٤٥ من الكتاب المذكور.

(٣) ـ المرجع نفسه الصفحة ٢٥١.

ثم يمعن الدكتور البوطي في الشرح والبيان فيقول :

«وإذا كان الأمر كذلك، وجب أن نعلم بأنّ الإنسان لم ينتقل خلال تاريخه كلّه، في أي تطور نوعي. كأن يقال أنّه ترقى من فصيلة إلى أخرى، و تدرّج من مظهر نوعي في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر»(١).

يقول الدكتور البوطي هذا رغم أنف البحوث العلمية الطويلة الشاقة وجهود العلماء واكتشافاتهم، ورغم وجود الأعداد الكثيرة للهياكل العظمية للإنسان القديم التي لا تزال موجودة ومحفوظة حتى اليوم، ورغم عثور العلماء على أعداد لا تحصى من الأسلحة والأدوات التي صنعها الإنسان القديم، ويظل يقول هذا رغم اكتشاف الآلاف والآلاف من أثريات الإنسان القديم ورسومه* وأدواته التي صنعها بنفسه ودرسها العلماء وتأكّدوا من زمنها الذي يعود إلى دهور وأزمان طويلة قبل ظهور آدم عليه السلام والذي هو أبو الحضارة الإنسانية الحديثة.

ويقول هذا رغم قول ربّنا عزّ وجلّ :

﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً﴾.

ويقول: إنّ الإنسان لم يتطور ولم يتدرج ولم يترقَّ، رغم قول ربّنا تبارك وتعالى :

﴿وبدأ خَلْق الإنسان من طين * ثم جعل نَسْله من سلالة من ماء مهين * ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾(٢).

رغم هذا كلّه، وبعد هذا كلّه يقول الدكتور البوطي :

«وكما ترى، فإنّ هذه الحقيقة القطعية التي يجب على المسلم الاعتقاد بها، تتناقض مناقضة كلية مع ما يسمّى بنظرية النشوء والارتقاء، التي تتبنّى فرضية تاريخية أخرى عن الإنسان، وهي أنّه تسلسل ضمن حلقات مختلفة من التطور النوعي، تدرّج فيها من البسيط إلى المعقّد، ومن البدائية إلى الرقي، في كل من الشكل والفكر معاً»(٣).

ويزيد الأستاذ البوطي قرّاءه بياناً وتعليماً فيقول بأنّ حقيقة خَلْق الإنسان من تراب وتكاثره من حيث المصدر من آدم عليه السلام :

---

(١) - الصفحة ٢٥٢ من المرجع المذكور.

(*) - راجع رسوم الإنسان القديم في آخر الكتاب.

(٢) - راجع البرهان القرآن لتطور الإنسان في بداية هذا الفصل.

(٣) - الصفحة ٢٥٣ من كتاب الدكتور «كبرى اليقينيات الكونية».

«ليست من المسائل المتعلّقة بالحسّيات حتى تخضع لدليل التجربة والمشاهدة»[1].

ولذلك فهو يعتقد أنّ من قلّة الأدب التفكّر والبحث في علم ما لم يُبيّنه اللهُ ولا رسوله في مجالات معينة، فيقول:

«ومن الأدب مع كتاب الله تعالى وسنّة رسوله أن نَكِل علم ما لم يبيّنه الله عزّ وجلّ ولا رسوله، إلى علم الله وحده»[2].

وهنا نقول: إنّ بحث التطوّر في الخلق ونظرية النشوء والارتقاء هو بحث علمي يعتمد على السير في الأرض والنظر كيف بدأ الله الخلق. وقد أمر الله عزّ وجلّ أوّل ما أمر المسلمين بذلك في كتابه المجيد فقال:

﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

ولذلك فنحن نعتقد أنّ البحث في خلق الإنسان والنظر والتفكّر في كيف بدأ الله الخلق، إنّما هو غاية في الأدب مع كتاب الله تعالى وليس العكس!

رأي علماء الدين المسيحي في دارون:

والحقيقة أنّ ثمة الكثير من العلماء المسلمين من لم يعتبر القول بالتطوّر والنشوء والارتقاء سخافة ولا قلّة أدب، ولذلك فقد تحدّثوا عن العالِم دارون بتقدير واحترام وإنصاف. كان الشيخ العلاّمة نديم الجسر صاحب الكتاب الشهير «قصة الإيمان» واحداً من أبرز هؤلاء العلماء المنصفين الذين صانوا الدين بمواقفهم الفكرية من التشويه الذي ألحقه غيرهم به.

يتحدث الشيخ نديم الجسر عن دارون فيقول:

«لقد كانت الحملة على دارون قاسية هوجاء إلى الحد الذي خرج به أعاظم رجال اللاهوت في العالم، وكثير من رجال العلم والسياسة والصحافة، عن أدب النقاش العلمي إلى السبّ والشتم والتهكم والأذى والتكفير، ويكفيك أن تعلم من أخبار هذه الحملة الهوجاء، التي استمرّت في ضراوتها إلى نهاية القرن التاسع عشر، فنجد مثلاً: أن أسقف أكسفورد وهو من أكبر العلماء قد أعلن في خطبة ألقاها أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني، فقال: «إنّ دارون ارتكب أشنع جريمة حينما حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق). وقال

---

(١) - كبرى اليقينيات الصفحة ٢٤٩.

(٢) - الصفحة ٢٥٠ - ٢٥١.

الكاردينال «مانينغ»: إنّ مذهب دارون هو فلسفة وحشية تؤدّي إلى إنكار الإله). وكان الدكتور «بيه ريه» كبير أساقفة ملبورن قد وضع كتاباً حمل فيه على دارون واتهمه بأنّه يزرع في نفوس الناس بذرة الكفر وإنكار الكتب السماوية. وقال المونسنيور «سه غور» في فرنسا عن مذهب دارون: (إنه من المذاهب المرذولة التي لا يؤيّدها إلاّ أحط النزعات وأسفل المشاعر، فأبوها الكفر، وأمّها القذارة). وأعلن «لوتاردت» أستاذ اللاهوت في لايبزغ: (إنّ فكرة النشوء تناقض الحكمة الإلهية مناقضة تامّة، وإنّ فكرة الخلق هي ملك للدين لا للعلم الطبيعي، وإنّ كل الهيكل الأعلى للدين، إنّما يقوم على مذهب الخلق). ودعا أحد علماء اللاهوت في سويسرا إلى القيام بحرب صليبية ضد: (هذا المبدأ الخاطىء المفسد). وقالت مجلة جامعة دبلن: (إنّ دارون يبحث كيف يخلع الله عن عرشه). ووصف العلاّمة الدكتور قسطنطين جيمس في كتابه: «الداروينزم أو الإنسان القردي»، الذي نشر في باريس سنة ١٨٧٧، مذهب دارون بأنّه (أسطورة وأضحوكة). وتهكّم الوزير غلادستون نفسه على المذهب في إحدى خطبه. وقال الدكتور «هدج» من جامعة برنستون: (أنّه يجب منع نشر أمثال هذه المذاهب التي تنافي الكتب المقدّسة). وقال الدكتور «فيلد» من الجامعة نفسها: «إنّ التوفيق بين مذهب النشوء وبين التنزيل غير ممكن، وإنّ من يؤمن به، ولو ثبت علمياً، يكون كافراً بالله). وقال الدكتور «لي»: (إنّه لايمكن بأي أسلوب من أساليب التفسير أن نؤوّل لغة الكتاب المقدس بتوسّع يحتمل القول بهذا المذهب. ونَعَتَ دارون وأتباعه بأنّهم مبشّروا البلاليع القذرة). وفي الكلية الأمريكية في بيروت طُرِدَ الأساتذة الذين ظهر أنّهم يقولون بمذهب دارون»[1].

ـ كما طُرد أستاذ أمريكي لنفس السبب وحوكم بهذه التهمة في أمريكا عام ١٩٥٢[2].

لا شك في أنّ الدين لا يمكن أن يكون أبداً محلاً للشتم والسب والاستهزاء من العلم والعلماء أو غيرهم من الناس، بل الدين منار هداية إلى الله الحق لكلّ من يروم الحق بشرف وإخلاص.

آدم الخليفة في الأرض:

لا يزال يعتقد الكثير من الناس من خلال تعليم معلّميهم أنّ آدم المذكور في القرآن الكريم والكتاب المقدّس هو أوّل إنسان خلقه الله على الأرض بعد أن جَبَلَه من تراب وماء فصار طيناً، فشكّله في شكل إنسان كامل ثم تركه يجف، ثم نفخ فيه الروح فصار حيّاً، ثم أمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا ما عدا إبليس ـ الذي كان من الملائكة على حدّ زعم

---

(١) ـ قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ مادة تطور.

الزاعمين، أو فهم الفاهمين - رفض السجود لآدم فكان من الملعونين إلى يوم الدين، لأنّه رفض أمر ربه وتكبّر على آدم وقال: أنا خير منه.

صحيح أنّ إبليس اللعين قد رفض أمر ربه بالسجود لآدم معتقداً أنّه خير منه، فسقط في جحيم تكبّره وصار شيطاناً من الهالكين، ولكن:

من هو آدم الذي استحق سجود الملائكة؟

ومن هو إبليس الذي سوّلت له نفسه فعصى ربه بتكبّره فصار شيطاناً هالكاً ملعوناً إلى يوم يبعثون؟

ما زالت هذه القصة غامضة مبهمة، ولا تزال الأسئلة تدور حائرة في عقول المتفكرين من الناس تروم جواباً يروي غليل العقل والمنطق السليم. إذ:

* كيف تسجد الملائكة لآدم وقد حرّم الله السجود لغيره عزّ وجلّ فقال:

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾

(النجم: ٦٢)

* وكيف يعصي إبليس ربه إذا كان من الملائكة، وقد قال ربّنا عزّ وجلّ عن الملائكة إنّهم:

﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾

(التحريم: ٦)

* وكيف يكون آدم عليه السلام نبيّاً محدّثاً أي صاحب شريعة للناس ينبّئهم عن الله، ثم يكون وحيداً في الأرض ليس من بشر فيها غيره ولا من يسمع منه أو يصدّق به أو يأخذ من تعليمه؟

* ثم كيف يمكن لنبيّ أن يعصي ربه، وماذا كانت معصية آدم النبي عليه السلام؟

*وما هي الشجرة التي أكل منها آدم، فعصى بذلك ربه فأخرجه من الجنّة؟

* ثم كيف يُخرج من الجنّة من أدخله الله فيها، وقد قال ربّنا عزّ وجلّ عنها:

﴿وما هم منها بمخرجين﴾

(الحجر: ٤٨)

أي أنّ الله لا يُخرج من الجنّة من أدخله فيها.

* إنّ الإنسان العادي إذا كان صائماً فأغواه الشيطان فأكل فأفطر نعدّه ضعيفاً غير جدير بالأسوة والإمامة، فكيف يمكن أن نفهم أنّ الشيطان قد تمكّن من إغواء آدم النبي عليه السلام فأكل من طعام حرّمه الله عليه وهو أبو حضارتنا الإنسانية وأبو الأنبياء وحامل رسالة الله لقومه؟

* ثم إنّ آدم الذي يذكره القرآن الكريم والكتاب المقدّس والذي أرسله الله قبل نوح لا يعود تاريخه إلى أكثر من حوالي ستة آلاف سنة مضت، فكيف يكون هو الإنسان الأوّل وقد ثبت في بحوث العلماء وآثار الإنسان أنّه يعود إلى أزمان ودهور أبعد من ذلك بآلاف، إن لم يكن بملايين السنين؟

وهكذا ثمة الكثير من الأسئلة المنطقية التي تُشغل العقل المتفكر ولا بد من الإجابة عليها، ونبدأ ببحث قضية الإنسان الخليفة في الأرض.

تبدأ القصة في القرآن الكريم من قول ربّنا عزّ وجلّ:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾

(البقرة: ٣٠)

قالوا: إنّ الله عزّ وجلّ قد خلق آدم في الجنّة، ثم أنزله بعد ذلك إلى الأرض(١) بينما نجد هنا أنّ الآية الكريمة تحدّد الأرض موضعاً للخليفة الذي أراد الله أن يجعله فيها فقال: ﴿في الأرض﴾

وكذلك يختلف الشيخ محمد متولي الشعراوي مع الدكتور البوطي في أنّ الله تعالى قد خلق آدم في الجنّة فيقول في كتابه «أسئلة محرجة وأجوبة صريحة»، ما يلي:

«فهموا جيداً أنّ الله في أوّل بلاغ عن آدم قال:

﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾..

فكان آدم مخلوق على الأرض.. فلا تظلموه وتقولوا إنّنا خُلقنا للجنّة فأخرجتنا معصية آدم إلى الأرض»(٢).

---

(١) - يقول الدكتور البوطي: «لاشأن لنا بالبحث في كيفية نزول آدم من الجنة والتحقيق في البقعة التي هبط إليها من الأرض «راجع كبرى اليقينيات» ص ٢٥٠.

(٢) - الصفحة ٥٥ من كتاب «أسئلة محرجة وأجوبة صريحة» للشيخ محمد متولي الشعراوي.

ولقد بيّن ربنا في القرآن الكريم أنّ الجنّة التي هي دار الجزاء للمؤمنين إنّما تكون قراراً من دخلها لا يخرج منها، فقال:

﴿وما هم منها بمخرجين﴾

(الحجر: ٤٨)

ولذلك فإنّ آدم لا يمكن أن يكون قد خُلِقَ في الجنّة السماوية ثم أُهبط منها إلى الأرض. ومن المهم أن نلفت النظر هنا إلى أنّنا نتحدّث عن آدم الذي هو أبو الحضارة الإنسانية الحديثة، وليس عن الإنسان الأوّل القديم، ولا عن أيّ من الأوادم الذين سبقوا آدم الحديث وكانوا مؤسّسين للحضارات التي سبقت حضارتنا الحديثة هذه، وأشار إليها القرآن في مواضع متعدّدة فقال ربّنا عزّ وجلّ:

﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾

(فاطر: ٣٩)

أي أمماً يخلف بعضكم بعضاً، كما قال تعالى:

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوّة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾

(الروم: ٩)

قد كانت حضارات وبادت، وكانت أمم واستخلف الله بعدها وأنشأ أقواماً من ذرية أقوام آخرين، وإنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

وأمّا عن حقيقة أنّه قد سبق آدم الذي هو أبو حضارتنا أوادم كثيرون، فنقرأ في التفسير الكبير للعلاّمة الإمام فخر الدين الرازي في معرض تفسيره لقول الله عزّ وجلّ:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾

ما يلي:

«ونُقِلَ عن (الإمام) محمد بن علي الباقر عليه السلام أنّه قال: «قد انقضى قبل ادم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر»[1].

---

(١) ـ التفسير الكبير المجلد العاشر الجزء ١٩ الصفحة ١٧٨.

وكذلك يذكر الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه «الفتوحات المكيّة» حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في معناه أنّ الله عزّ وجلّ قد أوجد على الأرض قبل آدم الأخير ليس أقل من مئة ألف آدم*.

ويؤكد الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حقيقة أنّ عدداً من المتصوفة قد قالوا بوجود أوادم كثيرين قبل آدم الأخير عليه السلام، فيقول:

«وإيّاك أن تلتفت إلى ما يقوله بعض المتصوّفة(1)، من زَعْم أنّ آدم عليه الصلاة والسلام المذكور قصة خلقه في القرآن ـ كان مسبوقاً بأوادم كثيرين غيره. ثم يذهبون يجرون ذيل الخيال في تفصيل الحديث عن ذلك»(2).

إذن نحن في حديثنا هنا عن قصة آدم إنّما نقصد آدم الأخير الذي هو أبونا والذي ذكره الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وجاء ذكره في تفسير الإمام العلاّمة فخر الدين الرازي الذي قال عنه العلماء بأنّه مجدد القرن السادس.

ونعود لقول ربّنا عزّ وجلّ:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾

نلاحظ هنا أنّ الآية الكريمة تتحدث عن: «خليفة» وليس ثمة تعيين لهذا الخليفة حتى نقول إنّه آدم. وجاء في تفسير الإمام فخر الرازي، قوله:

«الخليفة من يخلف غيره، ويقوم مقامه، قال تعالى:

﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض﴾.

فأمّا «المراد بالخليفة من؟ ففيه قولان، أحدهما: أنّه آدم عليه السلام.. والثاني: أنّه ولد آدم ـ أي ذريته ـ .. وأمّا الذين قالوا المراد آدم عليه فقد اختلفوا في أنّه تعالى لِمَ سمّاه خليفة وذكروا فيه وجهين، الأوّل: بأنّه تعالى لما نفى الجن من الأرض وأسكن آدم الأرض كان آدم عليه السلام خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه. يُروى ذلك عن ابن عباس»(3).

إنّ لفظ الجن ينطبق بشكل صحيح على المجموعات البشرية التي كانت تسكن الكهوف تحتمي فيها من هجمات الحيوانات وعوامل الطقس. كما كانت هذه القبائل والمجموعات

(*) ـ راجع المصدر المذكور.

(1) ـ يعلم المسلمون أن الإمام محمد الباقر ليس من المتصوفين بل هو من أئمة آل البيت عليهم السلام.

(2) ـ الصفحة 250 من كتاب: «كبرى اليقنيات الكونية» للدكتور البوطي.

(3) ـ المجلد الأول الجزء الثاني من التفسير الكبير للرازي.

تحتمي أيضاً من هجمات بعضها على بعض وذلك بتحصّنها في مواقعها السكنية من الكهوف التي تتجمع فيها وتأوي إليها.

ويبدو من كلام ابن عبّاس في تفسير الرازي أنّه في مرحلة ما كادت بعض هذه القبائل البشرية من الجن أن تُفني بعضها في القتال وسفك الدم، وهذا ما سمّاه: نفي الله للجن من الأرض. وعلى بقايا هؤلاء البشر الذين بدا وكأنّهم سينتهون ويفنون من الأرض أراد الله أن يجعل خليفة في الأرض فقال:

﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾.

في الوقت الذي اعتقدت الملائكة أنّ الجنس البشري سيفنى من على سطح الأرض وينتهي بسبب أنّه يفسد فيها ويسفك الدماء، فبيّن الله لنا في القرآن الكريم حقيقة خواطرهم وصوّرها بقوله:

﴿قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء﴾

(البقرة: ٣٠)

لم يكن هذا احتجاجاً من الملائكة في مواجهة الله سبحانه وتعالى، إذ من ذا الذي يجرؤ على مواجهة الله في إنكارٍ أو تحدّ أو احتجاج؟ قال تعالى:

﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾

(الأنعام: ٩١)

إذن، ما من مواجهة مع الله لأنّ الله تعالى لا تحدّه جهة، كما أنّ ملائكة الله عزّ وجلّ:

﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾

(الأنبياء: ٢٧)

وإنّما هو تصوير من الله عزّ وجلّ لما جال في خواطر الملائكة من تساؤل واستفهام. ومَنْ يعلم ما في النفوس والخواطر إلاّ الله؟

كان قرار الله تبارك وتعالى أنّ آدم وقومه سيخلفون من سبقهم من البشر في حضارة جديدة يؤسسها آدم عليه السلام ثم تتوجه صاعدة حتى تنتهي بالخليفة الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كما سنبين عمّا قليل بعون الله تعالى.

ويبيّن الإمام الرازي الرأي الآخر فيقول:

«والثاني: إنّما سمّاه الله خليفة لأنّه يخلف الله في الحكم بين المكلّفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي متأكد بقوله:
﴿إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾»[1].

إنّ قوله عن آدم: «لأنّه يخلف الله في الحكم بين المكلفين» يشير بكلّ وضوح إلى أنّ آدم عليه السلام قد كان نبيّاً ومشرّعاً أيضاً، لأنّ كلمة «التكليف» تقتضي وجود شريعة من الله عزّ وجلّ، وهذا يقتضي وجود بَشَر حالَ بعثة آدم عليه السلام ليأخذوا عنه هذه الشريعة وهذا التكليف.

ويتابع الإمام الرازي، فيقول:

«أمّا الذين قالوا المراد ولد آدم، فقالوا إنّما سمّاهم خليفة لأنّهم يخلف بعضهم بعضاً وهو قول الحسن ويؤكده قوله عزّ وجلّ:
﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾
والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى وقُرِىء خليقة بالقاف»[2].

وأمّا عن حقيقة هذا الحوار بين الله تعالى والملائكة، فيقول الإمام الرازي:

« فإنْ قيل ما لفائدة في أن قال الله تعالى للملائكة: ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾ مع أنّه منزه عن الحاجة إلى المشورة، والجواب: أنّه تعالى علم أنّهم إذا اطلعوا على ذلك السرّ أوردوا ذلك السؤال، فكانت المصلحة تقتضي إحاطتهم بذلك الجواب، فعرّفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السؤال ويسمعوا ذلك الجواب»[3].

محمد صلى الله عليه وسلم هو الخليفة الحق لله تعالى:

ولا يمكن أن يكون غيره، لأنّ خليفة الله تعالى يجب أن يتصف بالكمالات التي تليق بخلافته لله، والذي لا بد أن تتجلّى فيه أيضاً كمالات صفات الله تعالى.

لو أنّك أردت أن تستخلف في بيتك أو عملك خليفة يقوم مقامك، أما كنت تحب أن يكون مثيلاً لك في كل شيء على أقل تقدير؟ إذن، وإن كان يجوز اعتبار كل نبي بمثابة

(١) ـ المجلد الأول الجزء الثاني الصفحة ١٦٥.
(٢) ـ المرجع السابق الصفحة ١٦٦.
(٣) ـ التفسير الكبير ص ١٦٦.

خليفة لله في الأرض، إلاّ أنّ مقام الخلافة الكاملة لا يمكن أن يتجلّى إلاّ في شخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحده. ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أنّ الله عزّ وجلّ حين قال:

﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾

إنّما كان يشير إلى تجلّيه الأكمل والأتم في شخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام العالمين صلى الله عليه وسلم عدد خلقه ورضى نفسه وزِنَةَ عرشه ومداد كلماته. ويؤكد هذا الفهم حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أورده الإمام الرازي في تفسيره فقال:

«روى عبدالرحمن بن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: (دُحيتْ الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهم أوّل من طاف به وهو في الأرض التي قال الله إنّي جاعل في الأرض خليفة»[1].

يشير هذا الحديث الشريف إلى أنّ خليفة الله إنّما يكون في مكة. ومن كان خليفة لله في مكة غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

لقد كانت الملائكة تقصد بالخليفة: البشر، ولذلك قالوا:

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾.

فإذا كان الملائكة قد فهموا من قول الله تعالى «خليفة» أنّه يقصد خليفة لـه هو سبحانه وتعالى، فكيف إذن سارعوا إلى اعتبار هذا الخليفة مفسداً في الأرض سفّاكاً للدماء؟! ألم يكن الأوْلى بهم أن يحسنوا الظن بالله تعالى فيعتبروا أنّ خليفة الله لا بد أن يكون خليفة مثالياً على أكمل وجه يمكن أن يتصف به مخلوق جدير بخلافة الله كالنبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلّم؟

إنّ الملائكة لم يعنوا في تساؤلهم الحديث عن خليفة الله، وإلاّ لما تصوّروا أنّ خليفة الله يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وإنّما هم قصدوا الجيل البشري التالي لمن سبق، بعد أن بدا لهم أنّ جنس الإنسان كاد ينقرض بسبب ما أفسد في الأرض وسفك من دماء، فاعتقدوا أنّ دوراً جديداً من الحضارة لن يأتي على هؤلاء البشر، ولن يأتي بعدهم من يخلفهم، فلقد ثبت أنّ هذا الجنس من المخلوقات قد كان ـ إلى ذلك الحين ـ مفسداً في الأرض سفّاكاً

(١) ـ المجلد الأول الجزء الثاني الصفحة ١٦٤.

للدماء. وهم لذلك ظنّوا أنّه لن تقوم لهذا الجنس قائمة أخرى بعدما أسلف من أعمال في الأرض. ولو أنّ الملائكة قد عنوا بكلمة «الخليفة» خليفة لله لكان في تساؤلهم سوء ظن منهم بالله تعالى، وهذا محال عليهم.

ثم إنّ كلمة «جاعل» في الآية الكريمة تعني - كما هو معروف من مصادر اللغة العربية - استمرار العمل في شيء موجود أصلاً، قال تعالى لابراهيم عليه السلام:

﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾.

أي أنّ إبراهيم حال خطاب الله عزّ وجلّ له لم يكن إماماً وقد بشّره الله عزّ وجلّ بأنّه سيجعله إماماً بدءاً من لحظة البشرى.

وكذلك قول الملائكة: «أتجعل فيها» دلالة على إدراكهم لوجودٍ معنيٍ بحدّ ذاته وأنّه هو ذاته سيستمر في عملية معيّنة. وأمّا إذا لم يكن موجوداً أساساً فما أدراهم إذن أنّه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

وما من شك أنّه ليس ثمة مجال للقول بأنّ الملائكة كانوا يعلمون الغيب، لأنّ ربّنا قد علّمنا في القرآن الكريم أنّه لا يعلم الغيب إلاّ الله وحده فقال:

﴿إنّما الغيب لله﴾

(يونس: ٢٠)

والآن..

لا بد لمن أراد أن يفهم حقيقة قصة آدم عليه السلام المروية في القرآن الكريم من أن يدرس بالتدقيق والتمحيص الحقائق القرآنية المتعلقة بالعناصر الثلاث لهذه القصة وهي: خلق الإنسان كما بيّنه القرآن الكريم، وحقيقة مفهوم آدم عليه السلام، وحقيقة إبليس وكيانه وهويته ودوره، ونبدأ هنا بالحقيقة القرآنية المتعلّقة بـ:

خلق الإنسان في القرآن الكريم:

ثمة بيان في كتاب الله عزّ وجلّ يشير إلى حقيقة العناصر التي خَلق اللهُ منها الإنسان وجعلها في طبيعته لحكمة أرادها، وغاية شاءها سبحانه وتعالى. ولقد بيّن لنا أنّ من طبيعة

الإنسان التعجّل في فعله أو ردّ فعله حيال الأمور فقال:

﴿خُلِقَ الإنسان من عَجَل﴾

(الأنبياء: ٣٧)

والـ «عجل» هنا ليست مادّة ملموسة صَنَعَ الله منها الإنسان وإنّما هو مفهوم معنوي يشير إلى الطبيعة التي تدخل في خلق الإنسان.

وكذلك يبينّ لنا ربّنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم أنّ الضعف أيضاً من طبيعة الإنسان التي أودعها الله في خلقه فقال:

﴿الله الذي خلقكم من ضَعْف﴾

(الروم: ٤٥)

وكذلك الـ «ضَعْف» هنا ليس مادّة ملموسة خلق الله الناس منها، ولكن ربّنا عزّ وجل قد عبّر في هذه الآية الكريمة عن الضعف في طبيعة الإنسان بـ: «الخلق من الضَعْف».

وهكذا يمكننا أن نفهم الطبيعة المغروسة في خلق الإنسان من الماهيّات التي قال الله عنها أنّه خَلَق الإنسان منها. وقد تكون هذه الماهيات معنوية في موضع من البيان، إلاّ أنّها قد تكون مادية في مواضع أخرى،كما تشير أيضاً إلى الحقيقة المعنوية المشتركة مع الجانب المادي في المعنى. . مثلاً، في قوله تعالى عن الإنسان أنّه:

﴿خُلق من ماء دافق﴾

(الطارق: ٦)

نفهم حقيقتين كلتيهما صحيحة. الحقيقة الأولى أن الإنسان مخلوق في أصله من الماء الدافق للرجل الأب والمرأة الأم.

إلاّ أن ثمة حقيقة أخرى هنا أيضاً يجب أن نفهمها من هذه الآية الكريمة: وهي أن في طبيعة خلق الإنسان التسرّع والإندفاع وقلة التريث، وهو لذلك يقع في أخطاء كثيرة يستلزم تصحيحها.

وليس صحيحاً القول بأن حقائق خلق الإنسان من الأمور التي لم يبيّنها الله عزوجل ولم يأمر الإنسان بالتفكّر والبحث والنظر فيها، بل إن ربنا عزوجل قد أمَرنا أن ننظر في حقيقة

الماهيات التي خلق الإنسان منها، فقال:

﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق﴾

(الطارق: ٥)

ولـذلـك فإن معرفة الماهيّات التي يخلق الله منها الإنسان كالعَجَلْ والضعف والتسرع وغيرها هي من الأمور التي على من يريد العمل بتعاليم القرآن الكريم أن يدرسها ويدرك حقائقها.

ونجد في كتاب الله تعالى الكثير من الآيات الكريمة التي تبين العناصر التي يخلق الله منها الإنسان وجعلها في تكوينه المادّي كما جعلها في تكوينه الطبيعي أيضاً.

نستعمل في بياننا العامّي تعبير «فارط مثل التراب» لنعبّر به عن الشخص الذي يصعب لّه وتكييفه في صورة ما.

وكذلك يمكن وصف إنسان آخر أنه: «مثل العجين» أو «مثل الطين» تعبيراً عن قابليته للتكييف والتعليم ليكون في صورة أو حالة معينة. ولا يقف استعمال هذه التعابير عند حدود التعابير العامية الدارجة، بل يتعدّاها إلى البيان والوصف التصويري في آدابنا اللغوية بكافة أشكالها كما هو معروف وشائع.

وبما أن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، فليس من الخطأ محاولة فهمه على ضوء التصوير والبيان وحتى الرمز الذي يأتي في اللغة العربية وتعابيرها.

ومن هنا يمكن أن نفهم أنه بالإضافة إلى حقيقة أن الله عز وجل قد خلق الإنسان من العناصر الموجودة في الأرض: كالماء والتراب والطين والصلصال وغيرها، إلا أنه يجب الإنتباه جيداً إلى حقيقة أخرى وهي أن صفات هذه العناصر الأرضية لا تدخل في التكوين المادي للإنسان فحسب، بل هي تدخل في خَلْقه الطبعي أيضاً وتشكل صفاته الطبعية، وفي هذا مفتاح هام يساعدنا في فهم طبيعة الإنسان والجوانب التي عليه أن يحمي نفسه من جهتها.

يؤكد القرآن الكريم على حقيقة نشوء الإنسان من الأرض، قال تعالى:

﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾

(النجم: ٣٢)

وهذا يعني بالإضافة إلى الحقيقة المادية ، أن في الإنسان صفات يمكن مقارنتها بالإرض التي أنشأه الله منها. وثمة الكثير من الآيات في كتاب الله تبين هذه الحقيقة، فكلمة آدم الذي هو أصل الإنسان تشير إلى أديم الأرض وأن اسمه مأخوذ منها، وكذلك شبّه الله الرجل العظيم القادر على تلقي وحي الله بالجبل فقال:

﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾

(الحشر: ٢١)

كما قارَنَ ربنا عزوجل بين الناس والنبات فقال:

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾

﴿(نوح: ١٧)

وقال متحدثاً عن المؤمنين:

﴿كزرع أخرج شطأه﴾

﴿الفتح: ٢٩)

وكـــذلك قـارَنَ الصفـــات الطبيعية في الكون المحيط بالإنسان بالنفس البشرية التي يمكن أن تتصف بمثل هذه الصفات فقال:

﴿والشمس وضحاها* والقمر إذا تلاها* والنهار إذا جلاها* والليل إذا يغشاها* والسماء وما بناها* والأرض وما طحاها* ونفس وما سواها﴾

(الشمس: ١ ـ ٧)

إن مقارنة النفس الإنسانية بهذه المظاهر المادية الكونية تشير إلى أن الذي خلق هذا الكون بصفاته الرائعة هو ذاته الذي خلق النفس الإنسانية وسواها. ولذلك فإن الإنسان الذي يزكي نفسه بالإيمان وبالعمل الصالح يمكنه أن يكون بفضل الله تعالى شمس نور تضيء الطريق لخلق الله تعالى في أيام عمرهم، كما يمكن للمؤمن أن يكون في ظلمات ليل الناس الحالكة قمراً ويؤنس وحشتهم بنوره الساطع بالبيان الجميل. كما يستر الليل الناس في هدأته ويريحهم من نصب أيامهم ومكابدة عنائها، كذلك يكون الإنسان المؤمن في ستره للناس وحنوّه عليهم وإمداده لهم بالظل الساتر المريح. وكما تكون السماء بناء يُظلل جميع خلق الله تعالى دونما تمييز فكذلك يكون المؤمن سماء صافية ساطعة بالجمال الأزرق صيفاً ومحمّلةً بخير

الماء وروعة اللوحات السحابيةِ الجمالِ شتاءً، ومرتعاً لدفء الشمس وذهبها نهاراً، وحقولاً نجمية تتلألأ بالجواهر الكوكبية ليلاً. وكالأرض التي تحمل جميع خلق الله على ظهرها تمدّ جميع الناس بكل كنوز الخير والجمال فكذلك يجب على المؤمن أن يكون في تعامله مع خلق الله جميعاً ودون استثناء، لأن الله الذي خلق كل ما في هذا الكون من عطاء هو ذاته الذي خلق النفس الإنسانية وسواها.

ولقد ورد عن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبيهه للناس بالأرض في حديثه الشهير الذي يقول فيه أن الناس قيعان كالأرض، منها ما يشرب الماء ويفيد الزرع فينبت، ومنها ما يمسك الماء فيبقيه للناس فيشربون، ومنها ما ينسرب منه الماء فلا يمسكه ولا تفيد منه ولا تستفيد، وذلك في معرض شرحه صلى الله عليه وسلم لاستفادة الناس من العلم.

وهكذا فإن في طبيعة الإنسان الخلقية صفات المواد التي خلقه الله منها. مثلاً، نعلم أنه حيثما وجد الماء العذب فثمة إحياء في الطبيعة لحياة خضراء مثمرة يغذّيها هذا الماء بقوة الإحياء التي جعلها الله فيه.. وكذلك ثمة من الناس من يبعث في الناس حياة مادية أو روحية فيحرك القوة والنشاط في أعطافهم ويجعلهم أمماً حيّة زاخرة بكل أنواع العطاء الإنساني، ويجعل من أفرادها أشجاراً باسقة بكل الثمار تماماً كما يُحيي الماء النباتات والأزهار والأشجار فيجعل منها رياضاً وبساتين وغابات وجنات ألفافاً.

ومن هنا يمكننا أن نفهم معنى قوله عزوجل:

﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾

(الفرقان: ٥٤)

ويؤكد القرآن الكريم أن صفات الإحياء الحقيقية غالباً ما تكون في الرسل والأنبياء، ولذلك فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم كان في رسالته ودعوته يُحيي الناس ويبعثهم من الموت، قال ربنا عزوجل:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾

(الأنفال: ٢٤)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الموتى بالنور الذي أنزله الله عليه، كمايبعث الماء الحياةَ في الأرض الميتة، قال تعالى:

﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾؟

(الأنعام: ١٢٢)

إذن مع حقيقة أن الله عزوجل قد خلق الإنسان من الماء، فإن ثمة حقيقة أخرى هي أن في الإنسان صفة الإحياء كالماء، ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف دبّت حياة باسقة عجيبة في صحراء الجزيرة العربية بعد ظهور سيدنا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

وننتقل إلى ومضة أخرى:

تراب الأرض مليء بالمعادن، وقد أُثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: الناس معادن.. وهذا يعني أن فيهم صفات المعادن، فمنهم الصلب القاسي، ومنهم اللين الطري، ومنهم السائل المائع، ومنهم الهش المنفرط. وجميع هذه المعادن موجودة في تراب الأرض، قال تعالى:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾

(المؤمن: ٦٧)

وتعرفون أن ثمة من الناس من هو كالتراب تماماً لا تستطيع له قَوْلَبة ولا تشكيلاً مهما حرصت وسعيت، وذلك لافتقاره إلى ماء الحياة الذي إذا أضيف إليه صار كالطين القابل للتشكيل والتكييف بكل سهولة ويسر، قال تعالى:

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾

(الأنعام: ٢)

أي جعل فيكم قابلية الإذعان والتشكّل حالَ الدعوة والتعليم على أيدي الرسل والأنبياء ومن يدعو بدعوتهم وعلومهم أو مثلها. فالإنسان قابل للتكيّف مع كل تعليم وتدريب.

ولم يجعل الله الإنسان قابلاً للتكيّف والتشكيل فحسب، بل أوجد فيه عزوجل القدرة على الرد والإجابة أيضاً، بحيث أنه يعطي ردوداً وأصداء تنسجم مع شكل التقرب منه والتعامل معه، فهو ليس مجرد طين يتشكل ببلادة وصمت، بل قد جعل الله الإنسان كالصلصال الذي إذا ما طرقته يردّ لك صوتاً منسجماً مع النقرة التي تنقرها عليه، ولهذا فقد جعل الله الإنسان ناطقاً متكلماً يتلقى ويرد بالإجابة على ما يرِد عليه من فِعل أو أثر أو بيان، قال ربنا:

﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾

(الرحمن: ١٤)

قال الإمام فخر الرازي، الصلصال:

«من الصليل، يقال صل الحديد صليلاً إذا حدث منه صوت»[1].

وقال:

«الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل. . . وإذا توهمت في صوته مدّا فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة»[2].

وهكذا كما يُحدِث الصلصال صوتاً حين طَرْقِهِ فكذلك قد زوّد الله عزوجل الإنسان بالقدرة على النـطق والكلام بصوت مسموع يعبر عن الرد وشكل الإستجابة، وهذه هي إحدى الصفات التي ميز بها الله تعالى الإنسان عن غيره من المخلوقات.

وأما في قول الله عزوجل:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾

(الحجر: ٢٦)

فيقول الإمام فخر الرازي:

«المسنون، المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر إذا حككته عليه. . . وسمي المسن مسناً لأن الحديد يسنّ عليه. وقال الزجّاج: هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق. . . وقال أبو عبيدة: المسنون المصبـوب، والسن الصب. . وقـال سيبـويه: المسنـون المصـوّر على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته. . وروي عن ابن عباس أنه قال: المسنون الطين الرطب، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة، لأنه إذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض، فيكون مسنوناً بمعنى مصبوب»[3].

إذن نفهم من هذا البيان القـرآني المتعلق بخلق الإنسـان، أن الله عزوجـل قد جعل للإنسان القدرة على النطق والبيان كما جعل فيه قابلية التكيف والتشكل ليكون في الصور

---

(١) ـ التفسير الكبير المجلد ١٥ الصفحة ٩٧ الجزء ٢٩.

(٢) ـ المرجع السابق المجلد العاشر الجزء ١٩ الصفحة ١٧٩.

(٣) ـ التفسير الكبير المجلد ١٠ الجزء ١٩ الصفحة ١٨٠.

المسنونة المختلفة على حسب جهده وعمله واستعداداته لاتّباع سنن الله تبارك وتعالى . . فيا له من بيان شامل رائع معجز في كلمات قليلة وافية، حيث نجد أن القرآن الكريم قد استخدم كلمات ثلاث للتعبير عن مراحل مختلفة لخلق الإنسان وتطوره الروحي :

فلقد عبر عن المرحلة الأولى بخلق الإنسان من تراب . . وأما المرحلة الثانية فكانت خلقه من طين، وهي تعني أنه بعد أن تلقّى ماء الوحي، حصل على القدرة على التمييز التي يستطيع من خلالها التمييز بين الخطأ والصواب والتشكل تبعاً لذلك . ثم وفي المرحلة الثالثة، والتي هي مرحلة الحمأ المسنون، التي يكون فيها الإنسان قد تم اختباره وابتلاؤه بعد مروره بنار التجارب والابتلاءات وحصوله على النضوج الروحي، عند ذلك يكون قد تشكل التشكل النهائي المطلوب لقبوله في عباد الله عزوجل الذين فازوا في جميع المراحل من الابتلاءات البشرية[1].

لاشك في أن البحث في خلق الإنسان من القرآن الكريم يستلزم قدراً أكبر من الدراسة والبيان، وهو ليس غرضنا الرئيس في هذا البحث إلا بقدر ما يعيننا على فهم قوله تعالى :

﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار* وخلق الجانّ من مارج من نار﴾

(الرحمن : ١٤ ـ ١٥)

وقد سبق شرحنا لمعنى قوله تعالى : من صلصال . وأما في شرح قوله عزوجل : **﴿كالفخار﴾** فيقول الإمامْ الرازي :

«والفخار الطين المطبوخ وهو الزخرف مستعمل على أصل الإشتقاق، وهو مبالغة الفاخر كالعلام في العالِم . . . فكأنه يفخر على أفراد جنسه»[2].

فبالإضافة إلى أن في الإنسان القدرة على النطق والتجاوب فهو في طبيعته أيضاً ميّال إلى الفخر والتفاخر بما آتاه الله من زينة وقدرات مصداقاً لقوله تعالى :

﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم﴾

(الحديد : ٢٠)

وكذلك قول ربنا عزوجل عن الإنسان :

---

(١) ـ راجع التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد ـ الصفحة ١١٥٥ .

(٢) ـ التفسير الكبير المجلد ١٥ الجزء ٢٩ ص ٩٧ .

﴿إنه لفرح فخور﴾

(هود: ١٠)

وأما عن قول الله تعالى:

﴿وخلق الجانّ من مارج من نار﴾

(الرحمن: ١٥)

فقد جاء في تفسير الرازي: أن الجان هو الصفة للجن كما أن المالح هو صفة الملح[١]. ولذلك فإن هذه الآية الكريمة تبين الطبيعة المتأصلة في الجان من البشر وتلفت نظرنا إلى إدراك حقيقة هذه الطبيعة من خلال دراسة خصائص النار الصافية والمختلطة المتمازجة في بعضها بعض. ومن المعلوم أن ألسنة النار تتميز بالألوان الجذابة الحيوية المتراقصة مع نسائم الهواء، كما أنها تتسامى في طموح صاعد إلى الأعلى دائماً في أي مكان تشتعل فيه، وكذلك تتميز النار بالدفء وأيضاً بالحرارة الكاوية الحارقة وهي بذلك قوة خارقة يمكنها إيقاع الخراب والدمار كما يمكنها إنضاج وإحداث التفاعلات المفيدة المختلفة.

ولقد مر معنا في لغة العرب أن كبار القوم وأثرياءهم وأقوياءهم يُسَمَّون بـ «جن الناس»، ولاشك في أن هؤلاء المتميزين من الناس «الجن» إنما يتشابهون في صفاتهم الطامحة والنشيطة والجذابة مع النار الطامحة صعوداً والجذابة لوناً وشكلاً ودفئاً، والقوية أثراً فيما يضر أو ينفع.

تلك هي حقيقة خَلْق جن الناس من مارج من نار.. الحقيقة البيانية التي جعل منها الناس أساطير وخرافات تملكت حتى أفهام العلماء والمفكرين الذين حاولوا اختراع تفاسير وشروح علمية تنسجم مع خرافة أن الجن مخلوقات نارية. فقد جاء في كتاب «الكتاب والقرآن» للدكتور المهندس محمد شحرور قوله:

«فإبليس كان من الجن وهي مخلوقات عاقلة مكلّفة وجدت قبل الإنسان عندما كانت الأرض ما زالت ملتهبة وقبل أن تبرد لذا قال: ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾.. والجان لها بنية مادية تختلف عن البنية المادية للإنسان، بحيث تأخذ هذه البنية أشكالاً مختلفة، ويمكن أن تكون هذه البنية بنية موجيّة..»[٢].

---

(١) ـ المرجع السابق الصفحة ٩٨.

(٢) ـ راجع: «الكتاب والقرآن» قراءة معاصرة ص ٣١٣ للدكتور المهندس محمد شحرور.

ولقد مر معنا في هذا الكتاب بيان حقيقة الجن التي لا علاقة لها بكل هذه الشروح الأسطورية الخرافية.

ويأتي الآن دور الحديث عن آدم عليه السلام.

معنى كلمة آدم:

تشير قواميس اللغة العربية إلى معانٍ مختلفة لكلمة آدم، حيث نقرأ مايلي:

«أَدَمَ بينهم يا أدم أدماً: لأَمَ»[١].

كما جاء في المعجم الوسيط: «أدم بينهم أدماً: أصلح وألّف.. وآدم بينهما إيداماً: أصلح وألّف»[٢].

كما نقرأ في هذه المعاجم أن كلمة آدم تشير إلى الجمع وتعني: جمع أدم[١].

من هذا نلاحظ أن كلمة آدم ليست هي مجرد تسمية لشخص أبينا آدم فحسب بل هي اسم وصفي يدل على الجمع واللأم والتوافق والأسوة والإصلاح، كما أنها تشير إلى الجنس الآدمي الذي يتصف بجميع هذه الصفات[٢]. ومن هنا يمكننا أن نفهم أن كل نبي إنما هو من حيث مهمته آدم لأنه يجمع ويؤلف ويصلح ويكون أسوة لقومه، ولاشك في أن خير من تنطبق عليه هذه الصفات بكمالاتها إنما هو سيدنامحمد صلى الله عليه وسلم الذي قال عنه ربنا:

﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾

كما أنه عليه الصلاة والسلام هو المصلح الكامل الذي أرسله الله لإصلاح العالمين، وذلك لأن دعوة النبيين جميعاً تهدف إلى الإصلاح مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إنْ أريد إلاّ الاصلاح ما استطعت﴾

(هود: ٨٨)

وهكذا فإن اسم آدم عليه السلام يشير إلى أنه كان نبياً أسوة ومصلحاً يؤلّف بين أفراد

---

(١) ـ محيط المحيط.

(٢) ـ راجع المعجم الوسيط مادة أدم.

(٣) ـ راجع المعجم الوسيط ومحيط المحيط ولسان العرب وغيرها.

(٤) ـ قد مرّ معنا في تفسير الرازي أن لفظة الخليفة تدل أيضاً على الجمع وعلى الخليقة.

قومه ويأدم بينهم بدعوته وتعليمه الذي علّمه الله له، وإلى هذه الحقيقة أشارت آيات القرآن الكريم التي روت قصته عليه السلام.

حقيقة معنى السجود لآدم عليه السلام:

قال تعالى:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾

(طه: ١١٦)

نعلم أن الله عزوجل قد حرّم السجود لغيره وقال في كتابه المجيد:

﴿فاسجدوا لله﴾

(النجم: ٦٢)

وقال تبارك وتعالى:

﴿لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾

(فصّلت: ٣٧)

وجاء في تفسير الرازي: أي لا تعبدوا غير الله[١].

إذن كيف يمكن أن نفهم أن يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لغيره، وهذا بمثابة العبادة التي لا تجوز إلا لله تعالى لقوله:

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾

أي فاسجدوا لله وحده واعبدوه وحده؟

لاشك في أن السجود يعني الإنقياد التام.. ونفهم ذلك من آيات مختلفة في القرآن الكريم تبيّن أن السجود لا يعني فقط خفض الرأس ووضع الجبين على الأرض كما في الصلاة، بل إن السجود يعني أيضاً الإنقياد التام دون أدنى مخالفة أو خروج عن الطاعة المطلوبة. نفهم هذا حين نقرأ الآيات التالية، قال تعالى:

---

(١) ـ المجلد ١٤ الجزء ٢٩ الصفحة ٢٦.

﴿والنجم والشجر يسجدان﴾

(الرحمن: ٦)

فهـا هي ذي نجـوم السماء وكواكبها تسجد لله عزوجل، وكذلك تسجد جميعُ نباتات الأرض وأشجارها لربنا الرحمن، وفي هذا إشارة إلى أن كل ما في السموات والأرض يسجد لله بغير إحناء رأس أو وضع جبين على الأرض، قال الله:

﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض﴾

(النحل: ٤٩)

ويفصّل القرآن الكريم في بيان حقيقة سجود كل شيء لله عزوجل فيقول:

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمسُ والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾

(الحج: ١٨)

نفهم هنـا بوضوح أن السجود يعني أيضاً الخضوع والإنقياد التام ولا يعني دائماً وضع الجبين على الأرض كما في حالة العبادة في الصلاة.

إذن..

لم يأمر الله الملائكة بوضع جبينهم على الأرض قبالة آدم، ولم يكن هكذا سجودهم له(٢).

فكيف كان إذن؟

لقد أمر الله الملائكة بالخضوع والإنقياد للنبي آدم عليه السلام وذلك من خلال تقديم كل عون ونصر وتأييد له وللمؤمنين معه وهذا هو الأمر الدائم للملائكة حال بعثةِ كل نبي، إذ ينصر الله نبيّه بتأييد الملائكة له مسومين من عنده، مأمورين بدعمه طوال عمر دعوته. قال تعالى:

﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾

(آل عمران: ١٢٤)

---

(١) ـ جاء في قصص القرآن لـ محمد أحمد جاد المولى: «ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فاستجابوا لربهم خاضعين وأقبلوا على آدم معظّمين وعفّروا جباههم له ساجدين إلا إبليس» ص ٦.

﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾

(آل عمران: ١٢٥)

ويمكننا أن نفهم من القرآن الكريم أن سجود الملائكة لايكون لآدم والأنبياء فحسب، بل يكون كذلك لكل إنسان مؤمن وصل بعون الله تعالى إلى مرحلة التسوية الروحية التي تؤهله للحصول على الدعم الكامل لملائكة الله عزوجل له.. وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾

بعد أن يثبت الإنسان في تجربته البشرية ويتطور تطوراً روحياً عالياً فيَصِل إلى مرحلة الإنسان السوي تماماً والملتزم بصراط الله السوي، يصل عندئذ إلى مرحلة التسوية التي تؤهله لنفخ روح الله فيه وبالتالي لسجود الملائكة له دعماً وتأييداً وانقياداً بأمر الله عزوجل الذي قال في الحديث القدسي:

(عبدي، أطعني أجعلك ربّانياً تقول للشيء كن فيكون)[1].

كما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

(لله رجال إذا أرادوا أراد)[2].

إنّ تسخير الله عزّ وجل الملائكةَ لِعون آدم يعني أيضاً تسخير كل شيء لصالح الإنسان، وذلك لأن الملائكة هم جنود الله عزوجل الذي يدبّرون الأمور بأمره، قال تعالى:

﴿فالمدبّرات أمراً﴾

وقال سبحانه:

﴿ألم تروا أن الله سخّر لكم مافي السموات وما في الأرض﴾

(لقمان: ٢٠)

قد سخّر الله كلّ عون في السماء والأرض لمن يسلك نفسه في سُبل الله ربه ويأتلف ويتوافق مع دينه وسننه ويؤلّف ويصلح بين الناس ويأدم بينهم ويكون أسوة وآدماً لهم، ولا يشطن ولايُبلس ولا يكون من المفسدين.

لقد أراد الله أن يختار ويصطفي من قوم آدم نبياً، فاختار واصطفى آدم عليه السلام

---

(١)، (٢) ـ الأحاديث القدسية.

وأخبرنا عن اصطفائه لآدم فقال:

﴿إن الله اصطفى آدم﴾

(آل عمران: ٣٣)

ولو كان آدم المذكور في هذه الآية وحده في الأرض باعتباره أول الخلق، فمن بين من اصطفاه الله؟ ولكن الحقيقة هي كما قال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر(١).

إذن قد اصطفى الله آدم من قوم، وكان ابليس من هؤلاء القوم.

قد مر العالم بدورات مختلفة من الخلق والحضارات، ويجب أن نفهم أن آدم الذي هو الجد الأعلى للجنس البشري الحالي إنما هو في الحقيقة صلة الوصل الأولى في الدورة الحالية للحضارة البشرية الحديثة، وليس هو أول إنسان خلقه الله، تماماً كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام والحديث الذي رواه الشيخ محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية.

الأمم البشرية، عاشت نَهَضَتْ وترقّت ثم انحدرت وبادت.. والحضارات ظهرت وقامت ثم اختفت، ولقد ظهر قبل آدمنا الأخير (أوادم) كثيرون، كما ظهرت أجناس بشرية أخرى عاشت ثم هلكت في دورات حضارية متعاقبة كان فيها الكثير من السعي البشري للرقي والتقدم بالإضافة إلى الكثير من الفساد وسفك الدماء.

ولاشك في أن الجنس البشري الذي عاش قبل آدم عليه السلام لم يكن قد باد بأكمله قبل ولادة آدم.. بل لابد أن يكون قد تبقى بقايا متفرقة من الجنس القديم كان آدم عليه السلام منها ثم اصطفاه الله ليكون نبياً مُحدّثاً مزوّداً بوحيه عزوجل حيث ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن آدم كان نبياً مكلّماً(٢)... وهذا يعني أنه كان صاحب شريعة وكان له قوم يعلّمهم ويطبّق عليهم هذه الشريعة، وذلك لأن صفة النبي المكلّم إنما تعني النبي المرسل بشريعة من الله تعالى لقوم

---

(١) ـ راجع التفسير الكبير المجلد العاشر الجزء ١٩ الصفحة ١٧٨.

(٢) ـ راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل.

ذلك النبي، قال ربنا:

﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض، منهم من كلّم الله﴾

ولا شـك في أن الله يكـلّم جميع رسـله ولكن كلام الله هنا إنما يعني تكليف النبي المكلّم بشريعة.

اختار الله عزّ وجل آدم ليكون نبياً مشرّعاً لقومه وليكون الجد الأعلى للجنس البشري الجديد والخليفة لما سبق من جنس بشري عاش وباد، وكذلك ليكون السلف البشير والنذير لحضارة بشرية جديدة.

حيّا بين الموتى، جعل الله آدم ممثلاً لفجر عهد جديد في الحياة البشرية الجديدة. إن إطلاق لفظة خليفة في القرآن الكريم على آدم عليه السلام تبين بوضوح أن ثمة أناس قد وُجدوا وعاشوا قبل آدم الذي جاء بعدهم وخلفهم في بداية فجر بشري جديد.

ولقد قيل الكثير عن المكان الذي عاش فيه آدم ونشأ كنبي مصلح. والفكرة الشائعة ـ خطأ ـ أنه أُدخل الجنة السماوية ثم طُرد منها إلى مكان ما من الأرض. ولكن التعبير: ﴿في الأرض﴾ الذي جاء في الآية الكريمة:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

يناقض وجهة النظر هذه ويبين بكل تأكيد أن آدم قد عاش على الأرض ونشأ عليها كنبي مصلح. ومن المرجَّح أنه عاش في العراق ثم أُمر أن ينتقل منها إلى أرض مجاورة[٢].

ولقد علمنا أن أمر الله عزوجل للملائكة:

﴿اسجدوا لآدم﴾

لايعني أن يضع الملائكة جباههم على الأرض قبالة آدم، بل تشير إلى أن الله عزوجل قد أمر الملائكة أن تؤيّد آدم وتنصره في دعوته وتيسّر السبل أمامه لأن الله تعالى قد جعل آدم صورة لصفاته الحسنى ولكونه قد أعطي مرتبة النبوة من الله عزوجل.

وبما أن الله عزّ وجل لايمكن أن يأمر الملائكة أن تسجد لآدم السجود الذي حرّمه الله إلّا له سبحانه وتعالى، فيمكن هنا أن نفهم أن معنى اسجدوا لآدم هو: اسجدوا لي لخلقي

---

(١) ـ راجع التفسير الكبير للإمام الرازي.

آدم إظهاراً منكم لتقدير علمي وعظمتي وشكري[٢].

﴿فسجد الملائكة كلّهم أجمعون* إلا إبليس أبى﴾

(الحجر: ٣٠)

إبليس الذي أبى واستكبر:

مثلما تسربت الخرافة والمفهوم الشبحي للجن والشياطين في أذاها للناس، وكذلك نسجت الأسطورة الطويلة على مدى الزمان الشخصية الخيالية لإبليس الذي جعل منه الجاعلون امبراطور الشر في العالم[٣].

فمن هو إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الهالكين؟

نجد من مراجع اللغة العربية أن «إبليس» كلمة مشتقة من أبلس وتعني الذي:

١ ـ قنط ويأس من رحمة الله.

٢ ـ تناقض مع خيره وفضيلته.

٣ ـ كان محتاراً وغير قادر على تبيّن سبيله.

٤ ـ حُرم من تحقيق أمنيته.

٥ ـ صار محطّم الروح.

جاء في لسان العرب:

«بلس الرجل: قُطع به. وأبلس سكت. وأبلس من رحمة الله: يئس وندم ومنه سمي إبليس.

وفي التنزيل: ﴿يومئذ يبلس المجرمون﴾

والمبلس: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولايكون عنده جواب: قد أبلس.

المبلس: الساكت من الحزن أو الخوف.

الإبلاس: الحيرة، ومنه الحديث: ألم تر الجن وابلاسها: أي تحيرّها ودهشتها.

وقال أبو بكر: الإبلاس معناه ففي اللغة القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله تعالى[٢]».

---

(١) ـ راجع التفسر الصغير للإمام بشير الدين محمد أحمد، وكذلك ورد في التفسير الكبير للرازي: «أن ذلك السجود كان لله تعالى» «الجزء الثاني الصفحة ٢١٢».

(٢) ـ راجع كتاب «جلالة ملك الجحيم» لمؤلفه ديف بريز.

(٣) ـ راجع لسان العرب مادة بلس.

وبالبناء على أصل معنى الكلمة فإن إبليس هو المخلوق الذي يحتوي القليل من الخير والكثير من الشر، وهو ليأسه من رحمة الله، بسبب معصيته، متروك حيران مخزياً ملعوناً وغير قادر على تبين طريقه(١).

إن شخصية «إبليس» تتوقف على الدلالة التي تستفيدها من مادة الإبلاس أي فقد الرجاء. فإن ضياع الأمل ألزَم صفات إبليس على ألسنة الخاصة والعامة، وليس أشهر من المثل الذي يُضرب بأمل إبليس في الجنة مرادفاً لمعنى الأمل الضائع كل الضياع، وقد فرّق هذا المعنى بين كلمة إبليس وكلمة الشيطان في ملامح الشخصية، فهذا قد ضيّع الحق، وهذا قد ضيع الرجاء، وكذلك قد فرّقتْ بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهم الدلالة الملموحة بين الشيطنة والإبلاس(٢).

يُعتبر إبليس مماثلاً للشيطان في بعض الجوانب، إلا أنه في بعض الحالات مختلف عنه. وليس صحيحاً الزعم أن إبليس كان من الملائكة وذلك لأن القرآن يصفه بأنه عصى أمر الله تعالى، أي أنه كان قادراً على الطاعة والمعصية في حين أن القرآن الكريم يصف الملائكة بأنهم:

﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾

(التحريم: ٦)

إذن لم يكن إبليس من الملائكة كما أنه لم يكن أبا الجن كما يزعم البعض، بمعنى أنه كان أول الجن ومنه جاءت ذرية الجن جميعاً. القرآن يقول غير ذلك، إذ نفهم منه أنه كان ثمة قوم من الجن وكان إبليس واحداً منهم، قال تعالى:

﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾

(الكهف: ٥٠)

إن قوله تعالى عن إبليس: ﴿كان من الجن﴾ يؤكد أنه لم يكن أبا الجن ولا أولهم، بل فقط كان منهم.

---

(١) ـ راجع التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

(٢) ـ الأستاذ عباس محمود العقاد ـ المجموعات الكاملة المجلد الثاني عشر، كتاب «إبليس» الصفحة ٢٤١.

إن معنى كون إبليس من الجن يشير إلى حقيقتين هامتين بحسب ما تشير بيانات اللغة العربية. فالجن في زمن آدم عليه السلام إنما كانوا البشر الذين اعتادوا التخفي والإحتماء في الكهوف والسكن فيها باعتبار أنها كانت تشكل أفضل الأماكن أمناً لهم من أخطار الحيوانات والعوامل الجوية وغيرها، ولقد كانوا في ذلك الزمان ـ لخوفهم ـ دأبهم التخفي والتواري في الكهوف وغيرها، ولذلك فقد كانوا جناً بكل معنى الكلمة، ولم يكونوا قد غادروا بعد كهوفهم إلى الحقول المكشوفة والبساتين للعيش فيها جماعياً بشكل مكشوف.

وأما المعنى الآخر لوصف إبليس: أنه كان من الجن، فهو يشير إلى حقيقة أنه كان من زعماء قومه أيضاً ولم يكن فرداً عادياً منهم.. وهذا المعنى تشير إليه اللغة العربية في لفظة الجن أيضاً كما هو معلوم.

إذن كان إبليس زعيماً في قوم يسكنون الكهوف في عهد آدم.

كان إبليس من الجن، ولم يكن أولهم، وكذلك كان: «من الكافرين» ولم يكن أولهم، قال تعالى:

﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾

(البقرة: ٣٤)

جاء في تفسير الإمام فخر الدين الرازي مايلي:

«اختلفوا في أن قوله تعالى: ﴿وكان من الكافرين﴾ هل يدل على أنه وُجد قبله جمع من الكافرين حتى يصدق القول بأنه: من الكافرين، قال قوم: إنه يدل عليه، لأن كلمة «من» للتبعيض، فالحكم عليه بأنه بعض الكافرين يقتضي وجود قوم آخرين من الكافرين حتى يكون هو بعضاً لهم»[1].

كان إبليس من الجن.. وكان إبليس من الكافرين، وهذا ما أكده القرآن الكريم... وكان رجلاً من البشر اسمه «الحارث»، وهذا ما أكده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي في كتاب التفسير[2]. وإذا كان «الحارث» إسماً في قوم آدم فهذا يشير إلى أن آدم كان عربياً لأن «الحارث» اسم عربي كما هو معلوم، والله أعلم.

إذن إبليس الذي رفض السجود لآدم، كان هو «الحارث» الذي كان زعيماً في قومه

---

(١) ـ التفسير الكبير للإمام الرازي المجلد الأول الجزء الثاني الصفحة ٢٣٧.

(٢) ـ راجع المصدر المذكور.

ورفض الإيمان بدعوة آدم النبي عليه السلام ورفض الإلتزام بشريعة الله المنزلة على آدم، واستكبر وكان من الكافرين. قال: «أنا خير منه» استكباراً وعلواً ورفضَ الإذعان لآدم وعصى وغوى وضل سبيله وكان من الكافرين، ثم أبلس وصار إبليساً ورمزاً لكل مبلس ضال يائس قانط من رحمة الله عزوجل، وبذلك كان إبليس مؤسس «الإبليسية» في العهد البشري الجديد معارضاً للنبوة مستكبراً على دعوة الله تعالى متعالياً فوق الإيمان عاصياً ضالاً مضلاً لنفسه ولغيره وفاقداً الأمل بالجنة.

أبلس «الحارث» وصار إبليساً بما اتصف به من الصفات الإبليسية، كما أنه صار شيطاناً بما شطّ عن السبيل وشطن في هواه وشاط في كفره وضلاله... وبذلك صار إبليساً وشيطانياً.

حين أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم ـ أي بخدمته ونصره وتأييده ـ كان هذا إيعازاً منه عزوجل لكل ما دون الملائكة أيضاً بالإذعان لذلك الأمر. ويمكننا أن نفهم ذلك بوضوح أكثر حين نتذكر أنه عندما يُصدر القائد الأعلى ـ ولله المثل الأعلى ـ أمراً لقادة جنوده بتنفيذ عمل ما فإن ذلك الأمر لابد أن ينسحب أيضاً على جميع الجنود الذين هم في مرتبة أدنى، كما أن ذلك يعني ضرورة عدم معارضة هذا الأمر من قِبل أي فرد يكون تحت سلطة هذا القائد سواء كان عسكرياً أو مدنياً.. أي يكون على جميع رعايا هذا القائد الأعلى العمل على الإلتزام بهذا الأمر ودعمه وتأييده بكل الطاقات الممكنة لهؤلاء الرعايا. وأما الذي يخالف أو يعارض أو يرفض فيكون من العاصين الذين يستحقون غضب وعقاب هذا القائد.

ولقد غضب الله على إبليس لأنه هو أيضاً أُمر بأن يخدم آدم في دعوته، ولكنه عصى وقال:

﴿أنا خير منه﴾

وحتى وإن لم يكن ثمة أمر منفصل لإبليس بالسجود لآدم فإن الأمر للملائكة، كما قلنا، يجب أن ينسحب على جميع المخلوقات وذلك لأن الملائكة هم المعهود إليهم بالحفاظ على الأجزاء المختلفة من العالم، ولهذا فإن الأمر المعطى لهم يجب أن يمتد بشكل آلي ليشمل جميع المخلوقات.

ولكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وجعل من نفسه الروح الشريرة المعارضة

للنبوة والملائكة، من خلال عصيانه ومعارضته لأمر الله تعالى، فتركه الله ضالاً محتاراً لا يعرف طريقاً، ولا يدرك هدى، ملعوناً يائساً من رحمة الله.

ويجب الإنتباه إلى أن هذا الإبليس ليس هو الشيطان المذكور في الآية الكريمة:

﴿فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه﴾

(البقرة: ٣٧)

وهذا واضح من حقيقة أن القرآن الكريم يذكر كلا الإسمين: - إبليس والشيطان - كلما ذكرت قصة آدم، ولكن ثمة تمييز واضح بينهما. . فكلما تحدث القرآن عن المخلوق الذي - على عكس الملائكة - رفض الإذعان لخدمة آدم فإنه يذكر اسم إبليس، وكلما تحدث عن المخلوق الذي أضل آدم وكان سبب زلله وخروجه من الجنة فإنه يذكر اسم الشيطان. ولقد بيّن القرآن الكريم هذا التمييز الذي هو غاية في الأهمية بين إبليس والشيطان، في مالا يقلّ عن عشرة مواضع، كما في الآيات التالية:

البقرة: ٣٥، ٣٧. الأعراف: ١٢، ٢١. الحجر: ٣٢. الإسراء: ٢٦. الكهف: ٥١. طه: ١١٧، ١٢١. ص: ٧٥.

وذلك باعتبار البسملة هي الآية رقم واحد في كل سورة. هذه الآيات الكريمة تبيّن بوضوح أن ابليس هو غير الشيطان الذي أضل آدم وكان واحداً من قومه.

يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة:

نقرأ في سورة البقرة قول ربنا عزوجل:

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾

(البقرة: ٣٥)

يقول الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

«واعلم أنه لا شأن لنا في هذا المقام بالبحث في كيفية نزول آدم من الجنة، والتحقيق في البقعة التي هبط إليها من الأرض»[1].

---

(١) - راجع «كبرى اليقنيات الكونية» الصفحة ٢٥٠ الطبعة ٨.

ويقول الإمام الرازي في التفسير الكبير:

«اختلفوا في الجنة المذكورة في هذه الآية، هل كانت في الأرض أو في السماء؟ . . فقال أبو قاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الإهباط على الإنتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى:

﴿اهبطوا مصراً﴾واحتجّا بوجوه:

١ ـ أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس . .

٢ ـ أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى:
﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

٣ ـ أن إبليس لمّـا امتنع عن السجود لُعن، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

٤ ـ أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله تعالى: ﴿أُكلها دائم وظلها﴾ ولقوله تعالى: ﴿وأما الذين سُعدوا في الجنة خالدين فيها﴾ إلى أن قال: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع، فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت. . ولما خرج منها آدم عليه السلام، ولكنه خرج منها وانقطعت تلك الراحات.

٥ ـ أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدىء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف، لأنه تعالى لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنه لا يهمل عباده بل لابد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

٦ ـ لانزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام في الأرض ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان ذلك أولى بالذكر، لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم فدل على أنه لم يحصل، وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قال الله: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ جنة أخرى غير جنة الخلد»(١).

إن الإعتقاد بأن لفظة الجنة في القرآن الكريم إنما يشير دائماً إلى جنة الخلد التي هي دار الجزاء، هو اعتقاد خاطىء بدليل أن القرآن الكريم ذاته قد استعمل هذه اللفظة في مواقع كثيرة وهو يشير بذلك إلى البستان أو الحديقة الغنّاء الملأى بالأشجار الكثيفة، ونجد مصداقاً لذلك في الآيات التالية، يقول تعالى عن آل فرعون إنهم كانوا يقيمون في جنات فأخرجهم

(١) ـ فخر الرازي التفسير الكبير المجلد الثاني الجزء الثالث الصفحة ٣.

بظلمهم منها:

﴿فأخرجناهم من جنات وعيون﴾

(الشعراء: ١٣٤)

وعن قوم سبأ يقول تعالى:

﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان﴾

(سبأ: ١٥)

ويضرب لنا ربنا عزوجل مثلاً برجل عنده قطعتان جميلتان من الأرض فيقول:

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾

(الكهف: ٣٢)

كما يضرب لنا ربنا مثلاً بجنة في الأرض فيقول:

﴿كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين﴾

(البقرة: ٢٦٥)

ويقول تعالى:

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ (القلم: ١٧)

وهكذا بحسب بيان القرآن الكريم نجد أن لفظة الجنة لاتشير فقط إلى جنة الجزاء عند الله تعالى، وإنما تعني في مواضع أخرى البستان أو الروضة أو الحديقة الممتلئة بالأشجار الكثيفة. وإن الدارس لمعنى هذه الكلمة من مراجع اللغة العربية يتأكد له هذا المعنى أيضاً.

إذن بما أن القرار الإلهي قد حكم بجعل آدم خليفة في الأرض فقد كانت الجنة التي قال الله لآدم:

﴿اسكن أنت وزجك الجنة﴾ إنما هي جنة في الأرض، بمعنى أنها كانت مكاناً ممتلئاً بالأشجار والزروع والثمار أعطاه الله لآدم وأمره أن يسكن هو وزوجه فيه.

ولكن.. ماذا عساه يكون المقصود بكلمة ﴿زوجك﴾ التي جاءت في الآية الكريمة؟

في لسان العرب نقرأ مايلي:

«الزوج: خلاف الفرد.. والأصل الزوج: الصنف والنوع من كل شيء.. الزوج المرء.. الزوج النمَط.. الزوج النظير. وتقول عندي من هذا أزواج أي أمثال.. والتزويج التصنيف. قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي وقرناءهم. وقال الزجاج: معناه ونظراءهم وضرباءهم»[1].

وهكذا نجد أن لفظة «الزوج» تعني فيما تعني: الصنف والنوع والمثيل والقرين والنظير والنمط، ومن هذا يمكننا أن نفهم أن من يكون من الناس: من صنفك أو نمطك أو قرينك أو مثيلك إنما يكون زوجاً لك أو «زوجك»، وبهذا نستطيع أن نفهم الآن معنى قوله عزوجل لآدم:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾

أي أن الله عزوجل قد أمر آدم عليه السلام أن ينتقي من قومه من قد آمن بدعوته فصار من صنفه ونمطه ومثيله في قبول شريعة الله وأمره وكان بذلك زوجاً لكل مؤمن ومثيلاً له كما يكون بذلك زوجاً لآدم عليه السلام في الإيمان والقبول والإستجابة لأمر الله والطاعة له.

ومن الجدير بالإنتباه هنا إلى أن أمر الله عزّ وجل لآدم في أن يسكن في الجنة بصيغة:

﴿أنت وزوجك﴾

إنما هو أمر دقيق وحساس جداً يستلزم التفكير والتأمل، وذلك بسبب أن لكلمة «الزوج» دلالات دقيقة لا بد من إدراك معانيها بشكل تام حتى لا يختلط الأمر على من يريد أن يفهم أو يطبّق هذا الأمر.

إن كلمة: ﴿زوجك﴾ في الأمر الإلهي لأبينا آدم عليه السلام إنما تشير إلى التخصيص والتحديد في دعوة آدم لمن يسكن معه الجنة، أي أنه لم يكن مسموحاً لآدم أن يدعو أي فرد من قومه للخروج من الكهف إلى الحقول المكشوفة لتأسيس مجتمع يقيم في «الجنة» خارج الكهوف، بل كان عليه أن يكون دقيقاً جداً في اختياره ودعوته بحيث لا يدعو إلا من كان «زوجاً» له بمعنى من كان قريناً ملازماً ونظيراً ومثيلاً ومن صنفه الإيماني، وأما ما وراء ذلك من الناس من قومه، فقد كان محظّراً على آدم دعوتهم.

ومن هنا يمكننا أن نفهم حقيقة ما يسمى بـ «خطيئة آدم» عليه السلام، والتي سنعمد

---

(١) - راجع لسان العرب مادة: زوج.

إلى دراستها عما قليل بعون الله تعالى.

لّما اقتضت مشيئة الله عزوجل تأسيس حضارة إنسانية جديدة يكون مؤسسها النبي آدم عليه السلام، كان لابد من وضع أسس تشريعية لمجتمع آدم الحضاري الجديد، وكان على آدم عليه السلام أن ينفّذ تبليغ وتعليم هذا الشرع الجديد الذي كان من أهم تعاليمه الإنتقال بفئات معينة من قوم آدم من سكنى الكهوف إلى إعمار السهول والبساتين والإفادة في الأكل والتّغذي من ثمار الأشجار الكثيرة التي كانت مشاعاً لا مالك لها إلا الله الذي أعطاها لآدم ومن كان معه ومثله من قومه، فقال له:

﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾.

وبين الله تعالى لآدم عليه السلام أن كل الثمار في الأرض الذي أعطاه الله هي حلال له وللمؤمنين معه يأكلون منها رغداً حيث يشاؤون، كما بيّن له أنها كانت ثماراً كثيرة على أشجار كثيفة وارفة الظلال وأنه لن يعاني هو وقومه جوعاً لنقص في الطعام، أو لظى في حر الشمس بسبب نقص في الأشجار. فالثمار كثيرة والأشجار وارفة الظلال، قال ربنا لآدم:

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى* وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾

(طه: ١١٩)

إذن كان في الأرض التي أسكن فيها الله آدم وزوجه (قومه) كل مقوّمات العيش الضرورية من حيث تأمين الغذاء والماء والكساء بالإضافة إلى السكن.

ويبدو أن هذه الآية الكريمة تشير إلى تعليم يتعلق بأسباب العيش الحضاري الرغيد والمريح التي لابد أن تلازم وتواكب الحياة الإنسانية الحضارية.

ونجد في هذا التعليم القرآني العظيم أن الواجب الأول والمسؤولية الأهم على الحكومات الحضارية أن تؤمّن لرعاياها الطعام والكساء والسكن على السواء والتمام، وذلك لأنه لا يمكن لمجتمع أن يُدعى حضارياً إلا عندما يتم تزويد جميع أفراد هذا المجتمع بالضروريات الحياتية الأولى بشكل كاف ومناسب.

وستستمر الإنسانية في معاناة الثورات والتمرد، ولن يتطور أو يتحسن السلوك الأخلاقي للمجتمعات البشرية إلا إذا تمت إزالة أسباب عدم المساواة في مستوى الحياة الإقتصادية للناس بشكل حقيقي وجادّ، بحيث لا تبقى بعض الفئات في المجتمع منغمسة

في الثروة الفائضة بينما يموت الآخرون من الجوع .

في هذه الآيات الكريمة يخبر الله عزوجل أبانا آدم عليه السلام بأنه سيعيش مع أهله والمؤمنين من قومه في أرضٍ جنة تتوافر فيها أسباب العيش الرغيد المطمئن لكل الساكنين، فقال :

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى* وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى﴾

وهكذا نرى أنّ ـ مع استخلاف أبينا آدم عليه السلام ـ ابتدأ نظام اجتماعي جديد، كان استهلالا ومقدمة لحضارة بشرية جديدة أسّسها أبونا النبي آدم عليه السلام بأمر من ربنا عزوجل حين قال :

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

إذن كان في أمر الله عزوجل لآدم عليه السلام أن يسكن وزوجه الجنة تحديدٌ وتخصيصٌ له في انتقاء أفراد معيّنين من المؤمنين الذين يتميزون بصفات محددة حددتها لفظة : ﴿زوجك﴾ في أمر الله عزوجل والتي ـ كما علِمنا ـ تعنى قرينك ونظيرك وصنفك . . الخ . ولهذا فإن آدم عليه السلام لم يكن مطلق الحرية فى دعوته يدعو من يشاء من سكان الكهوف من قومه وقبيلته، ومن هنا كانت خطيئته حين نسي الإلتزام بأمر الله : ﴿وزوجك﴾.

الشجرة المحرّمة وخطيئة آدم عليه السلام:

قال ربنا عزوجل :

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

(البقرة: ٣٥)

هذه الشجرة شغلت الكثير من أفكار المفكرين وسحرت خيالهم .

ماهي هذه الشجرة؟

ولماذا تكون محرمة؟

وما السر الكامن في سحر إغوائها فجعل آدم ينسى وحواء معه فذاقاها ثم ندما واستغفرا ربهما؟

وهل صحيح الزعم بأن حواء كانت هي المسؤولة عن إغواء آدم كي يأكل من الشجرة كما هو مشهور لدى كثير من الناس؟

وإلاّ فما دور حواء في قصة آدم والشجرة المحرمة؟

كثير وكثير من الأسئلة طرحها السائلون، واخترع لها المخترعون أجوبة من وحي التخمين والخيال دونما غوصٍ في عمقٍ بحثٍ علمي منطقي صحيح، أو سبرٍ لأغوار فكرة عميقة وفلسفة بنّاءة تكمن في أعطاف اللفظة والكلمة الربانية المعجزة فيما كانت، والتي لا تزال معجزة فيما هي كائنة أو تكون.

«الشجرة» لفظة مشتقة من المصدر: «شَجَرَ»، وكي نفهم حقيقة الشجرة المحرّمة على آدم وزوجه، لابد أن نتعمق في فهم معنى لفظة: «شجر».

جاء في المراجع العربية:

«شجر الأمر بينهم: تنازعوا فيه، ومنه في سورة النساء: ﴿في ما شجر بينهم﴾ أي ما وقع بينهم من خلاف.. تشاجر القوم تخالفوا وتنازعوا واشتبكوا في النزاع اشتباك الأشجار. شجرة النسب يبتدأ فيها من الجد الأعلى إلى أولاده ثم أولاد أولادهم وهلم جرا. والشجرة في اصطلاح الصوفية: الإنسان الكامل»[1].

وجاء في المعجم الوسيط:

«يقال هو من شجرة طيّبة: أي من أصل كريم»

وقال ربنا عزوجل في سورة النساء ٦٥:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

وهكذا فإن معنى الشجرة: الشجار والنزاع والإختلاف، كما أنها تشير إلى الأصل والنسب في العائلات الإنسانية.

وورد في القرآن ذكر لـ «الشجرة الملعونة»، قال تعالى:

---

(١) ـ محيط المحيط.

﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾

(الإسراء: ٦٠)

ومن المعلوم أن سورة الإسراء تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل. تتحدث الآية هنا عن شجرة معينة في القرآن ذاته، وهي:

﴿الشجرة الملعونة في القرآن﴾

إذن يجب، بحسب هذه الآية الكريمة أن نجد ذكراً لشجرة لعنها الله في القرآن فصارت ملعونة. ولكن القارىء للقرآن الكريم لا يجد في أية آية لَعْناً يتعلّق بشجرة (نبات) ملعونة، بل نقرأ فيه لَعْناً لشجرة من الناس لعنهم الله بكفرهم، قال تعالى:

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾

(المائدة: ٧٨)

لاشك في أن بني إسرائيل ينتمون إلى شجرة معينة من الناس ويؤكد القرآن أن الذين كفروا منهم قد لُعنوا على لسان أنبيائهم. وقال تعالى:

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا﴾

(المائدة: ٦٤)

﴿أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت﴾

(النساء: ٤٧)

إذن كفار اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن الكريم، ولن يجد القارىء للقرآن أي شجرة ملعونة معينة غيرها.

وهذا يؤكد استعمال الشجرة في المصطلح القرآني للدلالة على الفئة والقوم والقبيلة من الناس.

وهذه أيضاً هي حقيقة «الشجرة» المذكورة في قصة آدم.

ابتدأ أمر الله عزوجل لآدم بقوله:

﴿اسكن﴾

وتشير لفظة: «اسكن» إلى أمر يتعلق بالنزوع إلى السكن والسكينة وعدم النزوع إلى

الشجر والشجار الذي يكون نقيضاً للسكن في هذه الحال.

والكلمة الثانية في أمر الله تعالى لآدم هي:

﴿وزوجك﴾

وهي تشير إلى كيان متآلف مع الذات ويناقض حالة الشجر والشجار أيضاً، فالزوج كما علمنا هو الصنف والنمط والقرين والمثيل، وتشير هذه الكلمات جميعاً إلى إمكانية التآلف والسكن بسبب كون المتصفين بها قابلين لهذا السكن والتآلف لكونهم من «صنف» واحد.

إذن كان على آدم أن يعمل على الإلتزام بالسكن والسكينة والتآلف والتآدم مع أفراد من صنفِ طبيعته وإيمانه بحيث يكونوا نزّاعين إلى السكن والسلام وعدم الميل إلى النزاع والشجار. ولما كان في قوم آدم فئة أو قبيلة تتصف بالميل والنزوع إلى الشجر والمشاجرة لأنها فئة شَجِرة تحب النزاع والخصام لشرٍ كامن في سلوكها وأخلاقها فقد نهى الله الخبيرُ آدمَ عليه السلام بألا يطمع في دعوة هذه العائلة الشَجِرة لاتّباع دعوته والمجيء للسكن في «الجنة».

إن هذه العائلة الشَجِرة ما كان ينطبق عليها وصف ﴿وزوجك﴾في أمر الله تعالى لآدم، فهي لا تتصف بسلوكه وأخلاقياته وإيمانه وطبيعته، وهي لذلك لم تكن مشمولة في أمر الله تعالى لآدم أن يُسكن في الجنة من كان زوجاً له فقط.

لقد كانت خطيئة أبينا آدم كامنة في حماسه للإصلاح والأَدْمِ بين أفراد قومه وقبيلته وفي حرصه على تنفيذ أمر الله تعالى على أوسع نطاق، فنسي في شدة حماسه وإخلاصه أن يلتزم بأمر الله تعالى: ﴿وزوجك﴾فتوسّع في نطاق دعوته حتى وصل إلى العائلة والقبيلة الشَجِرة يدعوها، وبذلك نسي واقترب وذاق وأكل من الشجرة التي أمره الله تعالى ألا يقربها هو وزوجه.

ولابد أن إبليس «الحارث» كان على رأس هذه القبيلة الشَجِرة النزّاعة إلى الشجار والخصام والإختلاف والتي لم تُرِد أن تخضع لدعوة آدم عليه السلام، بل على العكس كانت تريد وتسعى إلى إحباط وإفشال دعوة آدم، ولم تكن تريد الإنتقال من السكن في الكهوف إلى سكنى الحقول والبساتين لإعمارها وتأسيس حضارة مدنية جديدة.

كانت تلك هي الشجرة الرافضة لدعوة آدم بما فيها من شرّ وخصام. وكان إبليس هو الزعيم لهذه القبيلة، وقد كان يمثّل مع قومه آنذاك دَور الضّد المناقض لدعوة آدم عليه السلام.

ويمكننا أن نفهم الآن كيف أن إبليس ليس هو الشيطان الذي وسوس لآدم وزوجه وزيّن له الإقتراب من الشجرة المحرّمة بمعنى الإحتكاك بأفراد العائلة الشريرة النزاعة إلى المشاجرة والخصام والفساد في قوم آدم بما تبثّه بينهم من شجار وخلاف. لقد كان الشيطان الموسوس فرداً من قوم آدم زين له فكرة دعوة الفئة التي نهاه الله عنها. وبما أن آدم كان يريد أن يأدم ويصلح بين جميع أفراد قومه فلقد تحمّس لدعوة هذه الفئة من قومه ناسياً أن الله قد نهاه عن الإقتراب منها وعن دعوة أفرادها لعلمه عزّ وجل بطبيعتهم الشجِرة وبما يريدون من إفساد في قوم آدم يناقض الإصلاح والتأسيس الذي يعمل عليه هو وزوجه، وهكذا فقد نسي آدم ولم يعزم على معصية الله تعالى، ولقد بين لنا ربنا هذه الحقيقة في القرآن الكريم فقال:

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾

(طه: ١١٦)

أي أن خطأ آدم كان في أنه قد نسي أمر الله له في أن يحصر دعوته في أفراد لهم مواصفات معينة تؤهلهم للتآلف والتآدم بغية النجاح في تحقيق المجتمع الآدمي الجديد الذي يناقض المجتمع الخِلافي الشَجَري الذي يفسد في الأرض ويفرّق الناس ويجعلهم يتصادمون مع بعضهم في شِجار وخلاف مستمر يهلكهم ويهلك حضارتهم الإنسانية.

يقول بعض الناس أن آدم كان ضعيفاً قليل العزم، بدليل قوله عزوجل: **﴿ولم نجد له عزماً﴾** أي لم يكن ذا عزم قوي بزعمهم.

هذا ليس صحيحاً، إذ الحقيقة هنا هي أن الله تعالى يبرّيء آدم عليه السلام من أن يكون عازماً على الخطأ، إنه لم يخطيء إلا ناسياً، وكان خطأه نابعاً من حماسه لطاعة الله عزوجل في تبليغ دعوته، ولم يعزم عليه.

بعد أن دعا آدم عليه السلام أفراد قومه منتقياً إيّاهم لمجتمعه الآدمي الجديد، إقترح عليه واحد من أفراد قبيلته أن يدعو أفراد قبيلة معينة فلعلهم يدعمون دعوة آدم ويتقوّون بهم في سكناهم الجديد في الجنة وبذلك يضمنون بقاءً أقوى يظل ويخلد بقوة أفراد هذه المؤسسة الحضارية الآدمية الجديدة.. وناسياً نهي الله له عن الإقتراب من هذه الفئة من الناس. استجاب آدم عليه السلام لهذا الإقتراح واقترب بمجتمعه من هؤلاء الذين كانوا لا يتميزون بالطبيعة والسلوك السلمي المطلوب لتحقيق نجاح آدم في تأسيس حضارته الآدمية في الأرض

الجديدة، وبذلك دخل مجتمع آدم في خطر الشجار والنزاع والإختلاف بها بثّه أفراد الفئة المشاجرة الجديدة، ففسد المجتمع الذي أسسه آدم في الجنة، وصار عليه إعادة تأسيسه من جديد.

ونقرأ القصة في القرآن الكريم كما يلي، قال تعالى:

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين* فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين* وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين* فدلّاهما بغرور فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾

(الأعراف)

وفي سورة طه نقرأ قول ربنا عزوجل:

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً* وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى* فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى* إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى* وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى* فوسوس إليه الشيطان وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى* فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾

تبين هذه الآيات الكريمة أن آدم وزوجه بعد أن ذاقا الشجرة أو أكلا منها بدت لهما سوأتهما، فماذا عساها تكون هذه السوءات التي بدت لآدم وزوجه فقط بعد اقترابهما من الشجرة، مما يدل على أنها كانت خفية عنهما ولم يكونا على علم بها من قبل.

إن سوءة الإنسان التي هي عورته بمعنى أنها المكان الخاص من جسمه لا تكون خفيّة عنه بحيث «تبدو له» وعندئذ فقط يعلم عنها.

إذن ماهو المقصود بلفظة «سوأتهما» هنا؟

السوءة في اللغة العربية هي العورة. والعورة هي الخلل في الشيء ومكان الخطأ والضعف فيه. والعورة هي كل بيت أو موضع فيه خلل يُخشى دخول العدو منه. وفي التنزيل:

﴿يقولون أن بيوتنا لعورة﴾[1].

إذن من معاني السوءة العورة، وهي بدورها تعني الخطأ والضعف، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله أن من يتتبع عورات الناس يتتبع الله عوراته، والمقصود واضح تماماً هنا وهو أن الله عزوجل يكشف أخطاء وعيوب الذي يتتبع أخطاء وعيوب الناس ليكشفها.

بعد أن استجاب آدم وزوجه لِوَسْوَسَةَ من أشار عليهما بدعوة تلك العائلة المعيّنة للسّكن معهما في الجنة التي أمر الله آدم أن يسكن فيها هو وزوجه، تمكّن أفراد تلك العائلة الشَجرة من بثّ النزاع والخلاف والشجار بين أهل الجنة وسكانها الذين سكنوا فيها مع آدم، الأمر الذي بدّد الجهد الذي بذله آدم عليه السلام في تأسيس المجتمع الجناتي الحضاري الآدمي الجديد، وذلك بسبب تمكّن أفراد تلك العائلة أو القبيلة من التفريق بين أفراد قوم آدم عليه السلام.

عند ذلك تبين لآدم وزوجه خطأهما، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بـ:

﴿فبدت لهما سوأتهما﴾

أي بدا لهما خطأهما في الإقتراب والإحتكاك بأفراد تلك العائلة أو القبيلة ودعوتهم للسكن معهما وقومهما في الجنة،فقد كانت تلك العائلة هي الشجرة التي نهى الله تعالى آدم وزوجته الإقتراب منها لعلمه عزّ وجل أن أفرادها ينزعون إلى الشجار وسيسعون إلى بثّ الخلاف والنزاع بين أفراد قوم آدم عليه السلام في الأرض الجنة التي أمر الله آدم أن يسكن فيها هو وزوجه فقط أي هو ومن يكون من صنفه ونمطه ومثيله وقرينه، فنسي آدم عليه السلام ودعا أفراد تلك العائلة الذين لم يكن ينطبق عليهم التحديد في أمر الله عزوجل: ﴿وزوجك﴾

وأمرٌ آخر يتعلق بالشجرة المحرّمة لابد من الإشارة إليه:

يدرك الإنسان خطأه حين يقارن ماقام به من عمل مع علم صحيح تذكّره أو توصّل إليه أو نتيجة فعل معين قام به. ويتبينّ خطأ الإنسان بمقارنة أعماله مع ما شرع الله من أعمال أو نهى عن محرّمات. وهذا ماحصل مع آدم وزوجه حين بدت لهما سوأتهما، ولكن كيف؟

مثل الله شرْعه بالشجرة الطيبة حين ضرب مثلاً بالكلمة الطيبة فقال:

---

(١) - راجع المعجم الوسيط ومحيط المحيط.

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾

(ابراهيم: ٢٤ ـ ٢٥)

والشجرة الطيبة هنا هي شجرة الإيمان والإسلام والقرآن الكريم. ونجد في هذه الآية الكريمة أن كلمة الله تمثّل بالشجرة التي تمتلك الخواص الجوهرية الأربع التالية:

١ ـ أنها طيبة، وهذا يعني أنها حرة نقية وبريئة من أي تعليم يستفزّ العقل والوجدان الإنساني أو يكون مناقضاً للمشاعر والأحاسيس الإنسانية.

٢ ـ وكالشجرة الطيبة العميقة الجذور والملأى بالثمار هي شريعة الله.. فهي ذات أساس قوي راسخ وثابت، وتستمد حياة عذبة جديدة أبداً وغذاء طيباً مباركاً من أصلها، وكالشجرة القوية فإنها لا تنحني أمام قذائف الإعتراضات والإنتقادات المعادية، بل تقف شامخة ثابتة راسخة في مواجهة جميع العواصف. إن هذه الشجرة المباركة تستمد الحياة والغذاء من مصدر واحد فقط، وهي لذلك منسجمة متكاملة في مبادئها وتعاليمها وليس ثمة أي تنافر أو اختلاف فيها.

٣ ـ فروع هذه الشجرة وأغصانها تصل السماء، وهذا يعني أنه بالعمل على تطبيق مبادئها تستطيع البشرية أن تعتلي أعلى قمم الرقي الروحي.

٤ ـ وهذه الشجرة تعطي ثمارها وافرة في كل الفصول، وهذا يعني أن بركاتها ومنافعها مشهودة في كل الأوقات والأزمان فهي تغذي وتنتج ثماراً رجالاً يحصلون ـ من خلال تطبيقهم لمبادئها وتعاليمها ـ على التواصل الحق مع الله عزوجل، كما يمكنهم من خلال تقواهم ونقاء سلوكهم أن يقوموا كالأبراج الشامخة فوق معاصريهم.

إن القرآن الكريم الذي هو شجرة شريعة الله تعالى يمتلك جميع هذه الخصائص وعلى أكمل وجه[1].

﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار﴾

(ابراهيم: ٢٧)

وعلى عكس الشجرة الطيبة، فإن الكتاب أو التعليم المزيف من لدن كاذب مفتر، إنما

---

(١) ـ راجع التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

يكون كالشجرة الخبيثة، فهو لايملك ثباتاً ولابقاء كما لايكون له دعم من منطق إنساني ولا قوانين للطبيعة. . وكذلك لايمكنه مواجهة النقد، كما تكون أفكاره ومبادئه عرضة للتغير باستمرار مع تغير الأحوال والشروط الإنسانية، فهي مجرد تعاليم تخمينية مجمعة من مصادر غير واثقة ومفعمة بالشك والريب. ثم إن هذا التعليم يفشل في إثمار رجال يبرهنون على أنهم على صلة حقيقية مع الله تعالى، وهو لا يستمد حياة عذبة جديدة من السماء ويكون خاضعاً للتعفن والإنحلال(١).

فالكلمة الطيبة إذن هنا ترمز إلى شجرة الشريعة التي على المؤمنين الإلتزام بتعاليمها وحدودها فلا يتعدوها ولا يقربوا ما حرّم الله فيها.

قال الله عزوجل لآدم وزوجه:

﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

ويمكننا أن نفهم هنا أيضاً بالإضافة إلى ما سبق معنى جديداً، يشير إلى نهي الله عزوجل لآدم وزوجه و (قومه) ألا يقربا حدود ما حرّم الله في شجرة شريعته حتى لايكونا من الظالمين، قال تعالى:

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾

(البقرة: ١٨٧)

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾

(البقرة: ٢٢٩)

وهكذا فإن نهي الله عزوجل لآدم وزوجه (قومه) عن الإقتراب من الشجرة يشير أيضاً إلى تعليم ضروري وهام جاء مثله مرات في القرآن الكريم وهو ألا يقربا حدود شريعة الله وألا يعتدوها، لأن في هذا نجاحاً وفوزاً عظيماً لآدم وقومه.

ولقد كان من شريعة الله المنزلة على آدم ألا يقرب شجرة أي قبيلة أو عائلة تنزع إلى الشجار وبث الخلاف بين الناس وفي أفراد قومه، لأن ذلك من شأنه أن يفسد تأسيس آدم لمجتمع الجنة الذي أمره الله أن يقيمه بناء على أسس تشريعية محددة بيّنها الله لآدم وزوجه.

---

(١) - راجع التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

ويظل هذا الفهم صحيحاً وقابلاً للتطبيق في كل حين. إذ أن المجتمع الذي يقوم على مخالفة ما شرع الله من خير للإنسانية لابد أن يفسد ويضمحل ويفشل، ولهذا كان لابد من التنبيه على ضرورة الإلتزام بشرع الله وعدم مخالفته لتحقيق النجاح في تأسيس مجتمع الخير والسلام للبشرية جميعاً.

خروج آدم وزوجه من الجنة:

ونقرأ في قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم قول ربنا عزوجل:

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين* فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين* فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم* قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

(البقرة)

إن خروج آدم من الجنة لا يعني كما يعتقد البعض بأنه إنزال لآدم وزوجه من السماء إلى الأرض[1]. بل يعني خروجه وقومه من الوضع الجناتي الرغيد الذي كان يعيشه هو وقومه بعيداً عن النزاع والخلاف والخوف. ولقد ثبت لك في ما مر من بيان وبرهان أن جنة آدم كانت في الأرض وليست في السماء، وبهذا فإن خروج آدم من الجنة يعني خروجه من تلك الأرض إلى أرض غيرها بعد أن فسدت الحالة والشروط في الجنة التي كان فيها بسبب احتكاك مجتمعه بأفراد الشجرة المفسدة بالخلاف والنزاع، وبعد أن تبين له هو وزوجه أنهما قد أخطآ بدعوة أفراد تلك القبيلة للسكنى معهم في المكان الذي حدده الله لهما. ولذلك كان عليهما النزوح إلى منطقة أخرى والبدء من جديد بتأسيس مجتمع سليم من الخلاف والنـزاع ويقوم على الإلتزام بما شرع الله وأراد. ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الخروج

---

(١) - يقول الدكتور البوطي في كبرى اليقينيات الكونية: «واعلم أنه لاشأن لنا في هذا المقام بالبحث في كيفية نزول آدم من الجنة، والتحقيق في البقعة التي هبط إليها من الأرض» ص ٢٥٠ الطبعة الثامنة.

بقوله: ﴿اهبطوا﴾ ليبين بأن خروجهم كان يشير إلى تدنٍّ من حال إلى حال أقل منها ولقد استعمل القرآن هذا التعبير في مقام آخر دون أن يعني بالنزول من السماء إلى الأرض، قال تعالى في حديثه عن بني اسرائيل:

﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾

(البقرة: ٦١)

ويحدثنا القرآن الكريم عن أول عمل قام به آدم وزوجه بعد أن تبيّنا خطأهما، فيقول:

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾

وهذا يعني أنهما بدءا من جديد يدعوان فتية الجنة وشبابها لاعادة بناء المجتمع الجناتي المأمول، فكيف نفهم هذا؟

يعتقد البعض أن معنى قوله عزّ وجل:

﴿طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾

أي أخَذَ آدم وزوجه يستران عوراتهما بأوراق أشجار الجنة، وهذا يخالف النص، لأنه لو كان المقصود بورق الجنة هو أوراق الأشجار لكان لابد من القول: طفقا يخصفان عليهما من ورق أشجار الجنة. ولكن النص الكريم جاء بصيغة: «ورق الجنة» ذاتها. فما هو المقصود بورق الجنة؟

نقرأ في مراجع اللغة العربية ما يلي:

«والورق من القوم: أحداثهم أو الضعاف من الفتيان وحسن القوم وجمالهم»(١).

وجاء في المعجم الوسيط:

«ورق القوم: أحداثهم، أو الضعاف من فتيانهم. وورق الشباب: نضرته وحداثته. والورق: حسن القوم وجمالهم»(٢).

وهكـذا فإن «ورق الجنة» هم شباب الجنة وأحداثها وأحسنهم خلقاً وجمالاً في السلوك والإيمان، وهؤلاء هم الذين سعى آدم وزوجه إلى دعوتهم من جديد ليشاركوهم في تأسيس

(١) - راجع قاموس محيط المحيط مادة ورق.

(٢) - راجع المعجم الوسيط مادة ورق.

المجتمع الأدمي الجديد بعد فشل تجربتهم في دعوة إبليس وقومه الذين أفسدوا في قوم آدم بالنزاع والخلاف الذي بثّوه بينهم.

ومن الجدير بالذكر هنا أننا لانقدم تفسيراً شاملاً لجميع الآيات القرآنية التي تروي قصة آدم عليه السلام، فإن ذلك يستلزم بحثاً مطوّلاً يتناول كل لفظة في كل آية تروي هذه القصة، ولكننا نقدم في بحثنا هذه البراهين القرآنية المبينة والتي تؤكد أن قصة آدم في حقيقتها هي غير ما يُروى من خيالات وأساطير تتعلق بخلق آدم والجنة وقصته مع إبليس والشيطان، ثم الحديث عن خطيئته التي وصل فيها البعض إلى حدّ النيل من عصمة آدم وشخصيته كنبي مرسل صلى الله عليه وسلم.

ولقد تبين لنا من الدراسة التحقيقية في قصة آدم في القرآن الكريم أن ما يسمى بخطيئة آدم لم تكن أكثر من أنه نسي أمر الله له بعدم التوسع في دعوته لتشمل أناساً معينين يعلم الله عدم جدوى دعوتهم وكذلك خطر دخولهم في مجتمع آدم في الجنة التي أمره الله أن يسكن فيها هو وزوجه.

لقد كانت خطيئة آدم كامنة في حماسه الشديد لاصلاح قومه وتبليغهم دعوة الله تعالى والخروج بهم من سكنى الكهوف إلى سكنى السهول وإعمارها لتأسيس حضارة آدمية راقية تستهل حضارة إنسانية شاملة تعمّر الأرض جميعاً.

لقد برأ الله آدم من عزمه على الخطأ فقال:

﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾

وليس صحيحاً الزعم بأن ذلك يعني أن آدم عليه السلام لم يكن من الرسل أولي العزم بمعنى أنه كان نبياً ضعيفاً، بل إن أنبياء الله جميعاً هم نخبة عظيمة من البشر الذين يصطفيهم الله تعالى على أنهم خير أهل زمانهم.

ويتحدث الشيخ متولي الشعراوي عما يسمى بخطيئة آدم فيقول إن جانباً من شخصية آدم كان قابلاً ليس لأن يرتكب آدم الخطأ والخطيئة فحسب، بل إنه ممكن في هذا الجانب أن يكفر بخالقه، وإليكم كلمات الشيخ الشعراوي في كتابه الشهير: أسئلة محرجة وأجوبة صريحة، يقول:

«ومن العجيب أن أمر آدم بالنسبة إلى الوحي أخذ خلافاً طويلاً . .. وهو كيف يكون موحى إليه وتصدر منه المعصية . . ولم يفطن هؤلاء إلى أن آدم عليه السلام خُلق بمثل نوعين من البشر . . نوع نبوة معصومة . . ونوع غير نبي يقع في الخطأ والخطيئة . . بل ويكفر بخالقه . . وما دام أباً لهذين النوعين . . فيجب أن يتمثل في خلقه وتكوينه النوعان معاً . . النوع الخطأ الذي يعهد إليه فينمي ويعصي ويوقعه الشيطان في الخطأ بالغرور . . ولايملك أن يسيطر على نفسه أمام نزواته وشهواته .. ونوع آخر هو الذي اجتباه الله ليقوم بدور النبوة . . فهو معصوم من الخطأ . . »[1].

ثم يتابع الشيخ متولي الشعراوي شرحه فيقول :

«فلما أخطأ آدم في دور التجربة نسي . . . »[2].

ثم يبين الشيخ الشعراوي أن خطأ آدم كان بسبب غفلته والعياذ بالله ، فيقول :

« . . كان على آدم ألا يكون غافلاً إلى هذا الحد . . يجب ألا ينسى . . فعندما يقول له الشيطان إن الله منعكما من أن تأكلا من هذه الشجرة . . حتى لا تصيرا ملكين . . وتعتبرا من الخالدين . . كان يجب على آدم أن يقول له : إذا كنت أيها الشيطان تعلم أن الأكل من هذه الشجرة يجعلك ملكاً ويجعلك خالداً . . فلماذا تضاءلت أمام ربك . . وقلت له : أنظرني إلى يوم يبعثون . . لماذا لم تذهب لتأكل من الشجرة وحدك لتصير من الخالدين . . إن الله يريد أن يعلمنا الفطنة»[3] .

وكما رأينا فإن القرآن الكريم لايوافق على هذه الأشكال من الفهم لما يسمى بخطيئة آدم .

بل إن آدم عليه السلام من الرسل الذين اجتباهم ربهم وقربهم إليه ، قال تعالى :

﴿ولكن يجتبي من رسله من يشاء﴾

(آل عمران : ١٧٩)

وقال عن آدم عليه السلام :

﴿ثم اجتباه ربه﴾

(طه : ١٢٢)

ونلاحظ من جملة تفسير المفسرين أنهم يأخذون بحرفية لفظة الشجرة والتذوق أو الأكل منها ، ويعتبرون أن خطيئة آدم عليه السلام إنما كانت بسبب أنه «ذاق» أو «أكل» من

---

(١) ـ راجع كتاب أسئلة محرجة وأجوبة صريحة لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي الصفحة ٥٤ .

(٢) ـ المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣) ـ المرجع السابق ص ٥٦ «وهل كان آدم تنقصه الفطنة التي يمتلكها فضيلة الشيخ ؟ »

«الشجرة» المحرّمة. ويزول هذا الإشكال في الفهم حين نعلم أن القرآن قد استعمل الفعل «ذاق» في كثير من الآيات مشيراً بذلك إلى معاناة الإنسان لما اكتسبت يداه من خطأ، قال تعالى:

﴿ذوقوا ما كنتم تعملون﴾

(العنكبوت: ٥٥)

﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾

(الزمر: ٢٤)

وفي معرض تصوير معاناة الناس بأس بعضهم لبعض، يقول عزوجل:

﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾

(الأنعام: ٦٥)

وهكذا فإن استعمال لفظة «ذاقا»: في قوله تعالى عن آدم وزوجه: **﴿فلما ذاقا الشجرة﴾** إنما تشير إلى معاناتهما لخطأ الإقتراب من أفراد تلك القبيلة الشجرة لدعوتهم، فكان من ذلك إدخال فساد هؤلاء وفرقتهم إلى مجتمع آدم وزوجه، مما أدى إلى معاناة آدم وزوجه من ذلك الشيء الكثير.

وأما استعمال لفظة الأكل في موضع معاناة الخطأ فإنما يشير إلى شدة المعاناة من ذلك الخطأ، قال تعالى عن آخذي الربا:

﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ناراً﴾

(البقرة: ١٧٤)

ومن المعلوم أن النار لا تؤكل، وإنما هو تصوير لحقيقة المعاناة التي سيعانيها المرابون في الدنيا والآخرة بسبب أخذهم الربا.

وأما عن الإشكال الظاهر في قوله تعالى:

﴿اهبطا منها﴾

حيث يعتقد البعض أن في هذا تأكيد على أن الخطاب قد كان لآدم وزوجه فقط، وأن هذا يعني نزولهما من السماء إلى الأرض، فإن هذا الإشكال يزول حال إتمامنا لقراءة هذه الآية

الكريمة إذ يقول تعالى:

﴿اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾

ففي قوله (جميعاً) بعد قوله (اهبطا) دليل على أن الخطاب كان لفريقين أو فئتين وليس لمجرد زوجين من البشر.

ويؤكد هذا الفهم ورود آيات أخرى تتحدث عن هذا الموقف في قصة آدم عليه السلام حيث يقول تعالى:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾

(البقرة: ٣٨)

ونقرأ في موضع آخر قول ربنا عزوجل:

﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾

(الأعراف: ٢٤)

وأمّا البرهان على أن كلمة اهبطوا لا تدل على النزول من السماء فقد قدّمنا براهين كثيرة ومنها قول الله تعالى على لسان موسى لقومه:

﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾

وقفة تأملية مع آدم والتعليم الذي أنزله الله عليه:

لو تفكرنا متأملين في تعليم الله المنزل على آدم مؤسس الحضارة البشرية الحديثة، لوجدنا أن هذا التعليم المعجز يبقى صالحاً للبشرية في كل زمان ومكان، إذا ما كانت ثمة إرادة صادقة لتأسيس أي مجتمع حضاري ناهض يروم الإستقرار والبناء المتين والعيش الرغيد في بيئة تكون جنة بشرية يعم فيها الخير للجميع حيث ينعم الكل في طمأنينة السكن والإستقرار من خلال الإصلاح المبني على الود والتآلف والتآدم.

قد جاء أمر الله وتعليمه لنبيه آدم مؤسس الحضارة البشرية الحديثة يقول:

﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾

ويتضمن نداء الله تعالى لنبيه بلفظة: ﴿يا آدم﴾رسالة تعليمية هامة وتوضيحاً للمهمة الرئيسية لهذا المؤسس.

وذلك لأن خطاب ربنا عزّ وجل بهذه الكلمة يعني نداءه له بـ: يا أيها المصلح الأسوة المؤلّف والموحّد والآدم بين الناس(١). أي أن مهمة آدم الرئيسية كانت أن يصلح في قومه وأن يؤلف بينهم ويجمعهم على المودة والإلفة وأن يوحّد بينهم ويكون أسوة في ذلك لهم حتى يجعل منهم مجتمعاً آدمياً حضارياً يعيش في جنة إنسانية دائمة الخير والنفع.. وفي هذا تعليم سماوي حكيم لكل إمام مصلح يريد أن يجعل من أرضه ووطنه بيئة حضارية جنّاتية ينعم فيها الجميع بسلام الإلفة والود والمحبة الجامعة.

وأما البند الثاني من هذا التعليم الرباني فنستخلصه من أمر الله تعالى لآدم عليه السلام بقوله:

﴿اسكن﴾

السكن في اللغة العربية يعني كل ما يسكن إليه وفيه ويستأنس به، والرحمة والبركة والقوت(١).

وبهذا فقد كان على آدم أن يسعى إلى نشر الأنس والإستئناس والسكينة والرحمة والبركة وأن يؤمّن القوت والإستقرار والطمأنينة لأهله وقومه.

إن الطمأنينة والإستقرار في أي بيئة كانت لايمكن أن تتحقق بشكل تام وسليم ما لم تتناول جميع أفراد هذه البيئة الصالحين المصلحين الذين بهم ومعهم يمكن أن يتم البناء الحضاري الهادف الى تحقيق الإستقرار والطمأنينة والسلام والخير والرحمة والبركة للجميع، ولهذا فقد جاء التعليم الرباني لآدم يقول:

﴿اسكن أنت وزوجك﴾

مبيّناً أن عليه أن ينتقي للعمل معه من أبناء قومه وأهله من يكون مثيلاً له من نوعه وصنفه

---

(١) ـ راجع هذه المعاني في قواميس اللغة العربية.

(٢) ـ راجع محيط المحيط والمعجم الوسيط.

ونَمَطه، لأن العمل لصالح تحقيق الحياة الحضارية المستقرة والمطمئنة لابد أن يكون عملاً جماعياً يتعاون فيه أبناء الوطن والأمم والشعوب بروح مؤمنة واحدة لخير أوطانهم وأبنائهم ولا يمكن للبشرية أن تحقق أو حتى تأمل بتحقيق حضارة إنسانية مستقرة ومطمئنة من غير تعاون واع جاد مخلص مؤمن ودؤوب بين أبنائها الصالحين العاملين لخيرهم وصالحهم المشترك، وهؤلاء هم الأزواج والأشباه في صنف واحد من الناس يسعى لخير الناس جميعاً من أجل تحقيق مجتمع وبيئة حضارية راقية تكون للوطن والبشرية «جنة» إنسانية على الأرض، ومن هنا جاء ذكر الجنة في قوله عزوجل:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾

وبعد أن يتم هذا الإنجاز الحضاري العظيم بفضل العاملين متعاونين على تحقيقه من خلال قيادة أسوة مؤمنة صالحة، لابدّ عندئذٍ من العمل على حماية هذه الجنة الحضارية التي يبنيها أبناؤها بإيمانهم وخيرهم وتعاونهم وتماسكهم وتآدمهم. . وأوّل ما يجب أن ينتبهوا إليه في هذا الشأن هو عدم السماح للفئات المفسدة سواء أكانت أفراداً أم جماعات أو حتّى دُولاً أن تتسلل وتتمكن من العبث بما تم إنجازه وتحقيقه من أمن وطمأنينة واستقرار فتهدّد كيانه وتجعله عرضة للاهتزاز أو الزوال.

وإلى هذا أشار تعليم ربّنا عزّ وجلّ في قوله لآدم وزوجه:

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾.

أي بعد أن تسكن وتستقر وتطمئن أنت وقومك في بيئتك ووطنك الجنّة، احذر أن تقترب من الكيانات المشاجرة القائمة على بث النزاع والخلاف فتسمح لها بالاحتكاك بمجتمعك وقومك فتبعث فيه نوازع الخلاف والنزاع فتجعله بذلك ينحلّ ويتفكك وينهار من داخله بسبب الشجار والتنازع والخلاف.

إنّ وطننا العربي وأمّتنا العربية في أمسّ الحاجة اليوم إلى الاستفادة من التعليم الربّاني المنزل على آدم عليه السلام والذي يبيّنه لنا القرآن الكريم.

إنّ على كل فرد من هذه الأمّـة المبـاركة أن يعمل بكل طاقاته وإخلاصه على أن يأدم ويصلح ويؤالف بين أبنـاء أمّتنـا ووطننـا ما أمكن. . ثم إنّ عليه أن يعمل مخلصاً لنشر الطمأنينة والاستقرار والرحمة والعدل مبتدئاً بأسرته في بيته ومتابعاً في كل بيئة صغيرة أو كبيرة

قد يكون فيها راعياً ومسؤولاً عن أفرادٍ وأبناء وإخوة وأخوات من أبناء وطنه بشكلٍ أو بآخر.

ثم إنّ عليه أن يكون يداً ثانية مع كل يد مصلحة بنّاءة خيّرة تبني في الصرح الحضاري الشامخ والمأمول لهذا الوطن وهذه الأمّة.

كما ويجب أن يحترس بانتباه شديد من السماح للكيانات القائمة على مبدأ الإفساد والتشكيك بالقدرات ووأد الآمال، من التسلل والقدرة على هدم أسس العمل الصالح والبنّاء لأيّ بنّاء شريف يسعى جاهداً ومخلصاً في خدمة هذه الأمّة العظيمة وأبنائها الشرفاء المؤمنين.

نستطيع إذا ما تأمّلنا وتفكّرنا أن نجد كل هذه التعاليم العظيمة البنّاءة للحضارة الإنسانية الآدمية في كل مكان من الأرض. . والله أعلم.

ملامح الشخصية الإبليسية وأدوارها:

قد تبينّ معنا من المراجع اللغوية أنّ إبليس هو اسم وصفي يتصف به الإنسان حين يُبلس مخالفاً الطبيعة السليمة النقية التي فطر الله النفس الإنسانية عليها مختاراً موقفاً مبلساً من الله عزّ وجلّ ودينه ودعوته، فيجعل بذلك من نفسه «إبليساً» أي ـ وبحسب معاني اللغة العربية ـ قانطاً ويائساً من رحمة الله تعالى وقد تناقض مع خيره وفضيلته وصار ضالاً مختاراً غير قادر على تبينّ سبيله، وهو لذلك قد حُرم من تحقيق أمانيه وأضحى محطّم الروح يائساً قانطاً مبلساً ساكتاً لانقطاع الحجة عنده أو البرهان.

وهو لذلك قليل الخير كثير الشر، كما أنّه ليأسه وقنوطه من رحمة الله تعالى متروك حيران مخزياً ملعوناً فاقد القدرة على تبيّن طريقه أو إدراك سبيله.

ومن هذا ندرك أنّ ألزم صفات إبليس هي ضياع الأمل في الوصول إلى أيّة غاية أو تحقيق أي نجاح حقيقي. . إذ كيف يكون ثمة أمل لمن لا سبيل له أو لا يتبينّ سبيلاً؟ وإذا ما تتبعنا بالدراسة المتأنّية ملامح الشخصية الإبليسية في القرآن الكريم فإنّنا ندرك حقائق أدواره المبنية أساساً على غروره وتكبّره وحقده. ونقرأ في القرآن صورة لحوار يكشف الأساس الذي تقوم عليه الشخصية الإبليسية:

﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾
(الأعراف: ١٢)

إذن هو الغـرور أسـاسـاً وانـطلاقـاً ثم التعالي والتكبّر والانفعال فيه والاستسلام له حتى يطغى على صاحبـه ويستعبـده جاعـلاً منـه وثنـاً يعبـد ذاتـه في انفعـال ناري يتعالى فوق غيره معتبراً إيّاهم طيناً لا يرقى في تكوينه إلى قدرته وصفاته النارية الصاعدة طموحاً ولهيباً في ألوان جذابة تخطف الأبصار من بعيد وتحرق من يمسها من قريب. . ولا يدري أنّه بذلك يأكل بعضه بعضاً فيستحيل دخاناً ثم يتبدّد هباء. . بينما يبقى الطين في سلام طينيته. . يتفاعل في تطوّر خلاّق يجعل منه حال توحّده مع ماء الحياة وماء الوحي الربّاني أشكالاً إبداعية كثيرة ومتنوعة لا يرقى إليها حصر ولا خيال. . فأشجار الدنيا كلها بما ينعقد عليها من أزهار وأثمار، إنّما تنبت في الطين مستمدة الغذاء والحياة والبقاء منه طالما أنّه يبقى محتفظاً بأصالته الطينية الخصبة ببذور كل أشكال الحياة.

إنّ كل الجنّات المتباهية بأشجارها السامقةِ فروعها في أجواء السماء رقيّاً وشموخاً وتيها بأشكال الحياة وألوانها إنّما تنشأ فوق جذور مغروسة في الطين الحاني بتواضعه العظيم على جذور الجنّات يروي عروقها بالحياة النابضة بكل خفقات الجمال ورفّاتها.

ولهذا فإنّ الـ «إبليس» منطلقاً من حقيقة عدم إدراكه السبيل الحق، قد ضيّع مقوّمات البقاء في الجنّة فأخرج نفسه منها ظالماً لها. . مترفّعاً ومتعالياً عن الإستجابة إلى نداء الفطرة النقية والسليمة، فوقف متكبّراً يعلن: «أنا خير منه»، فوفّى الله له محصّلة عمله جزاء وفاقاً وقال له:

﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فأخرج إنّك من الصاغرين﴾

(الأعراف: ١٣)

قد صنع إبليس لنفسه بيديه هذا المصير حين ملّك نفسه لنارية مزاجه مغروراً، متكبراً ومتعالياً على غيره من خلق الله تعالى. وكيف تستطيع النار السّكن في الجنّة؟ وإلى ماذا تصير الغابة الجنّة إذا ما عَلِقت في أشجارها النار؟

وكما أنّه يستحيل وجود الظلام مع النور في ذات المكان، فكذلك لا يمكن للنار أن تسكن الجنة وهي نار. ولذلك فإنّ إبليس حين أصرّ على التمسّك بطبيعته النارية حكم هو على

نفسه بعدم القدرة على البقاء في الجنة والسكن فيها، لأنّه قد جعل بذلك نفسه كياناً مناقضاً للسكن الجنّـاتي، الذي يستلزم معايشة الطبيعة الطينية المتآلفة والمتمازجة مع غراس الجنة وجذورها. ولذلك فإنّ أمر الله له:

﴿اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾

لم يكن مجرّد عقاب له بقدر ماكان إعلاناً لحقيقة قائمة في حدّ ذاتها على أساس أنّ الطبيعة الطينية من مستلزمات الجنّة، بينما المزاجية النارية هي من الكيانات المناقضة لها، والتي لا يمكنها معايشة الجنّة أو التواجد فيها.

﴿ما يكون لك أن تتكبّر فيها﴾

هي حقيقة فيها قوّة السنّة والقانون.. مُحالٌ أن يعيش متكبّر في الجنّة. فالجنّة مُعايَشةٌ لكيان يجب أن يظل ويبقى لتبقى معـه الجنّة.. ولكن أي كيان يظل ويبقى للنار إذا ما عايشته النار ولو قليلاً؟

يتعالى إبليس لأنّه يريد أن يكبر ويكبر على كيان يراه ويريده أصغرَ منه، ظاناً أنّه يصنع بتعـاليه وتكـبّره جنّـة له تليق بغروره وأمله في أن يكبر ويظل يكبر، لكنّ الله الذي كوّن التكاوين وقنّن القوانين يلقي عليه قَدَره الذي نسجه هو بيديه:

﴿فاخرج إنّك من الصاغرين﴾.

يكون الـ «إبليس» من الصاغرين لأنّها هي حقيقته التي كشف عنها تعاليه وتكبّره.. ومن ذا الـذي يحتـاج إلى الإحسـاس بالكبر على غيره إلاّ من كان يرى نفسه صغيراً أو يصغر باستمرار؟ وماذا يكون الذي يصغر ويصغر باستمرار إلاّ من الصاغرين.

إنّ هذه الحقيقة القرآنية تشير إلى أنّ إبليس حين رفض السجود صار صاغراً، وأنّه لا يزال يصغر ويصغر منذ لحظة اختياره الإنفعال في الموقف الإبليسي والبقاء فيه.

يعتقد إبليس أنّه ليس بحاجة لأن يسمع أو يخضع أو يطيع، وهو لذلك لا يسجد ويصرّ على أنّ فيه خيراً يغنيه عن أن يسجد أو أن يسمع أو أن يعبد ربه، فهو يصنع دينه على هواه، ديناً يُنَصِّب فيه ذاته وثَناً يعبده في كل حين وآن.. وهو أيضاً يصرّ على البقاء في الجنّة ويعتقد أنها حقّه لأنّه خير من سواه ـ كما يرى هو ذاته ويقيسها بمقاييسه ـ وكفى بنفسه حسيباً.

صديقي الإنسان . .

اسمح لي أن أناديك بكل تواضع وإخلاص: أن تحذر بشدة في كل يوم، بل ولحظة من عمرك أو حتى خاطرة من فكرك أن تُدخل نفسك متورّطاً بالموقف الإبليسي فتتكبّر بنفسك وتتعالى عن الحق أيّا كان مصدره طالما أنّه حق يوجب الأخذ بمنطقه وندائه السليم. . حاذر أن تضلّك المزاجية النارية كما ضلّ بها إبليس، فجارى بذلك ألْسِنة اللهب، ناسياً أنّك حين تكون بتعاليك ناراً، فإنك عندئذٍ ستأكل بعضك بعضاً، وتفني ذاتك بذاتك تماماً كما تفعل النار بذاتها. . ثم ينتهي بك المطاف أن تؤول دخاناً يتبدّد في قصفِ ريحٍ هوجاء عاصفة لا تُقرّك قراراً، ولا تُسكنك سكناً، بل دَوّاراً تلفُّ حول ذاتك وتلتفّ حتى تكاد تخنق نفسك بنفسك في ضيق شديد وغربة شائكة ووحدة قاتلة، ثم وفي لحظة تَفكّر وجداني تكتشف أنّك قد أمضيت عمرك في تَعالٍ وتكبّرٍ أحمق كان يُخرجك دائماً من كل جنّة تحلم بالعيش أو الاستقرار فيها ولو لحظة في عمر. وتذكر عندئذ أنّك لم تُعايش يوماً جنّةً حقيقية يمتلىء فيها قلبُك اطمئناناً على استقرارك من أن يُتخطّف، أو مصيرك المجهول من أن يدنو ذات فجأة تدرك عندها. . عندها فقط، أنك قد أهلكت نفسك بتعاليك وتكبّرك، إذ أنّك لم تُرد أن تسمع أو أن تعلم أو أن تسجد إلّا لذاتك، أو أن تعبد إلّا هواك.

إبليس ـ الشيطان:

إذنّ الإبليسية واقع يمكن أن يعايشه كل مغرور بنفسه متكبّر بذاته فاشل في الرؤية الحقّة لكيانات الآخرين عاجز بتعجيزه لنفسه عن أن يسجد إلّا لذاته أو أن يعبد ربّه الذي هو ربّه ورب العالمين لأنّه لا يريد أن يعبد إلّا هواه ظاناً أنّه يقيم بذلك لنفسه شخصية باقية في جنّة خالدة لا يدركه فيها ضعف ولا بؤس ولا شقاء، وهو كما تعلمون: «أمل إبليس بالجنّة». حين أبلسَ إبليسُ وصار إبليساً دخل أيضاً في الشيطنة وصار شيطاناً، فهو لم يعد يكتفي بإغوائه لنفسه بعد أن حكم الله عليه بأنّه قد غوى، بل عزم على أن يغوي خلق الله أجمعين فقال:

﴿لأغوينهم أجمعين﴾

(صٓ: ٨٢)

وبيّن طريقه وخطته في الإغواء وأنّه سيشنها على الناس من خلال الزينة والتزيين، فقال:

﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾

(الحجر: ٣٩)

فهـو يزيّن الفكـرة ويزيّن الخاطرة ويزيّن الهدف ويَعِدُ بالغرور ويتزيّا بالسراط المستقيم فيغوي ويُضلل ويُضعف ويقتل ويهلك ويجعل أوّل ما يجعل أتباعه ضحاياه إلاّ من يأبى أن يعبد إلاّ الله وحده، وهو لذلك بعد أن تَهدّد بإغواء الناس أجمعين استثنى منهم ـ بنفسه ـ عباد الله المخلصين فقال:

﴿إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾

(الحجر: ٤٠)

ويعلن الله قدره مهدّداً الشيطان وغيره محذّراً الاقتراب من عباده قائلاً عزّ وجلّ:

﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾

(الحجر: ٤٢)

فإذا كان أحد لا يجرؤ على إيذاء من كان تبعاً ومقرّباً لملك أو رئيس فمن ذا الذي يجرؤ على إغواء أو إضلال من كان الله وحده سيده وربه وإلهه؟

﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾

(الأعراف: ١٦)

إنّ معنى قوله بما أغويتني هنا: أي بما أنّك قد حكمت علي بأنّني قد غويت. ومثله لو قلتَ بما كذّبتني: أي بما أنّك قد اعتبرتني كاذباً، وليس بما أنّك جعلتني كاذباً. المهم أنّ إبليس ـ الشيطان يُعلن هنا عن خطته في الإغواء فيقول أنّه سيجعل من نفسه صراطاً مستقيماً مقـابـل صراط الله المستقيم.. بحيث يحسب المغرورون أنّهم حين يتّبعونه يسيرون على الصراط المستقيم. ويبيّن خطوط هجومه فيقول:

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾

(الأعراف: ١٧)

وبهذا وضع إبليس منهاجه في الدعوة الضد لدعوة الله عزّ وجل، فهو يعمد إلى أن يقعد للناس صراطاً مستقيماً، ثم يدفعهم من خلال صراطه الزائف في كل السبل إلاّ سبيل الله عزّ وجلّ، وسيأتيهم من كل الجهات إلاّ جهة واحدة وهي جهة السماء. يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وسيصدّ الناس عن الشكر ويجعلهم كافرين.

إنّ عدم تمكن إبليس ـ الشيطان من التزيين للناس وإغواءهم من جهة السماء يشير إلى حقيقة أنّ الهدى الذي يتنزل من الله عزّ وجلّ لا قوّة لابليس أو غيره على ردّه أو منعه من الظهور والانتصار على كيد الشيطان وأتباعه. كما يشير هذا المعنى إلى أنّ الذين يسمعون لهدى الله وينفعلون معه ويقبلونه ثم يحرّرون بذلك أنفسهم من نير كل عبودية بألاّ يكونوا عباداً إلاّ لله وحده ولا يكون لهم سيّد يدينون له بالعبادة والتقديس إلاّ الله وحده، لا يمكن لأي إبليس من الأبالسة أو شيطان من الشياطين ولو اجتمعوا أن يفلحوا في غوايتهم وإضلالهم، قال ربنا عزّ وجلّ مستصغراً شأن إبليس محتقراً له:

﴿استفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وَعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً * إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾

(الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥)

تشير هذه الآية الكريمة إلى الأساليب الثلاثة التي ينتهجها أبناء الشر وأعداء الحق والنور لإغواء الناس وإبعادهم عن سراط الحق:

١ ـ يسعون إلى تخويف الفقراء والضعفاء والبسطاء بتهديدهم بالعنف.

٢ ـ يتخذون خطوات أكثر عنفاً وتطرّفاً ضدّ الذين لا يخشون التهديد الشفهي بالعنف وذلك بتشكيل أحلاف ضدّهم والقيام بهجوم متلاحم يشنّوه عليهم ويضطهدونهم ضاغطين عليهم في كل سبيل.

٣ ـ يحاولون إغواء وإغراء الأقوى منهم بعرض المناصب القيادية عليهم مقابل توقّفهم عن دعم الحق والانتصار له(١).

وأمّا عن رغبة إبليس الشيطان في البقاء إلى يوم يُبعثون فلم تكن تُغنيه شيئاً عن حقيقة

---

(١) ـ التفسير الصغير للإمام بشير الدين محمود أحمد.

أنّه من الصاغرين الذين يصغرون دائماً وأبداً وإلى يوم يُبعثون حيث تكون النهاية المحتومة لابليس ـ الشيطان الرجيم:

﴿قال ربِّ فانظرني إلى يوم يُبعثون﴾.

أي يوم يقوم الناس والإنسانية جميعاً من رقاد الموت ـ الكفر إلى بعث الإيمان والحياة الإيمانية السليمة النقيّة.. ذاك هو يوم يُبعثون. إنّه اليوم الذي يكون فيه إبليس وشيطان الكفر القاتل المهلك رجيماً هالكاً مقتولاً.

وثمة يوم آخر يُبعث فيه الإنسان أيضاً. وهو اليوم الذي يتحقق فيه الكمال الروحي للمؤمن جزاء التزامه الحق بحق الله عليه مستقيماً بدينه طلباً لنيل رضاه وحده. ذاك يكون أيضاً يوم بعثه، وهو ذاته اليوم الذي ينتهي بالنسبة إليه إنظار إبليس ـ الشيطان الرجيم (أي الهالك).

فشل إبليس الذريع:

عزم إبليس، حاسداً وناقماً، على غواية الناس أجمعين، وأقسم على منعهم أن يكونوا شاكرين.. وجاء الزمان يبرهن على عجزه وفشله الذريع في تحقيق أمنيته.. فقد ثبت حتى زماننا هذا، أنّ كراهية الإنسانية للشر والكفر قد بقيت السمة الأولى لها في كل فكر وسعي وعطاء ونضال إنساني.

وكلّنا يعلم علم اليقين:

أنّ الأخيار يموتون، ولكن الخير لا يموت..
وأنّ الأشرار قد ينتصرون، ولكن الشر لا ينتصر..
وأنّ الأخيار قد ينهزمون، ولكن الخير لا ينهزم..
وأنّ العبرة في النهايات والخواتيم لا بالجولات الزائلة.

ولو درسنا المحصّلات في المجتمع الإنساني، لوجدنا أنّ الأسوياء من الناس هم الغالبية العظمى إلى حد أنّ الأشرار والشواذّ منهم لا يقاسون ولا يقارنون بهم لقلّتهم.

المدارس والمعاهد والجامعات التي تعلّم الخير في حياة الناس في كل البلاد أكثر بما لا يُحصى من السجون التي تعاقِب المجرمين.. وأنّ الشرفاء الذين يأنفون من السرقة والخيانة

أكثر بكثير من اللصوص الذين يعتدون على ممتلكات الناس. وإنّنا لو أحصينا كلمات حتى أكذب الناس حديثاً في مجتمعه لوجدنا أنّه يقول الصدق ـ ولو مضطراً ـ أكثر بكثير مما يكذب.

والـذين يعبـدون الله ويحمـدونـه ويشكرونه كلٌ بحسب معتقده هم أغلب الناس في الأرض، يشهد على ذلك انتشار بيوت الله والكنائس والمعابد التي يعبده الناس ويقدسونه فيها في كل أركان الأرض.

وبهذا فقد فشل إبليس فشلاً ذريعاً حين توعد بأنّه سيغوي الناس أجمعين، بحيث أنّ الله تعالى لن يجد أغلبهم شاكرين، بل لا يزال إيمان البشرية بالله تعالى هو العقيدة الأسمى عندهم، ولا زالوا يحمدونه ويشكرونه على كل فضل ونعمة وعافية وعطاء.

وأنت ماذا عساك تجيبني إن سألتك: «كيف حالك»؟

ألن تجيب قائلاً: «الحمد لله ربِّ العالمين»؟

الفصل الحادي عشر

القرابين البشرية على مذابح تجّار الخرافة والخيال

في قديم الزمان . .

كان كهنة الآلهة ورجال الدين ينتقون أجمل الشبّان والفتيات من أبناء قومهم ليقدموهم ضحايا وقرابين بشرية على مذابح آلهتهم.

كانوا يحرقون الضحية قرباناً لإله البركان حتى لا يغضب فيحقرهم . .

وكانوا يغرقون قربانهم البشري في ماء النهر العظيم قرباناً له حتى لا يغرقهم . .

وكـانوا يسفكون دم الإنسان قرباناً في معبد الشيطان حتّى لا يغضب عليهم فيؤذيهم ويسفك دمهم . .

وهكذا كان الكهنة رجال الدين، يضحّون بالناس أبناء قومهم ويجعلونهم قرابين بشرية تجري دماؤهم على مذابح الوهم والخرافة والخيال باسم الدين على مدى الزمان الطويل.

ولكن للحق نقول:

إنّ ثمة اختلافاً كبيراً بين ذلك الذبح الكهني للقرابين البشرية الغابرة، والذبح الكهني الراهن باسم الدين لضحايا وقرابين عصرنا هذا.

في الزمن الغابر. . كانت الضحيّة فرداً يقدَّم مرة في العام وعلى مدار السنة. أو لربما كان الكهنة يقدمون القربان البشري بين مناسبة وأخرى في احتفالات جليلة مهيبة تليق بالموت العظيم للقربان البشري. . وبالرغم من ذلك فقد كانت الضحية القربان تُجرّ غصباً وهي تصرخ مستغيثة ترجو الخلاص من ذبح رجال الدين الكهنة وآلهتهم الظالمة.

وأمّا في عصرنا الراهن. .

الضحية ـ القربان ليس واحداً على مدار السنة. . بل القربان الضحية هو المجتمع كلّه: رجاله، نساؤه وأبناؤه، وفي كل يوم.

في كل يوم يضيع الكثير الكثير من الناس مصائرهم، أموالهم وأعراضهم، بل ويضعون عقولهم طائعين مختارين، بل راجين يقبّلون الأيادي، بين يدي الشيخ الكاهن، أو الكاهن الشيخ ليكتب لهم حجاباً يحميهم من هجمة الشياطين، أو ليشفيهم به من علّة في الجسم أو النفس أو العقل. أو ليطرد من أجساد أبنائهم وبناتهم الجن التي أصابتهم بالمس والخَبَلْ.

في كل مدينة.. بل وفي كل قرية تجد الكثير من الأشياخ الذين يكتبون مثل هذه الحجب، ويقرؤون التعاويذ الغريبة ويَصِفون الوصفات العجيبة، حارقين البخور، وقارعين الطبول ضاربين في ضباب الجهالة والدخان أجساد قرابينهم البشرية لطرد الجن منها، وهم يرقصون ويصرخون ويتنطعون جنّاً شياطين وأبالسة تسفك عقول الناس وتسرق أموالهم وتُهين أعراضهم بجهالتهم وجهالة مجتمعهم وعلمائهم وأشياخهم الذين لا ينفكوا يرفعون سيف التسخيف والتكفير فوق رأس كل من يجرؤ على القول بألاّ أشباح ولا أرواح تشطن في الإنسان إلاّ روحه هو وشيطانه هو، فهو هو الجني أو الأنسي وهو العفريت المارد أو الشيطان(1).

تلك هي قصة القرابين البشرية والعقل المستغيث من السّفك في المجتمع الكهني الجاهل في عصر الكومبيوتر والذرّة والفضاء.

إنّها قصّة واقعية يشهدها المعايشون لها في كل يوم. وهي ليست مبالغة أو نسجاً من خيال. وإذا ما نسيتم أو تناسيتم، فتعالوا معي أقدّم لكم الوثائق والبراهين من محاضر جلسات الشيوخ والكهّان لطرد ما يسمّى بالجن والشياطين من أجساد القرابين البشرية التي اختارت أن تسفك عقولها وأموالها وأعراضها رخيصة على مذابح تجّار الخرافة والخيال الذين يقبضون أغلى ثمن يدفعه الناس، وهم يمارسون هذا في ظل تجاهل المتجاهلين أو صمت الصامتين.

وإليكم البيان:

في واحد من أكبر معارض الكتب العربية والعالمية وَقَعتْ يدي على كتاب لشيخ مصري اسمه محمد سيد محمود بعنوان: «الفتح الربّاني لعلاج المسّ الشيطاني بالقرآن الكريم» كان

---

(1) - راجع القرآن الكريم والحديث الشريف ومراجع اللغة العربية.

الكتاب يقع في مئة وتسعين صفحة في أرخص ما يمكن من الورق رغم أنّ سعره كان عالياً بالنسبة لغيره وكان حديثاً، الطبعة الأولى عام ١٩٩٠، حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلّف رقم الإيداع ١٧٤١ / ١٩٩١، الترقيم الدولي I S.B.N 2 - 1100 - 00 - 477 .

في أعلى يمين الغلاف صورة فوتوغرافية ملونة وواضحة تماماً للشيخ مؤلّف الكتاب. وإلى يسار الصورة تجد رسماً مزخرفاً للقرآن الكريم مكتوباً عليه: «قرآن كريم» ثم سهم أبيض عريض على خلفية سوداء.

رأس السهم ينقضّ نازلاً إلى أسفل الغلاف على رأس رجل سمين تشير ملامح وجهه إلى أنه قد تلقّى لتوّه ضربة حادّة على رأسه. المغطّى بيد قبيحة لشيطان ذي قرون في منتهى البشاعة والقبح وهو ينظر إلى الرجل بعينين ثعلبيتين فاغراً فمه عن أنياب تخرج خارج شفتيه اللتين تعلوهما شعيرات قليلة بشعة تنم عن شاربين قبيحين يتكاملان في البشاعة والقبح مع اللحية الأفعوانية المتلوّية تحت الذقن الناحلة المثلثة الشكل.

فنّ سوقي بدائي وراء عنوان إعلاني تجاري في شكل كتاب باسم: «الفتح الربّاني لعلاج المسّ الشيطاني بالقرآن الكريم». وعلى الصفحة الخلفية تقرأ:

«هذا الكتاب يشرح العلاج بالقرآن الكريم من المسّ والسحر فيعرض أهم الأسباب التي تجعل الشيطان يمس الإنسان والتي منها الحزن الشديد والخوف والغضب والبعد عن ذكر الله وعدم المواظبة على الصلوات الخمس في أوقـاتهـا وحب الشهوات وإيذاء الإنسان للشيطان مثل إلقاء ماء ساخن في دورة المياه وإطفاء السجائر أو عدم التعوّذ قبل دخول الدخلاء حيث أنّ الجن يفضّل العيش في الأماكن الخربة والنجسة والمهجورة.

والإنسان البعيد عن ذكر الله يكون قلبه خالياً ومهجوراً وخرباً وغير نظيف ويكون هذا الإنسان داخلياً مؤهلاً لعيش الجن فيه. والمس إمّا يكون ابتلاء من الله للعبد المؤمن أو عقوبة للعبد العاصي وحالات السحر التي عن طريق ساحر يستخدم الجن في إيذاء الإنسان ويشرح الكتاب الأعراض التي تظهر على الإنسان الممسوس وهي أعراض في اليقظة مثل الشعور بالإحباط وسرعة الغضب والخطأ والبكاء والوسوسة والشك فيما يقـول ويعمـل وفي أقـرب الناس إليه بالإضافة إلى الإحساس بالاختناق والضيق والخوف والكتئاب والامتنـاع عن الصـلاة وسماع القرآن والبعد عن ذكر الله، أمّا الأعراض في المنام فهي الأرق والكوابيس والأحلام المفزعة ورؤية حيوانات مفترسة.

ويشرح الكتاب أهم آراء الأطباء والعلماء في العلاج بالقرآن من مؤيّد ومعارض، ويذكر الكتاب أهم الشروط الواجب توافرها في المعالج بالقرآن.

ويعرض أيضاً حالات علاج قام بعلاجها بعض العلماء الأفاضل مثل الشيخ الشعراوي والعمري وابن باز(1).

ومن أهم الحالات التي عولجت:

(١) الشلل	(٥) الفشل الكلوي	(٩) الدوسنتاريا
(٢) العقم	(٦) ضمور العضلات	(١٠) الآلام الروماتزمية
(٣) الصرع	(٧) الصداع	(١١) الربط
(٤) النزيف	(٨) أمراض القلب	(١٢) الاكتئاب النفسي
(١٣) الصم والبكم	(١٤) حساسية الصدر	(١٥) علاج السحر
(١٦) الأمراض الجلدية	(١٧) الرمد	(١٨) السكّر
(١٩) إبطال السحر	(٢٠) كيف تعرف أنّك مصاب بالمس.	

الناشر
محمد سيد محمود

رقم الإيداع
١٧٤١ / ١٩٩١
الترقيم الدولي I. S. B. N
2 - 1100 - 00 - 477 .

وهكذا ينتهي الإعلان التجاري على الصفحة الخلفية للكتاب والمُتعلّق بالعلاج من جميع الأمراض الجسدية والنفسية المعروفة بطريقة طرد الجن بالقراءة والتعاويذ على ما يزعمون. ويلاحظ القارىء أنّ المؤلّف لم يترك حالة مرضية إلاّ وأحصاها بكل وضوح بحيث لا يضطر المصدقون بهذا الدجل إلى الذهاب إلى الأطباء أو المستشفيات نهائياً، طالما أنّ سبب كل مرض فيهم إنّما هو المسّ، وأنّ الشفاء من هذه الأمراض جميعاً إنّما يكون بطرد الشياطين من الجسم على يد الشيخ كما سنرى من محاضر جلساتهم الموثّقة بالشهود والتواريخ، والمصادق عليها كبار العلماء كالشعراوي(2) وغيرهم على حد زعم المؤلّف.

كما يلاحظ القارىء من معرض سرد الأسباب المؤدية إلى المس الشيطاني على حد

(١) ـ هكذا جاء هذان السطران بخط عريض ومسافة كبيرة، كما أن التنقيط جاء هكذا أيضاً: فاصلتان فقط للصفحة كلها. (٢) ـ محمد متولي الشعراوي واحد من أشهر علماء الدين في مصر.

زعمهم، أنّ كل الحالات اليومية العادية للناس يمكن أن تسبب لهم هذا المس كالحزن والقلق والغضب والصداع والخوف وغير ذلك، مما يعني أنّ على جميع الناس الاعتقاد بأنّ فيهم مسّاً شيطانياً بشكل أو بآخر وأنّ الجن تسكنهم وتسبّب لهم ما فيهم من أمراض وأعراض غير مستحبة. وهكذا يضمن الأشياخ طاردو الجن والأرواح أن يكون جميع الناس زبائنَ عندهم ودون استثناء.

ورغم زَعْم المؤلّف بأنّ بعضاً من كبار العلماء يؤيّدون أسلوبه في العلاج من كل شيء إلاّ أنّ القراءة المتأنّية لهذه المعلومات الشاملة الموجزة تبينّ بكل وضوح الاتقان في الدجل على الناس والاحتيال عليهم ليكونوا ضحايا لهؤلاء الأفّاكين وأمثالهم.

ولمّا كانت محاضر جلسات تحضير الجن وطردها من الأجساد في الكتاب المذكور على عدد الأمراض المذكورة، فليس بالإمكان ذكرها والتعليق عليها جميعاً، بل لا بدّ من ذكر أمثلة قليلة تساعد القارىء الغالي على تبينّ حقائق الإفك والدجل المريع الذي يذهب فيه أهلنا وأبناؤنا ضحايا رخيصة على مذابح تجّار الدين والخرافة والخيال.

إنّ تجّار الدين يستغلون ورود اسم الجن والشيطان في القرآن الكريم والحديث الشريف، ومن خلال الخطأ الشائع في فهم المعاني الصحيحة لهذه المسميات، وبسبب صمت العلماء عن هذا الفهم الخاطىء وهذه الممارسات التي لا علاقة لها بالدين، فإنّ هؤلاء التجّار ينشطون في تمزيق ضحاياهم بكل سهولة ويسر باسم الدين والقرآن الكريم والحديث الشريف لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حيث يوردون بعض النصوص البريئة من أفهامهم السقيمة، ثم يقولون:

«هذا هو بعض من كل ما ورد في الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة الذي يدلّ على أنّ الجن موجود وثابت في الكتاب والسنّة»(1).

ويتحدثون بعد ذلك عن أعراض المسّ الشيطاني ويصنفونها إلى قسمين: في اليقظة وفي المنام. وقد مرّ معنا ذِكْر المؤلّف الشيخ محمد سيد محمود لبعض هذه الأعراض في اليقظة، وتحت عنوان:

«أعراض المس الشيطاني في المنام» يقول نقلاً عن الشيخ وحيد عبدالسلام:

---

(1) - المرجع السابق ص ١٤.

«للمس أعراضاً في المنام» هي :

١ ـ الأرق.
٢ ـ القلق.
٣ ـ الكوابيس.
٤ ـ الأحلام المفزعة.
٥ ـ رؤية الحيوانات في المنام.
٦ ـ القرض على الأنياب في المنام.
٧ ـ الضحك أو البكاء.
٨ ـ التأوّه في المنام.
٩ ـ أن يقوم ويمشي وهو نائم دون أن يشعر.
١٠ ـ أن يرى في منامه وكأنّه سيسقط من مكان عال.
١١ ـ أن يرى نفسه في مقبرة أو مزبلة أو في طريق موحش.
١٢ ـ أن يرى أشباحاً في منامه.

أمّا الأعراض التي في اليقظة كما ذكرها الشيخ وحيد عبدالسلام فهي :

١ ـ الصداع الدائم بلا سبب عضوي.
٢ ـ الصدود عن ذكر الله والصلاة والطاعات.
٣ ـ الشرود الذهني.
٤ ـ الخمول والكسل.
٥ ـ الصرع والتشنّج.
٦ ـ ألم في الأعضاء ويعجز الطب عن علاجها»[1].

ثم يوضّح الشيخ المؤلّف أنواع المس فيقول :

«المس الشيطاني أربعة أنواع هي :

١ ـ مس كلي : وهو يمس الجن الجسد كلّه كمن تحدث له تشنجات عصبية.
٢ ـ جزئي : كأن يمس الجن عضواً واحداً من الأعضاء كالذراع أو الرجل أو اللسان.
٣ ـ مس دائم : وهو أن يستمر الجن في الجسد لمدة طويلة.
٤ ـ طائف (الجن) : وهو لا يستغرق أكثر من دقائق كالكوابيس»[2].

وبعد أن يؤكد الشيخ المؤلّف على ضرورة عدم الشك بالشفاء بالقرآن من جميع الأمراض،

---

(١) ـ ص ١٥، ١٦ من «الفتح الرباني لعلاج المس الرباني بالقرآن الكريم» لمؤلفه الشيخ محمد سيد محمود.
(٢) ـ المرجع السابق.

وينقل كلاماً من زاد المعاد فيقول:

«فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله».

ويتابع القول:

«ولا بدّ لتحقيق الجدوى من العلاج بالقرآن والتحصّنات من قبول المريض ذاته وتعلّقه بالله وإخلاصه له واقتناعه التام بأنّ الشفاء إنّما هو بيد الله وحده وإرادته»(١).

وتحت عنوان: «كيف نعرف الجن على جسد المريضين» يقول الشيخ المؤلّف:

«نعرف ذلك بعدّة طرق منها:

١ ـ أن يصرخ الجن ويتألّم وينطق لسانه.

٢ ـ أن ينطق الجن باسمه.

٣ ـ تغميض العينين أو شخوصهما، أو طَرْفهما طرفاً شديداً أو وضع اليدين على العينين.

٤ ـ حدوث رعشة شديدة في الجسم أو رعشة خفيفة في الأطراف.

ثم يسأل الجنَ عدة أسئلة منها:

١ ـ ما اسمك؟

٢ ـ ما ديانتك؟

٣ ـ ما سبب دخولك هذا الجسد؟

٤ ـ هل معك غيرك من الجن في هذا الجسد؟ وما عددهم وما ديانة كل منهم؟

٥ ـ هل تعمل خادماً لساحر؟

٦ ـ أين تسكن في جسد المريض؟»(٢).

ثم وتحت عنوان:

«إذا كان الجن مسلماً كيف يتعامل معه؟» يقول:

«يعامل كالآتي: (حسب دخوله جسد وجسم المريض):

١ ـ إذا كان سبب دخوله عشق للأنسي أو الأنسية نبين له أنّ هذا حرام نخوفه من عذاب الله وعقابه.

٢ ـ إنْ كان قد مسّ الأنسي لأنّ الأنسي ظلمه بالتبوّل أو صبّ الماء عليه أو بقتل بعضهم فيعرّف بأنّ الأنسي لم يكن يعرف بوجوده ولم يره، وبالتالي فلم يتعمّد أذاه ولا يستحق العقوبة.

٣ ـ إن كان الجن دخل للأنسي ظلماً منه فيعرّف بأنّ الظلم حرام.

---

(١) ـ المرجع السابق ص ٢١.

(٢) ـ المرجع السابق ص ٣٦.

ويجب أن نراعي عند خروجه ما يلي:

(أ) - لا بدّ أن يخرج الجن من إصبع اليد أو القدم أو الفم أو الأنف ولا يسمح له بالخروج من العين أو البطن أو غير ذلك.

(ب) - نطلب منه قبل أن يخرج من الجسد أن يقول: السلام عليكم»[1].

وتحت عنوان: «إذا كان الجن غير مسلم كيف يتعامل معه؟» يقول الشيخ:

«١ - يعرض عليه الإسلام دون إكراه، فإنْ أسلم فتأمره بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى والخروج من الجسد لأنّ وجوده في الجسد ينافي الإسلام، لأنّه ظلم منه للإنسان والظلم حرام.

٢ - إنْ أصرّ على الكفر فلا إكراه في الدين ولكن يؤمر بالخروج فإنْ خرج فلله الحمد والفضل وإنْ رفض الخروج فيمكن استخدام الضرب ويكون الضرب على الأطراف والأرداف والأكتاف والعنق[2].

٣ - إذا استمرّ في عناده تُقرأ عليه السوَر التي تؤذي الجن فإنْ استجاب رفع عنه العذاب من قرآن وضرب[3].

٤ - إذا رفض (الجنّي) الخروج رغم الضرب وقراءة القرآن يمكن قراءة آيات العلاج في إناء به كمية كافية من الماء ويضع المعالج يده اليمين في الماء أثناء القراءة حتى ويطلب من المريض أن يغتسل بهذا الماء لمدّة أسبوع كل يوم مرة بلا انقطاع فإنّ هذا الماء يؤذي الجن جداً جداً[4]. . ثم بعد مرور الأسبوع تقرأ الرقية على المريض، فيكون الجن قد ضعف ووهن وسيخرج بإذن الله».

ويتحدث الشيخ عن الماء المقروء عليه فيقول:

«وعن كيفية القراءة يتم وضع اليد اليمنى مع القلب أثناء القراءة (أي أنّ الشيخ يغسل يده بالماء الذي سيشربه المريض)[5]. وتقريب فم القارىء من سطح الماء بحيث يكون نَفَسَهُ في الماء (عجيب، مع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التنفس في الماء حتى لا تنتقل جراثيم العدوى) وتكون القراءة خارج دورة المياه وفي مكان طاهر. (هكذا يقول الشيخ المعالج من مس الجن والشياطين في كتابه: «الفتح الربّاني

---

(١) - المرجع السابق ص ٣٧.

(٢) - المقصود بضرب المريض إخراج الجني من جسده وهذا أمر شائع بين تجار الدجل يؤذون به الناس، بل ويقتلونهم أحياناً باسم الدين - المؤلف.

(٣) - لاحظ اعترافهم بأنهم يعذّبون ضحاياهم من المرضى، روى لي بعض الأصدقاء أن شيخاً في قرية كان يضرب فتاة ليخرج منها الجن ففرّت من بين يديه فلحق بها فوقعت من على السطح، وروى لي آخرون أن شيخاً داس بطن امرأة قروية ليخرج منه الجن فماتت تحت وطأة ثقله فادعى أن الجني ظلّ «متعمشقاً» بها حتى خنقها فقتلها، ولذلك لم يقاصه أهلها.

(٤) - إذن لماذا الضرب أساساً إذا كان العلاج بالماء المقروء عليه أجدى؟! وماذا يحل بالمريض أو المريضة التي يشبعها الشيخ ضرباً بسبب عناد الجنّي. (٥) - التعليق بين الأقواس للمؤلف.

لعلاج المس الشيطاني بالقرآن الكريم» الصفحة ٤٢ .

ويتابع الشيخ الطارد لأشباح الجن والشياطين فيقول:

«ويراعى أن يكون هناك كوب من الماء مقروء عليه آيات الرقية يستخدم هذا الماء في تدليك أي عضو إذا حدث به ألم أو تنميل[١].

كما يمكن أخذ ثلاث رشفات منه حين يثقل اللسان وقد يجد المريض أنّ طعم الماء غير عادي به مرارة[٢].

وتحت عنوان: «حالة شلل» يستهل الشيخ جلسات طرد الجن بشرح كيف أنّه أخرج جنّياً من جسد المريضة المصابة بالشلل منذ سنوات، وأرجو أن يلاحظ القارىء الغالي أنّني سأورد كلامه حرفياً كما جاء في كتابه مع الألفاظ العامّية الغريبة وكذلك الأخطاء العديدة التي وردت في النص:

والآن إليكم محْضر جلسة علاج حالة الشلل كما جاءت في كتاب الشيخ:

علاج من حالة شلل يسبّبها جنّي شرير اسمه رأفت:

«في عيادة العلاج بالقرآن بكوبري القبّة التي تشرف عليها جريدة «النور» والتي أتشرف بالعمل بها جاءتني فتاة في الخامسة عشر من عمرها محمولة على الأكتاف. . دخلتْ وعلامات الخوف ظاهرة جليّة. على وجهها. نظرتْ كثيراً في أجناب الغرفة بعيون (ذائغة) وأشارت إليّ قائلة. .

إنّني أخاف من كل أصحاب اللحى.

فسألتها. . لماذا؟

أجابت: لأنّني ذهبت قبل ذلك إلى أكثر من ٢٠ (عشرون)[٣] ممن يطلقون على أنفسهم مشايخ فظلّوا يضربونني بشدة وقسوة[٤] دون أي تقدم في حالتي الصحية.

قلت لها: نحن هنا لا نعالج بالضرب[٥] ولكن بقراءة كتاب الله على المريض فاطمأنّت الفتاة الصغيرة إليّ وسألتها: ما اسمك؟

أجابت: عبير. م. م.

قلت لها: ما الذي تشكين منه؟

---

(١) ـ المرجع السابق ص ٤٣.

(٢) ـ وماذا عساه يكون طعم ماء غسل فيه الشيخ يده وهو يقلّبها، . . عسلاً؟!.

(٣) ـ الخطأ اللغوي من المصدر.

(٤) ـ لاحظ اعترافهم على بعضهم البعض.

(٥) ـ لاحظ أن زعمه هنا بعدم الضرب يناقض ما جاء في كتابه من تعليم الضرب على الأجناب والأرداف والعنق ص ٣٨.

أجابت: كما تراني أمامك، لا أستطيع الحركة أبداً مع وجود ألم وأورام في مؤخرة ظهري.

قلت لها: هل (ذهبتي)[1] إلى الأطباء؟

أجابت لقد ذهبت إلى العديد منهم دون فائدة.

هذا هو كل الحوار الذي دار بيني وبين «عبير» المريضة بالشلل وعدم القيام لمدة تزيد على ثلاث سنوات ولم يعرف الأطباء ماذا ألمّ بها[٢].

بدأتُ أقرأ آيات من القرآن الكريم وهذه الآيات هي أوّل سورة البقرة وآية الكرسي وبعض من سور الزمر والمعوذتين والإخلاص، وأثناء قراءتي ارتعد جسم عبير بشدة ثم صاحت بصوت مرتفع.. كفى.. كفى قراءة للقرآن.

سألت الفتاة: من أنت بحق الله؟

أجابت: رأفت.

فعرفت بأنّ هناك (روح) شريرة[٣] ملبشية بجسدها واسمه رأفت.

قلت له: منذ متى وأنت تسكن هذا الجسد؟

رأفت: منذ ثلاث سنوات ونصف.

قلت له: ولماذا تسكن جسد الأنس؟

رأفت: لأنّي أحبها.

قلت: وهل معنى أنّك تحبها أن تؤذيها في جسدها؟

رأفت: أنا لم أقصد (إيذائها) ولكن لكي لا يأخذها أحد غيري. فالكل ينظر لها على أنّها مريضة.

قلت له: ولكن كيف تسببت لها في حدوث هذه الأورام وشلل القدمين.

رأفت: بالنفخ في الجلد مع شد في مقدمة العضلات[٤].

قلت: هل ذهبت الفتاة إلى أطباء؟

رأفت: نعم.. ولكن لم تجد أي فائدة[٥] لأنّ المرض الذي بداخلها ليس مرضاً عضوياً ولكنّه «مسّ» والأطباء كانوا يعطونها جلسات وحقن أدوية دون فائدة.

قلت: له: ألا تريد أن تخرج من جسدها بحق الله؟

---

(١) ـ الأخطاء من المصدر.

(٢) ـ لاحظ صرفهم للناس عن الثقة بالعلاج لدى الأطباء، الأمر الذي لاشك يؤدي إلى أذى وربما قتل الكثير من جهلة الناس بسبب عدم السعي للعلاج الطبي.

(٣) ـ راجع كتاب: «كبرى اليقينيات الكونية» للدكتور الأستاذ سعيد رمضان البوطي في قوله: «وكما أن في الناس أشراراً دأبهم الكذب والتلاعب بعقول الناس، فإن في الجن أيضاً كذلك» ص ٢٨٤.

(٤) ـ لاحظ هذا التشخيص المشيخي.

(٥) ـ لاحظ الإصرار على عدم فائدة العلاج لدى الأطباء ـ هذا رأي الجني أيضاً.

رأفت: بصراحة.. لا[1].

قلت: اخرج بحق الله بعد أن أتلوا عليك آيات القرآن الكريم[2].

رأفت: - بهدوء تام - نعم سأخرج ولا داعي للقلق فأنا لا أقصد إيذاءها.

ثم نفخت في وجه المريضة (واستمريت) في تلاوتي للقرآن الكريم وقلت لرأفت قل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وإيّاك أن ترجع إلى الجسد مرة أخرى، وفعلاً أطاعني الجان بفضل الله تعالى وردّ السلام على الحاضرين جميعاً وانتفضتْ المريضة وقالت أعوذ بالله من الشيطان أين كنت ولماذا تجتمعون حولي هكذا.

قلت: الحمد لله لقد خرج الجان من جسدك. ثم أمرتها بالقيام من على الكرسي (التي) تجلس عليه لكي تمشي وتسير بمفردها ولكنّها ضحكت كثيراً ثم بكت طويلاً ولم تصدّق ما يحدث.. وأمرتُها بالسير مرة أخرى فوقفت ولكنّها لم تجرؤ على أن تسير بمفردها وطلبت منها أن تذكر اسم الله وتسير. وبالفعل تمّ ذلك ومشت الفتاة على قدميها بمفردها وبكت بكاء الفرح والدموع (تزرف) من عينيها وسط ضجيج وزغاريد الأهل والأقارب والحاضرين الذين جاؤوا معها وهم يحملونها على أيديهم»[3].

وهكذا بنفخة من الشيخ تمّ الشفاء من الشلل الذي عجز عنه أطباء الدنيا.

وفي الصفحة التالية مباشرة لهذه الجلسة يجد القارىء صورة لصفحة من جريدة «النور» الإسلامية وعليها صورة «عبير» تمشي وقد أمسك الشيخ بيدها ووضع يده على كتفها تحت عنوان عريض:

«بعد ثلاث سنوات ونصف من الشلل خرجت «عبير».. على قدميها..»[4].

الجنّي الذي يعشق الأنسية:

وتحت عنوان: «حالة عشق الجنّي للأنسية» يروي الشيخ محضر الجلسة رقم ثمانية فيقول:

«دخلت علينا فتاة في السابعة عشر من عمرها على قدر كبير من الجمال وتدعى أمل عبدالسلام في عيادة العلاج بالقرآن الكريم.

وسألتها: ما هي شكواك؟

---

(1) - جني صريح!

(2) - وماذا لو خرج الجني قبل أن يقرأ القرآن عليه، هل يزعل؟

(3) - الصفحة ٦٤.

(4) - الصفحة ٦٥.

أجابت أمل . . تحدُث لي حالات تشنج كثيرة وأقع على الأرض ولا أعاني من أي مرض سوى الصداع الشديد والمستمر ومنذ فترة قريبة سمعت هاتفاً يقول لي : «أنا لن أتركك أبداً» .

سألتها : هل تحلمين أحلاماً مزعجة؟

أجابت : نعم . . وكثيراً جداً .

وهنا . . بدأتُ في قراءة القرآن الكريم في أذن أمل وبعد فترة من الوقت بدأت أمل تبكي بشدة ثم توقفتُ أنا عن القراءة وسألتها من أنت؟ فلم تجب ثم عاودت السؤال أيضاً فلم تجب . . ثم عاودت قراءتي للقرآن الكريم لمدة تزيد على نصف الساعة ثم توقفتُ عن القراءة وسألتها . . هل تحبها؟

وكانت الإجابة : نعم .

سألت : وما هي ديانتك؟

. . . مسلم .

وكان الجان يتحدث من خلال جسد أمل وبصوت أمل أمام جميع الحاضرين . ثم طلبت منه أن يسمّي نفسه بأحد الأسماء ثم اختار اسم محمد وطلبتُ منه أن ينطق بالشهادة . . فنفّذ الجان ذلك وقال أمامي وأمام جميع الحاضرين : أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله[1] .

وهنا دار حوار بيني وبين «الجان» المتلبس بجسد أمل سألته هل تسببت في أذى عائلة أمل؟

محمد : لم أفعل .

وهنا أقرت والدة أمل بذلك وقالت نعم لم يمسنا أذى أبداً إلاّ حالة الإعياء الشديد والصداع الدائم يعتلي أمل ابنتي .

ثم عاودت سؤالي للجنّي المسلم محمد لماذا تؤذيها وتسبب لها آلاما طالما أنت مسلم وتحبها؟

الجنّي : أنا لم أقصد (إيذائها) ولكن كل ما في الأمر أنّني أعشقها ولا أتمنّى لأحد أن ينكحها غيري . .

قلت له : وهل معنى أنّك تحبها أن تؤذيها وتسبب لها (صداع مزمن)؟

الجن : قلت لك لم أقصد إيذاء محبوبتي . . أرجوا أن تفهموني فأنا أتسبب لها في الإعياء والصداع حتى لا يقبل عليها أحد وأنفرد بها وحدي دون غيري .

ثم طلبت منه أن يخرج لأنّه لا يصح للجني أن يعشق إليه مسلمة ونصحته بالخروج حالاً من الجسد حتى لا ندخل في مشاجرات بين الجنسين .

وهنا قال الجني : نعم سأخرج بدون أدنى مقاومة ولكن أطلب منك يا شيخ أن تساعدني على الخروج[2] .

ثم قمت بجـرح إصبـع أمل السبّابة بدبوس وأخرجت منه نقطة دم وضربت بيدي فوق جبهتها عدّة ضربات قوية وهي مستسلمة تماماً ، وفجأة خبطت بقدمها ثلاث خبطات في الأرض معلنة خروج الجان ثم

---

(١) ـ العجيب أن الجني المزعوم هنا مسلم واسمه محمد وينطق بالشهادة ومع ذلك يخاف من تلاوة الشيخ للقرآن الكريم عليه ـ إفك فاشل!

(٢) ـ تصوّر أن الجني قد دخل جسد الفتاة ثم لم يعد يعرف كيف يخرج إلاّ بمساعدة الشيخ . إنه الإحتراف في الدجل .

طلبت كوب ماء ونثرت بعضه فوق وجهها، وعادت أمل إلى الوعي وخرج الجان بفضل القرآن.

ثم سألتها هل تشعرين بألم في رأسك فكانت إجابة أمل: لا.. لا أشعر بشيء.

.. وكان واضحاً أنّ الفتاة كانت واقعة تحت تأثير الجان لفترة طويلة وهي فترة إخراج الجان من جسدها..

ثم طلب من الفتاة الحسناء أمل أن تداوم على سماع القرآن الكريم حتى تحصّن نفسها من رجوع الجان إليها مرة أخرى[1].

ثم يختتم الشيخ محضر هذه الجلسة بملاحظة تقول:

«نُشرت هذه الحالة في جريدة الهدف الكويتية بتاريخ ٢١ / ٤ / ١٩٩٠».

وفي محضر جلسة أخرى يروي الشيخ ما يلي:

الجن عبّاد النار والقرون المحروقة في جسد الفتاة:

في يوم من أيّام العلاج المحدّد لنا.. دخلت علينا فتاة في ربيع العمر تعاني من صداع مستمر (مزمن) وجاءت تطلب الشفاء من الله سبحانه وتعالى بفضل قراءة القرآن الكريم.. وبالفعل بدأت أقرأ عليها القرآن الكريم فبدأت (عيني) الفتاة تتحول إلى بياض كأنّ بها (حول) وبدأت في إخراج لسانها.. وهنا سألتها.. ما اسمك؟

أجابت الفتاة بصوت به لدغة اسمي: جرجس.

قلت له: ولماذا مسست الفتاة؟

جرجس: عشان الواد مرقص بيحبها.

قلت: ومن مرقص هذا؟

جرجس: مرقص جن من النوع الأزرق وبيحب هذه الفتاة وهو ساكن منزلهم وأنا بأساعده علسان مش موافقة هي عليه[2].

قلت طيب في حد تاني معك في جسد الفتاة؟

جرجس: احنا كتير عليها أنا مرقص والصليب الأحمر[3] والشبح فاطمة.

قلت: انتوا عملتوها مسرحية. طيب نبتدي بيك انت يا جرجس.. سوف تخرج وإلاّ أخنقك وأحرقك بإذن الله.

---

(١) - ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) - هل هذا يعني أن الجني مرقص قد عرض حبه على الفتاة فعرفته أنه جني ورفضته أم أنه الإحتراف الخبيث للدجل؟.

(٣) - أليس عجيباً اختراع هذا الإسم لجني.

جرجس: آه . . . آه وبعد قهقهة طويلة مش خارج ومعاك للصبح[1].

قلت: طيب الأول أشوف اللي معاك وأخرجهم وبعدها أشوف شغلي معاك يا جبان[2].

ثم قرأت القرآن الكريم لفترة طويلة ويذهب جرجس وأسأل الفتاة . . من أنت بحق الله . . ولكن لم تجب.

قلت: أنت مرقص؟

الجن: أيوه انت عايز إيه.

قلت: كم تبلغ من العمر؟

مرقص: ٢٠ سنة.

أنت متلبس بهذه الفتاة لماذا؟

مرقص: أحببتها وعلشان بتغني في الحمّام وشعرها جميل . . وبعدين انت مالك.

هل أنت الذي تسبب لها الصداع المزمن؟

مرقص: في بعض الأحيان عندما ترفضني وترفض الكلام معي في حجرتها أسبب لها (صداع) وإعياء مستمر.

بعد هذا الحوار القصير سمعت من الفتاة (صوت) أجش لم أكن أتصوره ولم أتخيله حتى الآن وسألت الفتاة من أنت بحق الله؟ قالت الفتاة أنا الصليب الأحمر من النار السوداء . . وما شأنك أنت بذلك؟

قلت له: ماذا تعبدون؟

قال: القرون المحروقة والنار.

قلت: هل تحبّون القرآن؟

قال: لا نحبه على الإطلاق[3].

قلت له: نحن لنا تقاليد في الزواج ولكن ما هي طريقتكم أنتم؟

قال: نذهب لتاج النار السوداني ويزوجنا فقط.

ثم طلبت من الجان الأحمر أن يذهب ويوجد لنا شخصية أخرى[4] متلبسة بجسد هذه المريضة وبعد فترة قالت لنا الفتاة بصوت فيه خشوع «السلام عليكم»، ثم قلت لها (بيا) تشعرين يا أخت؟

قالت: أنا الشيخة فاطمة وابتسمت من الكسوف وسكتت.

قلت لها: السلام عليكم يا شيخة فاطمة هل أنت مسلمة؟

الشيخة فاطمة: نعم والحمد لله وأتبع دين محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) ـ حبكة قصصية للإثارة والتشويق من خلال تحدي الجني وانتصار الشيخ أخيراً.

(٢) ـ لاحظوا شجاعة الشيخ وقبوله التحدي.

(٣) ـ لاحظ الإختراع والدجل الخبيث.

(٤) ـ لاحظ كيف يعمل الجن الأحمر والأزرق بأمر الشيخ.

قلت لها: كيف وأنت مسلمة تؤذين هذه الفتاة؟

الشيخة: أنا مسستها علشان أحميها من الملاعين جرجس ومرقص والصليب الأحمر لأنّه لو لم تحب مرقص فسوف يقتلوها.

قلت لها: متشكرين خالص يا شيخة فاطمة ولكن ممكن تخرجي بدون أي أذى وأنا سوف أحاول إخراج هؤلاء الملاعين بالقرآن الكريم.

الشيخة فاطمة: موافقة بس بشرط حضور دروس العلم عندكم[1] هنا وبعدها سوف أطير[2] إلى السعودية وقالت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبذلك تكون قد خرجت الشيخة فاطمة من جسد الفتاة».

ويتابع الشيخ طارد الجن محضر جلسته فيقول:

«وهنـا بدأت أتعـامل مع الملاعين كما أسمتهم الشيخة فاطمة وأخذت أقرأ القرآن الكريم على جسد المريضة (الفتاة) وبعد فترة بدأت الفتاة تتراقص من شدة القرآن الكريم وكأنّها راقصة بارعة[3] وحاولتْ خلع سماعة القرآن من أذنيها معلنة رفضها سماع القرآن بعدها سمعت صوت الفتاة تقول ـ ولم نذر أيّاً منهم الذي يحدثنا ـ أنا تعبانة جداً وكان يبدو عليها الإرهاق الشديد ثم تركتها لتستريح بعض الوقت ثم عاودت القراءة للقرآن مرة أخرى وحضر الجان مرة أخرى وحدثني قائلاً:

انت قلبك حجر يا شيخ لقد احترق الجان «الصليب الأحمر» وأنا دلوقت عليّ الدور.

ثم قلت له: من أنت؟

الجن: أنا جرجس».

ويتابع الشيخ وصفه الهزلي المخجل فيقول:

«ثم بدأت في القرآن الكريم مع التسجيل في الأذن فبدأ جرجس يضرب كل من حوله ويصرخ وهو يردد مش حاخـرج (واستمريت) في قراءتي للقرآن.. والجان جرجس يصرخ ويعلو صوته وهو يصرخ خلاص خلصت أنا الآن مخنوق ومتكتف وخلاص سوف أخرج وأنا خسرت التحدي[4] وهنا ضحك جميع الحاضرين وأنا معهم.. وقلت له وأنا لن أخرجك بل سوف أخرج وقال جرجس «الله رحيم» ارحمني بحق الله وهنا طلبت منه الخروج بعد أن أوقفت سماع القرآن للفتاة.. وفعلاً انتفضت الفتاة بشدة وقالت: مالذي حدث إنّي أشعر بتعب شديد جداً وهنا عرفت أنّ جرجس قد غادر جسد الفتاة.

---

(١) ـ لاحظ أن الشيخة الجنية ترجو حضور دروس العلم عند الشيخ طارد الأرواح الشريرة. دجل وافتراء واضح.

(٢) ـ طبعاً بدون طائرة.

(٣) ـ ياله من وصف أدبي متقن لتصوير أثر قراءة القرآن على الفتاة.

(٤) ـ تمام الحبكة القصصية المثيرة.

ثم عاودت قراءة القرآن مرة أخرى ثم حضر الجان مرقص على جسد الفتاة وهو يبكي[1] ويقول: كلهم خرجوا الشيخة خرجت وذهبت إلى السعودية وجرجس اتكتف ثم اشتد في بكائه وقال الصليب الأحمر اتحرق ولم يبق سوى أنا قلت له تخرج ولاّ.. وهنا قاطعني الجان مرقص وقال سأخرج سأخرج إلى غير رجعة وفعلاً وبسرعة مذهلة انتفضت الفتاة وهبت واقفة وقالت.. ماذا حدث إنّني أشعر بحالة من الإعياء والتعب ولكنّ حالة الصداع التي كانت تلازمني تكاد تكون قد أزيلت تماماً.

قلت لها: الحمد لله.. لقد خرج كل ما التبس بك من جنون.. لقد كان (متلبس) بك أكثر من واحد ولكن الحمد لله لقد خرجوا جميعاً إلى غير رجعة..»[2].

الجنّي ماكسيموس المتسبب بحالة عقم:

ويتابع طارد الجن هذا والمتاجر بآلام الناس واعتقادهم بخرافة الأرواح الشريرة وتلبّسها الجسد، يتابع دجله دون خوف أو حياء من الله تعالى، يدعمه في ذلك صمت الصامتين عن دجَله وأمثاله ممن يستفيدون من الاعتقاد بالوجود الشبحي للجن والشياطين، فيقول تحت عنوان: «حالة عقم»: «وفي يوم من أيام العلاج جاءتني حالة أخرى تطلب الشفاء من الله تعالى بفضل القرآن الكريم..

سألتها ما حكايتك؟

أجابت لا شيء سوى أنّني أعاني من حالة عقم منذ أكثر من خمس سنوات.

قلت لها: هل ذهبت إلى أطباء؟

أجابت نعم ذهبت إلى العديد منهم ولكن دون جدوى.

قلت لها قولي بسم الله أوّله وآخره مع كل شهيق وفعلاً نفذت هذه السيدة تلك التعليمات وبعد أقل من عشرة دقائق صاحت قائلة: أخرجوني من هذا المكان الملتهب إنّني أخاف من الوجود هنا.. أخرجوني فوراً.

وهنا أمسكت بالسيدة وأجلستها على الكرسي المخصص للعلاج وسألتها من أنت بحق الله؟

أجابت: أنا ماكسموس.

قلت له: يعني أنت جنّي؟

أجاب: نعم أنا جنّي.

قلت: من أيّ الأنواع أنت؟

أجاب وما شأنك بذلك؟

---

(١) - مهزوماً.

(٢) - ص ٩٧ - ١٠١، ويذكر المؤلف أن هذه الحالة المرضية نُشرت في جريدة شباب الأحرار نشرها الأستاذ شاذلي عبد العاطي.

قلت له: وماذا تسبب لهذه السيدة من أمراض؟

أجاب: لم أسبب لها أي مرض مطلقاً؟

قلت: والعقم.. الذي تعاني منه ألا ترى أنّك السبب في ذلك؟

أجاب: نعم.. ولكن ما قصدت أن أسبب لها العقم ولكن كل ما في الأمر أنّني أسكن في رحمها وأقوم بامتصاص الحيوانات المنوية الموجودة بداخله لأنّك كما تعلم هذا غذاؤنا[1] ولكني لم أسبب لها أي مرض.

قلت له: ألا ترى أنّ هذه العملية التي تقوم بها تؤذيها؟

قال: لا.. أنا لا أؤذيها ولكنّي أحب أن أعيش بمفردي في هذا المكان.

قلت له: اخرج طاعة لله.

أجاب: نعم سأخرج ولكن لا أريد أن أسمع القرآن.

قلت له: أخرج بدون مقاومة إلى حال سبيلك وفعلاً بعد برهة قليلة رجعت السيدة إلى ما كانت عليه وقلت لها أن الجان الحمد لله خرج من الرحم بدون مقاومة ولك أن تأتي بعد فترة لكي أطمئن على خروجه وفعلاً جاءت السيدة بعد ثلاثة أشهر وهي تحمل جنينها وتقول الحمد لله لقد شفيت من حالة العقم التي كانت تلازمني لأكثر من خمس سنوات»[2].

الجنّية مرجانة المتسببة بحالة صرع:

وفي زعمه لعلاج حالة صرع لفتاة لم ينفعها الطب كما يقول يروي الشيخ طارد الجن الحوار التالي مع جنّية اسمها مرجانة فيقول:

«سألت الفتاة: ما اسمك؟

الفتاة: اسمي مرجانة.

وما هي جنسيتك؟

أجابت: أنا من بني الجن.

قلت: وماذا تفعلين بجسد المريضة؟

أجابت: أسبب لها حالة صرع وتشنجات منذ فترة طويلة.

- ولماذا دخلت هذا الجسد؟

- هي التي وقعت علي فأنا حملتها ومنذ هذه اللحظة فأنا متلبسة بالجسد.

- ولكن ألا تعرفين أنّ تلبسك يا مرجانة بجسد الإنسان يؤذيه؟

---

(١) - تشخيص للعقم لايخطر على بال طبيب. وغذاء للجن جديد غير الروث والعظام والغازات كما مرّ معنا من المصادر المذكورة في مكانها!

(٢) - ص ١٠٢ - ١٠٣.

ـ أنا لا أؤذيها ولكنّي أحميها من أن يمسّها جن آخر يحبها ويتربص لها واسمه «هورشل» فأنا حامية لها من هذا الجن.

قلت لها: اخرجي يا مرجانة وأنا قادر على أن أحميها بالقرآن الكريم.

قالت: لا لن أخرج ولن أترك الجسد.

قلت لها: ولكني سوف أحرقك بالقرآن الكريم.

مرجانة: لا لن أخرج لن أخرج وأنا مصرة على ذلك.

(واستمريت) في أسئلتي للمريضة أقصد للجنّية مرجانة وهي تجيبني ودهشتُ من أمرها ففوجئت بها تعرف اسمي دون أن تراني قبل ذلك أو أعرفها[1] وكذلك اسم والدتي وجدتي، كذلك استطاعت أن تذكر عملي وأين أعمل وكيف أتيت إلى هنا وماذا أكلت اليوم بل عرفتْ أنّني لم أتناول طعام الغذاء رغم أنّ الساعة تشير إلى العاشرة مساء[2] والعجيب أنّ هذه الجنية استطاعت أن تذكر لي كل ما كنت أفكر فيه خلال فترة تواجدي معها رغم أنّي كنت أفكر في أشياء مختلفة بعيدة عن عيادة العلاج إلّا أنّها عرفت كل ما كنت أفكر فيه.

سألتها: كيف (عرفتين) كل هذا؟

أجابت: أنها تسمع صوت هاتف يقول لها كل شيء عني[3].. ثم عاودت قراءة القرآن الكريم مرة أخرى وبدأت الفتاة تصرخ وانتفضت بشدة ثم فاقت وأخذت تنظر حولها مذهولة[4].

وهكذا يتابع الشيخ حواراته مع الجن في جلسات طرد الأرواح الشريرة التي تلبس الناس وتتلهى وتتلذذ بإشغالهم والسخرية منهم، فيذكر حالات إخراج الجن وطردهم من الكلاوي وفقرات عظام الظهر واللسان لفك الخرس والبطن والعضلات وتقريباً في كل مكان من جسد مريضاته اللاتي يأتينه راجيات العلاج عنده بعد أن عجز الطب عن علاجهن نهائياً على حد زعمه! كما وتجد في كتابه أنّه يخترع أسماء ملفقة كالتي مرت آنفاً وكذلك أسماء مثل صموئيل الذي يسبب التأتأة لطالبة في كلية الطب. و«فرونش» الجني الذي عمره ١٣٠٠ سنة والذي يسكن في بطن سيدة لمدة ١٤ سنة والذي حين سأله الشيخ:

«كيف دخلت جسم المريضة؟»

أجاب: «أنا لم أستطع دخول جسدها في البداية لمواظبتها على الصلاة وقراءة القرآن وبعد أن أنسيتها أذكار دخول الخلاء هجمتُ عليها ولبست جسدها».

---

(١) ـ ماهذا التخبط يا شيخ؟ ولِمَ لا تتحدث عن عشق الجنية لك بصراحة ودون خجل؟.

(٢) ـ من المعلوم أن دوام معالجتكم نهاراً فكيف بقيتم مع هذه الجنية حتى العاشرة مساء؟ أم أنكم تقولون ذلك لصالح التلفيقة المقصودة ونسيتم ما نسيتم؟

(٣) ـ أهو الوحي أم قلبها العاشق لكم يا فضيلة الشيخ؟

(٤) ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ويذكر المؤلف أن هذه الحالة نشرت في كتاب حوار مع الجن للأستاذ الصحفي أسامة الكرم.

ثم يتابع الشيخ فيقول أنّه دعا الجني فرونش إلى الإسلام وقال:

«ثم قمت بدعوته إلى الإسلام فرفض أول الأمر.

قال: أخبرني عن دينكم.

فقلت: ديننا هو دين الرحمة والعدل (والإضاء) والسماح وليس دين إيذاء كما تفعل بهذه الفتاة.

ثم (استمريت) في قراءتي للقرآن فصرخ الجن وقال سأخرج من جسدها وسأدخل الإسلام ونطق بالشهادة ثلاث مرات»[1].

الشيخ الشعراوي يطرد الجن فينوس:

وتحت عنوان: «الشيخ الشعراوي عالج بالقرآن» يقول الشيخ المؤلّف:

«لقد استجاب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي للدعوة التي وجهها إليه أحد الصحافيين بناء على طلب أحد المرضى المتلبس بجن يدعى «فينوس» والذي يسبب له العديد من الأمراض وفعلاً حضر الشاب ويدعى «أحمد» بصحبة الصحفي محمد دسوقي محمد بمجلة المجالس الكويتية إلى فضيلة الداعية الكبير محمد متولي الشعراوي. التفت الشيخ إلى الشاب وسأله:

من أنت؟

أجاب: فينوس ـ جان مسلم.

تقول أنت مسلم؟

نعم مسلم وأوّحد الله عزّ وجلّ.

ـ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده فهل تعتقد أنّك مع من تلبسه مبقٍ له على صلاحيته أم مفسد له حياته؟

أنا لم أفعل معه مثقال ذرة من شر.

ولكن كيف تقبل وأنت مسلم على الشر؟ ألا تقر أنّك مسلم عاصٍ؟

أنا لم أعص الله.. لا تفترِ عليّ بالعصيان أيها الشيخ.

ما وجه إفساد حياة من تلبسه؟

أنا لم أفسد عليه حياته مثقال ذرة؟

تعتقد أنّه في الحالة السوية الإنسانية؟

لا ليس في الحالة السوية.

أنت تقر بالمعصية وتصر عليها إذن؟

(١) ـ أرأيتم البطولة؟ لقد هدى الشيخ الجني إلى الإسلام فقبله ذاك بلحظات. راجع الصفحة ١١٣ ـ ١١٤.

لا لا يا أخي . . لا .

ومرت فترة من الصمت انهار بعدها الجان «فينوس» باكياً قائلاً للشيخ الشعراوي :

أرشدني إلى طريق الصلاح .

طريق الصلاح أن تظل في جنسيتك ولا (تتعدّ) حدودها . جنسيتك لها حدود وقانون خاص ، وجنسية من تلبسه لها قانون خاص فلا تخلط (قانون) بقانون وإلّا فقد أحلت خلقة الله عزّ وجلّ .

وعاد الصمت من جديد ، وقاطعه أحد الحاضرين متسائلاً :

هل تسمع يا فينوس؟

أجاب : أسمع وأتدبّر .

الشيخ : لك أن تتدبّر . ولكن ما هو هدفك من تلبّس جسد هذا الإنسان؟

هذا العبد كان قارئاً للقرآن بعد أن ينتهي من مذكراته في كل ليلة قبل الفجر ، ثم يصلّي الفجر وينام على بركة الله ، وكنت له سامعاً وأعجبت بهذا الصوت إعجاباً كبيراً وظللت أتردد عليه لأسمع القرآن وفي يوم من الأيّام بات غضباناً ولم يقرأ قرآن الفجر فاغتاظ قلبي ودخلت إليه حتى لا يفعل ذلك مرة أخرى .

وسأله الشيخ : أتركت له فرصة ليفعل؟

قال : لم أترك له ولكن دخلت عليه وهو لا يعلم بشيء من أمري .

الشيخ الشعراوي : التأديب له ليس هكذا . . التأديب له أن تترك له فرصة . . يا بني أقصر في الحديث وإلّا . . اخرج إن شئت طائعاً ، قبل أن تخرج مكرهاً ، والذي نفسي بيده لن أبرحك تقوم من هنا حتى تخرج منه ، وإن لم تخرج فسوف ينكّل الله بك إنّ الله لا يحب التدليس عليه . أيكون إعجابك به أنّه ورع يقرأ القرآن أن تفسد عليه حياته هكذا؟ أي إعجاب هذا؟ اخرج خير لك وإلّا فضح الله تلبيسك أمام الناس أجمعين .

ومرّت فترة صمت ثالثة . . جاء صوت الشاب الجالس أمامنا قائلاً : أنا أحمد . سأله أحدهم :

ـ وأين فينوس؟

فقال الشيخ الشعراوي إن شاء الله خرج إلى غير رجعة .

إما أن يلتزم أدبه ويكون مؤدباً ليتركه يقرأ ويستمع له ، أو أن نؤدبه نحن تأديباً . ولا يعتقد بكونه جنياً . . الله لم يعطنا قانوناً يضرب الجن على رأسه . . . »[1] .

وفي نهاية هذا الحوار يذكر مؤلف الكتاب أن هذا الحوار بين الشيخ الشعراوي والجني مأخوذ : «نقلاً عن مجلة المجالس الكويتية العدد (٩٧٤) ص ٦٣ ، ٦٤ تايخ ٤/٤/١٩٩٠»[2] .

---

(١) ـ هذا الحوار مأخوذ حرفياً من كتاب : «الفتح الرباني لعلاج المس الشيطاني بالقرآن الكريم» لمؤلفه الشيخ محمد سيد محمود في الصفحة ١٥٢ ـ ١٥٤ .

(٢) ـ راجع حاشية المرجع المذكور ص ١٥٥ .

وكذلك يجد القارىء في الصفحة ١٥٦ من الكتاب المذكور صورة لجانب من هذا الحوار منشوراً في المجلة المذكورة أدناه وصورة الشيخ الشعراوي يتحدث فيها إلى الشاب الممسوس.

وإنني وإن كنت أستبعد أن يتورط عالم مشهور مثل الشيخ الشعراوي في المشاركة في مثل هذه الجلسات، إلا أنني قد أوردت هذه الجلسة حرفياً عن الكتاب المذكور لأهمية بيان أن الأفّاكين والدجالين يحتاجون لتمرير إفكهم ودجلهم على الناس إلى آراء كبار العلماء الموافقة للزعم بالوجود الشبحي للجن، ولولا موافقة أو صمت كبار المشايخ عن ترويج هذا الزعم الباطل، لما تمكن هؤلاء (الأفاكين) من اصطياد أحد من الناس والمتاجرة بمصائبهم وآلامهم.

ونجد مثالاً على موافقة بعض السادة العلماء للزعم القائل بالوجود الشبحي للجن وإمكان تصورهم بأشكال الناس أو الحيوانات أو إيقاع أثر سحري مضلل على الناس وغير ذلك في كتاب بعنوان: «أنت تسأل والإسلام يجيب» للشيخ محمد متولي الشعراوي.

وفي هذا الكتاب، وتحت عنوان: «هل يمكن قتل الجن؟» نقرأ مايلي:

«سؤال: جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله غليه وسلم قال: «طلع لي الجن وأردت أن أربطه بسارية المسجد حتى يتفرج عليه صبيان المدينة».

وفي الصحيح أيضاً أن أبا هريرة رضي الله عنه قبض على جني كان يسرق من تمر الصدقة.

وجاء أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«لكل إنسان شيطان» فقالت عائشة رضي الله عنها: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال: «حتى أنا ولكن الله أعانني عليه فقتلته».

والذي نريد أن نعرفه: كيف يمكن القبض على الجني وهو من النار، ويمكنه التشكل والتخلص.. وإذا أمكن القبض عليه فكيف يمكن قتله في هذه الحالة؟

جواب الشيخ الشعراوي:

«إمكان القبض على الجني ثابت في السنة كما جاء في الحديث الشريف الوارد في السؤال.. وذلك لأنه مادام الجني قد تصور أو تشكل بغير صورته، فقد حكمته الصورة الجديدة وقيدته وحينما تحكمه الصورة الجديدة فقد أصبح حكمه حكم ما تصور به من إنسان أو حيوان أو غير ذلك من الصور. ولذلك يمكن القبض عليه كما يمكن القبض على الإنسان أو الحيوان وغيرهما.

ومن هنا كذلك يمكن قتله. . فلو تصور بصورة حمار أو كلب أو إنسان، ومعك مسدس أو آله حادة، فيمكنك قتله بها، فيموت على الفور[1]. وهذا هو الضمان الذي صنعه ربنا للإنس من الجن. وإلا كان الجن والشياطين أفزعوا الدنيا كلها. . حتى يجعلوا حياتنا كلها نكداً وفزعاً.

والجن يعرفون تماماً حين يتصورون بأي صورة غير صورتهم فإن الصورة الجديدة تحكمهم، وبدلاً من أن يخاف منه الإنسان ويجري يمكنه أن يهاجمه بالسلاح. . فحكم الصورة الجديدة على هذه الصورة رحمة من الله تعالى[2].

ولذلك سماه الله تعالى في القرآن (الخنّاس) أي أن من ينتبه له يجعله يهرب والذي يغفل عنه يظهر له ويخيفه[3].

وفي هذا دليل على سيادة الله وقيمومته العليا على الألوان فالعنصر لا يتحكم بصاحبه، وإنما يتحكم في العنصر خالق العنصر»[4].

وتحت عنوان:

«تسليط الجن على الناس» يردّ الشيخ الشعراوي على السؤال التالي:

«س: جاء في القرآن الكرم أن هاروت وماروت كانا يعلّمان الناس السحر، ويعلمانهم ما يفرّقون به بين المرء وزوجه. . فهل يمكن الآن تسخير الجن لايجاد حب بين زوجين. أو كراهية بينهما، أو ما يسمى بعقد الرجل عن زوجته فلا يمكن ممارسة الجنس معها؟».

وبدون أدنى تردد نجد الشيخ الشعراوي يسارع في الرد قائلاً:

«نعم. . كل هذا جائز. . لامانع من وجود السحر. ولامانع من تسخير الجن. . والحق سبحانه وتعالى يعطيْ بعض خلقه خصائص، وهذه الخصائص تسخّر له الجن[5]. فيجيء القادر على التشكل للمرأة الجميلة، ويتشكل بأقنعة صور قبيحة، ويصبح هو قناعاً قبيحاً على وجه المرأة الجميلة. فيكرهها الشخص المقصود، ويقول عنها: إنها كالقرد أمامه[6] وبالعكس، يتشكل بصورة قناع جميل، ويتلبس بوجه المرأة الدميمة أو العادية فيحبها الشخص، ويرى أنها ملكة جمال.

---

(١) ـ تصور أن تقتل إنساناً بمسدس أو سكين على أنه جني!.

(٢) ـ اعتقادك بإمكان تصور الجن في أي صورة يجعلك تضع احتمالاً أن يكون كثير ممن وما حولك جناً وشياطيناً.

(٣) ـ مارأيك بهذا التفسير؟

(٤) ـ راجع الصفحة ٣٢ من الكتاب المذكور.

(٥) ـ أهي مثل خصائص الشيخ مؤلف كتاب «الفتح الرباني لعلاج المس الشيطاني»؟.

(٦) ـ ياله من تحليل علمي مدروس ومتقن ومدعم بالبراهين والأسانيد الصحيحة الموثقة التي تلزم المرء بالإعتقاد بها.!

وهكذا في عقد الزوج على زوجته . . يلبسها متشكلاً بصورة تبعث على البرود الجنسي . . بل إنه يستطيع أن يتصور بصورة قطعة لحم تسد عضو التأنيث للمرأة، فيجيء زوجها ويقول: جئت ناحيتها فلم أجد لها كذا . . .

هذا كله ممكن مادام الجن يتشكل . . والمهمة هي في التمائم والكلمات التي نستعملها في تسخير الجن(١) . . وفي أن الله يعطي الأدنى خصائص الأعلى، والله من ورائهم محيط»(٢).

وبهذا الشكل نجد كبار علماء العالم الإسلامي المعاصرين والذين لهم الرأي النافذ في الناس والجماهير يؤكدون الوجود الشبحي للجن والشياطين وإمكانية تسخيرهم للسحر والأذى بالكلمات والتمائم التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل نجد من كلام الشيخ الشعراوي أنه يورد التمائم في المقام الأول كما هو واضح من ترتيب كلامه في المرجع المذكور رغم أنه قد لايعني ذلك.

ولقد مر معنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب رأي عدد من السادة العلماء والمشايخ الذين يؤكدون الوجود الشبحي للجن والشياطين، فمنهم من قال:

«الاعتقاد بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة . . . فمن أنكر وجودهم فقد خرج عن ملة الإسلام»(٣).

ومنهم من قال:

«إنكار الجن سخف يتقنع بألفاظ العلم» وأنه: لاينبغي أن يقع العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم أنه لايؤمن إلا بما يتفق مع «العلم»، فيمضي يتبجّح بأنه لايعتقد بوجود الملائكة أو الجن من أجل أنه لم يرهم ولم يحس بهم». و «ما من عاقل يحترم نفسه ثم يذهب هذا المذهب من الخلط والتهوّس». و «. . . السخف العجيب إنما يكمن عند من يزعم أنه مسلم يؤمن بالله ورسوله وكتابه، ثم يمضي يجادلك، أو يجادل القرآن بتعبير أصح(٤) في وجود الجن مثلاً. و «كما أن في الناس أشراراً دأبهم الكذب و التلاعب بعقول

---

(١) ـ لاأدري ماالذي يقصده الشيخ الشعراوي بالتمائم هنا، إذ أن التمائم هي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين بزعمهم. وجاء في الحديث «من علق تميمة فقد أشرك» راجع محيط المحيط مادة «تم». وهل في القرآن أو الحديث تمائم؟.

(٢) ـ راجع كتاب: «أنت تسأل والإسلام يجيب» ج ٢ للشيخ الشعراوي.

(٣) ـ راجع كتاب «مبادىء العقيدة الإسلامية» لمؤلفه الأستاذ الدكتور مصطفى سعيد الخن المدرّس في كلية الشريعة.

(٤) ـ أي أن من يجادل في وجود الجن يكون مسلماً بالزعم وليس في الحقيقة. وهذا يعني إخراجه خارج حظيرة الإسلام لمجرد مجادلته في هذا الأمر.

الناس، فإن الجن أيضاً كذلك. فمن أين لك أن الذي يناجيك أو يكتب لك جواب أسئلتك من قاع السلة ليس شيطاناً مريداً، جاء ليلبس عليك دينك ويلهو بمخادعتك ويتلذذ بالكذب عليك»[1].

ورغم أنه ليس بالإمكان في هذا المقام الإحاطة بكل ما جادت به قرائح بعض العلماء في تأييد ودعم الإعتقاد بالوجود الشبحي للجن والشياطين، مصداقاً لملاحظة الدكتور أحمد أمين في كتابه: «قاموس العادات والتقاليد والتعابيرالمصرية» حيث يقول:

«ويستغرب الزائر لدار الكتب من كثرة الكتب التي تحتويها في هذا الموضوع، وكثرة استعارة هذا النوع للمطالعة»[2].

إلا أن ما أوردنا من بيان حول سفك الأفاكين والدجالين لعقول الناس وكراماتهم وأموالهم يكفي، لكشف الكثير من الحقائق المنيرة المبصرة لمن أراد أن يتفكر في هذه التجارة المريعة والممارسات الضالّة المضلّة على ضوء نور آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد خاتم النبيين، فيدرك الحقيقة الصارخة لهذا السفك للعقول باسم الدين، وضرورة إنقاذ الناس من براثن غول الخرافة والخيال الذي ابتلع حتى الآن ما لايحصى من الضحايا البشرية على مدى الدهور والأزمنة، وقد آن الأوان لإنقاذ أنفسكم وأولادكم والأجيال القادمة بعدكم، من طحن هذا الفك المفترس، والخلاص من ضريبة الجهل. لأن المكابرة على الجرح النازف في أي مكان من الجسد لابد أن تزيده مع الزمان نزفاً حتى الموت. . . ثم الفناء يكون المصير.

---

(١) ـ راجع هذه المتقتظفات في كتاب الدكتور الأستاذ سعيد رمضان البوطي: «كبرى اليقينيات الكونية» بحث الجان. الطبعة الثامنة ص ٢٧٩ ـ ٢٨٥.

(٢) ـ سبق ذكر المرجع.

الفصل الثاني عشر . .

نـــداء مخلـــص

تعلمون أننا نعيش في زمان يشهد فيه فجر كل يوم جديد تقدماً علمياً وفكرياً وحضارياً جديداً للبشرية على أيدي العلماء والباحثين والمفكرين وأبناء أمم الأرض في مختلف بلادها وقارّاتها. وهكذا نجد كل يوم عطاء حضارياً جديداً في الطب والزراعة. والآداب والفنون والفلك وغير ذلك من جميع ميادين العلوم المختلفة وحقولها.

ونعلم أن أصحاب الفكر الإنساني الراقي يشجعون كل عطاء إنساني متميز من شأنه أن يرفع من مكانه الإنسان في الوطن والإنسان في الأرض بعطاء الخير الناتج عن إعمال الفكر الباحث المتفكر المتدبر والمتأمل في كل جانب من جوانب الكون والإنسان، بغية إنقاذه من ظلمات الجهالة وجحيمها المستعر الذي إذا استحكم قضى على الإنسان ليس في أرضه ووطنه فحسب بل في الأرض كلها والعالم أجمعه.

ذلّل إنسانُ عصرنا قطوفَ الأرض دانية له فهو يقطف ثمارها ناضجة وافرة في كل بقعة منها: سهولها ووديانها، جبالها وغاباتها وأنهارها، صحاريها وبحارها، وكذل ظهرها وباطنها. امتدت يده إلى كنوزها، وأستولد كل طاقاتها.

ولم تستطع الأرض أن تحدّه بحدودها فقفز طائراً إلى القمر وكواكب المجموعة الشمسية باحثاً فيها عن كنوزها المعرفية أو عن إمكانية وجود كنوز مادية غير تلك التي على كوكب الأرض ليُغني بذلك وجوده المتطلع أبداً إلى المزيد من القدرة والمزيد من العطاء آملاً ألا يوقفه شيء عند حد.

وإنساننا؟

هل كان له دور في رحلة العطاء الإنساني؟

وهل له الآن دور يذكر؟

نحن أبنـاء أمة تؤمن أنها تحمل رسالة الخير والسلام نوراً ساطعاً مبيناً، ليس لانساننا العربي والمسلم فحسب، بل إلى أبناء البشرية قاطبة.

يشهـد لنـا التـاريخ. . . والكتب المقدسة تشهد: أن أرضنا هي مهد النور والحضارة الإنسانية، وأن إنساننا هو الذي حمل للناس جميعاً شعلة الحرية والتحرير من ظلمات كل جهالة. . ومن نير كل عبودية واستبداد واستغلال.

ويشهد التاريخ لنا: أن أجدادنا قد تركوا لنا خيرَ إرثٍ وحمّلونا شرف مسؤولية نشر رسالة الخير والسلام على أجنحة العلم والعقل والفكر الإنساني المتطور مدى الدهر إلى الإنسان في كل أنحاء الأرض.

آمنّا، ولانزال نؤمن بهذا السعي المقدس لانساننا، وسيظل هذا الإيمان هو الروح التي نحيا بها ما حيينا. ولكن:

كما تموت جناتُ صاحبِ النهر الذي لايروي جناته بماء نهره، فكذلك يموت صاحب الإيمان الذي لايعمل بإيمانه.

نقول آمنّا برسالة إنساننا، بل ونشعر بعيون الإنسانية المعذبة في كل مكان ترنو إلينا آملة هاتفة أن:

يا أبناء الرسالة الخالدة. . هلموا إلينا. . . فقد أثقلتنا قيود الطاغوت. . وعفّرت أثقالُ الحضارة المادية الظالمة وجوهَنا بتراب الدم والبارود. وقد أجرى تجّارُ هذه الحضارة القاسية الخدرَ والضياع أفيوناً في شرايينا. . ووهّجاً نارياً في أدمغتنا. وأحالوا أطرافنا عجلات دوّارة تهيم في ضلال وعبث يلفّ بنا يلفّ ولايقف. . وجعلوا من عقولنا محركات آلية تدور بنبض النفط والـذرّة والكهـربـاء. ومدّوا في أعصابنا خرائط ومخططات لاتعرف شبكاتُها الشرهة للسيطرة والتوسع حدوداً.

هلموا إلينا يا أبناء رسالة الخير والسلام. تهتف بنا قلوب البشرية المكلومة في زمن الأنياب الذرية والمخالب النووية، ولكن بماذا نجيب؟

هل نقول لهم اهتفوا ونادوا حتى يقتلكم النداء؟

أم نقول لهم:

«لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادي»؟

أم نقول لهم: لاتَشْكوا لنا، نبكي لكم؟ إذْ في الزمن الذي تبحثون أنتم فيه بمجاهركم الفلكية وأقمارکم الصناعية وسفن الفضاء التي تطيروها إلى الكواكب والنجوم عن آفاق واسعة عالية للإنسان الجديد، فإن إنساننا مازال يبحث في فنجان القهوة و «مندل» الشيخ عن مصيره المجهول وضالته المفقودة؟

أم نقول لهم: في الوقت الذي تصنعون فيه أنتم لإنسانكم قمصاناً تردّ الرصاص ومركبات مصفحة تصد القنابل والبارود، وأردية واقية من الأشعة الذرية والأسلحة الكيمائية، فإن إنساننا مازال يقبّل يد الشيخ ليكتب له حجاباً ليحمله في ثيابه أو يشكله في ثنايا ثياب أبنائه وبناته لعلّه يقيهم بذلك شر العين والحسد ولَبْس الجن والشياطين أو خطفة المردة والعفاريت، وأذى القرين أو التابعة[1].

أم نقول لهم: في الوقت الذي تطوّرون أنتم فيه اختراع المبيدات الحشرية لانقاذ زراعاتكم ومحاصيلكم وأشجاركم من أذى الآفات والحشرات، فتحصلون بذلك على رزق وافر تأكلون منه، وتفتحون العالم به سوقاً لكم، وتسيطرون بقمحه وسكّره على سياسات وأقدار الدول الجائعة المتخلفة. . أو في الوقت الذي تصنعون عطوراً ورياحين معبأة في زجاجات تدخل كل البيوت وتُخرج بسهولة فائقة أموالَ الناس من جيوبهم إلى بنوككم وجيوبكم، أو في الوقت الذي تصنعون قنابل الغازات الخانقة والمسيلة للدموع كي تقمعوا بها إرادات الشعوب وانتفاضاتهم تكريساً لعبوديتهم وتبعيتهم لكم، فإن إنساننا مازال يحرق أعشاب العطار بروائحها المخرّشة بخوراً يتبخر به أو يبخّر زوجته وأولاده من شر أذى العين والجن والشياطين، وإن لم يكن هو يفعل ذلك فإن زوجته أو والدته أو أحداً من أهله يفعله سواء بعلمه أو دون دراية منه.

أم نقول لهم: أنتم تُغرقون العالم بطوفان كتبكم وأفكار مفكريكم وإذاعاتكم المسموعة والمرئية تصنعون بها عقول شعوب الأرض وقناعاتهم ومعتقداتهم، وأما إنساننا فمازال يُتّهم بالكفر والإلحاد والمروق من الدين إذا أنكر الإعتقاد بأشباح الجن والعفاريت، ويُحرّم عليه

---

(١) - يزعم البعض أن لكل مولود تابعة من الجن تترصد له الأذى، إلا إذا حمل حجاباً يكتبه له الشيخ.

التفكر أو التفكير أو حتى مناقشة ماورث من معتقدات مغلوطة صاغتها عقول أشياخهم الماضية، فيقولون له: إن سعيك للتفكر وإنكار مايعتقد به الأشياخ إنما هو سخف يتقنع به العقل بألفاظ العلم، وهو تجديف وتفلسف إلحاديّ كافر، وإنْ لم تَتُب وترجع إلى دين آبائنا وأجدادنا ومشايخنا فأنت مرتد مهدور الدم ويحق - لمن يشاء - قتلك بنفس راضية وضمير مرتاح؟[1] أم ماذا نقول ونقول؟

ليس هو اليأس من إنساننا، فقد أسلفنا إيماننا بقداسة الدَّوْر المقدَّر عليه إنجازه وبشرف الرسالة المؤتمن على أدائها وإيصالها إلى الناس جميعاً. بل هي همسة وجدانية ونداء من وعي العقل ويقين القلب أن نرتقي جميعاً متماسكين يداً بيد لإعلاء أمتنا بفكر العقل والمنطق الإنساني السليم إلى أعلى مراتب العمل الجاد القائم على أسس الواقع العلمي المدروس بكل دقة واختبار، وأن نترك لأجيالنا حرية التفكير والتفكر بملء عقولهم دون أن نفرض عليهم رقابات صارمة جامدة قد أبلاها صدأُ الإرثِ الزاحفِ فوق تراب عقولٍ لازالت مقسمةً أن تُرجع أمتَنا في تيار معكوسٍ أو منتكسٍ دأباً منها بعزيمةِ جلادٍ للعقلِ وللفكرِ وللحسِّ الإنساني، حتى لا يجرؤ إنسانٌ أو جيلٌ أن ينتقد الدأبَ الحالم بُغية تأسيس ممالك ظلماتِ الجهل المتربع سلطاناً فوق خرافاتِ الأجيال المنقرضة.

هذا زمنُ العقل الصاعد بالإنسان رُقياً نحو سماءٍ لاحدّ لها.. سعةً أو عمقاً..

هذا زمنُ الفكر الحاسم يقطعُ أيدي كلِّ لصوص النور.. وهذا زمن العملِ الدائبِ بالعقل وبالفكر إلى كلِّ بناء إنساني يصنع فيه الإنسانُ حضارتَه الموعودة يحياها خيراً وسلاماً ويورِّثها للأجيال القادمة عطاءً لاينفذ..

وهذا زمن خصب كي نزرعَ فيه بذورَ ترقّي الإنسانِ الأمة، حتى يغدو الوطنُ العالمُ جناتٍ دانيةِ القطفِ.. هذا إن لم تسمحْ فيه الأممُ ببذْرِ بذورِ هلاكِ الأجيال الهاتفة بنصرِ العقلِ.. ونصر العلمِ.. ونص الفكر.

لايكفي إعلانُ التغيير.. بل لابد من الجهد الدائب.. والعملِ المسؤولِ الواعي.. العمل المشتركِ بين الفرد وبين الأمة.. بُغية إنقاذ الإنسان الوطن من كل تخلّف.

---

(١) - راجع كتابنا «قتل المرتد الجريمة التي حرمها الإسلام».

هذا زمن الخصب الموعود فماذا أعددتم؟

نعلمُ أن الغرس الطيبَ يبعثُ بعد السُقيا أشجاراً . . تمتد ظلالاً يتفيأ فيها الناس . . وتأوي الأطيارُ إليها . .

أشجاراً تحملُ للدنيا أثماراً تملأ أرجاء الأرض حدائق بهجة . . فتروح الأبصار إليها هانئة بالخيرِ الآمن . . الخيرِ الطافحِ للكلّ .

وإذا ما بُذر الشوكُ بأرضٍ كانت طيبةً ، لكنْ ظلموها فبذروا الشوك بها . .

فهلْ إلا شوكاً يحصدُ زُرّاعُ الشوكِ؟

فلماذا ـ ووطنُنـا . . أمتُنا : أرضُ الله حباها بالطيبة كلَّ الطيبة ـ لانغرس فيها أشجاراً طيبة . . تنمو خيراً وسلاماً جناتٍ ألفافاً يحيا فيها أبناء الوطن الأمة؟ لماذا لانجعلُ بالعقل الواعي من بيت الوطن سماءً . . طيراً عملاقاً . . يأوي لجناحيه الإنسان الهاربُ من بطشةِ ظُلم الجهل الزاحفِ في الأرض . . نحو الإنسانِ . . بأسماءٍ فيها كلُ الأسماءِ . . ورايات فيها كل الرايات . . إلا رايات الحق؟

لماذا لاننْصر عقلَ الإنسان السّاعي أن يعلوَ بالإنسان سمواً فوق خيالات الوهمِ الشبحيِّ الجاثمِ صداً وخرافاتٍ قتّالة . . تَقتل في الأبناءِ العقلَ الباحثَ عن نور العلم الباني للآباء وللأجيال عماراتِ المجد النصرِ القادمِ وعداً لابد ـ بعون الله ـ يكون .

الباني في الإنسانِ الإنسانَ . . وفي الوطنِ الوطنَ . . والباني في العقلِ العقلَ وكلَّ بطولاتِ الفكرِ الواعي : أنَّ عمارَ الأرضِ الوطنِ . . بيَدِ الإنسانِ يكون . . وأن شياطين الوهم وكل خُرافات الجهلِ البائدِ أضعفُ من أن تهدم بيتاً . . وطناً عمَّرهُ الإنسانُ بوعي الأبناء الواثق .

فلماذا نهدمُ بالجهلِ . . عماراتٍ عمّرها الآباء . يعمرها الأبناء . . بنور العلمِ الساطع من أرضِ الوطنِ . . سماء الأرض؟

لماذا؟

سؤال أخير:

تعلمون أن العقلاء يهزؤون من النعامة التي تسعى بكل سذاجة وغباء إلى دَفْنِ رأسها في التراب هرباً من سهام الصيادين وطلقاتهم القاتلة. ويضرب الباحثون والمتفكرون بهذا الهروب النعامي الغبي مثلاً يبيّنون من خلاله، أن الهلاك المحتّم لابد أن يكون مصير الإنسان النعامي... أي الإنسان الذي يحلّ مشاكله الجادّة والخطيرة بإغماض العينين هرباً منها، فيكون مصيره مصير كل هدف ثابت لقذيفة محققة الإصابة.

تعالوا نتفكر بالنتيجة الحتمية المترتبة على المجتمع أو الأمة النعامية التي تحل مشاكلها بأسلوب نعامي، ونسأل أنفسنا:

ماذا عساه يحل بالمجتمع الذي يدفن رأسه في التراب هرباً من قذائف صياديه؟

وماذا يحل بأهداف الأمة ورسالتها إذا ماسعت هروباً إلى حل بلاياها ومصائبها بأسلوب النعامة؟

وماذا عساه يكون مصير أجيالكم إذا ما تركتموهم الآن بين أنياب الوهم والخرافة والخيال وطَحْنِها الظالم البشع، في عصرٍ يطير فيه العلم بسرعة تسبق الزمن؟

ماذا عساه يحل بنا.. بكم..

بأولادنا.. أولادكم..

بالله عليكم،

أجيبوا!

محمد منير إدلبي

والحمـــد للّـه ربِّ العـالمـين

مواضيع الكتاب

الفصل الثاني: الإختلاف الكبير
من صفحة ٦٣ ـ ٨٤

وفيه البحوث التالية:

الإعتقاد الشبحي بالجن والشياطين يستلزم وجود تناقض واختلاف كثير في القرآن الكريم ـ الإشكال الأول: ينص القرآن الكريم على أن الإنسان وحده منوط بالتكليف والحساب والجزاء ـ الإشكال الثاني: يؤكد القرآن الكريم أن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا من جنس المرسل إليهم ـ الإشكال الثالث: محمد صلى الله عليه وسلم وحده الرسول إلى العالمين (الإنس والجن) ـ الإشكال الرابع: القرآن الكريم أحكام وهداية إلى الناس حصراً ـ الإشكال الخامس: يبين القرآن الكريم أن ثمة تلازماً ومعاشرة مستمرة بين الجن والإنس في التعامل والمعايشة والتبعية وغيرها من الصلات الواضحة في حين أن الواقع لا يبدي شيئاً من ذلك ـ الإشكال السادس: الناس وحدهم هم وقود النار، فكيف يدخلها الجن أيضاً؟ ـ الإشكال السابع: هل الجن مخلوقات خارقة القوى أم أنها غاية في الضعف؟ ـ الإشكال الثامن: لماذا لم ينصر الجن المؤمنون رسول الله وأصحابه في الذود عن دين الله؟.

الفصل الثالث:
دراسة تحقيقة في المعنى اللغوي للفظي الجن والشيطان
من صفحة ٨٥ ـ ٩٥

الفصل الرابع:
الشيطان الإمبراطور
من صفحة ٩٧ ـ ١٠٢

الفصل الخامس:
الشيطان الذليل
من صفحة ١٠٣ ـ ١٠٨

وفيه: عرش الشيطان ـ فندق الشيطان ـ حاذر أن تبصق لكي لا تُغرق الشيطان ـ الشيطان يستجدي اللقمة.

الفصل السادس

حقيقة مفهوم الجن والشياطين في بيان الحديث الشريف

من صفحة ١٠٩ ـ ١٢٧ وفيه :

شياطين الأظافر ـ مركب الشيطان ـ الشياطين الوباء ـ شياطين أول الليل ـ طعام الجن ـ لقمة الشيطان ـ شيطان الفم ـ وخز الجن ـ الجن الناس ـ الحرب مع الجن.

الفصل السابع

في بيان القرآن، الإسلام رسالة إلى الناس حصراً

من صفحة ١٢٩ ـ ١٤٥

القرآن الكريم كتاب أنزله الله إلى الناس فقط ـ محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الناس حصراً ـ الآيات والأمثال في القرآن الكريم إنما هي حصراً للناس ـ البيت والحج للناس حصراً ـ في القرآن الكريم يضرب الله تعالى الأمثال للناس حصراً ـ الخطاب في القرآن الكريم موجه إلى الناس حصراً ـ الحساب للناس فقط ـ مزيد من فيض البيان القرآني.

الفصل الثامن

حقيقة مفهوم الجن والشياطين في بيان القرآن الكريم

من صفحة ١٤٧ ـ ٢١٤

وفيه :

الجن في سورة الناس ـ جنس الناس وفئة الجن في سورة الناس ـ الجن في سورة الجن ـ نفر الجن ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ ـ معنى لمس الجن للسماء ـ الشهب الراصدة للجن ـ الكون المادي والكون الروحي في القرآن الكريم ـ السماء في المصطلح القرآني ـ في قوله تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ ـ في معنى قوله تعالى ﴿يجد له شهاباً رصداً﴾ ـ وقفة تأملية ـ قصة جن الملك سليمان عليه السلام ـ المعجزة وصفاتها وخصائصها ـ الهدهد ومنطق الطير ـ سليمان الملك والنملة ـ أعمال جن الملك سليمان ـ سليمان وعرش ملكة سبأ ـ الغاية

من استحضار ملكة سبأ إلى مملكة سليمان عليه السلام ـ قصة هاروت وماروت ـ حقيقة موت الملك سليمان.

الفصل التاسع

تفصيل الآيات في الجن والشياطين

من صفحة ٢١٥ ـ ٢٣٤ وفيه:

في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ـ في قوله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضه إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ ـ في قوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ ـ في قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن﴾ ـ بيان الآيات التي جاء فيها ذكر الشيطان ـ أعمال الشيطان ـ خطوات الشيطان ـ وسوسة الشيطان ـ تسويل الشيطان ـ أمر الشيطان بالسوء الفحشاء ـ صد الشيطان عن السبيل ـ كيد الشيطان ـ فتنة الشيطان ـ إغواء الشيطان ـ شيطان الغلاة ـ خلاصة القول في الشيطان.

الفصل العاشر

إبليـــس

من صفحة ٢٣٥ ـ ٣٢٤

وفيه البحوث التالية:

زمـان خلق السمـوات والأرض ـ خلق الإنسان أطوارا ـ العناصر التي خلق الله منها الإنسان ـ حقيقة تطور الإنسان في القرآن الكريم ـ إكتشافات العلماء تؤكدذ الحقيقة القرآنية في تطور الإنسان ـ إنسان نيان درتال ـ الإنسان العاقل ـ دارون ونظرية النشوء والإرتقاء ـ الأدلـة التي جعلت علماء العصر يتشبثون بصحة نظرية التطور العضوي ـ نظرية النشوء والإرتقاء عبر التاريخ وعند العلماء المسلمين ـ رأي الدكتور البوطي في النشوء والإرتقاء ـ رأي علماء الدين المسيحي في دارون ـ آدم الخليفة في الأرض ـ محمد صلى الله عليه وسلم هو الخليفـة الحق لله تعالى ـ عناصر خلق الإنسان في القرآن الكريم ـ في معنى قوله تعالى: ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ ـ معنى كلمة «آدم» ـ حقيقة معنى السجود لآدم ـ إبليس الذي أبى واستكبر ـ في معنى قوله تعالى: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ـ الشجرة

المحرمة وخطيئة آدم ـ الشجرة الشريعة ـ خروج آدم وزوجه من الجنة ـ رأي الشيخ محمد متولى الشعراوي في خطيئة آدم ـ وقفة تأملية مع آدم والتعليم الذي أنزل عليه ـ ملامح الشخصية الإبليسية وأدوارها ـ إبليس ـ الشيطان ـ فشل إبليس الذريع .

الفصل الحادي عشر

القرابين البشرية على مذابح تجار الخرافة والخيال

من صفحة ٣٢٥ ـ ٣٤٩

وفيه :

لائحة المشعوذين بالأمراض التي سببها تلبس الجن ـ الزعم بكيفية تلبس الجن ـ الزعم بطريقة العلاج من لبس الجن ـ محضر جلسة تحضير لجني اسمه رأفت يسكن جسم فتاة اسمها عبير ويسبب لها حالة شلل ـ جلسة تحضير جني تحت عنوان حالة عشق للإنسية ـ جني اسمه جرجس يساعد جني اسمه مرقص على حب فتاة في جسدها أيضاً ـ الجني الصليب الأحمر والجنية الشيخة فاطمة ـ الجن عباد القرون المحروقة والنار ـ الجني المتسبب بحال عقم ويتغذى على النطاف ـ الجنية مرجانة المتسببة بحالة صرع ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي يطرد الجن «فينوس» ـ رأي الشيخ الشعراوي في إمكانية قتل الجن المتشكل ـ رأي الشيخ الشعراوي في تسبب الجن بالحب والكراهية بين الناس والأزواج ـ رأي الشيخ الشعراوي في تسليط الجن على الناس .

الفصل الثاني عشر

نداء مخلص

صفحة ٣٥٠

هــذا الكتــاب

ان سفك العقــل باسم الدين ليس بــاقل خطورة على الجنس البشــري من سفك الــدم باسمــه .

إذ لاينمــو في ارض الخرافــة الا الــوهم والخيــال ، فتذوي طــاقة الانسان تموت ، ويموت معهــا المجتمــع المريض بهــا . وفي ارض العلــم والبحث والتفكر والاكتشاف ينمــو العقــل ويــزدهر الابــداع ، وتاتي قــوى الكون طــائعــة تخــدم الانسان في بيئته ومجتمعــه ، فيحيــا بنــور العلــم والعمل الواثــق الف حيــاة وحياة .

هذا الكتــاب هو الثاني من سلسلة « الاسلام الذي يجهلون » وهو دراسة تحليليــة موثقــة من القرآن الكريم والحديث الشريف تثبت بطلان الزعم القــائل بوجود اشباح وارواح خفيــة اسمها الجن والشياطــين .

ويجد القــارىء في هذا الكتــاب بيــان علمي جديد يتعلــق بحقيقة ما يسمى جن الملــك سليمــان والنملــة التي حادثتــه والهدهــد الذي أتــاه بالاخبــار من سبأ ، وحقيقــة مفهــوم احضار عرش الملكــة بلقيس ، وحقيقــة هــاروت ومــاروت ، وحقيقــة مفهــوم ابليس والشيطــان وجنــة آدم وشخصية آدم ، وحقيقــة خلــق الانســان وتطــوره كمــا ويجد تحليلا وكشفا مميزا للدجل المتعلق بما يسمى تحضير الجــن والارواح .

ويستطيع القــارىء العربي ان يفهــم الحقيقة الاسلاميــة الرائعة المتعلقة بهــذه المفاهيــم على ضوء بيــان القرآن الكريم والحديث الشريف ، فيطمئن قلبــه باذن الله تعــالى الى هــذا الفهم العلمي الصحيح .

قــال ربنــا عز وجــل :

« إن يتبعــون الا الظــن ، وان الظــن لايغني مــن الحــق شيئــا »

النجــم ٢٨

